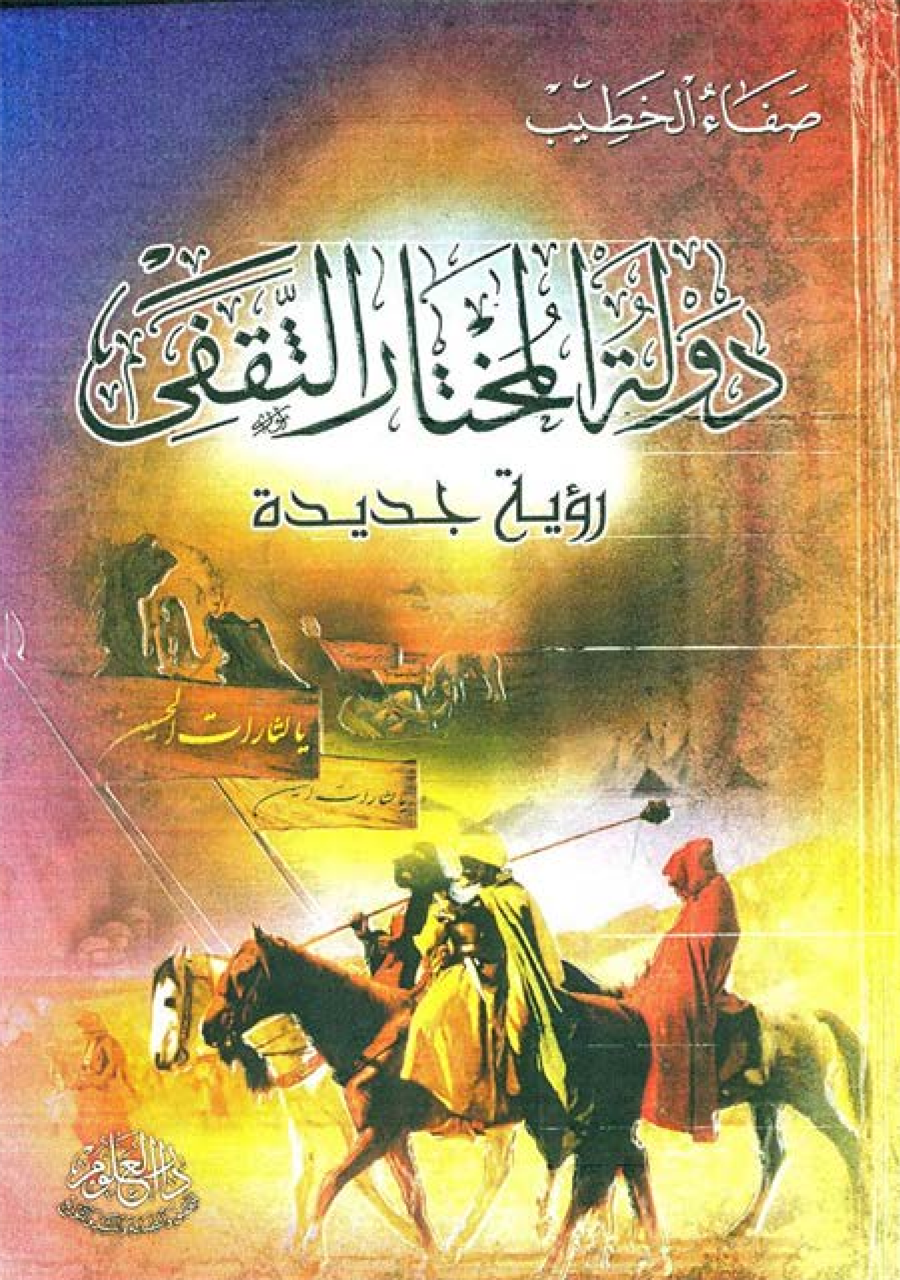


صفاء الخطيب
دولة المختار الثقفي
رؤية جديدة
يا لثارات الحسين
دار العلوم

دولة
المختار الثقفي

٦٦ - ٦٧هـ / ٦٨٥ - ٦٨٧ م

((رؤية جديدة))

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



المكتب : حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 13/6080 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

صفاء أحمد الخطيب

دولة المختار الثقفي

٦٦ ـ ٦٧هـ / ٦٨٥ ـ ٦٨٧ م

«رؤية جديدة»



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأمّا الزبد فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ [الرعد: ١٧]

صدق الله العلي العظيم

شكر

إلى كل من ساهم في إخراج هذه الدراسة إلى دائرة النور..

وإلى كل من شارك في التحقيق والتدقيق والتنضيد..

وإلى المسؤولين في مكتبة الحوزة العلمية الزينبية..

أتقدم بشكري الخالص لما قدموه، مما ساعد في تكامل هذه الدراسة..

وأخص بالذكر استاذي فضيلة الشيخ علي حيدر المؤيد، الذي كان لتشجيعه المستمر الدور الفعال في انجاز هذا البحث..

وكذلك المحقق القدير السيد طه محمد حسين ، الذي بذل مجهودا كبيرا في تهينة وتبويب المصادر ...

وأسأل الله أن يجزيهم عني بما هو أهل له.

المؤلف

إهـــداء

إلى أبي وأمي

ألذين أغضوا الطرف عن الكثير

وضحّوا بالكثير

من أجل أن يضعوا أقدامنا على الطريق الصحيح

وأثمرت جهودهم .. فكان هذا النتاج

إليكم أقدم هذا المجهود

على أمل القبول والرضا

صفاء

المقدمة

المتتبع للدراسات عن التأريخ وأعلامه يرى أن بعض آراء المفكرين والدارسين قد توقفت عند حدود معينة، لم يحاولوا تجاوزها في الغالب، والنتائج التي وصلوا إليها ربما تعتبر من المسلمات التي لا يمكن المساس بها.

وما هذه الحالة إلا نكسة حقيقية تمر بها المدرسة التاريخية وأساتذتها فإن باب إبداء الرأي النابع من الشاهد التاريخي والدليل العقلي يجب أن يبقى مفتوحاً، لتتكامل رؤيتنا عن ماضينا.. الذي هو الأرض التي نقف عليها.

فعند مراجعة التاريخ الإسلامي بشكل عام نجد أن هناك شخصيات كثيرة تعرضت للنقد والتجريح، وصارت هدف كُتّاب التاريخ قديماً وحديثاً. ولكن وعند المراجعة الدقيقة تتجلى لنا الكثير من الخفايا، ويظهر لنا بشكل واضح براءة أولئك مما نسب إليهم من البهتان، بل قد تظهر صفحات ناصعة من حياتهم كانت مدفونة تحت ركام الاتهام.

ويظهر هذا بشكل جلي في أتباع أهل البيت ﷺ ومناصريهم، والرجال الذين وقفوا دفاعاً عن الحقيقة والحق المهدور، من أمثال محمد بن الحنفية والمختار الثقفي وزيد بن علي ومحمد ذي النفس الزكية وابن العلقمي وغيرهم.

وفي مقابل هذا نجد الأضواء تسلط على بعض من كان لهم الدور الأكبر في هدم الإسلام وتحريف مناهجه، كمعاوية وعمرو بن العاص والحجاج وهارون الرشيد والمتوكل وصلاح الدين وأمثالهم. ويأخذ بعض المؤرخين على عاتقه تلميع هذه الوجوه وتزينها لتبدوا للقارىء بلا خدوش، بل يصوّرونهم وكأنهم حاملوا لواء الإسلام والمدافعون عن الحق والحقيقة، وهم من هذه الصفات الحسنة براء. كما أن أولئك الصالحين أبرياء من السوء الذي ألصق بهم.

ولعلك إذا سلطت الأضواء الساطعة على ذلك، وأزلت الغبار الثقيل عن الخفايا ستجد الحقيقة ماثلة. والمختار الثقفي ـ الذي هو موضوع البحث ـ من أولئك الذين أثقل صورته غبار الزمن والحقد، فأخرجه إلينا بعض المؤرخين مشوّه الصورة.. مخدوش العقيدة.. سيء النية.

ولكن ماذا تحت هذا الركام؟ وما هي الصورة الحقيقية لهذا الزعيم الذي أوجد تغييراً كبيراً في خارطة العالم الإسلامي، وتغييراً عظيماً في نفوس المسلمين؟

وما هي الدوافع التي أثارت فيّ الرغبة في استجلاء حقيقة هذه الشخصية.. اللغز؟

فقبل سنوات مديدة، وأنا أحضر مجالس الوعظ والإرشاد، وكنت أستمع إلى أحاديث الخطباء، التي كانت خطبهم تمثل لوحة تشكيلية رائعة عن مفاهيم الدين الإسلامي الحنيف.. في التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والحرب والسلم، وغيرها من ركائز الدين والحياة.

وهؤلاء الخطباء يتعرضون دائماً للنهضة الحسينية في ضمن محاضراتهم، باعتبار أنها محور الإسلام وقطب رحاه، فهم يناقشون هذه النهضة باسهاب ويسبرون أغوارها ويتتبعون آثارها على العالم الإسلامي، ويشيرون إلى نتائجها القريبة والبعيدة.

فنهضة الحسين عليه السلام أسست لحركة نهضوية قوية دخلت التاريخ الإسلامي وغيرت الكثير من معادلاته، التي لولاها لكانت ثابتة لا تتغير.

فارخاص الحسين عليه السلام لروحه وأرواح أصحابه وأهل بيته دفاعاً عن الشريعة المحمدية الأصيلة، كان له الدور الكبير في ايقاظ الكثيرين من السبات الدائم الذي أسدله عليهم سلاطين الجور والطغيان.

وهبّ هؤلاء مطالبين بحقوقهم المهدورة وأعلنوا العصيان والخروج عن طاعة الجائرين، مما أقضّ مضاجع أولئك وأسهر عيونهم، بعد أن كانوا ينامون رغداً.

وكان من أولئك الأبطال الذين تأثروا بواقعة كربلاء، وصمم على النهوض دفاعاً عن أحلام الضعفاء واسترجاعاً لحقوقهم المسلوبة المختار بين أبي عبيد الثقفي.

فالحديث عن المختار ونهضته مما يتعرض لذكره الخطباء باعتبارها أهم ثمرة نتجت عن نهضة الحسين ﷺ بعد سنوات ليست بالكثيرة، وقامت بالاقتصاص من جُناة مجزرة عاشوراء بعد أن كانوا يسيرون مطمئنين في أزقة الكوفة وأحيائها.

ولكن الشيء الذي أثار استغرابي هو تسقيط البعض لشخصية المختار من الناحية الدينية ويذكرون أنه من أهل النار!

فهم بقدر ما يمجدون نهضة المختار ينتقضون دين الرجل، ويعتبرونه انتهازياً ساقط الإيمان.. لا يخرج من نار جهنم إلا بشفاعة الحسين ﷺ بعد فترة طويلة من العذاب الأليم.

والروايات المنقولة في شخص المختار لا تخلو من تضارب، فهي تارة تمدحه وأخرى تذمه.. فهو مرة كاذب انتهازي وأخرى مشكور ممدوح!

وبين هذا التضاد بقيت الحقيقة خافية، ولم أجد ما يشفي الغليل سواء في الحديث المسموع أو المقروء.

وصممت عندها أن أمخر هذا الطريق الضبابي، لأستوضح حقيقة الأمر وأستبيْن حال المختار وحال نهضته، وهل النهج الذي سار عليه كان طبق نهج الإسلام الصحيح أم خلاف ذلك؟ وهل عقيدته تطابق العقيدة الحق أم هي شيء آخر؟

والذي توصلت إليه خلال البحث والتمحيص هو ما أشاد به علمائنا الأجلاء، من توثيق الرجل وتوثيق نهضته العادلة التي سلكت نهج الإسلام الحنيف.

وقد اعتمدت في انجاز هذه الدراسة على أمهات المصادر التاريخية الكبرى التي تؤرخ القرن الأول الهجري، واعتمدت أيضاً على آراء علماء الرجال لدراسة أحوال بعض الرجال وثيقي الصلة بالمختار ونهضته. ولم أستغن عن الرأي الفقهي، ليتبين لنا مدى ارتباط بعض الخطوات التي أقدم عليها المختار ورجاله بالشريعة الإسلامية.

وقد حصلت على عدة مؤلفات كتبت عن المختار الثقفي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، كانت بغاية الأهمية، وفاتني العثور على الكثير من الدراسات التي قام بها

السلف من علمائنا الأجلاء، وقد بحثت عنها فلم أوفق للحصول عليها، ولعل الله يوقفنا في المستقبل للعثور عليها والاستفادة منها.

وفي هذه الدراسة المقدمة بين أيديكم قد حاولت قدر المستطاع أن أربط بين الأمور والأحداث، وأن لا أصل إلى نتائج خاطئة منطقياً وفكرياً، ولكن «الجواد قد يكبو والسيف قد ينبو» كما يقال

وقد تحصل عند القارىء الكريم بعض الملاحظات الهامة على هذه الدراسة عند مطالعته لها، وأنا يسعدني جداً أن يبدي لي هذه الملاحظات ويتقدم بانتقاده البناء، فهذا هو السبيل الأنجع نحو تكامل الأفكار والدراسات. فالانتقاد الصحيح يقودنا إلى الصحيح دائماً وأبداً.

وآمل أن أكون قد أوصلت الحقيقة إلى القراء الكرام وأرجو بذلك من الله القبول، ومن أهل البيت ﷺ المباركة في هذا الجهد المتواضع، ليكون ذخري يوم لا ينفع مال ولا بنون.

صفاء الخطيب

السيدة زينب ﷺ. دمشق

١/شباط/٢٠٠٠م

٢٥/شوال/١٤٢٠هـ

توطئــة

قد قامت كثير من الثورات الشيعية في التاريخ وبعضها قد نجحت في أخذ زمام الحكم،مثل الفاطميين في مصر والبويهيين في العراق،وكذلك حكم الشيعة في أندونيسيا قرابة ٣٠٠ عام،وكذلك الدولة الحمدانية في حلب وغيرها ، وهناك الكثير من الثورات الشيعية التي قامت ضد الحكم الظالم في زمانها لم تنجح في السيطرة على الحكم لعدة أسباب منها :

١ ـ كون ثوراتها تقوم على أساس الانتقام من الظَلَمة فحسب ، فهي لا تفكر في السيطرة على الحكم لأجراء الحكم الإلهي على الأرض.

٢ ـ وإذا قامت الثورة لكي تسيطر على الحكم فإنها لا تفكر بما بعد الثورة وبعد إسقاط الحكم الجائر وفي كيفية إدارة الأمور ، وأكثر هذه الثورات فاشلة إلا قليلاً منها .

٣ ـ عدم بناء كوادر قيادية وإدارية وعدم وضع خطة مدروسة كي تحكم البلاد بعد الثورة ، وهذا يسبب فشل الحكومة في إدارة البلاد وينتج عن هذين البندين الأخيرين خروج السلطة من أيدي الثوار إلى أيدي أشخاص غير مرغوب فيهم اجتماعياً ودينياً .

فمثال الأول ثورة التوابين التي قامت على أساس الانتقام من الأمويين الذين انتهكوا حرمة أهل البيت بقتلهم الإمام الحسين عليه السلام وثمانية عشر من خيرة الطالبين وأنصارهم وسبي حريمهم ، فلم يكن الحكم إلا آخر ما يفكّر فيه زعمائها .

وأما مثال الثاني والثالث فهي ثورة العشيرين التي قامت لكي تسيطر على الحكم ولكنها فشلت بعد أن أخضعت الإنكليز لمطالبهم ، لهذين السببين وسبب آخر هو

عدم تطلّع الثوار لمفهوم القيادة الإسلامية الشيعية، فسببت هذه البنود الثلاثة تحول السلطة عن أيدي الشيعة الذي كان وشيكاً أن تقع تحت قبضتهم إلى أيدي الملك فيصل الذي كان عميلاً للاستعمار .

أما الثورات الشيعية التي نجحت في الأخذ بزمام الأمور فهي كانت قد خططت لما بعد انتصار الثورة، من بناء كوادر متمكنة من قيادة البلاد . . . ومن هذه الثورات كانت ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي رضي الله عنه التي نجحت في السيطرة على الحكم وإدارة البلاد الإسلامية من الكوفة (العاصمة).

وهذه الثورة كان قد خطط لها من قبل نشوبها بعدة سنوات، ونجحت نجاحاً باهراً أرعب قلوب الأمويين في الشام والزبيريين في الحجاز.

والأقوال قد تضاربت في بيان شخصية المختار الفريدة من نوعها في ذلك الزمن، فقد وُصفَت بالكذب ونُسب إليها مذهب الكيسانية وغير من الأوصاف التي لا تليق بهذه الشخصية الخيّرة التي جاهدت في سبيل إرجاع الحق إلى أهل البيت ﷺ والأخذ بثأرهم، وقد سُجنَت عدة مرات في سبيل ذلك.

وفي هذا الكتاب حاولنا أن ندرس شخصية المختار وثورته العملاقة بشيء من التفصيل لكي تكون لنا مناراً نستفيد منه في السير على درب البناء المملوء بالمخاطر التي لولا الانتباه لها فإن المجهود يتحول لقمة سائغة في فم المصلحيين والساقطين وغيرهم من الفئات التي تسير على الخط المخالف للدين الإسلامي، وتجلب الويْلات والمشاكل للمسلمين، آملين بذلك تبيين النقاط الرئيسية للثورة وتوضح ما خفي منها.

ومن الضروري هنا أن نشير بصورة مختصرة إلى مكانة المختار ودوره على الأرض في تلك الحقبة من القرن الأول الهجري ، قبل الخوض في تفاصيل شخصيته ونهضته.

المختار بن أبي عبيد الثقفي من ألْمع الشخصيات الشيعية في التاريخ الإسلامي، الذي لعب في التاريخ الشيعي دوراً بارزاً ، وقد غير مجرى الحياة الثورية بعد ذلك.

فهو الذي انتقم لآل البيت وقتل قتلتهم وأخرجهم من جحورهم وأجرى عليهم القصاص العادل بعد أن كانوا يسرحون ويمرحون في هذه الدنيا تحت ظل الحكم الأموي والزبيري. وبذلك شفى غليل أهل البيت ﷺ، وأرسل إليهم الأموال على العُسره، وفكّ الحصار عن محمد بن الحنفية بن الإمام أمير المؤمنين مع مجموعة من الطالبيين الذين صمدوا في وجه بن الزبير.. الذي كان قد جمع لهم الحطب لكي يحرقهم أحياء لعدم إقرارهم له بالخلافة.

وهو الذي قامت على يده أول حكومة شيعية بعد حكومة الإمام علي أمير المؤمنين وحكومة الإمام الحسن ﷺ.. التي أرجعت الأمل للشيعة على كونهم قادرين على استلام الحكم بعد حكومة الإمام الحسن ﷺ. وغيْرها من الأمور التي سوف نعرج عليها فيما بعد.

وهو كان من المرضين عند الإمام الحسين ﷺ وكان من خُلّص الشيعة ، فإن الإمام الحسين عندما أرسل رسوله « مسلم بن عقيل » إلى الكوفة كان أول منزل نزله هو منزل المختار.

والمختار كان شريفاً في قومه.. كريماً عالي الهمة مقداماً مجرباً.. قوي النفس شديداً على أعداء أهل البيت ﷺ له عقل وافر ورأي مصيب خصوصاً بقواعد الحرب والغلبة على العدو كأنه مارس التجارب فحنكته، أو لابس الخُطوبَ فهذّبته.. انقطع إلى آل الرسول الأقدس فاستفاد منهم أدَباً جَمّاً وأخلاقاً فاضلةً وناصح لهم في السر والعلانية[١] ، فكان من أبرز الشخصيات القيادية لثورة مسلم.

---

(١) مقتل الحسين (المقرم) ص١٤٧.

الفصل الأول

المختار الثقفي

أسرة المختار ونشأته

نشأ المختار في أسرة عريقة، فوالده: أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عُمير بن عوف، بن عُقده بن غِيَرَه بن عوف بن قسي ـ وهو ثقيف ـ بن مُنَبِّه بن بكر بن هوازن[١] وأمه: دَوْمَة بنت عمرو بن وهب بن معتِّب[٢]، وكانت من ربّات الفصاحة والبلاغة والرأي والعقل[٣].

ولما حملت بالمختار قالت: رأيت في النوم قائلاً يقول:

أبشري بالولدْ أشْبَهُ شَيْء بالأَسَدْ

إذا الرِّجالُ في كَبَدْ تقاتلوا على بَلَدْ

كان له الحظ الأشَدْ

وكان مولد المختار في عام الهجرة[٤] ٦٢٢م في الطائف[٥].

وأما والد المختار، فقد اعتنق الإسلام، وأخلص له، وأصبح من أبرز المجاهدين في سبيل نشره، فكان قائداً من قواد الجيوش الإسلامية، التي توجهت لفتح العراق في مطلع خلافة عمر بن الخطاب، ومات في ساحة القتال شهيداً من أجل رفعة شأن الإسلام[٦].

---

(١) جمهرة أنساب العرب ج١ ص٢٦٨، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٥، وفي كتاب الأنساب (للسمعاني) ج١ ص٥٠٨ يوصل النسب إلى «مُضَر».

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٥.

(٣) أعلام النساء ج١ ص٤٢١.

(٤) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥٠، وانظر أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٥.

(٥) الخلافة الأموية ص٥٨.

(٦) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص١٦.

وكان المختار قد حضر وقعة قُسٍّ الناطف بصحبة أبيه ـ الذي كان قائد جيوش المسلمين فيها ـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان يتفلّت للقتال فيمنعه سعد بن مسعود عمه ، فنشأ مقداماً شجاعاً ، لا يتقي شيئاً ، وتعاطى معالي الأمور[١] .

ويتحدث المؤرخون القدامى : أن دلائل النجابة بدت على المختار في حداثة سنّه[٢] .

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥٠ و « قسّ الناطف » : موقع قرب الكوفة شرق نهر الفرات ، دارت فيه الحرب بين المسلمين والفرس ، ويسمى أيضاً « يوم الجسر » .

(٢) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص١٩ .

زوجـاتـه وذريتـه

تزوج المختار العديد من النساء ، كان منهن « أم سلمة » بنت عبيد الله بن عمر بن الخطاب[١] ، و« أم ثابت » بنت سَمُرة بن جُنْدَب ، و« عَمْرَة » بنت النعمان بن بشير الأنصاري[٢] ، و« أم زيد الصغرى » بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل[٣] .

وذكروا له من الأولاد « جَبْراً » و « أبا أمية »[٤] ، و« الحكم »[٥] ، و« إسحاق » و « محمد » من زوجته أم ثابت ، وعقبه بالكوفة كثير[٦] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ج١ ص٢٦٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١١٢ ، مروج الذهب ج٣ ص١٠٧ .

(٣) الطبقات الكبرى ج٣ ص٣٨٢ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ج١ ص٢٦٨ .

(٥) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٣ ـ معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٥ .

(٦) المعارف ص١٧٦ .

مكانته الإجتماعية

كان المختار ذا مكانة اجتماعية راقية، و ذا شخصية قوية. وعلى حد قول ابن عبد البر: «كان معدوداً من أهل الفضل والخير». ويقول أيضاً: «المختار معدود في أهل الفضل والدين»[١].

وعندما ألقى زياد بن أبيه والي الكوفة من قبل معاوية عام ٥١ هجرية ـ القبض على أربعة عشر من وجوه الشيعة في الكوفة على رأسهم شيخ الشيعة آنذاك حجر بن عدي الكندي ، وطلب من وجوه الكوفة الشهادة ضدهم على أنهم خلعوا الخليفة ، وفارقوا الجماعة ، ودعوا إلى الحرب ، وكفروا بالله ، لم يتخلف أحد عن الشهادة إلا عدة رجال ، كان ضمنهم المختار ، فقد هرب المختار ولم يؤد الشهادة الباطلة ، التي بسببها سُفكت دماء عدة من أولئك الأبرار ، وكان زياد قد طلب منه الادلاء بالشهادة لكنه راوغ وتخلص ولم يشهد [٢] .

ولم يتعرّض زياد له بأذى[٣] لمكانته الاجتماعية ، وقد كان من الأمراء عند مجيء مسلم بن عقيل سفير الحسين ، ونزوله في ضيافته[٤] .

---

(١) الاستيعاب (القسم الرابع) ص١٤٦٥ .

(٢) راجع تفصيل ذلك في أنساب الأشراف ج٥ ص٢٦٣ وما قبله ، وتاريخ الطبري ج٥ ص٢٧٠ وما قبله .

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٣٤ .

(٤) تاريخ من دفن في العراق من الصحابة ص٤٣٧ .

مكانته السياسية

ذكر المؤرخون أن أولى البوادر السياسية التي ظهرت من المختار ، كانت في عصر حكومة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد نهاية معركة « صفين » ، وقضية تحكيم الحكمين ، أي في أواخر عام ٣٨هـ تقريباً . فعندما خرجت مجموعة من الخوارج من الكوفة ، وحاذت المدائن ، ووصل الخبر إلى سعد بن مسعود الثقفي (عم المختار) عامل المدائن ، احكم تحصين المدائن ، وخرج في الخيل لمطاردة الخوارج ، استخلف بها ابن أخيه « المختار بن أبي عبيد »[١] .

فكانت هذه أولى بوادر المقدرة السياسية عند المختار ، والتي تدل على كفائته الإدارية والسياسية ، وإنه أهل للثقة .

يقول عنه الدكتور عادل زيتون : « كان المختار داهية طموحاً ، وجد في مواهبه وذكائه ما يؤهله بأن يحرز مركزاً مرموقاً . . »[٢] .

وللمختار الفضل في أنه أول من أدرك أن الموالي كانوا عنصراً سياسياً مهماً في المجتمع[٣] .

ومن مواقفه السياسية القوية عدم تأييد السلطة الأموية في اتهام حُجر وأصحابه بالمروق من الدين .

وفي آخر خلافة معاوية خرج إلى البصرة ، فأقام بها يظهر ذكر الحسين عليه السلام فأُخبر بذلك عبيدُ الله بن زياد (والي البصرة) ، فأخذه ، وجلده مائة ، وبعث به إلى

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٧٦ ، الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٣٧ .

(٢) تاريخ العرب والإسلام ص١٥٢ .

(٣) الخلافة الأموية ص٨٢ .

الطائف !(١) .

ناهيك عن دوره القوي في استضافة مسلم بن عقيل (سفير الحسين عليه السلام) في بيته في الكوفة ، وتجميعه الأنصار والمؤيدين لإسناد مسلم ، فكان سنداً قوياً لنهضة الإمام الحسين عليه السلام المرتقبة في العالم الإسلامي ـ كما يتبين معنا لاحقاً ـ

هذه الأدوار والمواقف تدل على مكانته السياسية المرموقة ، وكفائته الميدانية في هذا الحقل الخطير .

(١) تاريخ الإسلام (للذهبي) حوادث سنة ٦١هـ ـ ٨٠هـ ص ٦١ .

حالتـه الاقتصاديـة

كان المختار أحد الأثرياء في زمانه ، فهو يملك الكثير من الأموال والأراضي الزراعية والمماليك .

فقد كانت له قرية كاملة اسمها « لقفا » ، في منطقة « خُطَرْنِيَة »[١] ، ويساعده في زراعتها عدد كبير من الموالي[٢] .

ويتبين غناه أيضاً عند استهانته بنحر ألف بدنة لدى رتاج الكعبة ، فهو يقول : « . . وأما هَدْي ألف بَدَنة ، فهو أهون عليَّ من بصقه . . وما ثمنُ ألف بدنة فيهولني ! وأما عتق مماليكي ، فوالله لَوددتُ أنه استتبّ لي الأمر ، ثم لم أَملك مملوكاً أبداً »[٣] .

كما كان المختار كريماً . . يبذل المال بلا حساب ، فكان يغدق الصِّلاة والهدايا على رجاله وأنصاره . . . (بل) وأرضى بالمال خصومة قبل أنصاره[٤] . حتى عدوّه من الأمراء !

---

(١) خطرنية : ناحية من نواحي بابل العراق .

(٢) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٤٣ ، وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٥ ص٥٦٩ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٦ ، تاريخ الإسلام « للذهبي » ج حوادث سنة ٦١ هـ ـ ٨٠ هـ ص٦١ . وغيرها .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٩ . وانظر أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٢ ، مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٩٤ ، عوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٦٨٣ ، البداية والنهاية ج٨ ص٢٨٥ .

(٤) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٤٣ .

المختار وأهل البيت عليهم السلام

كان المختار قديم الصلة بأهل بيت رسول الله ﷺ منذ نعومة أظفاره ، فتربى عندهم ونشأ بينهم .

فإنه قد انتقل إلى المدينة مع أبيه ، في زمن عمر ، وتوجه أبوه إلى العراق ، فاستشهد يوم الجسر(١) ، وبقي المختار في المدينة ، منقطعاً إلى بني هاشم(٢) .

وقد وصف الدكتور سهيل زكار هذا الانقطاع ، وهذا الوسط الذي نشأ فيه المختار بقوله : « . . وهو وسط مشبع بالاخلاص والحب لعلي وأبنائه » ، ومن نتائج ذلك : « كان المختار مرتبطاً بالنشاط الشيعي منذ البدايات »(٣) .

وفي هذا الانقطاع إلى الأسرة النبوية استفاد المختار علوماً كثيرة وأدباً جمّاً ، وصقل نفسه ومواهبه ، فكان أهلاً للاعتماد عليه ، كأحد أوتاد التشيّع .

فقد توسم فيه الإمام علي عليه السلام منذ صباه الفطنة والذكاء ، فكان يجلسه على فخذه ويمسح رأسه ، ويقول له : « يا كيِّس . . يا كيِّس »(٤) .

ووصلت الثقة به حداً ، أنه كان يتردد على بيت فاطمة بنت علي بن أبي طالب ، ويخدمها ، ويتعلم منها الحديث ، فقد قال الإمام الباقر عليه السلام : « وأخبرني والله أبي

---

(١) يوم الجسر : معركة وقعت بين المسلمين والفرس ، قريباً من الكوفة ، على شاطىء الفرات الشرقي عام ١٣هـ ، وفيها أبدا أبو عبيد من الشجاعة والجرأة والإقدام ما زعزع به معنويات الفرس ، وبعد أن هجم على الفيل الأبيض الذي كان مع جيش الفرس ، وضرب خرطومه بالسيف ، ضربه الفيل برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه فأزهق روحه . راجع (أيام العرب في الإسلام) ص٢٣٠ .

(٢) الأعلام ج٨ ص٧٠ .

(٣) تاريخ العرب والإسلام ص١٤٨ .

(٤) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٥ ، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١ ، عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٤٩ ـ ٦٦٩ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٤ .

أنه (أي المختار) كان لَيَسْمُر (أي يتحدّث ليلاً) عند فاطمة بنت علي . . يمهدها الفراش ، ويثني لها الوسائد ، ومنها أصاب الحديث . . . »[١] .

واستمر تردده على بني هاشم يأخذ عنهم الأدب والعلم ، وبعد فترة من صلح الإمام الحسن بن علي عليهما السلام عاد من الكوفة إلى المدينة ، وكان يجالس محمد بن الحنفية ، ويأخذ عنه الأحاديث[٢] .

خلاصة القول : إن المختار كان شديد الصلة بأهل البيت عليهم السلام ، وكان يدخل بيوتهم ، ويخدمهم ، ويتعلم منهم ، وبقيت أواشج هذه الرابطة قوية ومتينة ، حتى اللحظات الأخيرة من حياته ، وكان خاتمة هذا الإخلاص الموقف البطولي والتضحية بنفسه في سبيل هذه المبادي ، التي تعلّمها من مدرستهم الربّانية .

---

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ج١ ص٣٤٠ ، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١ ، وفي بحار الأنوار ج٤٢ ص٩٢ وص ٩٤ أن علي بن أبي طالب عليه السلام زوّج ابنته فاطمة هذه من محمد بن عقيل بن أبي طالب وكان يكنى بـ(أبي سعيد) .

(٢) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٧١ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥٢ .

بيانه وعذوبة منطقه

تحدث المؤرخون عن فصاحة المختار وبلاغته وسجعه ، واطنبوا في ذلك ، فالمختار معروف ببلاغته وقوة بيانه ، وحسن أدائه لما يريد . وكان بذلك يسحر مستمعية ، ويملك قلوبهم ، ومن شدّة إنئخاذ البعض بعذوبه منطقة وصفه بالكهانة والنبوة ، وأمثالها من الإطراء المبالغ فيه .

ويقول عنه الشيخ الفاضل جعفر بن محمد بن نما : « وكان المختار ذا مقْوَل مشحوذ الغِرار . . مأمون العثار . . إن نثر سجع ، وإن نطق برَع . . . »[1] .

وقد وصفه الشعبي ، فقال : « . . وكان مفوَّهاً »[2] .

ويصف فصاحته الدكتور علي الخربوطلي ، فيقول : « . . وكان يستثير عواطف سامعيه ، فيبكيهم ، ويثير حماستهم ، ويستنهضهم للقتال »[3] .

وهكذا كان يهيمن على عقول سامعيه وعواطفهم ، وقد أعانته هذه الموهبة كثيراً في كسب الأنصار ، وتقوية صفوفه لبناء دولته المباركة وتشييد أركانها .

ويرى البعض من المحققين أن بعض الأسجاع التي نقلت عن لسانه هي من وضع الوُضّاع ، لأجل إرباك صورته وتسقيط شخصيته دينياً . فـ« خير الدين الزركلي » يرى فيها أنها من اختراع أصحاب القصص[4] ، وكذلك « محمد فريد وجدي » لا يشك من تقولات الناس عليه في نسبة السجع الفارغ إليه[5] .

فكان استفادة المختار من موهبته الخطابية لتدعيم أهدافه النبيلة ، التي حشد في سبيلها كل ما يقدر عليه من الإمكانات والطاقات .

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥٢ .

(٢) الأخبار الطوال ص٢٨٩ .

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٤٤ .

(٤) الأعلام ج٨ ص٧٠ .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين ج٨ ص٢٤٨ ، وراجع ص٤٩ من البحث .

الفصل الثاني

المختار ونهضة مسلم

المختار والثورة الحسينية

بروز المختار يبدأ من تاريخ ثورة الإمام الحسين عليه السلام[١]، عندما أرسل رسوله مسلم بن عقيل إلى الكوفة . .

لقد اختار مسلم النزول في بيت المختار دون غيره من زعماء الشيعة؛ وذلك لوثوقه بإخلاصه للإمام الحسين عليه السلام، وتفانيه في حبه، كما أن هناك عاملاً آخر له أهمية؛ فقد كان المختار زوجاً لعمرة بنت النعمان بن بشير حاكم الكوفة. ولا شك أن يده لن تمتد إلى مسلم طالما كان مقيماً في بيت صهره المختار، ولم تكن هذه الميزة لتغيب عن بال مسلم حينها.

وفتح المختار أبواب داره لمسلم، وقابله بمزيد من الحفاوة والتكريم، ودعا الشيعة إلى مقابلته فأقبلوا إليه من كل حدب وصوب، وهم يُظهرون له الولاء والطاعة[٢].

فبايعه كثير من الكوفيين، وقد اختلف المؤرخون في عدد من بايعه، فقد ذكروا :

(١) قام الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت الرسول الأعظم ـ عليهم سلام الله ـ بثورته الكبرى عندما حوّل معاوية الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض، يتوارثه الأبناء عن الآباء، وكان ابنه يزيد لا يتورع عن ارتكاب المحارم علناً وأمام الملأ، وقد وصلت إلى الإمام الحسين عليه السلام من أهل الكوفة آلاف التواقيع التي تدعوه إلى الانتفاض على الواقع المزري، وترى فيه المنقذ الوحيد لهم من المعانات التي يتكبّدونها، ويرى الإمام الحسين عليه السلام في ذلك قيام الحجة عليه بوجوب التحرك لانقاذ الإسلام من الهوّة السحيقة التي يؤخذ إليها عنوة. وليس بين المسلمين في ذلك العصر من يرتبط بالبيت النبوي، ويحمل الكمالات من العلم والحلم وحسن السيرة والإخلاص والورع غيره.
وفي المقابل خططت السلطة الأموية الحاكمة لاغتياله عدّة مرات، ونجا منها، فقرر التوجه نحو الكوفة حاضرة العراق، وقبل أن يسافر إلى هناك أرسل ابن عمه والثقة من أهل بيته إلى الكوفة ليستكشف الوضع عن قرب، ويرى جلية الحال، وحقيقة الاستغاثات، وهل هي غش وخداع أم واقع. فكان اختيار مسلم ابن عقيل بن أبي طالب لهذا المهمة، وكان أهلاً لذلك.

(٢) حياة الإمام الحسين (للقرشي) ج٢ ص٣٤٥ .

١) أربعون ألف(١) .

٢) ثلاثون ألف ومن بينهم حاكم الكوفة النعمان ابن بشير(٢) .

٣) ثمانية وعشرون ألف(٣) .

٤) ثمانية عشر ألف ، حسب ما جاء في رسالة مسلم إلى الحسين يقول فيها : « وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف فعجل الإقبال »(٤) .

هذا وقد عمّت الأفراح في الكوفة لمقدم الإمام الحسين لها ، لأنه سينقذهم من الحكم الأموي الطاغي الذي عاث في الأرض فساداً قرابة عقدين من الزمن ، وقتّل مُحبي أهل البيت ، ونكّل بهم على الظنة والتهمة ، وشطب أسمائهم من ديوان الأرزاق ، وصيّر شهادتهم مع الصفر سواء ، فعمّهم الخوف وأوقعهم في الفقر ، حتى وصلت بهم الحال إلى مرحلة إنْ قيل فلان على غير ملة الإسلام أو كافر أحب إليه من أن يقال عنه : شيعيٌ ، أو موالٍ لأهل البيت.

ومما شجع الكوفيين والشيعة على مواجهة الحكومة علناً وإعلان السخط عليها ورفضها ، والانحياز إلى جانب الثورة ورسول قائدها مسلم هو موقف النعمان ـ الوالي الأموي ـ الذي اتصف باللين والتسامح وعدم إعمال القسوة وحتى عدم التهيؤ لقمع الثورة إن نشبت ، مما أسخط بموقفه هذا الحزب الأموي وأفراده المؤيدين له ، وقد أنكروا عليه ذلك ولاموه على عدم قمع نواة الثورة التي يتزايد عدد أفرادها باستمرار ، فحرّضوه على ضرب الشيعة وقمعهم قبل أن تقوم قائمتهم ، فصعد المنبر ، وأعلن للرعية عن سياسته المتصفة باللين وعدم ممارسة الفتك ، فقال :

---

(١) شرح شافية أبي فراس ١/ ٩٠ من مصورات مكتبه الحكيم العامة ، مثير الأحزان لابن نما ص١١ .

(٢) مناقب الإمام علي ابن أبي طالب ﷺ ص١٣ وجاء فيها أن النعمان قال : « يا أهل الكوفة ، ابن بنت رسول الله ﷺ أحب إليكم من إلى بنت بجدل .

(٣) تاريخ أبي الفداء ج١ ص٣٠٠ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢٤

« أما بعد ، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيها تهلك الرجال وتسفك الدماء ، وتغصب الأموال . إني لم أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب علي ولا أُنبه نائمكم ، ولا أتحرش بكم ، ولا آخذ بالقرف (التهمة) ولا الظنه ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر ولامعين ، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل »[١] .

وهذا الخطاب يدل على حبه للعافية وعدم الركون إلى استعمال وسائل العنف مع علمه بكافة التحركات التي يقوم بها مسلم ، وعلمه بمواضع رؤوس الثورة وأسمائهم ، لأن كثرة من اختلف إلى مسلم جعلت مكانه مكشوفاً لكل من أراده[٢] .
وقد علق على هذا الخطاب أحد الكُتّاب ، فقال :

« ولنا من خُطبه ـ أي خطب النعمان ـ في الكوفة برهان آخر على أنه كان يرى الفتنة يقظى ، ولابد أن تشتعل ، وأنه لن يهاجم القائمين بها قبل أن يهاجموه ، فجعل لأنصارها ـ أي أنصار الثورة ـ قوة وطيدة الأركان ، ويداً فعالة في ترتيب المؤامرات وتنظيمها على الأسس المتينة »[٣] .

وأغضبت سياسة النعمان الحزب الأموي الحاكم وعملائه ، فانبرى إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي حليف بني أمية ، معارضاً خُطة النعمان في مجابهة الثورة قائلاً « إنه لا يصلح ما ترى إلاّ الغشم ـ أي الظلم ـ إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك هو رأي المستضعفين ! » .

هذا هو رأي بني أمية في السيطرة على الأوضاع وهو القصاص قبل الجريمة وإن

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢ .
(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢ .
(٣) الدولة الأموية في الشام ص٤١ .

كان المجرم ـ كما يحب الطغاة أن يُسَمّوه ـ مُحقّاً ، وهذا القانون يُنَفَّذ في كل زمان ومكان فيما إذا فكّر الشعب المضطهد أن يثأر من الحكام الجائرين الطغاة الذين طالما امتصوا دماء المحرومين وحولوهم إلى عبيد قنّ لهم ، ولكن الله يمهل ولا يُهمل .

فدافع النعمان عن نفسه وقال للحضرمي :

« لإن أكون ضعيفاً وأنا في طاعة الله أحب إلي من أن أكون قوياً في معصية الله ، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله » .

النعمان كان من المعادين لأهل البيت ، قد شارك في حربي الجمل وصفين ، وترأس بعض الهجمات على حدود بلاد الإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ﷺ . هذا الرجل الذي يبغض أهل البيت وبالأخص علي بن أبي طالب الذي حُبُّه إيمان وبغضه كفر ونفاق كما وصفه الرسول ﷺ ـ يتكلم بكلمات تزخر بالإيمان والتقوى والأخلاق الطيّبة ! أنّى يكون ذاك وقد واجه وصي رسول الله بالسيف وسبَّه وشتمه على المنابر والمآذن . والآن يرى بأم عينيه مسلم سفير الحسين ابن علي بن أبي طالب يُحشِّد القوى والطاقات ويجمع الأفراد والمعدات ويهيئ الأوضاع للقيام بثورة عظيمة تقتلع الحكم الأموي من جذوره وتُنصِّب مكانه حكومة يقودها ويرأسها الحسين بن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ . . يرى كل هذا ويغضي طرْفه ولا ينبز ببنت شفة ؟ يتكلم بكلام الصلحاء وكأنه قد مُلِيء من قرنه إلى أخمص قدميه بنور الإيمان ؟ ما هذا إلا ضعف وانكسار أمام مد المطالبين بحقوقهم الذي كان آخذاً بالنمو والقوة وعلو الشأن . هذا هو دَيْدَنُ الحكام في الظهور بمظهر الإيمان أمام الثائرين الذين أنهكهم الجور والظلم والتعدي على المقدسات لكي يخففوا من حدّة الأمور ويُداخلوا الشك في النفوس الهائجة لتحييدها في مثل هذا الموقف المضطربِ !

لم يكن هذا المنظر ليروق الظلمة السفّاكين الذي احتموا بظلّ الطغاة من بني أمية، فاعترضوا عليه أشد اعتراض . لأن عدم صدّ الثورة وإخمادها في عقر دارها

سيؤول بالنتيجة إلى سقوط الحكم الأموي ، وبالتالي تضرُّ مصالح هؤلاء ـ الذين عاشوا على دماء الصلحاء والأخيار والمحرومين ـ وبعدها الاقتصاص والثأر منهم لما سفكوه من دماء في سالف الأيام .

فقاموا بالاتصال من فورهم بمركز الحكم في دمشق واعلموها بمجريات الأحداث ، وطلبوا منها اتخاذ الإجراءات اللازمة الفورية للقضاء على الثورة قبل أن تقوم قائمتها وتُشرع رماحها بوجه الحكّام وتُسلِّط سيوفها على نحور الطغاة ، وقبل أن تأخذ بزمام الأمور ! وكان من بين الرسائل التي وصلت إلى يزيد رسالة عبد الله الحضرمي التي جاء فيها : «أما بعد فإن مسلم بن عقيل ، قدم الكوفة ، وبايعته الشيعة للحسين بن علي ، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ، ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان رجلٌ ضعيف وهو يتضعّف »[1] وكذلك كتب عمارة بن الوليد وعمر بن سعد وآخرون بنحو ذلك لشدّة الخوف والهلع الذي انتاب هؤلاء العُتات؛لأنّهم لا ينالون بعد انتصار الثورة إلاّ ما لا يروقهم .

وأصاب يزيد الهلع والذعر حين عَلم بجدّيّة الموضوع ، فراودته الهواجس ، وبات ينفق ليله ساهراً . . يطيل التفكير في الحدث الذي ألَمّ به . . يفكر في كيفية التغلب على المشاكل الناجمة عن سوء تصرفه . فلما أعياه التفكير ولم يصل إلى نتيجة يتغلّب معها على الموقف؛استدعى مستشاره وأنيسه سرجون ـ المسيحي المذهب . . الرومي المنشأ ـ واستشاره في كيفية القضاء على المعظلة العويصة التي تهدد ملكه بالانهيار ، وسلطانه بالدمار . فدلّه على أرذل خلق الله وابن أخبثهم

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢ .

وعلى هذا النهج يسير كل طاغٍ باغٍ حباً في البقاء والإكثار من الظلم والعيش المُرفه على حساب أتعاب وجهود المحرومين الأشقياء . والقاعدة تقول [القوم أبناء القوم] فهذا هارون الرشيد يحذر ولده المأمون من مغبّة التفكير في القيام بانقلاب ضد أبيه بقوله « لإن نازعتني فيه لأخذت الذي فيه عيناك » أي أني مستعدٌ لأن أقتُل فَلَذَة كبدي الذي دمه دمي ولحمه لحمي لمجرد علمي بتفكيره بأنه يحاول أن ينتزع سلطاني ، فهذا كاف لفصل رأسه عن جسده « الملك عقيم » .

الذي لا يدع محرّما إلاّ انتهكه ولا فجوراً إلا ركبه ، ولا رعباً إلاّ نشره ، ولا دماً شريفاً إلا ولَغَ فيه . . لا تُعرف الرحمة في قلبه من أجل الإبقاء على السلطان ورفاهية العيش على حساب الضعفاء والمساكين والمحرومين ، ذلك هو عبيد الله بن زياد ، يقلد أباه في كل ذلك وأكثر منه .

ولكن يزيد لم يقنع بهذا الرأي ، لأن زياد ـ أبو عبيد الله ـ كان من المعارضين لبيعة يزيد ، وقد اختلج في فكر يزيد أن يعزل عبيد الله عن ولاية البصرة للسبب ذاته[١] إلا أنه لم يَرَ بدٌّ من تعيينه والياً على الكوفة فقد رأى فيه القدرة على السيطرة وإحكام الوضع لصالح بني أُمية وإزهاق الثورة التي هي في أوج نشاطها . واستجاب لرأي المستشار الرومي سرجون ، فعهد له بولاية الكوفة ، وبذلك أخضع له العراق بأسره ، وكتب إليه رسالة جاء فيها :

« أما بعد : فإنه كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يخبروني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين ، سر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه فتوثقه ، أو تقتله , أو تنفيه ، والسلام »[٢] .

وأشارت هذه الرسالة إلى مدى الرعب الذي ألمَّ بالسلطات الحاكمة التي على رأسها يزيد ، فهي تطلب من عبيد الله أن يُسابق الوقت في الوصول إلى الكوفة لأجل إخماد الثورة قبل أن تُنشب أنيابها وتقوم قائمتها ، فقد جاء في إحدى المصادر أن في ضمن رسالة عبيد الله من يزيد كان : « إن كان لك جناحان فطر إلى الكوفة »[٣] .

عندما علم ابن زياد بخبر تعيينه على بلاد العراق بما فيها البصرة والكوفة كادت روحه أن تفارق جسده من شدة الفرح والسرور ، بعد أن كان قد أُضيئ له الضوء

(١) البداية والنهاية ج٨ ص١٥٢ .
(٢) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٤ .
(٣) سيرة أعلام النبلاء ج٤ ص٤١٥ .

الأصفر معلناً قرب تجريده عن جميع الصلاحيات ، وبعدها لا تُسمَع له كلمة ولا يُطاع له أمرٌ ، فيصبح كأحد الرعية محكوماً بعدما كان حاكماً .

وهكذا عندما تحل الأزمة بطاغية تهدد عرشه بالانهيار ، يجمع حوله كل من لفظته الأرض . . فضّاً غليظ القلب ، كل متعطش لإراقة الدماء البريئة على سطح الأرض لأجل أن يحتمي بهم ، فإنه لولا السيف لما ثبت لمثل هؤلاء ـ ذوو الحسب الوغل أبناء العواهر ـ قائمة يقومون عليها ولَدارت عليهم الرّحى وطحنتهم .

بينما كان عبيد الله على وشك الرحيل عن البصرة نحو الكوفة ، ارتقى أعواد المنبر يتهدد ويتوعّد بقوله : « إن أمير المؤمنين يزيد ولاّني الكوفة ، وأنا غادٍ إليها الغداة ، فوالله إني ما تقُرن بي الصعبة ، ولا يقعقع لي شنآن ، وإني لنكَلٌ لمن عاداني ، وسُمٌّ لمن حاربني ، انصف القارة من راماها.يا أهل البصرة قد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف فوالله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلافٌ لأقتُلنّه وعرينه (جماعته) ووليه ، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق . . . أنا ابن زياد اشبهه من وطأ الحصى ، ولم ينتزعني شبه خال ولا عم »[1] .

هذه هي نفسية هذا الطاغي وهو يبرز تلك الخصال الشريرة التي لا توجد حتى عند البرابرة الوحوش والأعراب الجفاة ؛ فإنهم لا يقتصون إلا من الجاني ، وهذا ما لا يروق لابن زياد ، فهو الذي جبَلَ على فعل الشر على هذا النطاق الواسع ، وليس هو الوحيد على هذا الدرب ، فهو يعتَبر أُسوة وقدوة لكل طغاة الدهر والزمان . فإنهم إن وصلت إلى مشامِّهم ريح الانتفاضة من قبَل فرد واحد أقاموا المجازر والمذابح على قدم وساق ، ونكّلوا بالأهل والأقارب . ! والشواهد على ذلك لا تُعد ولا تُحصى[2] .

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٥ وعن تاريخ الطبري ج٦ ص٢٠٠ .

(٢) وخير دليل على ذلك ما حصل في العراق خلال سنين حكم العفالقة منذ ١٩٦٨م . فإنهم نشروا الرعب والخوف وأعملوا السيف في رقاب الناس ، فكل من ينبز ببنت شفه ضد الأوضاع وضد الظلم ، لا تجد له =

بعد ذلك شدّ - عبيد الله بن زياد - الرِحال متجهاً نحو الكوفة وقد جمع حَوله نحو خمسمائة رجل من أهل البصرة فيهم عبد الله ابن الحارث وشريك بن الأعور الحارثي[1] وهو من خلّص أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ، وقد صحب ابن زياد ليكون عيناً عليه ، ويتعرّف على خططه . وقد اصطحب ابن زياد هذا العدد ليستعين بهم على بث الإرهاب ، وإذاعة الخوف بين الناس والاتصال بزعماء الكوفة لصرفهم عن الثورة[2] .

فكان أصحابه قد تأخّروا عنه رجاء أن يقف عليهم ويسبقه الحسين عليه السلام إلى الكوفة فلم يقف على أحد منهم[3] .

ولما ورد القادسية لبس عبيد الله ثياباً يمانية وعمامة سوداء وهو متلثم وانحدر وحده ، وكلما مرّ بالمحارس - نقاط التفتيش - ظنوا أنه الحسين عليه السلام فقالوا : مرحباً بابن رسول الله ، وهو ساكت فدخل الكوفة مما يلي النجف[4] ، وقد دخل من هذا الجانب ليُوهمَ الناس أنه قادمٌ من المدينة لأن النجف واقعة في الطريق الواصل بين الكوفة والمدينة . ولو كانت عنده قليل من البسالة والشجاعة لما تنكر وغير بزّته ، وأوهم على الناس أنه الحسين... وقد تذرع بهذه الوسائل لحماية نفسه وتنص بعض المصادر أنه حبس نفسه عن الكلام خوفاً من أن يعرفه الناس فتأخذه سيوفهم[5] .

=

أثراً بين الناس كأنه رُفع عن وجه الأرض ، وبعد ذلك تدور الدائرة على أنصاره وأخلائه ، فيُنفون إلى السجون والمعتقلات بل وأشرس من ذلك فإنهم ينظرون إلى كل من لا يؤيدهم على أنه ضدهم ، عملاً بالشعار المشهور «من ليس معنا فهو ضدنا» ، هذا هو شعار الطغاة في كل عصر وزمان أينما حطّوا رحالهم .

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٦ عن تاريخ الطبري ج٦ ص١٩٩

(٢) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٦ .

(٣) في رحاب أئمة أهل البيت ج٣ ص٨١ .

(٤) مقتل الحسين ص١٤٩

(٥) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٧ .

وكان الناس قد بلغهم إقبال الحسين عليه السلام فهم ينتظرونه ، فظنوا حين رأوا عبيد الله أنه الحسين عليه السلام ! فقالت امرأة : الله أكبر ابن رسول الله صلى الله عليه وآله !! ، فتصايح الناس وقالوا : إنا معك أكثر من أربعين ألفاً ، وأخذ لا يمرّ على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا : مرحباً بك يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم ، فرأى من تباشرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه ، وازدحموا عليه حتى أخذوا بذنب دابته ، وسمع النعمان بالخبر فأغلق عليه الباب وهو لا يشك في أنه الحسين ، وانتهى إليه عبيد الله ومعه الخلق يصيحون[1] .

ولما انتهى إلى باب القصر وجده مغلقاً ، والنعمان بن بشير مشرف من أعلى القصر ، وكان قد توهّم أن القادم هو الحسين لأن أصوات الناس قد تعالت بالترحيب به والهتاف بحياته ، فانبرى يخاطبه :

« ما أنا بمؤدٍ إليك (إليه) أمانتي يا ابن رسول الله ، ومالي في قتالك من أرب . . . » .

ولمس ابن مرجانه من كلام النعمان الضعف والانهيار ، فصاح به بنبرات تقطر غيظاً :

« افتح لا فتحت فقد طال ليلك[2] يا نعيم[3] » .

وعندها قال عبد الله بن مسلم الباهلي ـ للناس ـ لما كثروا : تأخروا هذا الأمير عبيد الله بن زياد وحسر اللثام عن وجهه وقال : أنا عبيد الله فتساقط القوم ووطء بعضهم بعضاً (وتنادى الناس : ابن مرجانه ، وحصّبوه بالحصباء ، ففاتهم . . .)[4] وضربوا الباب في وجوه الناس وانفضّوا[5] .

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤ .

(٢) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٨ .

(٣) في رحاب أهل البيت ج٣ ص٨١ .

(٤) مروج الذهب ج٣ ص٦٧ .

(٥) في رحاب أئمة أهل البيت ج٣ ص٨١ .

وعلى أي حال فإن الناس حينما علموا أنه ابن زياد ، جفلوا وخفوا مسرعين إلى دورهم ، وهم يتحدثون عما عاشوه من الظلم والجور أيام أبيه ، وقد اوجسوا من عبيد الله الشر . وبادر ابن زياد في ليلته فاستولى على المال والسلاح ، وأنفق ليله ساهراً قد جمع حوله عملاء الحكم ، فأخذوا يحدّثونه عن الثورة ويعرفونه بأعضائها البارزين ، ويضعون معه المخططات للقضاء عليها[١].

وعندما تبلّج الصبح ونشر نوره نُودي في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس في المسجد الأعظم وكأنما على رؤوسهم الطير من شدة الفزع والاضطراب ، كيف لا ؟ وهم يقفون أمام من هو غنيٌ عن التعريف ! فلا تحتاج قسوته وتنكيله بالأبرياء ، والأخذ على الظنه والتهمة إلى تعريف . . . وإذا بابن زياد قد خرج ، متقلداً سيفه ومعتماً بعمامة ، فاعتلى أعواد المنبر فقال[٢] :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ ولآني مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرني بإنصاف مظلومك ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مريبكم ، فأنا لمطيعكم كالوالد البر الشفيق ، وسيفي وسوطي على من ترك أمري ، وخالف عهدي فَلْيُبْقِ امرؤٌ على نفسه ، الصدق يُنْبِىءُ عنك لا الوعيد »[٣] .

ونرى أن عبيد الله لم يتعرض في خطابه للإمام الحسين عليه السلام وسفيره مسلم خوفاً من انتفاضة الجماهير عليه وهو بعد لم يُحكِّم أمره[٤] .

وعندما أتمّ خطبته ونزل ، أخذ العرفاء ـ مدبّري أمور الناس وساستهم ـ الناس أخذاً شديداً ، وقال : اكتبوا إليّ الغرباء ، ومن فيكم من طَلِبة أمير المؤمنين ومن

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٨ .

(٢) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٩ .

(٣) مقاتل الطالبيين ص٩٧ .

(٤) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٥٩ .

فيكم الحَرورية ـ الخوارج ـ وأهل الريب الذي رأيهم الخلاف والشقاق ، فمن كتبهم إلي فبريء ، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرافته أنْ لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغٍ ، فمن لم يفعل فبرئت منه الذمة وحلالٌ لنا دمه وماله ، وأيُّما عريف وُجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفعه إلينا صُلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعُمان الزاره [١] .

وظل عبيد الله يعمد إلى بثّ الإرهاب بين المجتمع الثائر ، وإذاعة الخوف . يقول بعض المؤرخين : أنه لما أصبح ابن زياد بعد قدومه إلى الكوفة صال وجال ، وأرعد وأبرق ، وأمسك جماعة من أهل الكوفة فقتلهم في الساعة[٢] . وقد عمد إلى ذلك لإماتة الأعصاب ، وصرف الناس عن الثورة .

وفي اليوم الثاني أمر بجمع الناس بالمسجد . وخرج إليهم بزي غير ما كان يخرج ، فخطب فيهم خطاباً عنيفاً تهدّد فيه وتوعّد ، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما بعد: فإنه لا يصلح هذا الأمر إلاّ في شدة من غير عنف ولين من غير ضعف ، وأن آخذ البريء بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، والوالي بالولي».

فانبرى إليه رجل من أهل الكوفة ـ يقال له أسد بن عبد الله المري ـ فردّ عليه : « أيها الأمير ، إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى﴾ ، إنما المرءُ بجدّه ، والسيف بحدّه ، والفرس بشدّه ، وعليك أن تقول وعلينا أن نسمع ، فلا تقدم فينا السيئة قبل الحسنة . . . » .

وأُفحم ابن زياد فنزل عن المنبر ودخل قصر الإمارة[٣] .

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٦٠ عن الفصول المهمة ص١٩٧ ، وسيلة المآل (ص١٨٦) .

(٣) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٦٠ عن الفتوح ج٥ ص٦٧ .

إلى العمل السريّ

كان مسلم بن عقيل في زمن ولاية النعمان في منزل المختار بن أبي عبيدة ، وكان موضعه غير مجهول على عامة الناس ، فكل من يرغب في لقاء مسلم كان يتوجه إلى دار المختار ولا يمنعه من ذلك مانع ، لأن النعمان ابن بشير ـ والي الكوفة ـ كانا محباً للراحة . . ضعيف الرأي كما شاهدنا ، وكان ميزان القوى يرجح في صالح مسلم ، فكان ذلك يساعده في أنْ يتجاهر أمام السلطات بالمناوءة ، كيف لا وقد تجمهرت حوله الجماهير معلنة استعدادها في القضاء على السلطة بأول إشارة تصدر عن مركز القيادة .

أما الآن فقد تغيرت الأوضاع وتغير ميزان القوى لتغيّر القيادة الحكومية ! ! . فإن ابن زياد ليس كالنعمان ! ولا يوجد قياس بينهما ، إذ أن الثاني ضعيف الرأي ، محب للسلامة ، منقاد للراحة ، بينما الأول قاسي القلب ، محتال ، لا يرجو لله وقاراً ولا يتحرّج من اقتراف الإثم .

فيجب على الإنسان في هذه المواقف الخطرة أن يأخذ الحذر والحيْطَة ، ويفكر ويدقق في كل صغيرة وكبيرة ينوي القيام بها حتى لا يفلت الزمام من يده ويقع لقمة سائغة بين فكّيّ الأعداء .

فإن ابن زياد مستعدٌ للانقضاض على مسلم وأتباعه والقضاء عليه ، بينما لم يكن مسلم قد استعد للنزال ! لأنه قد اتفق مع القادة على ساعة صفر محددة ، فكل الناس الذين قد بايعوه ذهبوا لمزاولة أعمالهم والاستعداد للثورة ريثما تبلغ ساعة الصفر أوَانَها . فقرر مسلم أن يأوي إلى طرف قادر على أنْ يحميه إن فكر العدو بمداهمته وإلقاء القبض عليه ، لأنَّ المختار لم يكن عنده من القوة والمَنَعَة ما يمكنه من صدّ العدو إن أراد الهجوم على مسلم واعتقاله .

فرأى أن أفضل من يأوي إليه هو هانيء بن عروة ، فهو سيد البلد وزعيم مراد ، وعنده من القوة ما يضمن حمايته وحماية الثورة والتغلب على الأحداث ، فقد كان فيما يقول المؤرخون : إذا ركب يركب معه أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، فإذا أجابتها أحلافها من كنْده وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع[1] ، كما كانت له الطاف وإياد بيضاء على أسرته مما جعلتهم يكنون له أعمق الود والإخلاص[2] .

فرحب هانيء بمسلم أيما ترحيب ، أخفيا الأمر وجعلاه في غاية السريّة . فمن عنده طموح عال بنّاء ذو هدف سام كابن عقيل يجب عليه أن يكون ذا فراسة جيدة وحذر شديد ، لأنه يكون دائماً معرض للوقوع تحت أعين الجواسيس الخُبثاء ، الذين يتطلّعون إلى كل صغيرة وكبيرة لأجل كشفها لدى الظَلَمة فيمهدون بذلك الوضع للسلطات أن يقضوا على التحركات في المهاد قبل أن تينع أثمارها وتخضرّ أوراقها وتتفتّح أورادها ، وتنشر رياحينها العَبِقَة التي تملء المعمورة بهجةً وسروراً .

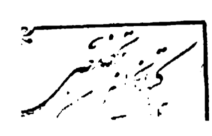
اختـراق القيـادة

أما ابن زياد فجعل يفكر في حيلة للقضاء على الثورة قبل نشوبها ، فاختار طريقاً دنيئاً لكشف أسرار الثورة وقوادها فأرسل مولاه « معقلاً » وزوده بثلاثة آلاف درهم وقال له : « اطلب مسلم بن عقيل وأصحابه والقهم وأعطهم هذا المال وأعلمهم أنك منهم واعلم أخبارهم » . فسار معقل نحو المسجد لأجل البحث عن مسلم وهو يحمل أوامر دنيئة لا يرضى بها الشرفاء ويقبّحها كل معتقد بمبادىء الإسلام ، لأن الدين الإسلامي الحنيف يشجب الأعمال التجسُّسيّة التي تضر بالعمل الإسلامي. ولكن لدنائة النفس والانحطاط الخُلقي وعدم الإيمان بالآخرة يقدم الإنسان على هذه الأعمال القذرة التي لا تنتج إلاّ تفتيت المجتمع ، وقتل الطموحات البنّائة التي تريد إحقاق الحق للمجتمع والسير به على المحجة البيضاء . . نحو العدل والحرية والكرامة .

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٦١ عن مروج الذهب ج٢ ص٨٩ .

(٢) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٦١ .



عندما دخل معقل مسجد الكوفة رأى الناس يُشيرون إلى مسلم بن عوسجة ويقولون : هذا يبايع للحسين ، وهو يصلي ، فلما فرغ من صلاته قال له : يا عبد الله إني امرؤٌ من أهل الشام أنعم الله علي بحب أهل البيت ، وهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ ، وقد سمعت نفراً يقولون إنك تعلم أمر هذا البيت ، وإني أتيتك لتقبض المال وتدخلني على صاحبك أبايعه ، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائي إياه .

فقال : لقد سرني لقاؤك إياي لتنال الذي تحب وينصر الله بك أهل بيت نبيه ، وقد ساءني معرفة الناس هذا الأمر قبل أن يتم مخافة هذا الطاغية وسطوته . فأخذ بيعته والمواثيق المعظمة ليناصحن وليكتمن[١] ولكن هيهات أن يفي المنافق بما وعد وإن أقسم بكل يمين فقد قال رسول الله (ص) في وصف المنافق : « المنافق من إذا وعد أخلف وإذا قال كذب ، وإذا ائتمن خان . . . »[٢]

وأدخله على ابن عقيل فدفع إليه المال وبايعه وسلمه إلى أبي ثمامة الصائدي ـ وكان بصيراً شجاعاً ـ ومن وجوه الشيعة عينه مسلم لقبض ما يرد عليه من الأموال ليشتري به سلاحاً .

وكان (معقل) ـ كما يقول المؤرخون ـ : أول مَن يدخل على مسلم وآخر مَن يخرج ، وجميع البوادر والأحداث التي تصدر ينقلها بتحفظ في المساء إلى ابن زياد[٣]، حتى وقف على جميع أسرار الثورة .

والذي يطالع هذه الحادثة بتفاصيلها يتنابه التسائل ويضع في ذهنه علامات الاستفهام ، كيف نجح معقلٌ في التجسس ؟ يبدو أن سيرته كانت فنية للغاية ، وفي غاية المهارة بحيث خدعهم بهذه الخدعة التي نسفت ما بَنَوهُ وهدت أركان بنياهم من

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٥ .

(٢) مصباح الشريعة ص١٤٥ .

(٣) حياة الإمام الحسين ج٢ ٣٦٩ ـ الأخبار الطوال ص٢١٥ .

الأساس وخمّدت أنفاسهم قبل بزوغ النور . وقد علّق القرشي على هذا الحادث الأليم فقال :

والذي يواجه أعضاء الثورة من المؤاخذات ما يلي :

أولاً : إن معقل من أهل الشام الذي عرفوا بالبغض والكراهية لأهل البيت ﷺ والولاء لبني أمية والتفاني في حبّهم ، فما معنى الركون ـ والارتياح ـ إليه .

ثانياً : أن اللازم التريّب حينما أعطى المال لمسلم ابن عوسجة وهو يبكي ، فما معنى بكائه أو تباكيه ؟ أليس ذلك مما يوجب الريب في شأنه ؟ .

ثالثاً : أنه حينما اتصل بهم كان أول داخل وآخر خارج ، فما معنى هذا الاستمرار والمكث الطويل في مقر القيادة العامة ؟ أليس ذلك مما يوجب الشك في أمره[1] ؟

الحاصل أن هذا الحادث كشف لابن زياد عن نقاط الضعف والقوة وكشف أسرار الحركة وكشف الرؤوس القيادية التي تدير دفّة الأمور تحت جنح الليل القاتم ، وانكشف كل شيء .

وبعد ذلك بدأ ابن زياد وحاشيته يدبرون الحيل وينسجون حبائل الغدر وهم يسابقون الأيام والليالي لينهوا كل شيء قبل انفلاقة الصبح المشرق التي كان من المقرر أن لا تطلع إلاّ والظلم تحت قبضة الحق يلوكه بين أسنانه ثم يتبعه بلفظة تجعله أخس ما على الأرض .

هانيء في الفخ

وتباحث ابن زياد مع أعوانه حول كيفية القضاء على الثورة وقلعها من جذورها ، وفهموا أنه من المحال القضاء على الثورة ، لأن سندها الأكبر هو هانيء ابن عروة ، وفي بيته يقيم مسلم بن عقيل القائد الأعلى للنهضة وحول بيت هانيء

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٦٩ .

يوجد أربعة آلاف مقاتل ممن بايعوا مسلم ، وهم ينتظرون أي إشارة تصدر من مجلس القيادة ليقضوا على الطغمة الحاكمة ، بالإضافة إلى ما لهانيء من الوجاهة والمحبوبية والمكانة المرموقة والكلمة المُطاعة ، هذا فضلاً عن تمسكه بدينه الذي يأبى عليه أن يترك مناصرة ابن بنت رسول الله ﷺ (القائد الإسلامي المرموق المعزول عن القيادة المغضوب عليه من قبل سلطات الكفر والجور) ويأبى عليه تسليم سفيره مسلم إلى أبناء العواهر .

إن أفضل حل للخروج من المشكلة هو قص أجنحة الثورة والغدر ! فقرّروا قبل كل شيء قصقصة الأجنحة وبعد ذلك استدراج هانيء إلى القصر والغدر به ، وبذلك يهدمون أقوى الأركان التي تستند عليها ثورة مسلم في الكوفة .

وقد نفذوا هذه السياسة ببراعة بحيث أن أكثر زعماء النهضة قد اعتقلوا وسافر بعضهم لأداء فريضة الحج والالتحاق هناك بالحسين عليه السلام ، والبعض الآخر أخذه الرعب فاختفى فتفتت القيادة ، وبدون شك أن الثورات يتوقف نجاحها أو فشلها على القيادة

وبعد تنفيذ هذه السياسة الخبيثة تحولوا نحو المرحلة الثانية ، وهي استدراج هانيء بن عروة والغدر به بعيداً عن أهله وعشيرته[1] وهذه هي عادة حكام الجور الذين إذا وقفت سفينتهم وانحنت وكادت تهوي بهم توسلوا بكل طريقة فيها أمل في أن ينقذوا أنفسهم بها ، حتى وإن كان التوازن لا يعود إلى السفينة إلاّ بقذف الأبرياء والمصلحين ليسلم المتهتكون وأبناء العواهر . الفسقة الفجرة الظلمة ، وهكذا فعلوا !

وهنا رأوا أنهم سيقعون في مشكلة أخرى خطرة ، فإنْ هم ألقوا القبض على هانيء قامت القبائل الأخرى وثار الوجهاء وأبناء قبيلة هانيء لإنقاذ زعيمهم ، ولكنهم تغلبوا على هذه المشكلة ونفوها من الأساس بأن رشوا زعماء العشائر

(١) مع الحسين في نهضته ص١٠٥ .

والوجهاء وأصحاب الرأي والمشورة بالذهب والفضة والدراهم وصمّوا بها أفواههم ، بل بهذه الطريقة حولوهم من أعداء إلى أصدقاء يكيلون للزمرة الحاكمة الثناء والحمد ويمدّونها بالرجال والسلاح لأجل القضاء على الحسين عليه السلام وسفيره ، وعند ذلك اطمئن ابن زياد على أنه هو الرابح في المعركة إن قُتل هانيء زعيم قبيلة مراد ، كيف وقد رشا وجهاء العشيرة وساداتها ومنّاهم بالمناصب والاحترام !

وعندما توسّقت الأمور فكّر في كيفيّة قتل هانيء ، فهانيء في داره وحوله جمع غفير من الفدائيين ، فأقل حركة تصدر من ابن زياد يجد أن هانيء وأعوانه له بالمرصاد ، ناهيك عن أن ابن زياد ليست له القدرة الكافية لمواجهة هانيء ، فعلّق دون هذه الفكرة ستراً . فخطرت في ذهنه فكرة أخرى أقل خطراً ، وهي أن يرسل بعض الوجهاء إلى دار هانيء ليطلبوا منه الحضور إلى قصر الإمارة ، وهناك يفعل فعلته ويقضي على عدوه اللدود ويفعل معه ما يشاء ، فارتاح وحاشيته لهذه الفكرة، لأن الغدر هو أقصر طريق لتدمير الحق وعقر أهله .

واتفق رأيهم أن يرسلوا ثلاثة من الزعماء الوجهاء لإقناع هانيء بالحضور إلى قصر الإمارة . وتشكل الوفد من :

١) حسّان بن أسماء بن خارجة زعيم فزاره .

٢) محمد بن الأشعث زعيم كنده[١] .

٣) عمرو بن الحجاج الزبيدي.

ولم يكن حسان يعلم بالمؤامرة التي حيكت ضد هانيء ، أما الآخران فهم على علم بأنهم متوجهون للإيقاع والغدر بصاحبهم وكبير القوم . كل ذلك مقابل الحصول على الدراهم .

فقد باعا شرفهما وضميرهما مقابل دراهم معدودات ومناصب ورفعه عند

---

(١) محمد بن الأشعث هذا : له دور تخريبي كبير ضد أهل الحق (وكذلك كل افراد هذه الأسرة) وسيمر معنا دوره في تحريك مصعب للقضاء على ثورة المختار ، ونال جزاءه في تلك الأحداث .

الجائرين ، وقد نسوا حديث رسول الله ﷺ « الإيمان قيد الفتك » فالذي يفتك بصاحبه خرج من ربقة الإيمان ولكن ما حكم مَن غدر بالحق وسلّمه إلى الباطل ليفعل به كيف يشاء ؟ هؤلاء وأمثالهم قد باعوا الجنة الزاهره وما فيها من نعيم بالنار المظلمة والجحيم والعذاب الخالد ، ولم يرغبوا بالشرف الرفيع والكرامة الأبدية ، فحصلوا على الذل والإهانة والخزي والعار وسوء العاقبة .

وجاء المبعوثون الثلاثة إلى منزل هانيء عند العشية ، فوجدوه جالساً عند باب الدار ، فسلموا عليه ، وقالوا :

ما يمنعك من لقاء الأمير فإنه قد ذكرك وقال : لو اعلم أنه شاكٍ لعدته فقال لهم : « الشكوى تمنعني » .

فردُّوا عليه وقالوا : « إنه قد بلغه أنك تجلس كل عشية على باب دارك ، وقد استبطأك ، والإبطاء والجفاء لايحتمله السلطان . أقسمنا عليك لما ركبت معنا .

وأخذوا في الإلحاح الشديد والإصرار عليه في زيارته لعبيد الله بن زياد فاستجاب على كره ، فلبس ثيابه وركب بغلته واتجه معهم صوب القصر ، ولما وصل قربه خاف على نفسه ، لأنه تحسس أنهم لا يرجون من هذا العمل إلاّ الوقيعة به والقضاء على ثورة مسلم بن عقيل باعتباره القوة الضاربة والسلاح الفعّال في الثورة .

فعزم هانيء على الرجوع من حيث أتى ، ولكنه عرض الأمر على حسان بن أسماء وقال : يا ابن أخي إني لهذا الرجل لخائف ، فما ترى ؟ فقال حسان : ما أتخوّف عليك شيئاً ، فلا تجعل على نفسك سبيلاً ! وأخذ القوم يلحّون عليه حتى أدخلوه على بن مرجانة[1] ، فاستقبله بعنف وشراسة ، وقال :

« أتتك بخائن رجلاه » . وألتفت إلى شريح القاضي وقال :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مرادي

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٧٣ « بتصرّف » .

فقال هانيء : وما ذاك ؟ فقال : يا هانيء ما هذه الأمور التي تَرَبَّصُ في دارك لأمير المؤمنين والمسلمين ؟! جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفى علي ؟ ! قال : ما فعلت ، فقال عبيد الله : بلا قد فعلت ، وطال بينهما النزاع ، فدعا ابن زياد ذلك الجاسوس ـ معقل ـ ، فجاء حتى وقف بين يديه ، فقال عبيد الله : أتعرف هذا ؟ فقال هانيء : نعم[١] ، وعند ذلك عرف هانيء أنّ لامحيص عن الواقع ، فقد كُشِفَتْ جميع أسرار الثورة ، وإن ابن زياد يعرف أفرادها وأعدادها وعُدَدَها وأموالها ، لأن هذا الجاسوس كان شبه مقيم في مركز القيادة ، وقد نقل كل الأحداث صغيرها وكبيرها إلى ابن زياد ، فقرر أن يصمد ولا يعطي من نفسه الضعف والمهانة ، كيف وهو سيد الكوفة وزعيم قومه ، يسنده آلاف مؤلفة من المقاتلين ، وابن زياد لا يحميه غير ثلاثين حارساً ! فوقف وقفة الليث الذي لا يرهب من شيء وتكلم بكلام الشرفاء وقال : أيها الأمير ، قد كان الذي بلغك ولن أضيع يدك عندي ، وأنت آمن وأهلك ، فسر حيث شئت . فأطرق عبيد الله عند ذلك ـ ومهران قائم على رأسه وفي يده معكزه ، فقال : وإذلاه ! اهذا الحائك يؤمنك في سلطانك ؟ ؟[٢] فصاح ابن زياد والشرر يتطاير من عينيه : ادنوه مني ، فأدنوه منه ، فضرب وجهه بقضيب كان في يده حتى كسر أنفه وشق حاجبه ، ونثر لحم وجنته ، وكسر القضيب على وجهه ورأسه وضرب هانيء بيده إلى قائم سيف شرطي من تلك الشرُط ، فجاذبه الرجل ، ومنعه السيف[٣] .

فقال له عبيد الله : أحروري ؟ أحللت بنفسك وحل لنا قتلك[٤] .

واعجبا لهؤلاء الظلمة ؟ ! ما أن يحاول مظلوم الدفاع عن نفسه حتى يتهموه

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٨ .
(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٩ .
(٣) مروج الذهب ج٣ ص٦٧ .
(٤) الكامل في التاريخ ج٤ص٢٩ .

بالخروج عن الدين ويهدرون دمه ، وكأن ليس للإنسان الحق في الدفاع عن نفسه من الجور والظلم وكأن عليه أن يسلّم رأسه كالخروف لجلاّده ليقطفه كيف يشاء ؟ !

وصاح أصحاب هانيء بالباب ـ بعد أن قادهم عمرو بن الحجاج ـ مع بعض فرسان مذحج ووجوهها يحوطهم الخنوع وحب العافية [1] : قُتل صاحبنا . فخافهم ابن زياد ، وأمر بحبسه إلى جانب مجلسه ، وأخرج إليهم شريحاً القاضي ، فشهد عندهم أنه حي لم يقتل ، فانصرفوا [2] وكأنما أتيح لهم الخلاص من السجن .

ويرى بعض المحققين وكما ذكرنا قبل قليل أن هزيمة مذحج بهذه السرعة وعدم تأكدها من سلامة زعميها جاءت نتيجة اتفاق سرّي بين زعماء مذحج وبين ابن زياد للقضاء على هاني . ولولا ذلك لنفرت مذحج ـ كما سنرى ـ حينما أخرج هانيء من السجن في وضح النهار ، ونفذ فيه حكم الإعدام في سوق الحذّاءين [3] .

---

(١) يذكر الطبري في ج٥ ص٣٤٩ رواية فيها أن عمرو بن الحجاج هذا هو الذي جاء بهانيء بن عروة إلى ابن زياد

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٦٧

(٣) حياة الإمام الحسين للقرشي ج٢ ص٣٧٧ .

نهضة مسلم

ولما بلغ مسلم خبر هانيء خاف أن يؤخذ غيلة ، فتعجل الخروج قبل الأجل الذي بينه وبين الناس (١) .

وقبل أن يأمر عبد الله بن حازم بالمناداة بشعار الثورة أرسله إلى القصر ، للتأكد من خبر هانيء ، فعاد عبد الله بما يسيء خبره من سجن هانيء وضربه (٢) وبعدها نادى عبد الله بن حازم بكلمة السر وأعلن شعار الثورة،فاجتمع إليه من الدور حوله في وقت واحد أربعة آلاف مقاتل (٣) وقيل ثمانية عشر ألف رجل (٤) وقيل أكثر (٥) . ويمكن أن يجمع بين القولين في أنه اجتمع لدى مسلم أربعة آلاف في النداء الأول وتكاملوا ثمانية عشر ألفاً عند المساء،كما سنرى في الرواية الآتية .

في هذا الوقت الذي كان مسلم يعلن فيه بدأ ساعة الصفر كان عبيد الله بن زياد قد خرج في جبروته متجهاً نحو المسجد وقد أحاط به الحرس من كل جانب ، شاهرين سيوفهم يمشي في خيلاء المنتصر ، ودخل المسجد الأعظم وصعد المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه ثم التفت فرأى أصحابه عن يمين المنبر وعن شماله في أيديهم الأعمدة والسيوف المشهورة ، فقال : أما بعد يا أهل الكوفة ، فاعتصموا بطاعة الله ورسوله

---

(١) مقتل المقرم ص١٥٥

(٢) رجال بحر العلوم ج٤ ص٢٦ ، وفيه : « فقال عبد الله بن حازم : أنا والله رسول ابن عقيل إلى القصر لأنظر ما فعل هاني ، فلما ضُرب وحُبس ركبت فرسي ، فكنت أول داخل الدار على مسلم بن عقيل بالخبر ، فإذا بنسوة لمراد مجتمعات ينادين : يا غبرتاه . يا ثكلاه . فدخلت على مسلم فأخبرته ، فأمرني أن أنادي في أصحابه . . » .

(٣) رجال بحر العلوم ج٤ ص٢٦ .

(٤) مروج الذهب ج٣ ص٦٧ .

(٥) حياة الإمام الحسين للقرشي ج٢ ص٣٨١ نقلاً عن تهذيب التهذيب للذهبي ج١ ص١٥ .

محمد ـ ﷺ ـ وطاعة أئمتكم ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتندموا وتذلوا وتقهروا ، فلا يجعلن أحد على نفسه سبيلاً ، وقد أعذر من أنذر . وهكذا استمر يرعد ويبرق ويتهدد . وما أتم حديثه وخطبته تلك حتى سمع الصيحة فقال : ما هذا ؟ فقيل له : أيها الأمير ! الحذر الحذر . . هذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جميع من بايعه ! فنزل عبيد الله بن زياد عن المنبر مسرعاً ، وبادر فدخل القصر لينجو وأغلق الأبواب ، والرعب قد أخذه كل مأخذ[1]. والذي يظهر من هذه الرواية المتقدمة وروايات أُخرى أن حركة مسلم بن عقيل هذه مع أنها سبقت الأجل المضروب لها وعدم تواجد الكثيرين ممن بايعوا للثورة أنها مع هذه المطبه الكبيرة يمكن أن تجعل من هذا التحرك ثورة شعبية منظمة ، لها إعلامها ورؤساءها ضد حكومة واهية لا تمتلك أي رصيد جماهيري ولا حتى عسكري . وهذا بحد ذاته ينمّ عن مدى جدارة مسلم وعن الانتخاب الدقيق الصحيح له من قبل الحسين عليه السلام ليكون سفيره إلى شيعته في الكوفة .

إن مسلم عليه السلام قام بسرعة فائقة بتنظيم جيشه الجرار وعقد الألوية واتّجه نحو مقر الحاكم قبل أن تصل أخباره إليه ، واستمر انحدار الناس للانضمام إلى جانب هذه الثورة الشعبية الكبرى ويجتمعون حول القصر حتى المساء .

فأحاط مسلم بالقصر ، وامتلأ المسجد والسوق من الناس وضاق بعبيد الله أمره ، وليس معه في القصر إلا ثلاثون رجلاً من الشُرط وعشرون رجلاً من الأشراف وأهل بيته ومواليه[2] .

كان ابن زياد يدبر وجه الحيلة للالتفاف على هذه الحركة الشعبية ، وهو على يقين مسبق أنه لا قابلية له على المقابلة مع هذا العدد الضخم من الثائرين . وأمعن يفكر في أقرب الوسائل التي تمكنه من إنقاذ حكومته من السقوط في هذه الهاوية ،

---

(١) الفتوح ج٥ ص٨٥ (بتصرف) .

(٢) الكامل في التاريخ .

فرأى أن الخطوة الأولى والأهم في ذلك هو استعمال سياسة « فرّق تَسُد » ، وشرع في بث الدعايات ونشر الرعب واستخدام وسائل الترهيب والتنديد بالبطش وإراقة الدماء .

وكانت كل هذه الإشاعات لا تقوم على أي أساس ، فابن زياد في تلك الساعات الحرجة لم يكن ليغمض له جفن رعباً ورهبة ، ولم يكن يدري إلى ماذا ستؤول الأمور . ولا يتمكن أن يجزم أن بصيص الأمل هذا ـ الإشاعات والإرهاب ـ سيخلصه من الإعصار العاصف .

وكان ابن زياد قد أحكم خطته تلك واستعان بكثّير الحارثي ومن أطاعه من مذحج وأمره أن يسير ويخذّل الناس عن ابن عقيل ويخوّفهم عواقب تواجدهم في جنب مسلم بن عقيل . وكذلك أمر محمد بن الأشعث فيمن أطاعه من كنده وحضر موت ومعه راية أمان وكذلك القعقاع بن سور الذهلي وشبث بن ربعي وحجار بن أبجر وشمر بن جوشن[١] .

ولم تكن الساعات لتمضِ إلا وقد انجلت السحب وهدأت الأعاصير ، وبان لابن زياد وأعوانه الانتصار بهذه السيوف المتهرّئة وهي في أغمادها ، وتشتت الثوار نتيجة الإشاعات الواهية . لم يكن ابن زياد وأعوانه ليصدّقوا أن السكون المطبق الذي جاء بعد ساعات من الهرج والضوضاء كان يعني نهاية الثورة . فتصوّروه بأنه خديعة من قبل مسلم بن عقيل .

ولم يكن يخطر على بالهم أن مسلم في تلك الساعات كان وحيداً في أزقة الكوفة لا أحد يدله على الطريق . . . ولا أحد يدلّه على منزل ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو[٢] وكان الخوف قد تمكن ممن في القصر ، فلم يكونوا ليطمئنوا لذلك السكون الرهيب الموحش .

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٣١ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ٣٧١ .

ولما طال على ابن زياد ، وأخذ لا يسمع لأصحاب بن عقيل صوتاً كما كان يسمعه من قبل قال لأصحابه : أشرفوا فانظروا هل ترون منهم أحداً ؟ فأشرفوا - من أسوار القصر ونوافذه - فلم يروا أحداً ، قال : فانظروا لعلّهم تحت الظلال قد كمنوا لكم ؟ ! ففرعوا بحابح المسجد[1] ، وجعلوا يخفضون شعل النار في أيديهم ، ثم ينظرون : هل في الظلال أحد ؟ وكانت أحياناً تضيء لهم وأحياناً لا تضيء لهم كما يريدون ، فدلّوا القناديل وإنصاف الطنّاب تُشَدّ بالحبال ثم تجعل فيها النيران ، ثم تُدلى حتى تنتهي إلى الأرض ، ففعلوا ذلك بالظُلّة التي فيها المنبر ، فلما لم يروا شيئاً اعلموا ابن زياد ، ففتح باب السُدّه التي في المسجد ، ثم خرج فصعد المنبر ، وخرج أصحابه معه ، فأمرهم فجلسوا حوله قُبيل العَتَمة[2] .

إن ابن الأعثم يرى أن إعلان الطوارئ وخطبة ابن زياد كانت في صباح الغد وليس قبيل العتمة[3] .

وهو رأي شاذ وبائن الضعف فلا يُعقل أن ينتظر ابن زياد كل هذه المدّة من الليل إلى الصباح ثم يعلن الاجتماع الطارئ والنفير لأجل الإمساك بمسلم بن عقيل وهو من قبل قد عُرِفَت عنه الشدة والحزم والتنكيل السريع .

وعندها أعلن ابن زياد الأحكام العرفيه ، وأمر مناديه فنادى : ألا برئت الذمة من رجل من الشُرطة والعرفاء أو المناكب[4] أو المقاتلة صلّى العتمة إلا في المسجد . فلم يكن له إلا ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس ، ثم أمر بإقامة الصلاة وصلّى

---

(١) البحابح : الأفنية والساحات . فرعوا : علوا : أي عَلَوْا أفنية المسجد . لسان العرب ج٨ ص٢٤٧

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٢ العَتَمةَ : الثلث الأول من الليل ، والمراد هنا وقت صلاة العشاء لسان العرب ج١٢ ص٣٨٦ .

(٣) الفتوح ج٥ ص٩٠ .

(٤) العرفاء جمع عريف وهو القيّم بأمور القبيلة ، ويتعرّف الأمير منه أحوالهم . لسان العرب ج٩ ص٢٣٨ . المناكب : قوم دون العُرفاء أو عون العريف . لسان العرب ج١ ص٧٧٢ .

بالناس وهو محاط بحراسة مكثفة خوف الاغتيال[١] .

ثم قام وخطب في الناس وكان من كلامه : أما بعد ، فأن ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشقاق ، فبرئت الذمّة من رجل وجدناه في داره . . . من أتانا به فله ديته[٢] .

ثم أصدر أمره إلى رئيس الشُرَط بنشر المفارز العسكرية والدوريات في كل طرقات الكوفة ومفترقات الطرق فيها[٣] وقد عقد لعمرو بن حريث رايةً وأمّره على الناس[٤] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٢ «بتصرف» .

(٢) الكامل في التاريخ ٤ ص٣٢ .

(٣) الكامل في التاريخ ج٤ ص٣٢ «بتصرف» .

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٣ .

الخـذلان

ولنترك الآن الوالي وأعوانه وما يخططون له ويمكرون ، ولنذهب عند مسلم بن عقيل الذي كان قبل ساعات محاطاً بجموع الأنصار والذين أفلوا مع أفول الشمس . وقد نزل عن فرسه وهو يمشي متلدّداً[١] في أزقة الكوفة . . لا يدري أين يتوجه . حتى انتهى إلى باب مولات للأشعث بن قيس ، فاستسقاها ماءاً فسقته ، ثم سألته عن حاله فأعلمها بقضيته ، فرقت له وآوته ، وجاء ابنها فعلم بموضعه فلما أصبح غدا إلى محمد بن الأشعث فأعلمه[٢] ـ وكان ابن الأشعث عند ابن زياد في القصر ، فأخبره الخبر ، فنخس ابن زياد بالقضيب في جنبه وقال : قم فأتني به الساعة[٣] .

وبعث معه عمرو بن عبيد الله السُلَمي في سبعين حتى أتوا الدار التي فيها ابن عقيل ، فلما سمع الأصوات عرف أنه قد أُتي ، فخرج إليهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ، ثم عادوا إليه فحمل عليهم فأخرجهم مراراً[٤] .

فلما رأوا ذلك علوا ظهر البيوت فرموه بالحجارة ، وجعلوا يلهبون النار بأطراف القصب ، ثم يلقونها عليه من فوق البيوت ، فلما رأى ذلك قال : أكُلّ ما أرى من الاحلاب لقتل مسلم بن عقيل ؟! يا نفس أخرجي إلى الموت الذي ليس عنه محيص ، فخرج إليهم مصلتاً سيفه إلى السكّة (الطريق) فقاتلهم[٥] وهو يرتجز ويقول :

---

(١) تَلَدَّد : تلفّت يميناً وشمالاً ويتردد متحيّراً (لسان العرب) ج٣ ص٣٩٠ .

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٦٧ .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٣ « باختصار » .

(٤) الكامل في التاريخ ج٤ ص٣٢ . وفي رواية الفتوح ج٥ ص٩٢ . « أمر عمرو بن حريث أن يبعث مع محمد بن الأشعث ثلاثمائة رجل من صناديد أصحابه » .

(٥) مروج الذهب ج٣ ص٦٨ .

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع　　فأنت بكأس الموت لا شك جارع
فصبراً لأمر الله جل جلاله　　فحكم قضاء الله في الخلق ذائع[١]

ومضى مسلم في جهاده وسط تلك الجموع التي ازدحمت في شوارع محلة كندة ، وهو يدفعهم إلى الانسحاب والفرار من بين يديه ، وأدى ثباته في المعركة إلى التغلب والانتصار على تلك الجموع ، وقد عجز بن الأشعث عن التغلب والانتصار في هذه المعركة[٢] ، فبعث يطلب المدد من الخيل والرجال من ابن زياد[٣] فأجابه ابن زياد مستنكراً بقوله « سبحان الله ! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به فأثلم بأصحابك هذه الثلمة العظيمة ! »[٤] فأرسل إليه عبيد الله بن زياد بعد أن أمده بالمقاتلين[٥] أن أعطه الأمان ، فإنك لن تقدر عليه إلا بالأمان . فجعل محمد بن الأشعث يقول : ويحك يا ابن عقيل لاتقتل نفسك ، لك الأمان ! ومسلم بن عقيل يقول : لا حاجة إلى أمان الغَدَرَة[٦] ، فأقبل يقاتلهم وهو يقول :

أقسمت لا أُقتَل إلا حُرّاً　　وإن رأيت الموت شيئاً نُكراً
كلُ امرء يوماً ملاق شَرّاً　　ويَخلِطُ البارِدَ سُخناً مُرّاً
رُد شعاعُ الشمس فاستقرّا　　أخاف أن أُكذَبَ أو أُغَرّا[٧]

فإنه ﷺ كان قد صمم على الاحتفاظ بحريته وإن أدى ذلك إلى أن يتجرّع كأس الموت ، وبعد ذلك يهدأ من روعه ويحدّث نفسه بأن الحياة لاتبقى على حال ، والمرء لابد أن يلاقي يوماً ما يسوءه ، فالحياة لا تدوم على حال واحدة .

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٩٤ نقلاً عن مناقب ابن شهر آشوب ج٢ ص٢١٢ .
(٢) مع الحسين في نهضته ص١١٦ .
(٣) حياة الإمام الحسين (القرشي) ج٢ ص٣٩٥ .
(٤) الفتوح ج٥ ص٩٣ .
(٥) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٩٥ .
(٦) الفتوح ج٥ ص٩٤ .
(٧) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٤ .

فكان يقاتلهم على ما به من ضعف وكله تصميم على أن لا يعطي للدنيا يداً ، فيكسرهم ويفرقهم في الدروب . وبعد أن أخذ منه الجهد كل مأخذ أسند ظهره إلى باب دار ليستريح فرجع القوم إليه ، فصاح بهم محمد بن الأشعث : ذروه حتى أكلمه بما يريد . ثم دنى منه ابن الأشعث حتى وقف قبالته وقال : ويلك يا ابن عقيل ، لا تقتل نفسك أنت آمن ودمك في عنقي ، فقال له مسلم : أتظن يا ابن الأشعث أني أعطي بيدي وأنا أقدر على القتال ؟! لا والله لا كان ذلك أبداً ! ثم حمل عليه حتى ألحقه بأصحابه . ثم رجع إلى موضعه وهو يقول : اللهم إن العطش قد بلغ منّي ، فلم يجسر أحد أن يسقيه ماءاً ولا قرب منه ، ثم بعد ذلك حملوا بأجمعهم وحمل عليهم ، فقصده بكير بن حمران فاختلفا ضربتين فضربه بكير ضربة على شفته العليا ، وضربه مسلم بن عقيل ضربة فسقط إلى الأرض قتيلاً[1] وطعن من وراءه طعنة فسقط إلى الأرض ، فأخذ أسيراً ، ثم أُخذ فرسه وسلاحه[2] . بعد أن قتل منهم واحداً وأربعين رجلاً[3] . وهناك قولان آخران ، أحدهما أنه عملوا له حفيرة وستروها بالتراب ثم انكشفوا بين يديه بعد أن حمل عليهم ، فلما انتهى إليها سقط فيها فازدحموا عليه وأسروه وهو قول أبي مخنف[4] . والقول الآخر أنه بعد أن ألحوا عليه بالأمان وأعطوه العهود والمواثيق أمكنهم من نفسه فأخذوه أسيراً إلى ابن زياد بعدما سلبوه سلاحه[5] .

أما قول أبي مخنف فإنه ضعيف غاية الضعف ، فإن الوضع العسكري لا يعطي مجالاً لصنع الحفيرة وصنع الساتر الترابي بحيث يخفى على الناظر الخدعة . وأما

(١) في رواية أخرى تقول : إنه لم يقتل وهو الذي تولى قتل مسلم بعد ذلك . الكامل في التاريخ ج٤ ص٣٢ . تاريخ الطبري ج٥ ص٢٧٣ .

(٢) الفتوح ج٥ ص٩٦

(٣) حياة الإمام الحسين ص٣٩٤ ج٢ نقلاً عن مناقب ابن شهر آشوب ج٢ ص٢١٤ .

(٤) المنتخب للطريحي ص٢٩٩ وحياة الإمام الحسين ج٢ ص٣٩٩ .

(٥) الكامل في التاريخ ج٤ ص٣٣ ، تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٤ ، روح الذهب ج٣ ص٦٨ .

القول الثاني فإنه بعيد عن شخصية مسلم الحُرّة التي ترفض الاستسلام ، وهو يعرف مسبقاً غدر هؤلاء وإنه لا أمان لهم إذ لا إيمان لهم ، إلا إذا قلنا أنه أنهكه القتال بحيث لم يتمكن من الضرب بالسيف لما أصابه من الجراحات والعطش الشديد وكان يخيّر نفسه بين أمرين أحلاهما مُرّ . . بين أن يسقط بين أيديهم أسيراً بسبب ضعفه فيكون هو المنكسر وهم المنتصرون ، أو يكف عن قتالهم بعد أن يأخذ منهم العهود والمواثيق في الأمان الذي عرضوه عليه ، وبذلك يسلب عنهم نشوة الانتصار الكاذب وهم يرون ابن زياد يخيس بأمانهم وينقضه بقتل مسلم ، وبذلك يقعون في حرج تأنيب الضمير أو الوقوف بوجه ابن زياد ومنعه من قتل مسلم !

وإن للكاتب القدير أسد حيدر كلام جدير بالاعتبار يقول ـ بعد اختياره للقول القائل بأن مسلم أمكنهم من نفسه بعد أن أخذ منهم الأمان ـ :

أنه لم يعد يغامر بنفسه وبمن اتبعه فيخوض معركة يوقد نارها خصوم الإسلام وشعارهم « أينما أصابت فتح » ، وقد حافظ على استقرار البلد وأمنه ، ولم يسعر فيه حرباً داخلية يستغلها أعداء الإسلام ، ويتقد جمرها بين القبائل فلا تنطفي إلا ببحار من الدم ، وليس وراء ذلك من نجاح النهضة التي يمتد أثرها على مر الدهور . فلو وقع في البلد ذلك لوئدت الثورة في مهدها[1] .

---

(١) مع الحسين في نهضة (أسد حيدر) ص١١٦ .

القائد المقتول

وكيف كان فقد حملوه على بغلة وأتوا به ابن زياد[١] وجراحاته تشخب دماً وسيفه مسلوب. سار مسلم مع هذه العصبة المتّقدة حقداً عليه لما أنزله بهم من الموت الزُّؤام ، وألبسهم ثوب العار وعراهم من الإيمان وكل فضيلة ، وقد تسابق المبشرون بالخبر لابن زياد وكأنهم قد انتصروا على أكبر كارثة كانت ستحلّ بالإسلام والمسلمين !

واخترق مسلم الطرقات بهذا الموكب المرعب والنُظّار بين شامت وبين محتسب ، وكثيرون منكسةٌ رؤوسهم لخذلانهم وافد آل محمد بعد أن كاتبوه وبايعوه ووقفوا إلى جانبه ابّان قوته وقبل أن تنقلب الموازين .

وكلما اقترب الموكب من قصر الإمارة يزداد شعور مسلم بدنو أجله وضعف أصحاب الأمان في تفعيل أمانهم ، ويزداد تفكيره بالحسين وآله المقبلين وهم يتصوّرون أن الكوفة باقية على بيعتها للحسين عليه السلام . ولما لم يجد منجىً أخذت دموعه تتناثر على خدّيه لتختلط بدمه المراق في سبيل الدفاع عن حريته ، فقال له أحد مرافقيه : إن الذي يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك ؟!

فأجابه مسلم : إني والله ما لنفسي أبكي ، ولا لها من القتل أرثي ، وإن كنت لم أحب لها طَرفة عين تلفا ، ولكن أبكي لأهلي المقبلين . . أبكي لحسين وآل حسين .

ثم أقبل على محمد بن الأشعث وطلب منه أن يكتب للحسين عليه السلام بما جرى ويقول له عن لسانه أن يرجع عن الكوفة فإنهم أصحاب أبيك ، وقد كذّبوك وكذّبوني وليس لمكذّب رأيٌ ، فقال ابن الأشعث : والله لأفعلن ، وكتب بذلك للحسين عليه السلام[٢] .

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٦٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٤ .

وهكذا يسير هذا الموكب بهذه الأهاجيس، حتى شارف أعتاب قصر الإمارة، التي لا تضمر غير السوء ولا تحوي سوى الطيش والبطش.

وسبق ابن الأشعث الموكب بالدخول بعد حصوله على الإذن، وبلّغ ابن زياد الخبر والأمان الذي أعطاه لمسلم، فقال له: ما أنت والأمان، كأنا أرسلناك تؤمّنه، إنما أرسلناك لتأتينا به؟! فسكت ابن الأشعث(١). هذا والقصر محتشد من مختلف الناس الذين جاءوا يهنئون الأمير بالنصر ويشاطرونه الفرح بإنهاء أمر مسلم بن عقيل وأسره، وهم ينتظرون حكم الأمير فيه.

ويُدخل مسلم بن عقيل أسيراً بين يدي عصبة الشر، والبهجة قد أخذت قلوبهم.. إنه موقف مؤلم وساعة حرج تمر على هذا البطل المضحي، الذي جاء لينقذ هؤلاء من الضلال، وإذا بهم يستبشرون لأسره، ويبتهجون لذبحه المرتقب، وليس فيهم رجل ليقوم فيدافع عن الحق المهتضم ولو بكلمة أو بشطر كلمة!

فلما دخل على عبيد الله لم يسلم عليه فقال له الحرسي: سلم على الأمير، فقال له: اسكت .. ويحك، والله ما هو لي بأمير، فقال ابن زياد: لا عليك سلمت أم لم تسلم؛ فإنك مقتول، فقال له مسلم: إن قتلتني فلقد قتل من هو شر منك من هو خير مني، ثم قال ابن زياد: يا عاق و يا شاق، خرجت على إمامك، وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة. فقال مسلم: كذبت يا ابن زياد، إنما شق عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد، وأما الفتنة فإنما ألقحها أنت وأبوك زياد بن عبيد، عبد بني علاج من ثقيف، وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شر بريته.

وهكذا يقاد مسلم إلى القتل صبراً بعد أن وقف موقفه المشرف ودافع عن الحق بكل قواه، وكشف الستر عن باطل يزيد وعبيد الله بن زياد وأضرابهم من المغتصبين

---

(١) تأريخ الطبري: ج٥ ص٣٧٥.

الظلمة[١]. وتخفر ذمم أصحاب الأمان، ويسحق عبيد الله أمانهم تحت قدميه، فيتوجه مسلم إلى ابن الأشعث ليحفز وجدانه وضميره - إن كان له بقايا ضمير - فيقول له: أما والله، لولا أنك آمنتني ما استسلمت.. قم بسيفك دوني فقد أُخفِرَت ذمتك!![٢] ولكن:

أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وقال بعض الشعراء يهجو ابن الأشعث:

وتركت عمك إن تقاتل دونه فشلاً، ولولا أنت كان منيعاً
وقتلت وافد آل بيت محمد وسلبت أسيافاً له ودروعاً[٣]

وأُصعد مسلم بن عقيل إلى سطح القصر لتُنفذ فيه إرادة الماجنين أبناء العواهر، وكان العطش قد نال منه، ويُبْسُ ريقه وجفاف لسانه لم يكن يمنعه من التسبيح والتهليل وهو يقاد إلى القتل صبراً.

ورموا رأسه المبارك من أعلى القصر وأتبعوه بالجسد الطاهر، الذي جسّد أروع البطولات على الأرض.

وعندما نزل الجزار سأله ابن زياد عن مسلم وما كان يصنع في هذه اللحظات الأخيرة من حياته؟ فقص عليه ما سمعه من كلمات خرجت من فم مسلم تدل على صدق ايمانه وعمق عقيدته، ثم قال الجزار: .. فضربته ضربة فلم تُغن شيئاً، فقال مسلم: أما ترى في خدش تخدشنيه وفاءً من دمك أيها العبد؟! فتعجب ابن زياد قائلاً: أو فخراً عند الموت؟! قال الجزار: ثم ضربته الثانية فقتلته[٤].

---

(١) يوجد تفصيل ما دار بين مسلم وابن زياد في كتاب تأريخ الطبري، والكامل في التأريخ لابن الأثير، وكتاب حياة الإمام الحسين عليه السلام، وكتاب مع الحسين عليه السلام في نهضته.

(٢) تأريخ الطبري ج٥ ص٣٧٨.

(٣) مروج الذهب ج٣ ص٦٨.

(٤) تأريخ الطبري ج٥ ص٣٧٨ والكامل في التأريخ لابن الأثير ج٤ ص٣٥ (باختزال).

قضوا بشبا ماضيات السيف ... وما مدّ للذل منهم يدُ

وهكذا دب الذعر والقلق بين صفوف الشعب، بعد رأوا بأم أعينهم رأس مسلم يرمى من أعلى القصر ويتبع بالجسد. وكان هو الرجل الأول الذي قاد تلك النهضة الجبارة التي كادت أن تزيح عرش الظلم وتكسح ذوي المطامع والأهواء عن سدة الحكم.

قتل هانيء بن عروة

وهكذا تجرأ ابن زياد بقتل مسلم عليه السلام، وشاهد كيف أن الرعب أخذ القلوب، فبعد أن أمن من الناس أراد أن يضرب الرقم القياسي في إهانة الزعماء وإذلالهم، فأمر بهانيء وقد قارب المائة عاماً[1] بشيبته البيضاء فأخرج إلى مكان يباع فيه الغنم وهو مكتوف، فكان يستغيث وينادي: «وا مذحجاه ولا مذحج لي اليوم....» ولما لم يسمع مجيباً واحداً أخرج يده من الكتاف يطلب شيئاً يدافع به عن نفسه، فأوثقوه من جديد، وضربوا عنقه صبراً، ففاضت روحه الزكية، تحمل أسمى معاني الوفاء والتضحية دفاعاً عن آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.[2]

وكانت أنباء قتل مسلم وهانئ قد أحزنت الأحرار المصلحين وفتحت قرائح الشعراء بالرثاء الحزين، وكان من بين الرائين أبو الأسود الدؤلي:

أقول وذاك من جزع ووجد: ... أزال الله ملك بني زياد

هم جدعوا الأنوف وكن شُمّاً ... بقتلهم الكريم أخا مراد[3]

إذلال الكرامة

ثم أمر ابن زياد بجثة مسلم وجثة هانيء فشدوا أرجلهما بالحبال، وأخذوا

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ج٢ ص٤١٠ عن مرآة الزمان ص٨٥.

(٢) تأريخ الطبري ج٥ ص٣٧٩ (بتصرف).

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ج٢ ص٤١١، وانظر تأريخ الطبري ج٥ ص٣٧٩ وفيه قصيدة طويلة غنية بالمعاني.

يسحلونهما في الطرقات أمام أعين عشيرة هانيء وأحلافه، تحدياً للكرامة العربية وسحقاً للقيم والمثل العليا التي تحتفظ بها العشائر ورجالها. [١]

وقد حاول أحدهم أن يحرض الناس ويبث فيهم الحمية العشائرية فقال:

فإن أنتم لم تثأروا بأخيكم فكونوا بغايا أرضيت بقليل [٢]

ولكن لم يتحرك أي ضمير ولم تثر أي حمية.

إنها حالة مؤلمة وحادث عظيم، فالأسواق مزدحمة، وإذا بجلبة الغوغاء يخترقون الطرقات، وينفرج الناس سماطين، وتمر جنازة مسلم بن عقيل سفير الحسين عليه السلام وممثله، وإلى جنبها جنازة هانيء بن عروة رئيس مذحج وزعيم الكوفة وهما يجران من أرجلهما بالحبال.

وهكذا جرت مراسيم تشييع جنازتي هذين المجاهدين في بلد إسلامي .. في الكوفة العربية الثائرة، وهكذا فليكن الانتقام والتشفي بالمسلمين من خصومهم، وفي العرب من أعدائهم من الدخلاء على العروبة. [٣]

وزيادة في التشفي والانتقام أمر عبيد الله بن زياد بمسلم بن عقيل وهانيء بن عروة «رحمهما الله» فصلبا منكسين [٤]، وأبرد برأسيهما إلى يزيد في الشام [٥]. فكان مسلم أول قتيل صلبت جثته من بني هاشم، وأول رأس حمل من رؤوسهم إلى دمشق [٦]، فكتب إليه يزيد يشكره [٧] على فعلته النكراء وسحقه للكرامة وإهانته للمقدسات الإنسانية.

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ج٢ ص٤١١.

(٢) الفتوح ج٥ ص١٠٧.

(٣) مع الحسين عليه السلام ص١٢٦.

(٤) الفتوح ج٥ ص١٠٥.

(٥) الكامل في التأريخ ج٤ ص٣٦.

(٦) مروج الذهب ج٣ ص٧٠.

(٧) الكامل في التأريخ ج٢ ص٣٦.

الفصل الثالث

السيطرة

السيطرة

وهكذا انقلبت كفة الميزان في أقل من يوم واحد . . بالأمس وقبل حلول الظلام كان الهياج والثورة قد عم البلد ، وحكومة عبيد الله بن زياد بل حكومة يزيد تتأرجح على شفير الهاوية ولا تبصر حتى في الأفق البعيد أي بصيص يحمل لها قارب النجاة . . واليوم وقبل أن تنغمس الشمس في المغيب كان كل شيء قد انتهى. وأمست الحكومة تمسك أنفاس الرعية بل وحتى أنفاس الزعماء ورؤساء العشائر ، حيث لم تبق لهم كرامة ولا شرف بعد أن رأوا جثة شيخ الزعماء مصلوبة في مدينتهم لعدم استجابته لإرادة الحاكم وتجريدهم من أي كرامة وسمعة يحملونها ، ويتحولون إلى جواسيس على قبائلهم شاءوا أم أبوا ويقدّمون أبناءها الأحرار قرابين تذبح بين يدي السلطان المتعجرف .

وهكذا دب الذعر والفزع بين الناس ، وقامت الحكومة باعتقالات واسعة وجلت لها القلوب وجفت الدماء في عروق أصحابها . وقبع الآلاف في السجون والمعتقلات ليس لهم ذنب سوى مناصرة الحق ، وقد اعتقلوا اثني عشر ألفاً بينهم أربعمائة من الوجوه والأعيان[1] . وكان الكثير من هؤلاء من خلص الشيعة وخيار الموالين لآل رسول الله ﷺ، وكان ضمن الذين حصرتهم القضبان سليمان بن صُرد زعيم التوابين فيما بعد والاصبغ بن نباتة والحارث الأعور الهمداني والمختار بن أبي عبيد ، وآخرين[2] .

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٤١٦ .

(٢) كعبد الأعلى بن يزيد وعمارة بن صلخب الأزدي عشية الثورة . تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٠ .

تحيّر المختار

كان من المعروف عند السلطة في الكوفة أن دار المختار كانت محط رحال سفير الحسين . . مسلم بن عقيل وهذه الدار كانت لرمز من رموز الشيعة وملتقى أقطابها . وفي تلك الدار جاهروا بالدعوة لسلب السلطة عن الحكومة الأموية ، وأخذوا فيها البيعة للحسين عليه السلام وتحدّوا السلطة علانية .

هذه الأمور لم تكن لتغرب عن بال ابن زياد ، وإذا كان قد نساها في زحمة الأحداث ، فلم تكن لتغيب عن بال المتملقين . . طالبي الجاه والمكانة . . الذين لا يهمهم سخط الخالق إن حازوا رضا المخلوق وبعض الثمن البخس .

قد ذكرنا سابقاً كيف أن ابن زياد بعد ما فرّق جيش مسلم وأعلن حالة الطوارئ في تلك الليلة ، أنه عقد لعمرو بن حريث راية وأمرّه على الناس ، وأمره أن يقعد لهم في المسجد . في تلك اللحظات التي كانت كفة الأمور لصالح عبيد الله بن زياد ، يدخل المختار بن أبي عبيد الكوفة يحمل راية خضراء[١]، وتحوط به مواليه ومن كان حواليه[٢] من المناصرين وهو لا يدري بآخر الأخبار حتى انتهى إلى باب الفيل من مسجد الكوفة ، وهناك صدمته الحقيقة لأن خبر خروج مسلم لم يصل إليه إلا عند الظهر ، ولم يكن على ميعاد في ذلك . وكان هو في قرية له تُدعى (لقفا) في منطقة خُطرَنْيه في أطراف بابل ، فتجهّز مسرعاً فلم يصل إلى الكوفة إلا بعد الغروب[٣] ، وكذلك حال المجاهد الآخر عبد الله بن الحارث بن نوفل الذي كان يحمل راية حمراء ويلبس ملابس حمراء[٤]، وكان نجم مسلم قد توارى عن الأنظار .

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٨١ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٦٩

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٦٩ بتصرف .

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٨١ .

وقف المختار حائراً لا يدري ما يصنع ؟ فهو لا يتمكن من عمل أي شيء ولا يخطو أي خطوة ، لأنه كان قد وصل متأخراً ومتأخراً جداً ، وكان الأوان قد فات لتدارك ما ضاع ، بالخصوص ومسلم لا يُعرف له أثر . هذا من جانب ومن جانب آخر أنه لا يتمكن من العودة من حيث أتى ، لأن الدوريات كانت قد سكّرت الطرق ، وبدأت بالبحث عن مسلم[١] ، ولا يفوتهم أي خارج ، ولا يتمكن المختار أن يفلت منهم على أي حال . وإن كان في دخوله الكوفة لم تواجهه أي دورية فلأنها لم تكن قد أحكمت أمرها بعد ، أما الآن وقد مضى من الليل شطره واستتب لها الأمر ، فالإفلات منها مستحيل . بالخصوص أن ابن زياد كان قد جعل جعلاً لمن أتاه بالمختار[٢]، وإن أمسك به الشُرَط كان دليل حتفه معه ، لأنه أُمسك في ظلمة الليل ، ويعتبر ضمن المعارضة التي أثارت البلابل ناهيك عن سوابقه التي ذكرت آنفاً . بينما المختار في زحمة هذه الأفكار ، وبين هذه الخيارات الصعبة ، يَمُرّ به هاني بن أبي حيّة الوادعي فيقول : ما وقوفك هاهنا لا أنت مع الناس ، ولا أنت في رحلك ؟ ! فيجيبه المختار : أصبح رأيي مرتجاً لعُظم خطيئتكم ، فقال له : أظنك والله قاتلاً نفسك . ثم دخل على عمرو بن حريث وأخبره بالخبر وما دار[٣] .

وهذا الجواب من المختار يدل على ما كان يمر به من أزمة ودوامة لا تهديه إلى طريق منجي ، فهو لم يصل إلى هدفه نصرةُ بن عقيل وإسقاط الأمويين ولا يدري كيفية النجاة بنفسه وبمن معه .

يقول عبد الرحمن بن أبي عمير الثقفي : كنت جالساً عند عمرو بن حريث حين بلّغه هاني بن أبي حيّة عن المختار هذه المقالة ، فقال لي : قم إلى ابن عمك فأخبره أن صاحبه أي مسلم لا يُدرى أين هو،فلا يجعلن على نفسه سبيلاً ، فقمت لآتيه ،

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧١ بتصرف .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٨١ .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٦٩ .

ووثب إليه زائدة بن قدامه بن مسعود ، فقال له : يأتيك على أنه آمن ؟ ! فقال له عمرو بن حريث : أمّا مني فهو آمن ، وإن رُقي إلى الأمير عبيد الله بن زياد شيء من أمره أقمتُ له بمحضرة الشهادة ، وشفعت له أحسن الشفاعة ، فقال له زائدة بن قدامة : لا يكونن مع هذا إن شاء الله إلاّ خير .

قال عبد الرحمن : فخرجت وخرج معي زائدة إلى المختار فأخبرناه بمقالة ابن أبي حيّة ، وبمقالة عمرو بن حريث ، وناشدناه بالله أن لا يجعل على نفسه سبيلاً ، فنزل إلى ابن حريث فسلم عليه وجلس تحت رايته حتى أصبح[1] .

وهكذا كان فقد ارتأى المختار أن النزول تحت راية عمرو بن حريث ووقوف بن حريث إلى جانبه عند السلطان أهون الشرين ، لأن الرجوع أو البقاء دون مظلة يعني القتل المحتّم ، والنزول تحت راية ابن حريث فيه أمل ضعيف للإبقاء على النفس ولو كان ذلك في غياهب السجون .

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٠ .

الوشـاية بالـمختـار

وتذاكر الناس أمر المختار وفعله . ووصل خبره إلى أسماع عُمارة بن عُقبة بن أبي معيط فأراد أن يحظى عند الأمير ويقدم دليلاً آخر على إخلاصه وحبه لعبيد الله بن زياد ولسلطان الأمويين ، وكان قد حظى قبل أيام بمصاهرة ابن زياد له في زواجه بابنته « أم نافع »[١].

ففي ذلك الصباح بكّر عُمارة نحو القصر والتقى بابن زياد وحرضه على المختار ووشى به إليه وحدثه بما جرى منه وما فعله[٢] . وعند ارتفاع النهار فُتح باب القصر ، وأذن ابن زياد للناس ، فدخل المختار فيمن دخل[٣] .

في ذلك الصباح كانت نشوة النصر قد أخذت عبيد الله بن زياد ورجاله ، ودخل الناس عليه في القصر بين مهنئ مستبشر ، ورجل يتظاهر بالتباشر وقلبه مليئ بالحزن والكرب .

وكان ابن زياد قد جلس وأجلس حوله أعوانه والذين لهم اليد الطولى في إجهاض ثورة المظلومين ، وإنهم وإن كانوا لم يكرعوا نخب النصر حتى الثمالة لعدم انتهائهم من ابن عقيل ، إلا أن الشارع العام يقبع تحت قبضتهم .

إلى المعتقـــل

في هذا الجو دخل المختار فيمن دخل وقلبه مملوء بالحزن والخوف من المجهول ، فتوجه إليه ابن زياد ـ والشماتة بادية في وجهه ـ قائلاً له : أنت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل ؟ فقال له : لم أفعل ولكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو بن حريث ،

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٦٥ .

(٢) يذكر ابن الأعثم في كتابه الفتوح : أن سبب هذه الوشاية ، عداوة قديمة بينهما ويذكر حادثة في ذلك ويشير إلى أن تاريخ الإيقاع بالمختار في بداية ظهور عبد الله بن الزبير أي بعد سنتين من ثورة مسلم ، فليراجع . الفتوح ج٥ ص٢٦٦ .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٠ .

وبتُ معه وأصبحت ، فقال له عمرو : صدق ـ أصلحك الله ـ فرفع عبيد الله القضيب ، فاعترض وجه المختار فخبط به عينه فشترها[١] وقال : أولى لك ! أما والله لولا شهادة عمرو لك لضربت عنقك ، انطلقوا به إلى السجن[٢] وهكذا أودع ذلك المجاهد العظيم في غياهب السجون ، مع بقية المجاهدين الاحرار ولم يتزعزعوا أمام جبروت الطواغيت الظَلَمَة .

وقد يتسائل البعض : كيف أن ابن زياد وهو يعلم علماً يقيناً بظلوع المختار في تأليب الناس ضد الأمويين ، لم يأمر به فيقتل ، بل اكتفى بسجنه بعد شتمه وشتر عينه ، مع العلم أنه قتل عدّة من المشتبه في ضلوعهم في الثورة[٣] ؟

إن وقوع المختار بين يدي عبيد الله بن زياد تم قبل كشف مكان ابن عقيل بل تزامن اعتقال المختار مع وصول خبر ابن عقيل ومكان اختباءه إلى ابن زياد[٤] . ولعله كان في تلك الساعة قد لهى عن المختار وانشغل عنه بابن عقيل وهانيء وبأعدامهما وبامتصاص نقمة الناس ونسي المختار في السجن ضمن آلاف السجناء . ولم يكن اسم المختار ليتردد على الألسن كهانيء بن عروة ومسلم بن عقيل ، الذي قد يثير وجودهم أحياء زوابع لا تحمد عقباها ، فانشغل عنه بهما . ليصل المختار إلى قدره الذي رسمته العناية الإلهية ودورة في عمل ما لم يتمكن من عمله في هذا الوقت .

لقاؤه بميثم التمّار

ودخل المختار إلى السجن في من دخل والدماء تنزف من عينه وأغلب الظن أنها لم تُضمّد ، وهو في حالة من الأسى والحزن الشديد ، وزادت حالة التذمّر والأسى عندما

---

(١) شَتْر العين : انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل ، وقيل انشقاقه (المنجد) ص٣٧٣ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٠ .

(٣) كعبد الأعلى الكلبي وعمارة بن صلخب الأزدي تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٩ .

(٤) مشاهد العترة الطاهرة ص١٩٥ .

وصل إليهم نبأ اعتقال مسلم وقتله وقتل هانيء بن عروة والتمثيل بهما ، وقبول العشائر بهذا الذل .

ولاشك أن هذا الخبر أقضّ مضاجع السجناء الذين خذلوا مسلماً وأسلموه في ساعة العسرة ، ولكن « سبق السيف العذل » ولات ساعة مندم . وكان للقاء المختار بالمعتقلين الذين هم على شاكلته أثر كبير حسن في تخفيف الألم ، وأخراجه من حالة اليأس والخمود وتقوية معنوياته .

التقى هناك بجميع أقسام الثوار من الشباب المتحمس إلى الشيوخ ذوي الخبرة في مواجهة الصدمات ، فكان قد التقى بسليمان بن صُرد والأصبغ بن نباته وميثم التمار وغيرهم ممن كانوا يعدّون من خلص أصحاب علي أمير المؤمنين ﷺ ومن حَمَلَة أسراره .

بعد أيام من اعتقال المختار يُعتقل ميثم التمار ، ويودع السجن مع المختار . وبعد حديث بينهما يَنبعث في جسم المختار دم جديد وأمل محقق بالنجاة والخلاص من يد هؤلاء الأشرار ، بل والشرف العظيم بأخذ ثأر سيد الشهداء وأصحابه الأخيار . يقول له ميثم : « إنك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين ﷺ فتقتل هذا الذي يقتلنا . . . » . وعلم ميثم بهذه الحقيقة من أمير المؤمنين ﷺ كما علم الكثير غيرها ، ومنها كيفية قتله على يد ابن زياد . وقُتل بعد أيام بنفس الكيفية التي أخبره بها علي ﷺ[1] .

---

(١) الإرشاد للمفيد ص١٧١ ، شرح نهج البلاغة ج٢ ص٢٩٣ ، يقول ابن أبي الحديد في ص٢٩١ : وكان قد أطلعه عليٌ ﷺ على علم كثير ، وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فكان ميثم يحدّث ببعض ذلك ، فيشك فيه قوم من أهل الكوفة ، وينسبون علياً ﷺ في ذلك إلى المخرقة (اختلاق الكذب) والإيهام والتدليس . حتى قال له يوماً بمحضر من خلق كثير من أصحابه . وفيهم الشاك والمخلص : يا ميثم . إنك تؤخذ بعدي وتُصلب ، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر منخراك وفمك دماً ، حتى تخضب لحيتك ، فإذا كان اليوم الثالث طُعنت بحربة يُقضى عليك ، فانتظر ذلك . والموضع الذي تصلب فيه على باب دار عمر بن حريث . . إنك لعاشر عشرة أنت أقصرهم خشبه وأقربهم إلى المطهّرة . فكان من قتله كما أنبأه علي ﷺ . شرح نهج البلاغة ج٢ ص٢٩٣ .

واطمئنت نفس المختار بهذا الكلام ، لأنه واثق من مصدره ومُصَدِّق له . وبدأ يعدّ الساعات والدقائق ، ويعدّ نفسه للقيام بالمهمة الكبرى ، التي إدّخر لها وادُّخرت له .

الفصل الرابع

المختار ونهضة الحسين عليه السلام

أخبار نهضة الحسين ﵇
ووصولها تباعاً إلى السجن

كان المختار وأصحابه السجناء على علم بتحرك الحسين ﵇ بأهل بيته وأنصاره ، وقد شاهدوا انقلاب الوضع في الكوفة ضد أهل البيت ﵈ ، وأخذ الحكومة الناس بيد من حديد .

وكان الصمت قد لفّهم وهم يترقبون الأحداث وما ستؤول إليه الأمور . بعضهم يرى أن الحسين سيقضي على الأمويين وترجح كفة العدل والحق ، والبعض الآخر يرى خلاف ذلك . يرى أن قوة الدولة ستقهر الحسين ﵇ . ونهضته ، ولكن هل أن الحسين سيرضخ أم يتأبى على ذلك وإن أدّى إلى سفك دمه الطاهر ودماء أنصاره وأهل بيته ؟؟!

كان المعتقلون يعيشون في ظل هذه الدوامة من الأسئلة اللامتناهية وذات الجواب الخافي ، وهم بين مستبشر وبين مترقب لما لا تُحمد عقُباه .

وكانت الأيام تمرّ سراعاً والأخبار لا تأتي إلا بما يسوء ، وكأنّ بشائر الخير قد ولّت إلى غير رجعة . وفجأة يقرع أسماعهم نبأ الفاجعة العظمى ، والمجزرة الكبرى ، التي ذبح فيها الحسين وآل الحسين ﵈ وأنصاره وأريقت دمائهم الزكية على أرض كربلاء بعد ثلاثة أيام من العطش المهلك وفصلوا الرؤوس عن الأجساد .

وبعد ذلك حملوا نساء البيت العلوي ـ الذي أذهب الله عنهم الرجس ـ والأطفال على ظهور الجمال العجاف سبايا إلى أبناء الطلقاء والعواهر .

وتركوا أجسادهم مجرّدة ، وأبدانهم مرمّله ، وخدودهم معفّرة . . تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح . . زوّارهم الرُّخم والعقبان .

وكلما يرد خبر سيء من هذه الأخبار إلى أسماع هؤلاء السجناء تزداد جروحهم عمقاً، وتشتد فيهم سورة الغضب على هؤلاء الجناة، ويشتد فيهم الشعور بالتقصير تجاه آل رسول الله ﷺ، وتأنيب الضمير لخذلانهم أهل الحق، وسكوتهم على جرأة الباطل.

إثارة الشعور بالإثم

بعد أحداث كربلاء الدامية وبعد أن حملوا نساء وأطفال الحسين وأهل بيته ونساء أنصاره أسارى إلى ابن زياد، دخلت القافلة الكوفة بما تحمله من هموم وأحزان وذل السبي، وقد أنهكهم الجوع والعطش وحرارة الشمس وهم مكشّفوا الوجوه والأيدي.

استقبلتهم جموع أهل الكوفة رجالاً ونساءً وأطفالاً، والأعم الأغلب يعرف الحقيقة ولا يكاد يعترف بها، إما تقرباً إلى السلطة أو خوفاً من سطوتها.

والمحقَّق عند أهل الاختصاص: (أن معرفة الحقيقة وحدها لا تكفي لإثارة الجو العام ضد المنكر)، مع كون هذه الضمائر قد تراكمت عليها طبقات من الغشاوة السميكة التي تحول دون ترجمة أي فكرة مكبوتة إلى واقع عملي.

وهذه الطبقات المتراكمة لا يمكن إزالتها بحركة خفيفة ولا يمكن التعامل معها إلا بقوة وقسوة، ولا يهم إن كانت جارحة، لتُزال هذه الغشاوة عن وجدان هؤلاء المسحوقين، ليدركوا ما فاتهم من خذلان الحق، وليحاولوا الانقضاض على الظلم بصدق نية وثبات.

وإن إثارة الشعور بالإثم فيه من قوة التحريك ما لا يوجد في غيره من الاثارات وقد كان في موكب سبايا أهل البيت عليهم السلام وفي خطبهم التي خطبوها في أهل الكوفة التركيز المقصود في إثارة أهل الكوفة، وقد كان ذلك بإبكائهم وملامتهم لخذلانهم سليل رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته وأنصاره، وتذكيرهم بدورهم في مجيء الإمام الحسين عليه السلام لناحيتهم وبيعتهم له عن طريق سفيره مسلم بن عقيل، وتغريرهم به وبأهل بيته وما إن حل بساحتهم حتى تركوه فريسة سهلة بين يدي أعداءه، بل وشاركوهم في مهمة اراقة دم الحسين الزاكي على رمضاء كربلاء، ولا فرق في ذلك بين أن تكون مشاركتهم رغبة أم رهبة، فالنتيجة واحدة.

وقف الكوفيون في الطرقات ينظرون إلى موكب آل محمد يخترق الطرقات.. فيه النساء والأطفال الذين أنهكهم العطش والجوع والتعب، وهم على جمال بغير وطاء ولا غطاء يتقدمهم الإمام زين العابدين عليه السلام، وهو في أسوء حالات من المرض، وقد أنهكته العلة ويداه مغلولتان إلى عنقه، والدماء تشخب من جراحاته.

يسير هذا الموكب بهذه الصورة المؤلمة، والكوفيون يتصفحون الوجوه، ويقيّمون الأحداث، فيرجعون بذاكرتهم تارة إلى عدة أسابيع مضت، وتارة يتفكّرون بالمستقبل العصيب الذي ينتظرهم.

في هذه الأثناء تقطع عليهم صمتهم الحوراء زينب عليها السلام مبادرة بإثارتهم: يا أهل الكوفة، أما تستحون من الله ورسوله أن تنظروا إلى حُرَم النبي صلى الله عليه وآله[١]!

وأشرفت امرأة من الكوفيات فقالت: من أي الأسارى أنتُنّ؟ فقلن: نحن أسارى آل محمد عليهم السلام. فنزلت من سطحها وجمعت مُلاء وأُزراً ومقانع، فأعطتهن فتغطين[٢].

وصار أهل الكوفة يناولون الأطفال الذين على المحامل بعض التمر والخبز والجوز[٣]، لما رأوه عليهم من شدة الجوع، فصاحت بهم الحوراء وقالت: «إن الصدقة حرام علينا أهل البيت!» ولما سمع الصبية مقالة العقيلة رمى كل واحد منهم ما في يده أو فمه من الطعام ـ على شدة جوعه ـ وراح يقول لصاحبه: إن عمتي تقول: «إن الصدقة حرام علينا أهل البيت»[٤]!!

وجعل نساء الكوفة يبكين ويندبن، عندها قال علي بن الحسين عليه السلام بصوته الخافت وقد أنهكته العلة: إن هؤلاء النسوة يبكين، فمن قتلنا؟؟![٥]

---

(١) مقتل الحسين (المقرم) ص٣١٠.

(٢) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٣٧٧.

(٣) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٣٧٣.

(٤) حياة الإمام الحسين ج٣ ص٣٣٤.

(٥) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٣٧١.

الخطبـة الناريـة

وبعدها خطبت فاطمـة بنت الحسين عليها السلام وعمرهـا إذ ذاك قـد نـاهز الثلاثـين عاماً فزادت في الهاب النفوس وتأجيجها ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب . وقطعوا عليها الكلام لما لم يتحملوه من قسوة التأنيب ، وقالوا : حسبك يـا ابنة الطيبين فقد أحرقت قلوبنا ، وأنضجت نحورنا ، وأضرمت أجوافنا ، فسكتت ، عليها وعلى أبيها وجدّتها السلام[1] .

ولكن الحوراء لم تمهلهم فصرخت فيهم :

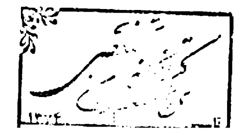
صَه يا أهل الكوفة ، تقتلنا رجالكم ، وتبكينا نساؤكم ؟! فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل الخطاب[2] .

ثم بعدها قامت بتقريعهم بأسلوب المعاتبة والتأنيب ، فقالت : يا أهل الكوفة ، سوأة لكم ، مالكم خذلتم حسيناً ، وخذلتموه وانتهبتم أمواله وسبيتم نساءه ونكبتموه ؟ فتباً لكم وسحقاً . ويلكم أتدرون أي دواه دهتكم وأي وزر على ظهوركم حملتم ؟ وأي دماءٍ سفكتموها وأي كريمة أصبتموهَا . . .

قتلتم أخي صبراً فويل لأمكم ... ستجزون ناراً حرّها يتوقدُ
سفكتم دماءاً حرّم الله سفكها ... وحرّمها القرآن ثم محمدُ
ألا فابشروا بالنار ، إنكمُ غداً ... لفي سقر حقاً يقيناً تخلّدوا
واني لأبكي في حياتي على أخي ... على خير من بعد النبي سيولد
بدمع غزير مستهلٍّ مكفكف ... على الخد مني ذائباً ليس يجمدُ

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص١١٢ .

(٢) مقتل المقرم ص٣١٦ .



فضج الناس بالبكاء والحنين والنوح ، ونشرت النساء شعورهن ، ووضعن التراب على رؤوسهن ، وخمشن وجوههن ، وضربن خدودهن ، ودعون بالويل والثبور ، وبكى الرجال ، فلم يُرَ باكية ولا باكٍ أكثر من ذلك اليوم[١]

زين العابدين يخطب

ولم يترك الإمام زين العابدين عليه السلام الفرصة تمر ـ على ما به من أثر العلة والقيود وعظيم النازله ـ فأومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا . فقام قائماً فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي وصلى عليه ، ثم قال : « أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي : أنا علي بن الحسين بن علي أبي طالب عليه السلام أنا ابن المذبوح بشط الفرات ، من غير ذُحل ولا تُرات . . أنا ابن من انتُهك حريمه ، وسُلب نعيمه ، وانتُهب ماله ، وسُبي عياله . . . أنا ابن من قتل صبراً ، وكفى بذلك فخراً .

أيها الناس ناشدتكم الله ، هل تعلمون أنكم كتبتمُ إلى أبي وخدعتموه ، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة ، فقاتلتموه وخذلتموه ؟ فتباً لكم لما قدّمتم لأنفسكم ، وسوأة لرأيكم . بأي عين تنظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، إذ يقول لكم : « قتلتم عترتي ، وانتهكتم حرمتي ، فلستم من أمتي ! » فارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية ، ويقول بعضهم لبعض : هلكتم وما تعلمون . ثم عنف في توبيخهم والتبريَ منهم بعد أن عرضوا عليه الطاعة والنُصرة ، وقال لهم : رضينا منكم رأساً برأس ، فلا يوم لنا ولا يوم علينا »[٢] .

وهو أشد عليهم من كل توبيخ واستهانة بهم لا يقوم لها شيء . كان المشهد عظيماً ، وإن كان ابن زياد (لعنه الله) لا يريد أي احتكاك بين أهل البيت عليهم السلام وبين جموع الناس ، فكان قد أحاط الركب الحسيني بجنود أقوياء ، وجيش يمنع امتزاج

---

(١) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٣٨١ .

(٢)عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٣٨٢ .

الناس بالركب ، ولكن الكثرة الساحقة والعواطف الملتهبة اخترقت ذلك الحصار ، واستهانت بقوة الجند[1] وكانت الخطب الحماسية قد أخذت مأخذها من قلوب الناس ، ووعتهم على حقيقة الأمر ولكن ذوي النفوذ بادروا بكل ما لديهم من قوة لتفريق الناس والإسراع بالركب[2] فالأمير لا يسعه الانتظار ، والشماتة قد ملأت قلبه ونشوة النصر العسكري لا تدعه يستقر على حال ، فأدخلت السبايا على ابن زياد في مجلسه في القصر .

(١) مع الحسين في نهضته ص٢٩٤ .

(٢) مع الحسين في نهضته ص٢٩٦ .

السبايا في القصر

وكان مجلسه قد اكتظ بوجوه الناس وكبار الدولة ووفود العشائر الذين جاءوا يباركون له انتصاره على الحق والحقيقة وإزهاقه الأرواح الزاكية التي نهضت دفاعاً عن الحقوق المسلوبة والشرف المهتوك، وتقدم أمامه رجالات الجيش وأصحاب المواقف يشرحون له بطولاتهم ويزينون له مواقفهم وجرأتهم على سفك الدماء البريئة وسحقهم لكرامة أهل البيت ﷺ. برضّ جسد الحسين ﷺ وأنصاره وأهل بيته بعد التمثيل بهم، وكيفية سلب وضرب نساء الرسالة وعقائل الوحي بعد إفزاعهم وإرهابهم وكيفية هروبهم في الصحراء بعد هجومهم على مخيماتهم وإحراقها و . . . و . . . من المآثر التي يندى لها جبين الإنسانية خزياً ومذلة.

وابن زياد يهز أعطافه جذلاً وسروراً، وقد جعل أمامه رأس الحسين ﷺ ينظر إليه باستهزاء، والشماتة بادية في عينيه، وهو يعبث به قائلاً: ما رأيت مثل هذا الوجه قط!!

ولم ينه كلامه حتى سدد له الصحابي أنس بن مالك سهماً من منطقة، فقال له: إنه كان يشبه النبي ﷺ.

فالتاع الخبيث من كلامه، وكان في المجلس رجل من بكر بن وائل يقال له جابر فانتفض وهو يقول:

«لله علي أن لا أصيب عشرة من المسلمين خرجوا عليك إلا خرجت معهم»[1]. وكان ابن زياد آثر أن يغض الطرف عن مثل هذه الانفعالات الآنية، وإن يستمتع ما وسعه الإمكان بنشوة النصر ولا يجعل مثل هذه المواقف الانفرادية تعكر عليه الابتهاج.

---

(١) حياة الإمام الحسين للقرشي ج٣ ص٣٤٣.

وأجال ببصره في المجلس متفحصاً وجوه السبايا وغنائم الحرب ، وبرغم أن الحوراء زينب عليها السلام انحازت ناحية وهي متنكرة ، إلا أن جلال النبوة وبهاء الإمامة المنسدل عليها لفت نظر ابن زياد[1] فقال : من الجالسة ؟ فلم تكلمه ، فقال ثانية : من الجالسة ؟ فلم تكلمه احتقاراً واستصغاراً فقال رجل من أصحابه : هذه زينب بنت علي عليه السلام[2] .

هنا رأى ابن زياد الفرصة قد واتته ليفرغ كل ما في كنانته من سهام الكفر والاستهزاء والاستهانة بالمقدسات والتشفي بالعترة الطاهرة الذين جعلهم الله مناراً لهداية البشرية .

فقال متشمّتاً : الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم واكذب أحدوثتكم .

فقالت عليها السلام غير خائفة وبقلب متماسك : الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وطهرنا من الرجس تطهيراً . . إنما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا[3] .

تظاهر ابن زياد باللامبالاة وقال ثانية : كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك ؟ !

فقالت عليها السلام : ما رأيت إلا جميلاً . . هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، سيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجّ وتخاصم ، فانظر لمن يكون الفلج يومئذ . . هبلتك أمك يا ابن مرجانة[4] .

فغضب ابن زياد وكأنه همّ بها (على قول الراوي) ، فقال له عمرو بن حريث مهدّئاً : إنها امرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها .

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام المقرم ص٣٢٤ .

(٢) الفتوح ج٥ ص٢٢٦ .

(٣) مقتل الحسين للمقرم ص٣٢٤ .

(٤) أسرار الشهادة ص٤٧٥ في بحار الأنوار ج٤٥ ص١١٦ ثكلتك أمك يا ابن مرجانة .

فقال لها ابن زياد : لقد شفى الله قلبي من طاغيتك ، والعصاة المردة من أهل بيتك ! !

فغلب على العقيلة الحزن والأسى من هذا التشفي ، وقد ذكّرها بالصفوة الأبطال من أهل بيتها الذين سقطوا في ميادين الجهاد ، فأدركتها لوعة الأسى فقالت : لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبدْتَ أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فإن يشفيك هذا فقد اشتفيت[١] .

وكان قد عجز عن المناجزة بالمنطق ، فسكن غيظه وراح يقول :

هذه سجّاعة ولعمري لقد كان أبوها سجّاعاً شاعراً . . .

فردت عليه زينب عليها السلام: ما للمرأة والسجاعة . . إن لي عن السجاعة لشغلاً ، ولكن صدري نفث لما قلت[٢] .

---

(١) حياة الإمام الحسين ج٣ ص٣٤٥ .

(٢) الإرشاد للمفيد ص٢٤٤ .

زين العابدين عليه السلام وابن زياد

وكأن هذا الحوار والتشمّت بأخت الحسين الشهيد . . من بنت فاطمة الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام ، لم يشف غليله ، وكأنه قد انبهر عندما سمعت أذناه أن شخصاً كالسيدة زينب عليها السلام ترد عليه بالمنطق الصادق غير الخائف ، وهو الذي لم يجرؤ أحد أن يردّ عليه ولو بنظرة متثاقلة أو شطر كلمة ، فأخذ يجيل بطرفه نحو حشد الأسرى من كرائم الوحي والبيت النبوي علّه يجد من ينزل عليه سيل شتائمه ويفرغ المتبقي من ثُمالة التشفي التي توغر صدره في كل آن ليزهو أكثر أمام رؤساء العشائر وقواد الجيش المنتصر عسكرياً . . المهزوم نفسياً . . المتلوّع اسىً لخسران الآخرة .

بينا هو يجيل ببصره رمق شاباً قد جاوز مرحلة المراهقة ، في أعلى مراتب الكمال الجسماني وتحوط به هالة تدل على كمال لبّه ورجاحة عقله ، ولكن القيود وجسامة المصاب قد هدّته . فأخذ ابن زياد العَجَب ، كيف لم تنل السيوف من هذا الرجل ، وكان قد أمر بإبادة العترة الطاهرة وأن لا توضع السيوف في أغمادها حتى تزهق أرواح هذا البيت بما فيه من الشيخ الكبير حتى الطفل الرضيع البريء . .

فالتفت ابن زياد إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال مستنكراً : من هذا ؟ فقيل له : هذا علي ابن الحسين عليه السلام . فقال ابن زياد في صورة المتعجب : أليس قد قتل الله علي بن الحسين[1] ؟ ! قاصداً بهذه العبارة أن قتلى الطف أبيدوا بسيوف الله التي تبيد كل مارق عن طاعة الله . فأجابه علي ابن الحسين برباطة جأش وتصميم على قول الحق : قد كان لي أخ أكبر مني[2] يسمى علي بن الحسين قتله الناس . لم يتحمل ابن زياد هذا الرد فقال : بل الله قتله . فأجابه عليه السلام بجواب مسكت : (الله يتوفى الأنفس

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص١١٧ .

(٢) هذه العبارة وردت في مقتل المقرم نقلها عن مقاتل الطالبين لأبي الفرج ومصادر أخرى .

حين موتها)[١] .

فاستشاط ابن زياد غيظاً ، ولم يكن ليتوقع أن أسيراً بين يديه والسيف مصلتاً عليه يقارعه بالحجة ولا يداهن ولو بالسكوت .

فقال ابن زياد والشرر يتطاير من عينيه : ولك جرأة على جوابي [وفيك بقية للرد علي[٢]] ؟ ! اذهبوا به فاضربوا عنقه . فسمعت عمته زينب وأدركت خطورة الموقف وعزْم ابن زياد على قتل بقية العترة الطاهرة وهو الإمام الحجة ، فتعلقت بابن أخيها وقالت : يا ابن زياد حسبك من دمائنا ، واعتنقته وقالت : والله لا أفارقه ، فإن قتلته فاقتلني معه . .

فجعل ابن زياد ينظر إليها وإليه ساعة , وهو يتوجس أنفاس الحضور ، ثم قال : عجبا للرحم . . والله إني لأظنها ودّت أني قتلتها معه ، دعوه فإني أراه لما به[٣] . معتقداً أن ما به من العلة كفيلة بالقضاء عليه ، ويتجنّب بذلك أي ردود فعل يمكن أن تحدث ، ولكن الله نجاه وسلّمه من يديه ليبقى منار هداية للمهتدين .

---

(١) سورة الزمر : ٤٢ .

(٢) الإرشاد للمفيد ص٢٤٤ .

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص١١٧ .

المختار وأهل البيت ﷺ

عند هذه النقطة يتوقف ابن زياد عن التحدث مع الأسرى من آل بيت رسول الله ﷺ، ويرى أن حدود الكلام قد انتهت معهم ، والحديث أكثر قد يؤدي إلى أمور لا تحمد عقباها ولا يمكن التكهّن بنتائجها .

وهو قد أودع السجون والمعتقلات الآلاف من المناصرين لآل البيت ﷺ منذ أيام ثورة مسلم بن عقيل ﷺ إلى هذا اليوم . وتصوّر أنه سيضرب عصفورين بحجر واحد إذا أوصل إليهم خبر النصر العسكري وأسر بقية النبوة ، فإنه من جهة سيشفي غليله أكثر بإهانة العلويات الطاهرات ومن جهة أخرى يُبلغ السجناء رسالة مفادها أن كل تحركاتهم ذهبت هباءاً وأن المحذور قد وقع بل وأفضع ، وهذا فيه ما فيه من انهيار للمعنويات وخور للعزائم ، وتثبيط للهمم ، وهذا أقصى ما يمكن أن يتمنى من هؤلاء المعتقلين .

وخير طريق لاستيفاء هذا الفرض ونيل المراد هو أن يأتي ببعض السجناء ليشاهد بأم عينيه رأس سيد المسلمين وإمامهم بين يدي الوالي وهو مخضب بالدماء ، ويرى أيضاً بنات رسول الله وخليفة الإمام الحسين ﷺ في الإمامة زين العابدين ﷺ وهم متوشحون لباس الذل والهوان تحت رحمة دعي آل أبي سفيان .

توجه إلى زبانيته وأمر بإحضار المختار بن أبي عبيد الثقفي باعتباره من أكثر المتحمسين لنصر الحسين ﷺ ونصر سفيره مسلم وإن لم يسعفه الوقت لذلك . فأحضروه في المجلس ، وقد جلس في جانب أعيان البلد وقواده وجموع الوفود المهنئين وفي الجانب الآخر نساء وأطفال الحسين مع إمامهم زين العابدين ﷺ ، ويتوسط الحشود عبيد الله بن زياد تحوطه الحراسة المشدّدة وعدّة من الجلاّدين الغلاظ

الشداد قد استلّوا سيوفهم وقد وضع بين يديه على المنضدة رأس سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي . . بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ خاتم النبيين .

وقف المختار في ذلك المجلس المحتشد بالغطرسة والرعب ، لم يدر ما سبب إحضاره ، ولم يلمح من ابن زياد غير النظرة المليئة بغطرسة الشامت وبهجة المنتصر ، والكل مترقب قد استجمع قواه ليستوعب الحديث والحوادث ، والسكون قد خيّم على المجلس . أجال المختار عينيه ـ أو عينه الواحدة السليمة ـ على الحضور يتفحص ويتمعن ، بدأ من الحاكم . . لمح في جانب صغير علائم تدل على الحزن . . وقد انسدل على ذلك الجانب بهاء الإيمان وجلال النور الرباني ، راح يتأمل في قرارة نفسه : يا تُرى من يكون هؤلاء ؟ ! وفجأة يلمح أمام الطاغية وعلى منضدة أمامه رأس زهريّ قمري ينبثق النور منه انبثاقاً ، ركز نظره على ذلك الرأس لم ير فيه سوى ملامح النبوة وهيبة الإمامة . . إنه رأس الحسين بن علي سيد المسلمين وإمامهم .

لم يتمالك المختار نفسه وشب عن الطوق ، كيف لمؤمن بالله ورسوله يرى البقية الباقية من رسول الله بهذه الحالة ويتمكن من الصبر ؟ بل حتى أهل الإنصاف والضمائر من غير المؤمنين تجيش عواطفهم لسماع مثل هذا الحدث ، كيف برؤيته رؤيا العين ! !

زفر المختار زفرة أفرغت كل ما سكن في أعماقه من ثورة الغضب ، فانفجر كالبركان في وجه الطاغية ، وأسمعه من الكلام ما هو أهل له . غضب عبيد الله ، وشعر أن كل خطته في ضرب العصافير بحجر واحد باءت بالفشل ، فرؤية رأس الحسين عليه السلام وأهل بيته المسبيّين ما كانت للمختار سوى إعصار أزال الرماد عن النار الخامدة وأجج فيها اللهيب ، فغضب ابن زياد وأرجعه إلى الحبس[1] بعد أن فشلت خطته .

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص٣٢٩ نقلاً عن رياض الأحزان ص٥٢ للقزويني .

ودخل المختار الحبس ، وأعلم السجناء الذين كانوا ينتظرونه ويتلهفون لسماع أخباره .

حكى لهم ما شاهده بعينيه وما دار بينه وبين الطاغية من كلام . وتأجج الموقف وعلا الصُّراخ والنحيب من السجن ، وكانت الدموع تهطل والعبرات قد خنقت أصحابها ، على عظم المأساة والخسارة العظمى التي حلت عليهم لعدم تمكنهم من نصرة إمامهم في ذلك الموقف ، وهم يتلاومون فيما بينهم ، ويتوعّدون بالانتقام لتلك الدماء البريئة التي أريقت في أرض كربلاء بلا جرم أو ذنب .

تتوارد إلى عبيد الله بن زياد أنباء السجن ، وما حلّ على السجناء من الألم الشديد ، وكان ذلك يزيد في سروره ، ويعطيه شعوراً بأنه قد قطف ثمار نجاحه وحقق أهدافه ، وإن الأمور قد صارت جميعها بيده ، فلا يخشى عصياناً أو تمرداً بعد اليوم ولكن استراتيجية السماء لها بُعد آخر !

الشارع الكوفي

يخرج الموكب الذي فرضت عليه المهانة مرفوع الرأس ، فكان حقاً سليل نبوة . . وكان دوماً نبراس هداية ، يجوب الموكب الطرقات متوجهاً نحو السجن ، الموكب يسير في الطرقات والأزقة والإمام علي بن الحسين عليه السلام ، قد قيّد بالأغلال .

كانت الأزقة مكتظة بالرجال والنساء . وجلّهم يعرف من يكون أهل هذا البيت المسبي المقيد بأغلال التوهين وما يمرّون بزقاق إلا والرجال والنساء يضربون وجوههم ويبكون[1] وكان هذا الهيجان والسخط الخطوة الأولى من مراحل التيقّظ لاسترداد الكرامة عند المجتمع الكوفي . فالكل يعرف أن أهل البيت عليهم السلام هم البقية الباقية من النور السماوي الذي كان هدفه إنقاذ البشرية من الظلم والطغيان وإرساء العدل والإيمان . والكل قد أدرك أن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله قد تحمل كل هذه النوازل لأنه لم يكن يقنع بغير العدل بديلاً ، ولو كلّفهم أرواحهم وحياتهم .

وقد أرادهم الرسول صلى الله عليه وآله أسوة يقتدى بهم لنيل العزة والكرامة في الدنيا والنعيم والرضوان في الآخرة .

وقد تناقل الكثير من فلول عساكر الكوفة كلمة الإمام الحسين عليه السلام التي أطلقها في ميدان المعركة عندما قال : ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين . . بين السلة والذلة ، وهيهات منّا الذلة ، أبى الله ذلك ورسوله ، وجدود طابت ، وحجور طهرت ، وأنوف حمية ، ونفوس أبية . . لاتؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام . .[2] .

(١) أمالي الصدوق ص١٤٠ « بتصرّف » .

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام ص٤٢٣ .

وكان الجمهور الكوفي يتناقل هذه الكلمات وغيرها مما نطق به الإمام الحسين عليه السلام في النهار الأخير من حياته . وكان الحسين عليه السلام يتمكن من العيش أطول وبرفاهية أكثر لو تنازل عن مواقفه البطولية تلك ولكنه آثر القتل ورأى فيه السعادة على الحياة ورأى فيها الشقاء عندما قال : « فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا بَرما . . . »[١] .

وقد فجرت الحوراء زينب عليها السلام موقفاً آخر من السجن عندما قالت : لا يدخلنّ علينا عربية إلا أم ولد أو مملوكة ، فإنهن سبينَ كما سبينا[٢] .

وفي هذا الكلام ما فيه من الهاب المشاعر وتحسيس القوم عظيم التضحية التي بذلها أهل البيت عليهم السلام، وهم أشرف بيت في الإسلام ـ كقرابين على مدارج العزة والشرف .

طمعت أن تسومه القوم ضيماً ... فأبى الله والحسام المنيع
كيف يلوي على الدنية جيداً ... لسوى الله ما لواه الخضوع
فأبى أن يعيش إلا عزيزاً ... أو تجلّى الكفاح وهو صريع[٣]

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام ص٣٥٦.

(٢) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٣٨٥ .

(٣) ديوان السيد حيدر الحلي ص٨٥.

كسر حاجز الخوف

اعتبر ابن زياد كل ما فقده في القصر أمام الحوراء زينب عليها السلام وعلي بن الحسين عليه السلام خسارة صغيرة ضمن قائمة الأرباح الضخمة التي حصل عليها .

ترك المجلس وتوجه نحو المسجد ليعلن ابتهاجه بإنجازاته الحمراء ، ارتقى المنبر أمام الحشد الضخم من الكوفيين وكبار الجيش بعد أن نادى فيهم وجمعهم ـ تحيط به جلاوزته والأعيان وكبار الجيش .

صعد تلك الأعواد ، وابتدأ بالحمد والثناء ، وقال فيما قال : الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته[١] .

فما زاد على هذا الكلام شيئاً حتى وثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدي (رحمه الله) ، وكان من خيار الشيعة وكان أفضلهم ، وقد ذهبت إحدى عينيه في صفين والأخرى في الجمل مع أمير المؤمنين علي عليه السلام .

خاطبه بكل ما أوتي من قوة . . بلهجة لا تعرف الخوف : يا ابن مرجانة ! الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه ، يا عدو الله . . أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين ؟ !

استشاط ابن زياد غضباً ، فلم يكن ليتصور وجود من يملك الجرأة في الرد عليه ولو بشطر كلمة ، فكيف بهذا الرد العنيف ، فحدّق في جهة الصوت ليتعرف إلى صاحب هذه الجرأة الكبيرة ، ثم قال : من المتكلّم ؟ فأجابه ابن عفيف بلحن أشد من سابقه قائلاً : أنا المتكلم يا عدو الله ! أتقتل الذريه الطاهرة التي قد أذهب الله عنها

---

(١) الإرشاد للمفيد ص٢٤٤ .

الرجس في كتابه ، وتزعم أنك على دين الإسلام ؟ ![1] واغوثاه . . أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقموا من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين .

فازداد غضب ابن زياد حتى انتفخت أوداجه ، وقال : عليّ به ، فبادر إليه الجلاوزة ، وبعد مشادّه وقتال تمكنت عشيرته من إنقاذه ، ولكن عبيد الله لم يهدأ له بال حتى قبض عليه وأعدمه أمام الملأ ، وصلبه في السبخة أو في المسجد رحمه الله[2] .

ثم أراد ابن زياد أن يقتل أحد كبار الأزد واسمه جندب بن عبد الله الأزدي ، فقال له : يا عدو الله ، ألست صاحب علي بن أبي طالب يوم صفين ؟ ! فقال الأزدي بشجاعة لا يشوبها خوف : بلى والله ، أنا صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولا زلت له ولياً ، ولا أبرأ إليك من ذلك . فقال ابن زياد : أظن أني أتقرب إلى الله تعالى بدمك - وكان يظن أن جندباً سيخاف لأنه شاهد قبل قليل كيف قتل عبد الله بن عفيف لجرأته فقال جندب : والله لا يقربك دمي من الله ولكن يباعدك منه ، وبعد فإنه لم يبق من عمري إلا أقلّه ، وما أكره أن يكرمني الله بهوانك .

أخذت الحيرة ابن زياد ، كيف يصنع مع أمثال هؤلاء ؟ فأراد قتله ، ولكنه رأى أن الجو العام لا يحتمل إثارة أكثر ، وقد يفقد فيه زمام الأمور . فقال : أخرجوه عني ، فإنه شيخ قد خرف وذهب عقله[3] وأطلق سراحه .

---

(١) الفتوح ج٥ ص٢٣٠

(٢) التفصيل لهذا الحادث موجود في كتب التاريخ منها الفتوح ج٥ س٢٣٠ ، عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٣٧٨ . تاريخ الطبري ج٥ ص٤٥٩ . الكامل في التاريخ ج٤ ص٨٣ .

(٣) الفتوح ج٥ ص٢٣٤ .

المختار يتخلص من السجن

لندع الآن جانباً الشارع الكوفي ، وما تدور في أنديته من ردود فعل إيجابية وسلبية تجاه فعلة ابن زياد الشنيعة ، ونعود لنتابع مساعي المختار الحثيثة لتخليص نفسه من السجن ، وليتقدم نحو الهدف الذي قد خطَّهُ القَدَرُ له .

وقبل ذلك لابد من الإشارة إلى أن عبيد الله بن زياد قام بإعدام كل من سقط بيده ممن خرج لنصرة مسلم بن عقيل بالخصوص الأقطاب منهم ، وكان المختار قد نجى بأعجوبة ، وقد تكون من أسباب إبقاء ابن زياد على المختار هو المكانة الاجتماعية المرموقه التي كان يتمتع بها .

فهو من جانب متزوج من أم ثابت بنت سمرة بن جندب ومن عمره بنت النعمان بن بشير[١] ، وهما من أقطاب الحكم الأموي المبرّزين .

ومن جانب آخر أن عبد الله بن عمر زوج صفية أخت المختار ، وعمر بن سعد زوج أخته الأُخرى ، أو ابنته[٢] فأواصر القرابة والمصاهرة مع هؤلاء البارزين كانت الحائل الكبير دون تنفيذ الإعدام بالمختار . وكان رد المختار ليناً مع ابن زياد عند التحقيق ، كما ذكرنا سابقاً .

وكان الأمر الذي قد يكون له دور في الحؤول دون قتله ، هو انتماء المختار إلى نفس القبيلة التي ينتمي إليها ابن زياد وهي ثقيف[٣] .

---

(١) مقتل الخوارزمي ص٢٤٩ .

(٢) راجع كلاً من تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧١ ومقتل الخوارزمي ص٢٢٠ .

(٣) إتجاهات المعارضة في الكوفة ص٢٦ . يذكر ارتباط ثقيف في حلف مع قريش .

إن المختار بعد دخوله السجن لم يبق ساكناً مترقباً لما ستؤول إليه الأمور ، بل كان يسعى للنجاة من قبضة عبيد الله بن زياد .

فكان إن اتصل بزائدة بن قدامه بن مسعود[١] ، وسأله أن يسير إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، فيسأله أن يكتب له إلى يزيد بن معاوية فيكتب إلى عبيد بن زياد بتخليه سبيله .

لأن المختار يعلم أن قرار بن زياد ـ بحبس المختار ـ لا يتغير بأي نوع من الوساطات ، إلا إذا كان هناك أمراً من فوق . . من يزيد .

أسرع زائدة لإخبار عبد الله بن عمر بحال المختار ، لأن التأخّر قد يحدث نتائج لا تحمد عقباها .

دخل زائدة على ابن عمر ، وبلّغه رسالة المختار ، وعلمت صفية أخت المختار بمحبس أخيها ، فبكت وجزعت . فلما رأى ذلك عبد الله بن عمر كتب مع زائدة إلى يزيد بن معاوية كتاباً جاء فيه : أما بعد ، فإن عبيد الله بن زياد حبس المختار ، وهو صهري ، وأنا أحب أن يُعافى ويُصلح من حاله ، فإن رأيت ـ رحمنا الله وإياك ـ أن تكتب إلى ابن زياد ، فتأمره بتخليته فعلت ، والسلام عليك .

فمضى زائدة بالكتاب إلى الشام ، ودخل على يزيد وأعطاه الكتاب ، فلما قرأه ضحك . ثم قال : يُشَفَّع أبو عبد الرحمن ـ كنية ابن عمر ـ ، وأهلٌ لذلك هو .

فكتب إلى ابن زياد : أما بعد ، فخلِّ سبيل المختار بن أبي عبيد حين تنظر في

---

(١) في بحار الأنوار ج٤٥ ص١٧٩ أن زائدة التقى بزين العابدين عليه السلام ، فقال له الإمام عليه السلام: بلغني يا زائدة أنك تزور قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام أحياناً! فقلت: إن ذلك لكما بلغك. فقال لي: فلماذا تفعل ذلك، ولك مكان عند سلطانك الذي لا يحتمل أحداً على محبتنا وتفضيلنا وذكر فضائلنا والواجب على هذه الأمة من حقنا؟ فقلت: والله ما أريد بذلك إلا الله ورسوله، ولا أحفل بسخط من سخط، ولا يكبر في صدري مكروه ينالني بسببه، فقال: والله إن ذلك لكذلك؟ فقلت: والله إن ذلك لكذلك، يقولها ثلاثاً، وأقولها ثلاثاً، فقال عليه السلام: أبشر، ثم أبشر، ثم أبشر . . .

كتابي ، والسلام عليك .

فأقبل زائدة بالكتاب إلى الكوفة ، وسلّمه إلى عبيد الله بن زياد ، فدعا ابن زياد بالمختار ، فأخرجه .

ثم قال له : قد أجّلتك ثلاثاً ، فإن أدركتك بالكوفة بعدها ، برئت منك الذمة[١] .

وهكذا نجحت مساعي المختار في الخلاص من السجن ، وذهب إلى أهله ، ليعد العُدّة للسفر قبل حلول الأجل .

وهناك رواية فيها تفصيل كثير تحكي كيفية نجاح المساعي في استخلاص المختار من السجن بعد أخذ ورد مع يزيد بن معاوية ، أعرضنا عنها لطولها ، وخروجها عن المطلوب في أحيان كثيرة[٢] .

زائدة مطلوب

لم تستهوِ تحركات زائدة ـ لتخليص المختار ـ عبيدَ الله بن زياد ، واعتبر هذه الحركة جرأة لا تغفر ، فقال : والله لقد اجترأ عليّ زائدة حين يرحل إلى أمير المؤمنين ، حتى يأتيني بالكتاب في تخليه رجل قد كان من شأني أن أطيل حبسه ، عليّ به . فمر به كاتب لابن زياد اسمه عمرو بن نافع ، وقال له : النجاة بنفسك . . .

فتوارى زائدة يومه ذاك . ثم خرج في أُناس من قومه حتى أتى القعقاع بن شَور الذُّهَلي ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، فأخذا له من ابن زياد الأمان[٣]

في رواية ثانية عن كيفية إطلاق سراح المختار ينقلها محمد بن إسحاق يتبين منها ـ مع ملاحظة الروايات الأخرى ـ أن ابن زياد أطلق سراح المختار بعد خروج السبايا من الكوفة إلى الشام . وإن وساطة عبد الله بن عمر له في إطلاق سراحه كانت بعد

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٠ .

(٢) راجع أسرار الشهادة ص٥٥٧ نقلاً عن أبي مخنف .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧١ .

اعتقاله ثانية . جاء في الرواية :

أن عبيد الله لما قتل ابن عفيف الأنصاري ، وجاءت الجمعة الثانية ، صعد المنبر وبيده عمود من حديد . فخطب الناس ، وقال في آخر خطبته :

. . . . الحمد لله الذي أعز يزيد وجيشه بالعز والنصر ، وأذل الحسين وجيشه بالقتل ، فقام إليه سيد من سادات الكوفة وهو المختار بن أبي عبيد ، فقال له :

كذبت يا عدو الله وعدو رسوله . . بل الحمد لله الذي أعزّ الحسين وجيشه بالجنة والمغفرة ، وأذلك وأذل يزيد وجيشه بالنار والخزي .

فحذفه ابن زياد بعموده الحديد الذي كان في يده ، فكسر جبينه . وقال للجلاوزة : خذوه ! فأخذوه .

فقال أهل الكوفة : أيها الأمير هذا هو المختار ، وقد عرفت حسبه ونسبه . . وختنه (أي صهره) عمر بن سعد ، وختنه الآخر عبد الله بن عمر ، فأوجس في نفسه خيفة ، فحبس المختار ولم يتجرأ على قتله . .

فكتب المختار إلى عبد الله بن عمر كتاباً شرح فيه القصة . . .(١)

وتدور نفس أحداث الرواية السابقة من إرسال ابن عمر رسالة إلى يزيد وإرسال يزيد رساله إلى ابن زياد فيها أمر بإطلاق سراحه . ويخرج المختار من السجن ، ولكن يخرج من الكوفة هارباً نحو الحجاز(٢) .

ولكن في رواية ابن إسحاق كان لحن خطاب ابن عمر شديداً وكذلك كتاب يزيد إلى ابن زياد ، خلافاً للرواية الأولى .

النتيجة على كل حال ، هي نجاة المختار بجلده من بين أيدي هؤلاء الطغاة الذين لا لهو لهم إلا هتك الحرمات وإراقة الدماء .

---

(١) مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٧٨ .

(٢) نفس المصدر .

تاريخ إطلاق سراحه

ولا يعلم بالضبط تاريخ إطلاق سراحه الذي خرج فيه نحو الحجاز، ولكن التاريخ التقريبي ـ بعد ملاحظة بعض المقتطفات من بعض المرويات التاريخية ـ لإطلاق سراحه هو بداية النصف الثاني من السنة الثانية والستين للهجرة .

ففي الروايات أن المختار شارك في الدفاع عن مكة مع ابن الزبير ، وكان حصار مكة من قبل الحصين بن نمير مع جند الشام في آخر محرم سنة أربع وستين حسب رواية الواقدي[١] وبقية المرويات لا تختلف عنها إلا بأيام لا تتجاوز أصابع اليد[٢] وإن المختار قبل أن يدافع عن مكّة كان قد بايع ابن الزبير بفترة غير معروفة كما تظهر من رواية المبايعة التي سنذكرها فيما بعد[٣] .

فيظهر أن المختار بايع ابن الزبير آخر سنة ثلاث وستين وكان قد ذهب إلى الطائف ويقى هناك حولاً كاملاً قبل أن يعود إلى مكة ويبايع[٤] .

فيكون عند دخوله مكة بعد خروجه من السجن من الكوفة في الأشهر الأخيرة من سنة اثنين وستين . بالإضافة إلى المدة الزمنية التي قطعها من الكوفة إلى المدينة ثم مكة المكرمة مروراً بالقادسية وذي قار .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٦ .

(٣) مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٨٢ (. . ثم بسط ابن الزبير يده فبايعه المختار . ثم انصرف إلى منزله ، وكان عنده إلى أن جاء أخوه عمرو بن الزبير مع أهل الشام يقاتل . .) .

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٣ ـ ٥٧٤ . مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٨١ (فقام المختار وخرج ولم يُرَ حولاً) .

في الطريق نحو الأمل

قبل نهاية الاثنين وسبعين ساعة التي جعلها ابن زياد كحد أقصى لبقاء المختار في الكوفة ، خرج المختار متوجهاً نحو الحجاز يحمل أمانيه الكبيرة التي يروم تحقيقها في أقرب فرصة مواتية .

في طريقه إلى الحجاز يلتقي - بأحد موالي عشيرته ثقيف - بابن العرْق . بعد الاستقبال والترحيب يتوجه ابن العرْق إلى الشتر الذي على عين المختار ، ويدور بينهما الحديث التالي :

- إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما بال عينك ، صرف الله عنك السوء ؟ !

= خبط عيني ابن الزانية[1] بالقضيب خبطةً ، صارت إلى ما ترى .

- ماله شُلّت أناملُهُ ؟ !

= قتلني الله إن لم أقطع أناملَه وأباجله[2] وأعضاءه إرباً إرباً .

- (فعجبت لمقالته) : ما علَمك بذلك رحمك الله ؟

= ما أقوله لك فاحفظه عني حتى ترى مصداقه . يقول ابن عرق :

وبعد ذلك صار يسألني عن عبد الله بن الزبير ، فقلت له : لجأ إلى البيت ، وقال : إنما أنا عائذ برب هذه البنية ، والناس يتحدثون أنه يبايع سراً ، ولا أراه إلا لو قد اشتدّت شوكته واستكثف من الرجال إلاّ سيُظهر الخلاف .

قال المختار : أجل ، لاشك في ذلك ، أما أنه رجل العرب اليوم . . أما إنه أن يخطُطْ في أثري ، ويسمع قولي اكفه أمر الناس ، وإلاّ يفعل ، فوالله ما أنا بدون أحد

---

(١) أي عبيد الله بن زياد .

(٢) الأباجل : عرقٌ غليظ في الرجل أو في اليد (المنجد ص٢٦)

من العرب . . . [١] .

ويتم المختار كلامه مع ابن العِرق ، فيقول له :

يا ابن العرق ، إن الفتنة قد أرعدت وأبرقت ، وكأن قد انبعثت ، فإذا سمعت بمكان قد ظهرت به فقل : إن المختار في عصابة من المسلمين يطلب بدم الشهيد المظلوم . . . المقتول بالطف ـ سيد المسلمين وابن بنت سيد المرسلين وابن سيدها . . الحسين بن علي ، فوربك لاقتلن بقتله عدّة من قُتل على دم يحيى بن زكريا[٢]

هذا الحوار المختصر الذي حصل بين المختار وابن العِرق ، على قلّته قد نفهم منه عدّة قضايا لا يمكن إهمالها .

الأولى هي : علو الهمة التي كان يتحلّى بها المختار ، فلم يُضعِف السجن همته العالية التي تناطح السُحُب .

الثانية : أنه يرى في نفسه الأهلية الكاملة لاستلام زمام القيادة واستقطاب الناس حول نفسه وإدارتهم ، بل إنه يرى في نفسه الشخص الأكفأ بين المرشحين .

الثالثة : استيقانه بأنه هو الحامل لواء المطالبة بدم الحسين عليه السلام . خاصة وأن عبد الله بن الزبير معروف ببغضه لأهل البيت عليهم السلام ، بغض النظر عن الإشارات التي قد وصلت إليه الدالة على أنه هو حامل لواء الأخذ بالثأر . كما تقدم في الحوار بينه وبين ميثم التمار .

على أعتاب المدينة المقدّسة

دخل المدينة المنوّرة وعيناه تربوا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، دنا منه يخاطب صاحب القبر : السلام عليك يارسول الله ـ أعزيك بولدك المذبوح ظلماً وعدواناً . . . أعاهد الله وأعاهدك على الانتقام من قَتَلَته وممن اشترك في التأليب عليه . . عهداً غير منقوض .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧١ ـ ٥٧٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص١٦٩ ـ ١٧٠ .

ثم توجه إلى مقابر قريش في البقيع وعزّى فاطمة الزهراء بولدها ، والحسن المجتبى بأخيه السبط ، وعاهدهم كما عاهد رسول الله من قبل ـ بأخذ الثأر من المجرمين مكث يستريح قليلاً ، ثم لوى عنان رحاله إلى البلد الحرام . . إلى مكة المكرمة ، حيث بيت الله العتيق ليضع رجله على أول عتبة من عتبات القدر المرسوم له .

بيت الله

أشرف على تلال مكة في أواخر العام الثاني والستين من هجرة الرسول (ص) كما ذكرنا .

ونزل إليها ملبّياً مكبّراً الله تعالى ، وأدّى واجبات العمرة . وقبْل دخوله مكة ، كان قد علم باجتماع الناس حول عبد الله بن الزبير وأنه يبايع سرآً . وكان يعتقد أن ابن الزبير وثورته طريق جيّد للوصول إلى الهدف المقدس ـ أخذ الثأر ـ لأنه إن قويت شوكة ابن الزبير تجتمع عنده الرجال والعُدّة والقدرة ، التي قد تطغى على الدولة الأموية في القوة والجبروت أو تنافسها ، ويدخلان في صراع تنافسي لكسب الأصوات والإمكانات .

عندها يستغل هذا التنافس ويحقّق هدفه وقد انشغل الطرفان عنه .

دخل على عبد الله بن الزبير فسلم عليه وحياه ، فرحب به ابن الزبير وأفسح له ، ودار بينهما الحوار التالي :

- من أين أقبلت يا أبا إسحاق ؟

= من الكوفة . .

- حدثني عن حال الناس بالكوفة . .

= هم لسلطانهم في العلانية أولياء ، وفي السرّ أعداء .

- هذه صفة عبيد السوء . . إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم ، وإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم .

ثم دار حديث بين الجلساء . ثم تحدث المختار مع ابن الزبير وكأنه يُسارُّه ، فقال له :

ما تنتظر ؟ ابسط يدك أبايعك ، واعطنا ما يُرضينا ، وثب بنا على الحجاز حتى نأخذها ، فإن أهل الحجاز كلهم معك ، وأنت أقرب إلى جماعة الناس ، وأدهى عند ذوي النُهى من يزيد ين معاوية . .

سكت ابن الزبير عن الإجابة ولم يقُل شيئاً (كأنه كتمه لأمر ولم يرد أن يفشي الأمر قبل استحكامه ، وخوفاً من جواسيس السلطة .

أو تردد في أخذ البيعة لشرط وضعه المختار ضمن صيغة البيعة (اعطنا ما يرضينا) فيه الكثير من المعاني وبحاجة إلى دراسة وتقويم .

فقام المختار لمّا لمح التاقل في وجه ابن الزبير ، وخرج نحو الطائف ، وأقام عند بني عمومته هناك عاماً كاملاً[1] .

إلى الطائف

سافر المختار إلى الطائف ، بعد عدم سنوح الفرصة المناسبة للوصول إلى هدفه النبيل .

وتلتزم جميع المصادر الصمت عن نشاطاته هناك خلال هذه السنة ، وقد تكوّنت عدّة رؤى عن نشاطه خلال هذه السنة عند بعض الباحثين ـ لا تقوم على دليل تاريخي ـ وهي مجرّد احتمالات .

منها رأي المستشرقين (فان خلدر Vangeldar) و (فارق Farig) الذين تصوروا أنه ـ أي المختار ـ قام بعدّة زيارات واتصالات مع محمد بن الحنفية والإمام زين العابدين لمعرفة آرائهما وكسب تأيدهما[2] .

---

(١) الفتوح ج٥ ص٢٧٣ ـ تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٢ « بتصرف » .

(٢) الخلافة الأموية (دكسن) ص٦٤.

ويرى آخر أنه أراد أن يتخلّص من مراقبة ابن الزبير[١] .

وقد يكون الاحتمال الأقوى أنه في فترة بقائه بالطائف أخذ يبلور أفكاره ويهيئ الأرضية السياسية والرأي العام لتقبّل ثورته الكبرى ، وترقّبها . وكان بين الفينة والأخرى يُشيع جملاً وعبارات غامضة ، فيها إشارة لما يعزم القيام به ، فكان يقول مثلاً :

« أنه صاحب الغضب ومبير الجبارين »[٢] كما سنرى .

(١) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٩٢ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٤ .

العودة إلى مكة

شعر عبيد الله بن الزبير بالندم لمفارقة المختار له، وخروجه عن مكة. وكان يتربص أخباره، فابن الزبير يعرف قوة هذا الرجل وشجاعته، وشخصيته القوية التي انجذب حولها الكثير، وطموحه العالي. فهو لا يريد أن يفرّط فيه كما فرّط في المرة الأولى.

وافتقده عبد الله بن الزبير[1]. يقول عباس بن سهل بن سعد: «. . . بينا أنا جالس مع ابن الزبير إذ قال لي: متى عهدك بالمختار بن أبي عبيد؟ فقلت له: ما لي به عهد منذ رأيته عندك قبل عام.

فقال: أين تراه ذهب! لو كان بمكة لَرُؤِيَ بها. .

فقلت له: سافرت إلى المدينة، وعندما عُدت سمعت نفراً من أهل الطائف جاءوا معتمرين يزعمون أنه قدم عليهم الطائف، وهو يزعم أنه صاحب الغضب، ومبير الجبارين. . .

قال: قاتله الله! لقد انبعث كذاباً متكهِّناً، إن الله إن يهلك الجبارين يكن المختار أحدهم. . .

فوالله ما كان إلا ريث فراغنا من منطقنا حتى عنَّ لنا في جانب المسجد، فقال ابن الزبير: اذكر غائباً تَرَه[2]. . .

---

(١) الفتوح ج٥ ص٢٧٤.

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٣ «بتصرف». عن الفتوح ج٥ ص٢٧٤: (أن المختار قدم من الطائف بعد ثلاثة أيام) من هذا الحوار.

وقفـــة

يظهر من هذا الحوار ومن مواقف سابقة وأُخرى لاحقة : أن عبد الله بن الزبير وأمثاله ، كانوا لا يقنعون أن كلام أمثال المختار وميثم ورشيد من تلامذة أمير المؤمنين عن المستقبل هو من العلم الذي خصّهم به . بل بالأحرى كانوا لا يريدون أن تشيع مثل هذه النبوءات عن لسان أشخاص تتلمذوا على يد الإمام علي بن أبي طالب ، لأنها إن دلّت على شيء دلت على مكانة هذا الرجل العظيم . .

فكانوا يكتمون هذه الفضائل ، فإن لم يستطيعوا ، تحولوا إلى أسلوب آخر من قبيل لصق الشائعات والتهم بهؤلاء العظماء ، واعتبارهم كهنة ومدّعين للنبوة ونزول الوحي عليهم ، كما سنرى ذلك في الفصول اللاحقة .

بقية الحوار بين عباس بن سهل وعبد الله بن الزبير ، يُظهر مدى رغبة ابن الزبير انضمام المختار إلى جانبه ، فلنستمع إلى بقية الحوار .

قال ابن الزبير : . . . أين تظنه يهوى ؟ .

قلت : أظنه يريد البيت . . .

فأتى البيت ، فاستقبل الحجر[١] ، ثم طاف بالبيت أسبوعاً (أي سبعة أشواط) ، ثم صلى ركعتين عند الحِجْر ، ثم جلس ، فما لبث أن مرّ به رجال من معارفه من أهل الطائف وغيرهم مَن أهل الحجاز[٢] ، فجلسوا إليه واستبطأ ابن الزبير قيامه إليه .

فقال : ما ترى شأنه لا يأتينا ؟ فقال عباس بن سهل .

فقلت : لا أدري ، وسأعلم لك علمه .

فقال : ما شئت .

---

(١) في الفتوح ج٥ ص٢٧٤ (واستلم الحجر الأسود) .

(٢) في الفتوح ج٥ ص٢٧٥ (فجاءه قوم من أهل مكة فسلموا عليه وجلسوا عنده) .

يقول ابن سهل : وكأن ذلك أعجبه[١] .

وكأن ابن الزبير شعر بقوة المختار أكثر عند رؤيته هذا المشهد وطمع بانضمام المختار إلى جانبه ، ورغب بمساعي عباس بن سهل في هذا الوقت .

قال ابن سهل : فقمت فمررت به كأني أُريد الخروج من المسجد ، ثم التفت إليه ، فأقبلت نحوه ثم سلّمتُ ، ثم جلست إليه ، وأخذت بيده ، فقلت له :

أين كنت ؟ وأين بلغت بعدي ؟ أبالطائف كنت ؟ فقال لي : كنت بالطائف وغير الطائف . . وعَمّس عليّ أمره[٢] فملت إليه ، فناجيته[٣] ، فقلت له :

مثلك يغيب عن مثل ما قد اجتمع عليه أهل الشرف وبيوتات العرب من قريش والأنصار وثقيف ؟ ! لم يبق أهل بيت ولا قبيلة إلا وقد جاء زعيمهم وعميدهم فبايع هذا الرجل . فعجباً لك ولرأيك ألاّ تكون أتيته ، فبايعته ، وأخذت بحظّك من هذا الأمر ! فقال لي :

وما رأيتني ؟ أتيته العام الماضي ، فأشرت عليه[٤] ، فطوى أمره دوني ، ولما رأيته استغنى عني أحببت أن أُرِيَهُ أني مستغنٍ عنه ، وأنه والله لهو أحوج إليّ منّي إليه .

فقلت له :

[صدقت يا أبا إسحاق ، قد كان ذلك][٥] إنك كلمته بالذي كلمّته وهو ظاهر في المسجد ، وهذا كلام لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مرخاة ، والأبواب دونه

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٤ .

(٢) لا يخفى على القارىء النكتة السياسية في هذه المراوغة ، فكل واحد يريد أن يثبت أنه رأس قائم بذاته غير محتاج إلى الطرف الثاني ، بل الآخر هو المحتاج إلى الأول ، وسنرى مشاهد أخرى شبيهه خلال متابعة الأحداث .

(٣) ناجيته : ساررته .

(٤) في الفتوح ج٥ ص٢٧٥ « . . ودعونه إلى حظه . . » .

(٥) ما بين القوسين ورد في الفتوح ج٥ ص٢٧٥ .

مُغلّقة . . إلقه الليلة إن شئت وأنا معك ، فقال لي :

فأني فاعل إذا صلينا [العشاء الآخرة][١] .

يقول بن سهل : واتعدنا بالحِجْر[٢] .

وتوجه العباس إلى ابن الزبير ، وأخبره بما كان ، فسُرّ بذلك وبعد صلاة العشاء اصطحب العباسُ المختار نحو دار ابن الزبير ، لتسوية الخلاف ، والاتفاق على بنود البيعة .

فاستأذنا على ابن الزبير في بيته ، وأراد العباس بن سهل الانسحاب فأبقياه معهما ، وقالا له لا سِرَّ دونك ، فجلس معهم .

أخذ الزبير يحتفي بضيفه المختار ، وقد أخذ بيده فصافحه ورحّب به . . وأخذ يسأله عن حاله وعن أهل بيته .

ثم أقبل عليه ابن الزبير وقال :

إنك كلمتني بهذا الكلام[٣] والناس حضور ، والحيطان لها آذان ، وليس من أحد إلاّ وله عدو وصديق ، وهذا وقت خلوة ، فهات الآن ما عندك ؟ !

فقال المختار بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

إنه لا خير في الإكثار من المنطق ، ولا في التقصير عن الحاجة وأنت اليوم رجل قومك ، وقد جئتك لأبايعك على أن لاتقضي الأمور دوني ، وعلى أن أكون في أول من تأذن له ، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك !

فقال ابن الزبير :

---

(١) ما بين القوسين ورد في الفتوح ج٥ ص٢٧٦ .

(٢) هذا الحوار وما بعده منقول عن تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٤ وما بعدها وهو منقول في الفتوح ج٥ ص٢٧٤ وما بعده . وفي الكامل في التاريخ ج٤ ص١٧٠ مع بعض الزيادة والنقيصة الطفيفة .

(٣) إشارة إلى الحوار الذي دار بينهم قبل عام .

أبايعك على كتاب الله وسُنة نبيّه ﷺ ! فقال المختار :

وشرّ غلماني أنت مبايعه على ذلك . . مالي في هذا الأمر من الحظ ما ليس لأقصى الخلق منك؟! لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال !

وتردد ابن الزبير في النزول عند شروط المختار

ولكن شخصية المختار القوية وكفائته السياسية من جهة وضغط يزيد بن معاوية عليه[١] من جهة ثانية ألجأ ابن الزبير إلى قبول البيعة بشرط المختار ، وخوفاً من أن يكون رفضه سبباً لابتعاد المختار عنه كما حصل في العام السابق وقد ندم عليه ، كما أن في قبول بيعته كسباً لعبد الله بن عمر صهر المختار .

فقال له ابن الزبير : فأن لك ما سألته ، فبسط يده فبايعه .

وبقى المختار في مكة حتى شاهد الحصار الأول من قبل جيش الشام[٢] .

---

(١) عبد الله بن الزبير (ماجد لحام) ص١٤٢ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٥ .



عبد الله بن الزبير والخلافة

عبد الله بن الزبير والخلافة

رأى ابن الزبير أن الأوضاع تجري في صالحه ، وأن الوقت قد حان لإعلان الانفصال عن الدولة الأموية .

وقد قام بين الحين والآخر بإثارة الناس ضد يزيد ، وكان يذكر مثالبه ومثالب بني أمية ، وقد استغل مقتل الحسين ﷺ في إثارة الناس وقد قام في مكة يخطب على الناس ، فعدد مناقب الحسين ﷺ بالتصريح ومثالب يزيد بالتلميح ، فقال ضمن خطابه « . . . أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء ، ولا بالصيام شربَ الحرام ، ولا بالمجالس في حَلَقِ الذكر الركض في تطلاب الصيد ـ يعرّض بيزيد ـ فسوف يلقون غياً .

فثار إليه أصحابه فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سراً [1] ولكنه تريث حتى يتأتى الوقت المناسب .

ولما بلغ يزيد بن معاوية ما فيه عبد الله بن الزبير من بيعة الناس له واجتماعهم إليه ، دعا بعشرة من وجوه أصحابه[2] ثم قال لهم : أن عبد الله بن الزبير قد تحرك بالحجاز وأخرج يده من طاعتي ودعا الناس إلى سبيّ وسب أبي ، وقد اجتمع إليه قوم يعينونه على ذلك ، ويزينون له أمره ، وأنا أكره البغي عليه قبل الاعتذار إليه ، ولكن صيروا إليه ، فإذا دخلتم عليه فعظموا حقه وحق أبيه الزبير وخبّروه بالذي

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٧٥ .

(٢) هم : ١ ـ النعمان بن بشير الأنصاري ٢ ـ شريك بن عبد الله الكناني ٣ ـ زمل بن عمرو العذري ٤ ـ مالك بن هبيرة السكوني ٥ ـ عبد الله بن عضاة الأشعري ٦ ـ روح بن زنباع الجُذامي ٧ ـ أبو كبشة السكسي ٨ ـ سعيد ابن عمرو الهمداني ٩ ـ عبد الله بن مسعده الفزاري ١٠ ـ عبد الرحمن بن مسعود الفزاري .

بلغني عنه وسلوه بعد ذلك أن يلزم الطاعة ولا يفارق الجماعة . . . فإن أجاب فخذوا بيعته وانصرفوا عنه ، وإن أبى إلا العداوة وشق العصا فخوّفوه وحذّروه ما نزل بالحسين بن علي ، وليس الزبير عندي بأفضل من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، ولا ابنه عبد الله بأفضل من الحسين بن علي . . .

توجه هؤلاء الوفد إلى مكة للوقوف على رأي ابن الزبير ، فدخلوا وسلّموا عليه ، فردّ عليهم السلام .

وكان ضمن هذا اللقاء المختار بين أبي عبيد ، وعبد الله بن مطيع العدوي ، والعباس بن سهل الأنصاري ، ووجوه أولاد المهاجرين الأنصار .

رحّب بهم ابن الزبير ، ثم سألهم عن أمرهم ، فأدوا إليه رسالة يزيد ، وإذا به يستنكر هذه الرسالة ويقول : إنما أنا رجل مجاور لهذا البيت . . عائذ به من شر يزيد وغير يزيد ، فإن تركني فيه وإلاّ انتقلت عنه إلى بلد غيره وكنت فيه إلى أن يأتيني الموت .

انتهى الحوار واستلم ابن الزبير الرسالة ، وأمر لهم بمنزل وما يصلحهم ، وتوجهوا لمنزلهم لأخذ قسط من الراحة بعد طول الطريق .

في اليوم الثاني خرج ابن الزبير فصلى بأصحابه الفجر ، ثم جلس في الحجر (حجر إسماعيل) واجتمع إليه أصحابه ، ثم أقبل إليه هؤلاء الوفد ، وجرى حوار مطوّل بين الطرفين .

خلاصة هذا الحوار أن وفد الخليفة يطلبون البيعة من ابن الزبير ، وابن الزبير يتملّص منها .

عندما لم يروا تجاوباً من ابن الزبير ، أقبل عبد الله بن عضاة على ابن الزبير فقال له : . . . أما والله يا ابن الزبير ! إني أخاف عليك ، وأقسم بالله قسماً صادقاً لتُبايعن يزيد طائعاً أو كارهاً أو لتعرفني في هذه البطحاء وفي يدي راية الأشعريين !

عندها دخل المختار في الحوار قاطعاً كلام ابن عضاة ، وهو يقول : أما والله يا ابن عضاة ! لئن أنت رُمْتَ ذلك ، وأردت بصاحب هذا البيت سوءاً ليُدمّرن الله عليك وعلى صاحبك يزيد كما دمّر على أصحاب الفيل إذ راموه فجعل كيدهم في تضليل ، فإن شئت فَرُم ذلك ! !

فقال له ابن عضاة بعد أن لم يحرَ جواباً وقد ازداد غيظاً من جرأة المختار على يزيد : يا ابن أبي عبيد ! إما أن عبيد الله بن زياد قد كان حازم الرأي في حبسك في الكوفة ، ولو ضرب عنقك لأصاب الرأي ، ولكن لا جزى الله صهرك عبد الله بن عمر خيراً . لم يعتن المختار بهذا الكلام واسترسل في حديثه قائلاً : والله ما كان أبوه أمير المؤمنين ! ! وقد قتل وسفك دماء المؤمنين ، وقد قتل ابن بنت رسول رب العالمين . .

وارتفعت الأصوات بين إبن عضاة وبين المختار ، فأقسم عبد الله بن الزبير على المختار أن يسكت ، فسكت .

ثم دار الحوار بين ابن الزبير وبين هؤلاء القوم ، وكثر الكلام ، ولم يجبهم ابن الزبير إلى ما يريدون فانصرفوا عنه[1] ، حتى إذا صاروا إلى يزيد فخبّروه بذلك ، فأمهله يزيد وجعل يتأنى في أمره ويقول لأصحابه : ويحكم إني قتلت بالأمس الحسين بن علي عليه السلام وأقتل اليوم عبد الله بن الزبير ؟ ! أخاف أن تشعث عليّ العامة ولا يحتمل ذلك لي ، ويتنغصّ عليّ أمري ! ![2]

المواجهة وإعلان الانفصال

وسكت يزيد عن ابن الزبير سنة كاملة يقلّب الأمر وجهاً لظهره وكانت خلالها المراسلات مستمرة بينهما في شأن البيعة ، يحاول فيها يزيد تفادي الصدام وإراقة

(١) وفي الأغاني ج١ ص٢٢ : فحبسهم شهراً ، ثم ردّهم .

(٢) الفتوح ج٥ ص٢٧٩ ـ ٢٨٤ (مع الاختصار) .

الدماء وإذا بالخبر يصله أن ابن الزبير منع الحارث بن خالد المخزومي عن الصلاة ، وكان يصلي في مكة من قبل يزيد[١] .

وأعلن عبد الله بن الزبير الانفصال رسمياً عن الدولة الأموية ، وأظهر أخذ البيعة في العلن ، وأخذ بالاعداد للمواجهة العسكرية الوشيكة الوقوع ، وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين[٢] . عندها لم يجد يزيد طريقاً لإنهاء فتنة ابن الزبير غير السيف .

فكتب يزيد إلى والي المدينة « عمرو بن سعيد بن العاص » أن إبعث جيشاً إلى ابن الزبير[٣] .

جهّز والي المدينة الجيش لقمع الحركة الزبيرية التي أخذت تزعزع كيان وشرعية الدولة الأموية .

سارت العساكر إلى بيت الله الحرام بقيادة عمرو بن الزبير ، رغم اعتراض المعترضين وسخط الساخطين وهو يرد عليهم بقوله : والله لنقاتلنه ولنغزونّه في جوف الكعبة على رغم أنف من رَغم .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٤٤ .

(٢) راجع الفتوح ج٥ ص٢٨٦ .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ج٦ ص٣٤٤ .

المختار يدافع عن حُرمة البيت

حط الجيش في أودية مكة . وكان المقاتلون منهزمين قبل الحرب لعلمهم بأنهم مأمورون بالقتال في البلد الحرام الذي حرّم الله فيه القتال . وبعد مفاوضات واهية بين الأخوين أبناء الزبير نشب القتال ، وانفرط جيش المدينة وتفرّق عن عمرو بن الزبير أصحابه ، وسقط أسيراً بيد عبد الله[1] .

وفي رواية الفتوح : أن عبد الله بن الزبير بلغه خروج أخيه عمرو في جيش المدينة ، فنادى في الناس ، وخرج من مكة في جيش . والتقى الجيشان بين مكة والمدينة واقتتلوا ساعة من النهار ، فقُتل من الفريقين جماعة وظهر المختار بن أبي عبيد في الميمنة والعباس بن سهل في الميسرة ، وابن الزبير في الوسط . فوقعت الهزيمة على جماعة بني أمية ، فقتل من القوم مقتله عظيمة ، وأسر من أُسِر وسقط عمرو بن الزبير أسيراً[2] .

وهكذا كان للمختار الدور البطولي في الدفاع عن بيت الله الحرام ، وصد أولئك الذين أرادوا هتك حرمة البيت بالغزو العسكري ، وكان من المعلوم أن جيش المدينة دخل الحرب في البلد الحرام وهو منحط المعنويات . . منهزم النفسية ، لأنه كان على علم بحرمة المكان وحرمة القتال فيه ، وسخط الكثير من صحابة الرسول ﷺ ، وعدم قبولهم انتهاك حرمة البلد الحرام ، حتى أولئك الذين كانت أيديهم ملطخة بالحرمات أمثال مروان ابن الحكم[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٤٤ .

(٢) الفتوح ج٥ ص٢٨٥ .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٤٤ (باختصار) . .

الإلتفاف على آل الزبير

خرج ابن الزبير منتصراً ، وأخذ يؤكد سيطرته وبدأ الكثيرون يركنون إليه باعتباره القوة الوحيدة التي تمكنت من الوقوف بوجه الدولة الأموية ، فانضم إليه المعارضون والذين نكبهم الأمويّون ، وازداد يوماً بعد يوم نفوذ الدولة الزبيرية .

وقد بايع ابن الزبير أهل الطائف وسائر الحجاز بعد أهل مكة[١] وهاجت المدينة المنورة ، وبايعت عبد الله بن حنظلة الغسيل[٢] على خلع يزيد بن معاوية .

وذهب وجوه أهل المدينة إلى مكة لإعلان خلع يزيد والبيعة لعبد الله بن الزبير ، فدخلوا المسجد عليه وأتوا المنبر فخلعوا يزيد وأظهروا البراءة منه[٣] ، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش فكانوا نحواً من ألف رجل ، فحصرهم الناس في دار مروان حصاراً ضعيفاً[٤] وبلغ ذلك ابن الزبير فأرسل إلى عبد الله بن حنظلة فولاه المدينة[٥] .

---

(١) الفتوح ج٥ ص٩٠ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٨٢ .

(٣) الأغاني ج١ ص٢٣

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٨٢ .

(٥) الفتوح ج٥ ص٢٩١

قمع ثـورة المديـنة

تفاقم الأمر على الدولة الأموية ورأت أن الأمور آخذة بالانفلات من يدها ، فقررت العمل بسرعة لقمع هذه الحركة التي اتخذت من البلد الحرام مقرّاً لها .

أرسل يزيد في طلب مسلم بن عُقبة المرّي - وهو شيخ كبير ضعيف مريض - حتى دخل عليه ، وبعد حوار قصير ، بدأ بن عقبة تجهيز الجيش ونادى مناديه : أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل(١) .

سارت الجحافل تحثّ المسير صوب الحجاز بقيادة مسلم بن عُقبة ، حتى إذا بلغ أهل المدينة إقباله وثبوا على من عندهم من بني أمية ، فأخرجوهم من المدينة . فخرجت بنوا أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى(٢) .

فإن إخراج هذا العدد الكبير بعد إهانتهم وإن أخذوا منهم المواثيق والعهود ، يعتبر من أكبر أخطاء أهل المدينة . فإن جيش الشام لم يكن له خبرة عن المدينة وعن تضاريسها وثغورها ، وقد سهّل الأمويّون المطرودون المهمة أمام الجيش ودلّوهم على العورات(٣) .

نشبت الحرب في أول النهار ، يقول مسلم بن عقبة : فما صليت الظهر إلاّ في

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٨٣ وفي الفتوح ج٥ ص٢٩٣ اجتمع إليه عشرون ألف فارس وسبعة آلاف راجل . . .

(٢) وادي القرى : هو وادي بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى . معجم البلدان ج٥ ص٣٤٥ .

(٣) فإن عبد الملك بن مروان الذي طُرد من المدينة هو الذي رسم خطة اقتحام المدينة وعمل بها مسلم بن عُقبة ونجحت أيما نجاح . تاريخ الطبري ج٥ ص٤٨٦ بتفصيل .

مسجدهم . . بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم[١] . فقد قتل من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلاً ـ ولم يبق بدرياً بعد ذلك ـ ومن قريش والأنصار سبعمائة : ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف[٢] ودخل أهل الشام إلى المدينة بالسيف فجعلوا يقتلون كل من يقدرون عليه من صغير أو كبير ، ثم وضعوا الغارة على أهل المدينة فأغاروا عليها ثلاثة أيام ولياليها وفجروا بالنساء[٣] ، حتى ولدت عشرة آلاف امرأة بعد الحَرَّة من غير زوج[٤] .

كانت وقعة الحَرّة لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ٦٣هـ[٥] ، وفي اليوم الرابع ـ وهو هلال محرم عام ٦٤ ـ خرج مسلم بن عقبة يريد مكة[٦] .

ثورة المدينة وكربلاء

إن ثورة المدينة قامت بعد واقعة كربلاء بثلاث سنوات ، فأحداث كربلاء الرهيبة حدثت في أول عام ٦١هـ وثورة المدينة قامت في أواخر عام ٦٣هـ . والسؤال هو : هل ثورة المدينة هي امتداد لثورة الإمام الحسين عليه السلام ؟

يرى الباحث (محمد علي الحسني) ، أن السبب المهم الرئيسي للثورة (ثورة المدينة) ـ هي ملحمة كربلاء البشعة[٧] .

---

(١) الإمامة والسياسة ابن قتيبة ج١ ص٢١٨ في رسالته إلى يزيد .

(٢) الإمامة والسياسة ج١ ص٢١٦ وفي الفتوح ج٥ ص٢٩٧ مجموع من قتل من أهل المدينة ستة آلاف وخمسمائة رجل .

(٣) الفتوح ج٥ ص٢٩٥ .

(٤) تذكرة الخواص ص٢٦٠ ويذكر أيضاً : . . وخاض الناس في الدماء ، حتى وصلت الدماء إلى قبر رسول الله ﷺ ، وامتلأت الروضة والمسجد ، والتجأ الناس إلى حُجرة رسول الله ﷺ ومنبره والسيفُ يعمل فيهم !

(٥) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٤ .

(٦) الفتوح ج٥ ص٣٠٠ .

(٧) في ظلال التشيع ص٣٤٩ .

لكن الثورة تقول غير ذلك ، فإننا لم نلمح ولا مرة واحدة في كلمات قادة المدينة وزعماء الثورة فيها إشارة ولو صغيرة إلى حادثة كربلاء ومظلوميه أهل البيت ﷺ ، لا من بعيد ولا من قريب . وإن كان عبد الله بن الزبير يلمّح في حديثه وخطبه إلى مجزرة كربلاء ويحاول أن يجعل منها ورقة رابحة في معركته ضد بني أمية ، فإن ابن حنظلة وابن مطيع وغيرهم من وجهاء المدينة لم يركنوا إلى أهل البيت ﷺ ، حتى لم يحاولوا الاستفادة منهم كورقة يكسبون بها المظلومين والضعفاء . وكان ابن مطيع قد تخلّف عن نصرة الحسين حينما التقى به عند مسيره إلى كربلاء[١] .

فلا يمكن بأي حال إيجاد أي سبب ليربط بين ثورة المدينة وبين أهل البيت ﷺ أو بين ثورة الإمام الحسين ﷺ .

فهي مجرد ثورة قامت خوفاً من سطو بني أمية وجورهم ، فهذا زعيم الثورة عبد الله بن حنظلة يرد على من اعترض عليه في قذفه وشتمه لبني أمية ويزيد بن معاوية ، : «اسكت ويحك ! فوالله ما خرجت بسيفي وطردت بني أمية عن المدينة حتى كنت أصعد إلى سطح بيتي في جوف الليل ، فأخاف أن ينحروني بالهجوم ، لما أرى من كثرة بني أمية وجورهم وأعمالهم القبيحة ، ولا أقدر أن أغيّرها»[٢] ، فهو لم يأت على ذكر الفاجعة التي أنزلها بنو أمية بأهل البيت ﷺ ، نعم أشار إليها عندما عاد من الشام ، ووصف يزيد بقوله : « . . رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات ، ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، ويقتل أولاد النبيين . . »[٣] .

وإن كان عامة أهل المدينة قد تألّموا لمقتل الحسين ﷺ وأهل بيته ، إلاّ أن هذه القضية الكبرى لم تدخل في مفردات ثورة المدينة ضد خلافة يزيد بن معاوية .

فالنتيجة أن أهل البيت ﷺ لم يكونوا من أوليات الثورة ، ولم يكونوا في هامشها .

---

(١) مع المختار الثقفي (سليم عبد الله) ص٦٦ .

(٢) الفتوح ج٥ ص٢٩١ .

(٣) تذكرة الخواص ص٢٥٩ .

وأيضاً في المقابل لم يبدُ أي تعاطف من قبل أهل البيت ﷺ مع هذه الثورة ، فلم ينقل التاريخ ـ الذي وصل إلينا ـ أي تأييد أو مشاركة من قبل الإمام زين العابدين ﷺ ، ومحمد بن الحنفية أو عبد الله بن عباس وغيرهم ، بل إن الإمام زين العابدين ﷺ خرج بثقله وعياله ومن انضم إليه إلى خارج منطقة الأحداث . وإن كان لا يُشك في أن أهل البيت ﷺ اعتصرت قلوبهم اسىً لما حلّ بأهل المدينة من القتل والتنكيل والهتك والسلب ، بل أعادت إلى أذهانهم صور عاشوراء الفظيعة ، وهمجية المتشدقين باسم الإسلام ، بل إن الإمام زين العابدين ﷺ أنقذ الكثيرين من سيف مسلم بن عقبه ، عندما أُتي به إليه[1] .

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٨٠ .

حصار مكة الأول

توجه الجيش الأموي نحو بيت الله الحرام ، لأداء مهمته الرئيسية ، وهي سحق الكيان الزبيري المتمرّد ، بل الذي يدّعي لنفسه الأولوية في قيادة دفة الحكم[١] .

بينما الجيش يحث المسير ، وإذا بقائده المُرّي يحلّ عليه الموت ، ويوصي بقيادة الجيش إلى الحصين بن نمير السكوني عن غير طيب قلب . . تنفيذاً لأوامر الخليفة يزيد[٢] .

سار الحصين بن نمير بالجيش وقدم مكة لأربع بقين من المحرّم عام ٦٤هـ فحاصر ابن الزبير أربعة وستين يوماً ، حتى جاءهم نعي يزيد بن معاوية لهلال ربيع الآخر[٣] .

لما التقى الجمعان دفع عبد الله أخاه المنذر في مجموعة من المقاتلين اشتبكوا مع جند الشام ، فاشتد القتال وقُتل المنذر ، وحمل جند يزيد حمله انكشف منها أصحاب عبد الله ، فكان يصابرهم ويجالدهم ويشد من عزيمة جنده[٤]

دفاع المختار

فلما قُتل المنذر بن الزبير والمسور بن مَخْرَمَة ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، نادى المختار :

---

(١) الخلافة الأموية ص٩٤ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٦ دعا مسلم بن عقبة الحصين بن نمير ، فقال له : يا ابن بردعة الحمار ، أما والله لو كان هذا الأمر إليّ ما ولّيتك هذا الجند ولكن أمير المؤمنين ولاّك بعدي . . خذ عني أربعاً : أسرع السير ، وعجّل الوقاع ، وعم الأخبار ، ولا تمكن قريشاً من أذنك ، ثم إنه مات . في الفتوح يذكر وصية أخرى ج٥ ص٣٠٠ .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٨ . وفي ص٤٩٧ : قدم أناس من الخوارج عليهم نجدة بن عامر الحنفي يمنعون البيت .

(٤) عبد الله بن الزبير ص١١٠ .

يا أهل الإسلام . . إليّ إليّ . . أنا ابن أبي عبيد بن مسعود . . أنا ابن الكُرّار لا الفُرّار . . أنا ابنُ المُقدمين لا المُحجمين ، إليّ يا أهل الحفاظ ، وحُماة الأوتار . . . فحمى الناسُ يومئذ ، وأبلى وقاتل قتالاً حسناً[١] ، وردّ جند يزيد عن بعض السكك[٢] التي دخلوها في أطراف مكة ، واستمر القتال مدّة شهر صفر[٣] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٥ .

(٢) السكك : الأزقة الواسعة (المنجد ص٣٤١) .

(٣) عبد الله بن الزبير ص١١٠ .

إنتهاك حرمة الكعبة

كان المشركون في الجاهلية يعظمون حرمة الكعبة ويحافظون عليها ويمنعونها من العوادي ، حتى أن أبرهة الحبشي لم يمكنه إيصال الأذى لهذا البيت العتيق .

جاء الإسلام فزاد في قداستها وتعظيمها ، ومنع رسول الله الطواف حول البيت عراة ومنع دخول المشركين[١] . واستمر البيت معظماً مكرماً حتى أحلّ جيش يزيد هذا البلد الحرام ، وهو قاصد من البداية الوصول إلى هدفه دون الاعتراف بأي مانع وإن كان نفس البيت الحرام . وهذا يفهم من الروايات التاريخية فإن الجيش كان معه آلة الحصار ومن المعروف أن مكة غير محصّنة بسور أو حصن ، فعندما طال الحصار استخدم الجيش الشامي المنجنيق ، ولم يذكر التاريخ أنهم صنعوه هناك ، فعلى القاعدة كانوا قد اصطحبوه معهم .

استمر القتال بين الجيش الشامي والزبيري قرابة الـ ٣٦ يوماً ولم يحسم القتال لصالح أي من الطرفين ، ونفد صبر جيش الخليفة حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول يوم السبت قذفوا البيت بالمجانيق - وليس منجنيقاً واحداً - وحرّقوه بالنار . وأخذوا يرتجزون الشعر ، وقال أحدهم !

كيف ترى صنيع أم فـرَوَة ... تأخذُهُمُ بين الصفا والمروة !

يعني بأم فروة المنجنيق[٢] .

---

(١) راجع تفسير الآية ﴿ وإذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثَابَةً للنَّاس وَآمَنَاً ﴾ البقرة : ١٢٥ ، والآية ﴿ . . ومَنْ دَخَلَهُ كانَ آمنَاً﴾ آل عمران : ٩٧ ، والآية ﴿ إنَّما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هَذَا ﴾ التوبة : ٢٨ ، ففيها بيان وافي عن حرمة البيت الحرام .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٨ وقد وردت في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تشير إلى ذلك في وسائل الشيعة ج٩ ص٣٤٥ حديث رقم ١٧٦٣٩ عن أبي عبد الله عليه السلام « . . . ولقد جاء أهل الشام ونصبوا المنجنيق =

فجعل ـ الحصين بن نمير ـ يرمي أهل مكة رمياً متداركاً لا يفتر من الرمي ، فجعل رجل من أهل مكة يقول في ذلك .

ابنُ نميرٍ بئسَ ما تَوَلّى قدْ أحرقَ المقامَ والمُصلّى
وبيت ذي العرش العليُّ الأعلَى قبلَةَ من حجَّ له وصلّى[1]

وقيل أن الكعبة احترقت نتيجة نار كانت تحملها النبل[2] وليس بالمنجنيق ، وقيل بسبب ابن الزبير وأصحابه وليس جيش الشام[3] وتهدمت جدران الكعبة نتيجة رمي المنجنيق[4].

استغل ابن الزبير هذه الحادثة ، وترك الكعبة ليراها الناس محترقة ، ويحرّضهم بذلك على جند يزيد[5].

قام أحد الباحثين والكُتاب بالدفاع المستميت عن يزيد ، وتبرأة ساحة جند الشام من القيام بهذه الفعلة النكراء[6] ، وليس هذا مقام مناقشتهم ، فإن أدلتهم لا تصمد أمام النقاش . فيزيد الذي لم يتورع عن قتل الحسين ريحانة رسول الله ﷺ وأهل بيت رسول الله ﷺ وسبي بنات رسول الله ﷺ حفاظاً على سلطته من التقوّض ، هل يمنعه حب السلطة هدم « أحجار » في صحراء الحجاز أو حرقها[7] ؟! .

=
على أبي قبيس (جبل في طرف المسجد الحرام) فبعث الله عليهم سبحانه كجناح الطير ، فأمطرت عليهم صاعقة ، فأحرقت سبعين رجلاً حول المنجنيق » .

(١) الفتوح ج٥ ص٣٠١ .

(٢) عبد الله بن الزبير ص١٠١ ، وفي تاريخ خليفة بن خياط ص١٩٦ : ونصب حصينٌ المجانيق على الكعبة وحرقها .

(٣) تاريخ خلافة بني أمية ص١١٣ .

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٩

(٥) صحيح مسلم كتاب الحج ج٣ ص١٤٤ ، عبد الله بن الزبير ص١١١ .

(٦) الدكتور نبيه عاقل في كتابه « تاريخ خلافة بني أمية » ص١١٤ .

(٧) رأينا كيف قام صدام بقصف العتبات المقدّسة في كربلاء والنجف ، عندما استدعى حفاظه على السلطة
=

انتهكت حرمة الكعبة وتهدمت واحترقت ، وهاج الناس واشتد القتال ، فقاتل المختار يومئذ في عصابة معه نحو من ثلاثمائة أحسن قتال قاتله أحد من الناس ، إن كان ليُقاتل حتى يتبلّد ، ثم يجلس ويحيط به أصحابه ، فإذا استراح نهض فقاتل ، فما كان يتوجّه نحو طائفة من أهل الشام إلاّ ضاربهم حتى يكشفهم .

قال عباس بن سهل : تولّى قتال أهل الشام يوم تحريق الكعبة عبد الله بن مطيع وأنا والمختار . . . فما كان فينا يومئذ رجُلٌ أحسن البلاء من المختار[١] .

قاتل المختار حتى ضجّ أهل الشام من قتاله ، فأقام القوم على ذلك أياماً لا يفترون عن القتال ليلاً ونهاراً ، حتى قُتل من أهل الشام خلق كثير ، وكذلك من أصحاب عبد الله بن الزبير[٢] .

توفى الخليفة يزيد بن معاوية في ١٥ ربيع الأول من عام ٦٤هـ ، وكان الحصين بن نمير قائد حملة الشام يحاصر مكة ، وكان المكيّون يعانون من شدّة الحصار . فلما علم ابن الزبير بوفاة يزيد ، نادى هو وأهلُ مكة جندَ الشام قائلين : « علامَ تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ » فلم يصدّقوهُم أول الأمر[٣] .

حتى قدم ثابت بن قيس النخعي . . . فمر بالحصين بن نمير فسأل عن الخبر ، فأخبره النخعي ـ بهلاك يزيد[٤] .

توقفت الحرب ، وحصلت مفاوضات بين الطرفين ولم يتوصلّوا خلالها إلى اتفاق ، فعاد جيش الشام إلى بلدهم .

=

ذلك . انظر التفصيل في كتاب (العراق بين الماضي والحاضر والمستقبل) ص٣٧٨ .

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٦ .

(٢) الفتوح ج٥ ص٣٠٢ .

(٣) عبد الله بن الزبير ص١١٣ .

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٠١ .

مصير الخلافة

انتهت أيام يزيد وحكومته ، وانتقلت مقاليد الخلافة إلى ولده الأكبر معاوية بن يزيد ، بوصية منه . كان معاوية بن يزيد ـ كما يذكر المؤرخون ـ بَرّاً تقيّاً فاضلاً ، وكنيته (أبو ليلى) ، وبويع بالخلافة ، فلم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى مات ، وقيل أربعين يوماً [١] .

لما كان آخر ولايته أمر فجمع الناس وخطب فيهم قائلاً «إني قد وليت عليكم أمركم وأنا ضعيف عنه . . . وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم» ثم دخل منزله وتغيّب حتى مات ، بعد أن أوصى أن يصلي الضحاك بن قيس

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٠٣ ، وفي مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٨٤ : فبويع أبو ليلى معاوية بن يزيد ، فخطب الناس ، فقال : أيها الناس ، ما أنا بالراغب في الإمارة عليكم ، ولا بالآمن من شرّكم . ألا أن جدي معاوية بن أبي سفيان قد نازع هذا الأمر من كان أولى به منه بالقرابة والقدَم ، فهو ابن عم نبيكم (يشير إلى عليّ عليه السلام) أعظم المهاجرين قدراً ، وزوج ابنته وأبو ذريته ، فركب جدّي منه ما تعلمون ، وركبتم معه ما لا تجهلون ، حتى نزلت به منيته . ثم تقلد الأمر أبي وكان غير خليق بها ، فقصرت مدته ، وانقطع أثره ، وضمّته وأعماله حفرتُه . لقد أنسانا الحزنُ به الحزنَ عليه ، فياليت شعري هل أقيلت عثرته ! أم غلبت عليه اساءته ! ثم صرت أنا ثالث القوم ، والساخط فيما أرى أكثر من الراضي ، وكما كنت لا احتمل آثاركم وألقى الله بتبعاتكم ، فشأنكم بأمركم ؟!

فقال له مروان : يا أبا ليلى لقد سنّ عمر بن الخطاب سنة فأتّبعها فقال معاوية : أتريد أن تفتنني عن ديني يا مروان . . . والله لئن كانت الخلافة مغنماً فلقد أصبنا منها حظاً ، وحسب آل أبي سفيان منها ذلك ثم نزل عن المنبر ، فقالت له أمه : يا بني ليتك كنت حيضة في خرقة ! ! فقال : وددت ذلك يا أماه ، أما علمت أن لله ناراً يعذّب بها من كان ظالماً ؟ فعاش أربعين يوماً ثم مات ، فقيل له : ألا تعهد بها إلى من أحببت ؟ فإنا سامعون له مطيعون ، فقال : كلا : لا أترك لبني أمية حلاوتها وأتزوّد لنفسي مرارتها . وكان ابن إحدى وعشرين سنة . « قيل » كان له مؤدب ممن يميل إلى علي عليه السلام ففطن به آل أبي سفيان أنه هو الذي دعَاهُ إلى تلك الخطبة وما فيها ، فقبضوا عليه بعد موت معاوية (الثاني) ودفنوه حيّاً .

الفهري بالناس حتى يقوم لهم خليفة وبذلك ترك معاوية بن يزيد منصب الخلافة شاغراً[١]. ولم يجتمع بنو أمية في بلاد الشام على خلف لمعاوية الثاني بعد أن تنازلَ عن الخلافة .

استغل ابن الزبير ذلك وأعلن خلافته في رجب من نفس العام ـ ٦٤هـ ـ وطالب الناس بالبيعة . وأتت ابن الزبير بيعةُ الآفاق إلاّ الأردن[٢] .

واعترفت كل البلاد بخلافة عبد الله بن الزبير ، إلا حسّان بن مالك في الأردن والشام ذات وضع غير مستقر .

---

(١) عبد الله بن الزبير ص١١٨ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٤٢ .

العداء لأهل البيت عليهم السلام

آل أمر الدولة الأموية إلى الضعف والانهيار ، وفي الجانب الآخر يتألق نجم الدولة الزبيرية ويتألق .

بدأ عبد الله بن الزبير ـ بعد أن استحكم أمره ـ يظهر المكنون بين جوانح صدره من الحقد الدفين لآل بيت رسول الله ﷺ ، فبعد أن كان يستخدم دم الحسين عليه السلام المسفوح ظلماً كورقة رابحة ضد الأمويين ، ويندد بانتهاك الأمويين لحرمة البيت النبوي الشريف ، أخذ هو يعلن العداء لأهل هذا البيت الشريف ، وقد واتته الفرصة وهو في رأس السلطة ، فأخذ يجاهر بشتم آل بيت رسول الله ويرتكب القبائح ضدهم ، وصار يفصح عن دخيلته أمام المسلمين في مكة المكرمة عندما يتشاجر مع ابن عباس في قضية طويلة فيقول له :

« . . . ولا زلت لكم يا بني هاشم منذ نشأت مبغضاً ، ولقد كتمت بغضكم أربعين سنة »[١] .

بل هذا الرجل لو كان خروج الحسين عليه السلام في أيام حكومته لما تأخر عن قتله وقتل أنصاره وانتهاك حرمة بيته ، لأن أهل البيت عليهم السلام كانوا العدو المشترك لكل من الأمويين والزبيريين . والفرق بينهما أن ابن الزبير يتستر بلباس الدين ويقول كلمته ويصدر أوامره وهو تحت ظل الكعبة وقد أنهكته العبادة ، بينما الأمويون يتظاهرون بالفسق والفجور ، ومع ذلك فإن فاته قتل الحسين ريحانة رسول الله ﷺ فقد حوى قَتَلَةَ الحسين وأصبحوا عنده آمنين[٢] بل من المقربين عند واليه على الكوفة ـ كما سيأتي .

---

(١) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٥١ .

(٢) مع المختار ص ١٤

فإن عبد الله بن الزبير كان قد أغرى ببني هاشم ، يتبعهم بكل مكروه ويغري بهم ويخطب بهم على المنابر ويصرح ويعرّض بذكرهم[١] .

وكان يبغض علي بن أبي طالب وينال من عرضه[٢] بل إنه قام خطيباً فنال منه عليه السلام[٣] في أيام خلافته يوماً ، والأشد من ذلك هو تركه الصلاة على النبي في الخطبة أربعين يوماً[٤] فقيل له : لمَ تركت الصلاة على النبي ؟ فقال : إن له أهل سوء يشرئبون لذكره ، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به[٥] .

بل تجاوز هذه الظاهرة إلى ما هو أسوء منها ، فقد قام بحبس محمد بن الحنفية وابن عباس وآخرين من بني هاشم وأنصارهم ـ كما سنرى ـ وضرب لهم أجلاً يقتلهم فيه أو يحرقهم بالنار . وبالفعل أضرم النار وكادت النار تلتهمهم لولا وصول النجدة التي بعثها المختار لاستنقاذ بني هاشم من يد طغيان ابن الزبير .

ومعلوم أن عبد الله بن الزبير هو من كان وراء حرب الجمل التي طحنت المسلمين وراح ضحيتها أكثر من ٣٠ ألف ، وهو الذي استطاع أن يغير رأي أبيه على علي ﷺ وهو ابن خاله . . واستطاع أن يسوق زوجة رسول الله عائشة إلى حرب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ[٦] .

قد شاهد المختار هذا العداء الغاشم وهو يظهر من ابن الزبير ضد أهل

---

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص٢٧٠ .

(٢) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص٢٦٩ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦١ .

(٤) مروج الذهب ج٣ ص٨٨ ، وفي كتاب (أحاديث أم المؤمنين) ص٢٦٩ أنه مكث أيام خلافته أربعين جمعة لا يصلي فيها على النبي ﷺ .

(٥) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦١ .

(٦) أحاديث أم المؤمنين ص٢٧١ وجاء في الصفحة ٢٦٩ قول أمير المؤمنين علي ﷺ : ما زال الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله .

بيت رسول الله ـ الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ـ ويزداد يوماً بعد يوم ، ووصلته أخبار الكوفة ، وأن قتلة الحسين ﷺ ليجالسون واليها من قبل ابن الزبير .

رأى المختار أن الأمور تزداد تعقيداً ، فهو وقف إلى جانب ابن الزبير وكان الأشدّ في قتال أعدائه الأمويين ، ولا تغيب عن باله قضية الانتقام من قتلة آل بيت رسول الله ﷺ ، ولكن الوضع يتغير حتى صار ابن الزبير الذي هو على خلاف في كل شيء مع الأمويين صار يوافقهم الرأي في كره الهاشميين ، ويتبعهم بكل مكروه ، بل يسابقهم فيسبقهم . فبني أمية بعد واقعة كربلاء حاولوا ترطيب العلاقة بينهم وبين بني هاشم ، وهو على العكس أراد قتلهم حرقاً ، ولما لم يتمكن طردهم عن مكة .

المختار يرى نفسه وحيداً لا يجد من يوافقه الرأي من بطانة ابن الزبير ، ويشمئز من هذا العداء الأرعن لأهل بيت رسول الله ﷺ.

ينحاز جانباً ويخلو بهمومه وآلامه التي تعتصر فؤاده ، ويبدأ بتخطيط جديد لشق المستقبل الغامض للوصول إلى أهدافه النبيلة وما يمليه عليه الشرع الحنيف والضمير الحي .

تغيير الاستراتيجية

هلك يزيد واستتب الأمر لعبد الله بن الزبير وقويت شوكته وعظمت دولته ، أقام المختار عنده أكثر من خمسة أشهر[١] آملاً أن يفي له ابن الزبير بما قطعه على نفسه من وعود[٢] لكن خاب ظن المختار لما رأى تنكره لوعوده[٣] .

أخذ المختار يخطط جدياً بتغيير استراتيجيته ، بعد أن فقد الثقة كاملة بحليف الأمس أخذ يراقب الموقف عن كثب ، ويتصرف تصرف القائد الحكيم . . ينتظر الفرصة السانحة ، فبدأ العمل المحكم الدقيق من الحجاز ، وكان يتظاهر أنه مع عبد الله بن الزبير ومن رجاله[٤] ، ومن الجانب الآخر فطن عبد الله بن الزبير إلى ظمور الحماس والاندفاع السابق الذي وقفه المختار إلى جانبه ، فقد ذكر سعيد بن عمرو ابن سعيد بن العاص قائلاً : والله إني لمع عبد الله بن الزبير ومعه عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف ، ونحن نطوف بالبيت ، إذ نظر ابن الزبير فإذا هو بالمختار ، فقال لابن صفوان :

انظر إليه ، فوالله لهو أحذر من ذئب قد أطافت به السباع ، قال : فمضى ومضينا معه ، فلما قضينا طوافنا وصلينا الركعتين بعد الطواف لحقنا المختار ، فقال لابن صفوان : ما الذي ذكرني به ابن الزبير ؟ قال : فكتمه ، وقال : لم يذكرك إلا بخير

---

(١) أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثأر ص٥٣ .

(٢) إشارة إلى شروط المختار على ابن الزبير في أن ينظم إلى جانبه وينصره مقابل أن لا يقضي الأمور دون المختار ، وأن يستعمله على أفضل عمله بعد أن يظهر ويقوى أمره ، راجع ص١٠٩ .

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٢٧٤ .

(٤) في ظلال التشيع ص٣٧٨ .

قال المختار : بلى ورب هذه البنيه ، إن كنت لمن شأنكما ، أما والله ليخطّن في أثري أو لاقدنَّها عليه سَعْراً (أي ناراً)[1] .

فابن الزبير فطن إلى الحذر والحيطة التي يعتصم بها المختار ، وفي الجانب الآخر المختار على حذر شديد ويترصد حركات وسكنات ابن الزبير ويقرأ تمتمات شفاهه .

ويذكّر ابن الزبير بالشروط المبرمة بينهما بأسلوب غير مباشر ويتهدده باستعمال أساليب تنتهي بالضرر الفادح على دولته التي بذل الكثير لبنائها وتقويتها .

لم ينفع كل هذا الكلام والتهديد ، فابن الزبير لا يخفى علية ولاء هذا الرجل للبيت العلوي وتفانيه في الذود عن آل رسول الله ﷺ ، ومواقفه مشهورة في استضافة مسلم بن عقيل في الكوفة ووقوفه إلى جانب الحسين عليه السلام وثورته ، وقربه من كبار الهاشميين ، ولا يبعد أنه قد جاهر بالدفاع عن آل البيت عليهم السلام ووقف بوجه ابن الزبير عندما كال التهم والشتائم لهم إبان سلطنته .

فرجل بهذا الولاء لأهل البيت عليهم السلام يستحيل على ابن الزبير أن يستعمله في عمل ، ولو كان الأضعف . فأهمله .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٧ .

هل ولّى ابن الزبير المختارَ ؟

وهناك قول ورد في بعض المصادر التاريخية يشير إلى أن عبد الله بن الزبير استعمل المختار على الكوفة وولاّه إياها .

وهذا القول لا يصمد أمام التمحيص ، فمن جانب أن هذه الرواية فيها اضطراب في دلالتها ، وثانياً أنها لا تصمد أمام بقية المصادر التاريخية التي تواتر فيها أن المختار لم يتولّ الكوفة من قبل ابن الزبير قط .

فقد روى المبرد ذلك وقد ضعفها في أول الأمر بقوله : ويروى أن المختار بن أبي عبيد حيث كان والياً لابن الزبير على الكوفة ، اتهمه ابن الزبير فولّى رجلاً من قريش الكوفة[١] .

وهناك رواية أخرى ينقلها المسعودي هي : أن ابن الزبير بعد أن بايعه أهل العراق ولّى عليها ابن مطيع العدوي ، فقال المختار الثقفي لابن الزبير :

إني لأعرف قوماً لو أن لهم رجلاً له رِفق وعلم بما يأتي لاستخرج لك منهم جنداً تغلب بهم أهل الشام . فقال :

من هم ؟ قال : شيعةُ بني هاشم بالكوفة ، قال : كن أنت ذلك الرجل ، فبعثه إلى الكوفة فنزل ناحية منها . . . فمالت الشيعة إليه ، وانضافوا إلى جملته ، وسار إلى قصر الإمارة فأخرج ابن مطيع منه ، وغلب على الكوفة وكتب إلى ابن الزبير يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع من الكوفة لعجزه عن القيام بها[٢] . .

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٩٤ .

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٨٣ .

ففي هذه الرؤية إشكالات في الدلالة بغض النظر عن كونها رواية واحدة لا تقوم معارضة أمام الروايات المستفيضة الأخرى التي تقول أن المختار انتزع الكوفة من ابن الزبير انتزاعاً.فالإشكال الأول:أن الذي تولى الكوفة من قبل ابن الزبير أول الأمر هو عبد الله بن يزيد وليس ابن مطيع ، وأن ابن مطيع تولى الكوفة بعد مدة مديدة من نزول المختار فيها ، فقد جاء إلى الكوفة في زمن عبد الله بن يزيد والي ابن الزبير الأول ، وقد وشي به عند الوالي فسجن المختار بسبب تلك الوشاية ولم يُطلق سراحه إلا بعد توسط عبد الله بن عمر عند الوالي وضمانة عشرة من شخصيات الكوفة و . . و . . كما سنذكره بالتفصيل في محله .

ـ ثانياً لو أن ابن الزبير ولى المختار الكوفة ، فلم لَم يتسلم الإمارة فور وصوله وذهب إلى ناحية من الكوفة ؟ ولماذا بعد ذلك يذهب هو ومن مال إليه إلى القصر ويخرج الوالي بالقوة ـ كما يفهم من حال الرواية ـ إذا كان قد تولّى من قبل ابن الزبير ؟ ولماذا يحاول المختار تبرأة نفسه أمام ابن الزبير بسبب حركته الانقلابية على الوالي إذا كان هو مبعوثاً لتولي شؤون الكوفة وأهلها ؟

وهاتين الروايتين وأمثالها روايات آحاد لا يمكن أن تقف أمام الفيض من الروايات المتفقة على مضمون واحد ، وهو كون ابن الزبير لم يولّ المختار أي عمل بالخصوص بعد ظهور خصوصيات كل واحد منهما ، فالزبير خصماً لأهل البيت وعدواً لهم ، والمختار خصماً قوياً عنيداً للأمويين والزبيريين . . معارضاً للحكم الذي مارسوه . . رافضاً لسياستهم[١] .

---

(١) في ظلال التشيع ص٣٧٢ .

الفصل السادس

البحث عن الطريق نحو الهدف

الكوفة تتحرك

بعد هلاك يزيد بن معاوية رأى الناس متنفّساً، وبالخصوص الكوفة التي كانت في كبت دائم وبطش من قبل ولاة بني أمية العتاة.

المختار بن أبي عبيد الثقفي في البلد الحرام ينتظر خروج الكوفة من يد الأمويين، ويترصد أخبارها، وبالفعل جاء الخبر منها أنها ثارت ضد الحاكم عليها بالوكالة (عمرو بن حريث) من قبل عبيد الله بن زياد ـ الذي بيده ولاية البصرة والكوفة معاً ـ وأخرجته[١] واصطلحوا على (عامر بن مسعود) يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرضونه.

فلم يلبث عامر إلا شهراً حتى بعث ببيعته وبيعة أهل الكوفة إلى ابن الزبير[٢].

انقضت أشهر على إمارة عامر بن مسعود ولم يتغير شيء ولم يستصلح أي فاسد أو على الأقل لم يذكر التاريخ حدوث أي تغيير في الوسط الاجتماعي الكوفي، وظهر أن هذا الرجل ليس له أهلية على قيادة الحركة الإصلاحية في هذا البلد المنكوب الذي توالت عليه الضربات وانتشرت المفاسد في كل جوانبه.

بل قد ذكر التاريخُ الكثير من المفاسد التي حصلت في أيام أمارة ابن مسعود.

فقد ذكروا أنه ولّى عُمالاً فأساءوا السيرة ومالوا إلى الخيانة، فقال عبد الله ابن همام السلولي في ذلك مخاطباً ابن الزبير:

يا ابن الزبير «أميرَ المؤمنين» ألم ... يبلغك ما فعل العمّال بالعَمَل

باعوا التجار طعامَ الأرض واقتسموا ... صُلْبَ الخَراج شحاحاً قسمة النَّفَل

أشدُدْ يديك بزيد إن ظفرت به ... وأشف الأراملَ من دُحروجَةَ الجُعَل

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٧.

زيد هو خازن بيت المال ، ودحروجه الجُعَل هو عامر بن مسعود لُقب بذلك لقِصَره .

إنا منينا بضب من بني خلف يرى الخيانة شرب الماء بالعسل

وخطب عامر بن مسعود يوماً فقال :

« يا أهل الكوفة لأُنسينَّكُم سيرة عمر بن الخطاب » وقال في يوم آخر : « يا أهل الكوفة إني قد تزوجت امرأة من بني نصر بن معاوية ، فأعينوني بأرزاقكم شهراً ـ فقال قائل : نعم ـ فأخذ أرزاقهم كلّها شهراً . . . . » .

فقال فيه ابن همام السلولي :

ما زلت أرجو أبا حفص وسيرته حتى نكَحْتَ بأرزاق المساكين
أنكحتُمُ يا بني نصر فتاتكُم وجهاً يشين وجوه الربرب[1] العين
أنكحتُم لا فتى دنيا يُعاشُ به ولا شجاعاً إذا شُقَّت عصا الدين
يا ابن الزبير لقد وليتَهُ شَبقاً كزّ اليدين بخيلاً ، غيرَ عنّين
لا يستطفّ له مال فيتركه ولا يقول لما يُعطاهُ : يكفيني[2]

وغيرها من الإساءات والمفاسد .

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٤٥ .

المختار يتطلع إلى الكوفة

وكان المختار قد يأس من وفاء ابن الزبير له بوعوده ، لذلك جعل لا يقدم عليه أحد من الكوفة إلا سأله عن حال الناس هناك ، فأخبره هانيء بن حَيّة الوَداعيُّ باتساق أهل الكوفة على طاعة ابن الزبير ، إلا أن طائفة من الناس هم عُدَدُ أهلها لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما .

فقال المختار : أنا أبو إسحاق ، أنا والله لهم ان أجمعهم على الحق وألقي بهم رُكبان الباطل وأُهلك بهم كل جبار عنيد[1] . فالمختار الذي خبر الكوفة وعاش فيها أعواماً كثيرة يعرف دوائها ، ويرى في ذاته الأهلية والكفاءة لسياستها وإدارتها ، وهو لحنكته السياسية لم ينس أن يوثق صلته بأهلها ، ويستمر في الاتصال بهم[2] . فهذه الصلة لابد أن تدعمه للوصول إلى الهدف النبيل الذي غدا هاجسه الوحيد ، فالكوفة بلد فيه الكثير من المخلصين للحق والذائبين في ولائهم لأهل البيت ﷺ ، وهم بالطبع لا يصبرون على انتهاك حرمتهم من أي كان ، فأكثر نقمتهم على بني أمية كان لارتكابهم المنكر مع آل بيت رسول الله الأطهار ﷺ ، ولم يتغير الوضع مع ابن الزبير ، فأخذ هو أيضاً يمارس العداوة لأهل هذا البيت الطاهر . .

لهذه الأسباب وغيرها لم تتقبل الكوفة كثيراً خلافة ابن الزبير ، وما لبثت أن انقلبت عليه ، وذلك أن المجتمع الكوفي كان بحاجة ماسة إلى حركة إصلاحية

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص١٧١ . وفي تاريخ الطبري ج٥ ص ٥٧٨ . فقال له هانيء : ويحك يا ابن أبي عبيد إن استطعت أن لا توضع في الظلال ليكن صاحبهم غيرك ، فإن صاحب الفتنة أقرب شيء أجلاً ، وأسوء الناس عملاً ، فقال له المختار : إني لا أدعوا إلى الفتنة ، إنما أدعوا إلى الهدى والجماعة .

(٢) الانتفاضات الشيعية ص٤٥٤ .

شاملة . . . وأخفق ابن الزبير أن يكون البديل المنتظر[١] .

صمم المختار على التحرك نحو الهدف الذي طالما انتظره بفارغ الصبر ، بالخصوص بعد أن كان ابن الزبير يتعرّض لثقيف شاتماً ، وهو بذلك يلمّح للمختار وأمثاله ، فكان يقول عنهم : «ثقيف . . قصار الخدود . . لئام الجدود . . سود الجلود . . بقية ثمود»[٢] ، وكانت هذه السياسة منفّرة لأصحابه عنه ـ كما سنرى ـ وقرر ترك ابن الزبير ، وقال :

ذو مخاريقَ وذو مندوحة	وركابي حيثُ وجّهتُ ذُلُلْ
لا تبيتَنْ منزلاً تكرَهُهُ	وإذا زلت بك النعلُ فَزَلْ[٣]

ومن خلال سؤال المختار عن الكوفة لم يفته أن يسأل عن آخر أخبار سليمان بن صُرد الذي يقود حركة التوابين ، فقال لابن حية : لكن خبرني عن سليمان ابن صُرد وأصحابه هل شخص إلى قتال المحلين ؟ فقال :

لا ، ولكنه عازم على ذلك . .

فسكت المختار[٤] . .

أذن هناك حركة نشيطة في أرض الكوفة ، والجو متوتّر لصالح الأخذ بثأر الحسين عليه السلام وأصحابه المستشهدين بين يديه . ولكن المشكلة أن سليمان ضعيف التخطيط أو أن الجو مشحون بالندم على خذلان ابن بنت رسول الله ﷺ بعد أن عاهدوه على النُصرة ـ غلّب جانب الرغبة بالموت عند هؤلاء على التفكير بالبقاء .

قبل أن يغادر مكة صوب الكوفة توجه إلى لقاء محمد بن الحنفية ، فقال له : إني على الشخوص للطلب بدمائكم ، والانتصار لكم ، فسكت ابن الحنفية لم يأمره

(١) تاريخ العرب والإسلام (زكار) ص١٤٩ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٥٢ .

(٣) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٧٥ .

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٨ .

ولم ينههُ، فقال المختار : إن سكوته عني إذن لي ، وودّعه ، فقال له ابن الحنفية : عليك بتقوى الله ما استطعت . ويقال أنه قال : إني لأحب أن ينصرنا ربُّنا ويهلك من سفك دمائنا ، ولست آمر بحرب ولا إراقة دم ، فإنه كفى بالله لنا ناصراً ولحقنا آخذاً وبدمائنا طالباً[١] . وبعدها غادر مكة . ولا يخفى ما في كلام ابن الحنفية من التقيه للوضع الحرج الذي كان يعيشه ، كما سيتبين لنا فيما بعد خلال البحث .

وركب المختار رواحله[٢] ، والذي يظهر من هذه العبارة أنه لم يخرج لوحده بل خرج مع جموع من مواليه وأنصاره وأهله متوجهاً نحو الكوفة .

ولكن هل خروجه كان بعلم ابن الزبير أم كان بسرية ؟

الروايات متضاربة بهذا الشأن ، فمن جانب تقتضي الأوضاع أن يكون خروجه سراً عن ابن الزبير ، لأن ابن الزبير يعرف توجهه الشيعي ، وهذا يدعو إلى عدم الثقة به ، ومن الجانب الآخر ذكرت بعض الروايات أن خروجه إلى الكوفة كان تحت إشراف ابن الزبير وبأذنه ، فرواية البعض أن المختار استأذن ابن الزبير في التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته ، فوثق به ووصى عليه . وزاد المسعودي أنه أمر المختار على جيش وبعثه إلى الكوفة كما ذكرنا سابقاً[٣] .

وأكثر المصادر التاريخية على اختلاف معانيها تتفق على أن توجه المختار نحو الكوفة لم يكن بأذن ابن الزبير بل كان سراً[٤] ، وقد لا يكون ابن الزبير علم بوجهة المختار إلاّ بعد وصول نبأ استقراره في الكوفة .

النتيجة أن المختار وبعد انتهاء حواره مع القادم من الكوفة ـ هاني بن جبه الوداعي (أو حيّه الوادعي) سكت ، ثم انصرف إلى منزله .

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٠ .

(٢) مقتل الحسين (لوط بن يحيى) ص٢٧٩ .

(٣) الأعلام (للزركلي) ج٨ ص٧٠ ، (مروج الذهب) ج٣ ص٨٣ وغيرهما .

(٤) الفتوح ج٦ ص٥٤ ، مقتل الحسين (لوط بن يحيى) ص٢٧٨ ، مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٨٦ ، تاريخ الطبري ج٥ ص٢٧٨ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص١٧١ .

إلى الكـوفـة

إذاً المختار ترك مكة متوجهاً إلى الكوفة ولكـن بحـذر شـديد لئلا يثير شكوك عبد الله ابن الزبير الذي قد يمنعه من مغادرة مكة ، وبذلك يعرقل تحقيق مشروعه[١] .

فلما كان الليل وثب فاستوى على فرسه وخرج من مكة بغير علم من عبد الله بن الزبير ، فلم يصبح إلا على مرحلتين من مكة[٢] ثم سار مجداً يريد الكوفة[٣] .

عندما توسط الطريق في مكان يقال له القرعاء[٤] لقيه سلمة بن مرثد من هَمْدان ، فلما التقيا تصافحا وتساءلا ثم سأله : حدثني عن الناس بالكوفـة . قـال : هـم كغنـم ضلّ راعيها ، فقال المختار : أنا الذي أُحسن رعايتها وأبلُغ نهايتها .

فقال له سلمه : اتق الله واعلم أنك ميت ومبعوث ، ومحاسب ومجزيٌّ بعملك إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ثم افترقا[٥] .

الذي يظهر من هـذا الحـوار والـذي سبقه مـع بـن أبـي حيـة ، أن هنـاك تخوفاً شديداً من هذا المنصب ـ منصب القيادة ـ في الكوفـة ، وحالـة ذعـر مـن أي حركـة مضادة للحكومـة ، ففـي التصـور العـام أن أي حركـة ضـد الحكومة تعنـي الفشـل والهلاك والدمار .

فالكوفة خاضت تجارب عسيره في زمن الدولة الأموية ، وقامت بعض الحركـات الإصلاحية ، مثـل حركـة حجر بـن عـدي الكنـدي ومسـلم بـن عقيـل وعبـد الله بـن عفيف الأزدي وغيرها ، وكلها باءت بالفشل بل وخلفّت الويلات لكل مـن ارتبـط بها من قريب أو بعيد .

---

(١) الخلافة الأموية (دكس) ص٦٦ .

(٢) المرحلة : هي مسافة التي يقطعها المسافر في يومه (المنجد ص٢٥٣) .

(٣) الفتوح ج٦ ص٥٤ .

(٤) معجم البلدان ٧/ ٥٥ هو منزل في طريق مكة من الكوفة .

(٥) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٨ (بتصرف) .

ولكن المختار كان أقوى عزيمة وأكثر حنكة وأقل تهوّراً ، والرأي العام أكثر استجابة لأي حركة تغييرية وإصلاحية جادّة والهدف السامي الذي ظل يراوده ليل نهار ـ وهو الانتقام من قتلة الحسين وأهل بيته وأنصارهم ـ كل هذه الأمور شدت في عزيمته وجعلته أكثر تصميماً على المبادرة نحو الغرض المنشود ، بعد التوكل على الله ، وقد سمع قول إمامه أمير المؤمنين ﷺ : « . . فلما رأى الله صدقنا ، أنزل بعدونا الكبْت ، وأنزل علينا النصر . . »[١] ناهيك عن البشارات التي سمعها من المقربين من الإمام علي ﷺ التي تبشره بأنه من سينتقم من قتلة أهل بيت رسول الله ﷺ[٢] .

وقبل أن يدخل الكوفة عدل عنها إلى كربلاء . واغتسل ولبس ثياب الزيارة وسلَّم على قبر الحسين ﷺ واعتنقه وقبله وبكى وقال :

يا سيدي آليت بجدك المصطفى ، وأبيك المرتضى وأمك الزهراء وأخيك الحسن المجتبى ومن قتل معك من أهل بيتك وشيعتك في كربلاء ، لا أكلتُ طيب الطعام ، ولا شربت لذيذ الشراب ، ولا نمتُ على وطيىء المهاد ، ولا خلعت عن جسدي هذه الأبراد ، حتى انتقم لك ممن قتلك أو أُقتل كما قُتلت ، فقبح الله العيش بعدك . ثم ودع القبر وركب وسار إلى الكوفة[٣] .

جدّ المختار في السير ، ووافى الكوفة يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان عام ٦٤هـ/ السادس من آذار عام ٦٨٤م[٤] .

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٥٦ ص٩٢ .

(٢) مرّت في الصفحة ٧٣ .

(٣) مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٨٧ .

(٤) الخلافة الأموية (دكسن) ص٦٦ .

أرض الآمال (الكوفة)

وطئت قدما المختار هذه الأرض التي فارقها منذ سنوات ، ويحمل في ذاكرته عنها أنه فارقها بعد أن عان الأمرّين من سجونها وظلمها ، ولكنها تبقى الأمل العذب التي بدونها تكون الأحلام والآمال بعيدة المنال بُعد النجوم عن يد الإنسان .

توقف في الحيرة[١] فنزل واغتسل في نهرها ، ثم لبس ثيابه وأعتمّ بعمامته وتقلد بسيفه ، ثم ركب وأقبل حتى دخل الكوفة نهاراً[٢] جهاراً[٣] .

فمر بمسجد السَّكون وجبَانة كندة ، وأخذ لا يمر بمجلس إلا سلّم على أهله ، وقال : أبشروا بالنصر والفلج ، أتاكم ما تحبون .

وأقبل حتى مر بمسجد بني ذُهل وبني حَجر ، فلم يجد ثمّ أحداً ، ووجد الناس قد راحوا إلى الجمعة ، فاقبل حتى مرّ ببني بدّاء ، فوجد عبيدة بن عمرو البدّي من كندة ، فسلم عليه ، ثم قال :

أبشر بالنصر واليسر والفلج ، إنك أبا عمرو على رأي حَسَن لن يدع الله لك معه مأثماً إلا غفره ولا ذنباً إلا ستره ـ وكان عبيدة من أشجع الناس وأشعرهم ، وأشدهم حباً لعلي ﷺ ، وكان لا يصبر عن الشراب ـ فلما قال له المختار هذا القول قال له عبيدة : بشرك الله بخير ، إنك قد بشرتنا ، فهل أنت مفسِّر لنا ؟ قال : نعم ، فألقني في الرحل الليلة ، وبلّغ أهل مسجدكم هذا عنّي : أنهم قوم أخذ الله ميثاقهم على طاعته . . يقتلون المحلّين ، ويطلبون بدماء أولاد النبيين ، ويهديهم للنور المبين ، ثم مضى فقال لابن عمرو : كيف الطريق إلى بني هند ؟ يقول ابن عمرو

(١) الحيرة مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة ـ انظر معجم البلدان ٣/ ٣٧٦ .

(٢) الفتوح ج٦ ص٥٥ .

(٣) مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٨٦ .

فقلت له: انظرني أدلك، فدعوت بفرسي فركبته.. ومضيت معه إلى بني هند، فقال: دلني على منزل إسماعيل بن كثير، فمضيت به إلى منزله فاستخرجته، فحياه ورحب به، وصافحه وبشره، وقال له ألقني أنت وأخوك الليله وأبو عمرو فإني قد أتيتكم بكل ما تحبون، ثم مضى ومضينا معه حتى مر بمسجد جهينة الباطنة، ثم مضى إلى باب الفيل فأناخ راحلته، ثم دخل الجامع وصلى فيه، فرأى الناس ينظرون إليه، ويقول بعضهم لبعض: هذا المختار ما قدم إلا لأمر، ونرجو به الفرج، وخرج من الجامع[1] ومر على حلْقة همْدان (قبيلة) وعليه ثياب السفر، فقال: أبشروا، فإني قد قدمت عليكم بما يسرّكم[2]. وكان هذا أول دخوله الكوفة.. لا يمر على مجلس قوم أو مجتمع محال، إلا وقف وسلّم وقال: أبشروا بالفرج، فقد جئتكم بما تحبون وأنا المسلّط على الفاسقين، والطالب بدماء أهل بيت نبي رب العالمين...[3] ومضى حتى نزل داره[4].

طبعاً المختار ما كان ليقوم بهذا العمل الإعلامي جهاراً لولا الفراغ السياسي الذي تعيشه الكوفة في ذلك الوقت.

فالكوفة التي بعثت بيعتها إلى ابن الزبير بواسطة من أقامته على الصلاة، لم تقبل بابن الزبير إلا لكونه ضد الأمويين الذين ملّت تعسفهم واضطهادهم.

هذا الفراغ وأمور أخرى سنذكرها هي ما فسحت المجال أمام المختار للجهر بأهدافه أمام عامة الناس، وبالخصوص الموتورين بقتل الحسين ﷺ وأهل بيته، الذين لا يبرد غليلهم إلا بعد تطهير الأرض من قتلته الجناة.

---

(١) العوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٦٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٩.

(٣) العوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٦٧٦.

(٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٩.

فسنرى كيف أن قتلة الحسين ﷺ يسيرون في أزقة الكوفة آمنين مطمئنين، وقائد التوابين يتجه بجيشه نحو الشام.

نزل المختار في داره التي تدعى دار سَلْم بن المسيّب[١] ولعل هذه الدار التي كانت تقع إلى جانب الجامع ـ جامع الكوفة ـ أي أنه كان مقيماً في مركز الكوفة[٢]، وهذا المكان له استراتيجيته، وأيضاً خطره، فكل التحركات والسكنات تكون مكشوفة أمام السلطة، فإنه لا يفصل بين بيته وبين قصر الحكومة سوى الجامع.. ومع أخذ حنكة المختار بعين الاعتبار يتبين لنا مدى ضعف سيطرة الحكومة ـ حكومة ابن الزبير ـ على الأوضاع الداخلية، بالخصوص بعد معرفتنا عدم قبول الكثيرين بخلافة ابن الزبير إلاّ لسدّ الفراغ السياسي الحاصل.

المهم أن حركة المختار المكوكية على قبائل الكوفة، وهو يزف إليهم البشائر ويظهر نفسه بمظهر البشير لعهد جديد، جمعت عدداً كبيراً من شيعة الكوفة لنفسه، فحتى أولئك الذين لم يكونوا قد فكّروا في إشراك أنفسهم معه لسبب أو لآخر كانوا بدافع حب الاستطلاع يريدون معرفة ما جاءهم به، ولصالح مَن كان يدعو في مثل تلك الفترة المضطربة[٣].

وقد عادت بهم الذاكرة إلى سنوات خلت عندما نزل مسلم بن عقيل سفير الحسين ﷺ ـ إلى أهل الكوفة ـ في منزله، وموقفه الشجاع في نصرته مما أدى إلى مكوثه في سجن ابن زياد الرهيب، وفي تلك الأيام كان قد عرف عنه أنه من سيأخذ بثأر الدماء الزاكية لأهل بيت رسول الله ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٩.

(٢) الكوفة (نشأة المدينة العربية) ص٢٣٦.

(٣) الخلافة الأموية (دكسن) ص٦٦.

المختار قائداً

قال عبيد بن عمرو وإسماعيل بن كثير من بني هند : أتيناه من الليل كما وعدنا، فلما دخلنا عليه وجلسنا سألنا عن أمر الناس وعن حال الشيعة، فقلنا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعي وأنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج . . .

فحمد ـ المختار ـ الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال:

أما بعد، فإن المهدي ابن الوصي محمد بن علي بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً ، وأمرني بقتال المحلين والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء . .

فكان عبيدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير أول خلق الله إجابة وضرباً على يده وبايعاه[١] .

ولا بد من التنويه أن كلمة (المهدي) التي كثيراً ما ذكرها الرواة عن لسان المختار يصف بها محمد بن الحنفية ، هي إما أن تكون مدسوسة من قبل الأمويين لتشويه صورة المختار عند أتباع أهل البيت ـ بأنه كان يقدم محمد بن الحنفية على زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام ـ أو تكون بمعنى الهداية والانقياد إلى طريق الصواب والرشاد[٢] .

فقد ذكر ابن سعد أنه كانوا يسلمون على محمد بن الحنفية : السلام عليك يا مهدي ، فقال : أجل، أنا المهدي . . أهدي إلى الرشاد والخير . . إسمي إسم نبي الله وكنيتي كنية نبي الله ، فإذا سلّم أحدكم فليقل : سلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم[٣] .

هذه الرواية صريحة بأن ابن الحنفية كان لا يرضى أن يفهم من كلمة (المهدي) أكثر من المعنى اللغوي لها ، بل يفضل عدم مخاطبته بهذا اللفظ .

---

(١) مقتل الحسين (لوط بن يحيى) ص٢٨ ، تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٩ .

(٢) مع المختار الثقفي ص٧٢ ـ ٧٤ (باجمال) .

(٣) طبقات ابن سعد ج٥ ص٩٤ .

أما ما أطنب به بعض المؤلفين في كون أن (المهدي) يقصد بها الإمام المهدي الموعود الذي وعدت به الكتب السماوية . . الذي يظهر في آخر الزمان ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، فهذا قول بعيد عن الصحة ولا يعتمد على دليل(١) .

وفي اليوم الثاني بعث المختار إلى وجوه الشيعة فدعاهم ، وذكر لهم نحواً مما ذكر الليلة السابقة ، فقالت الشيعة : يا أبا إسحاق أنت موضع ذلك ، غير أن الناس اجتمعوا إلى سليمان بن صُرد الخزاعي ، وأنت تعلم أنه شيخ الشيعة اليوم ، فلا تعجل إلى أن تنظر وينظروا ، ويؤول الأمر إلى ما تحب إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

فسكت المختار ، وأقام بالكوفة ينتظر ما يكون من أمر سليمان بن صُرد(٢) .

تيقن المختار بالفعل أن الوقت غير مناسب لطرح مشروعه مع وجود سليمان في الميدان وهو حامل لواء الطلب بثأر الحسين .

---

(١) قد أطنب في ذلك الكثير من المؤلفين ، نخص بالذكر المستشرق الهولندي (فان فلوتن) في كتابه (السيطرة العربية) والمقدمة التي كتبها لهذا الكتاب إبراهيم بيضون في الدولة الأموية والمعارضة .

(٢) الفتوح ج٦ ص٥٦ .

عبد الله بن الزبير يرتاب من المختار

لم ينفض المختار عن بدنه وثيابه وعثاء الطريق وغبار الصحراء إلا وابن الزبير قد علم بوجوده في الكوفة ، فتدارك الأمر قبل أن يفسد المختار البلد عليه ، فأرسل إلى عامر بن مسعود الجمحي فعزله عن الكوفة ، وولّى عليها عبد الله بن يزيد الأنصاري أميراً وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج ـ المالية ـ [١] وكان وصولهما بعد أن دخلها المختار بأسبوع واحد فقط أي في يوم الجمعة ٢٢/ رمضان/ ٦٤ هـ [٢] .

ولم يكن هذا على كل حال اختياراً موفقاً من جانب ابن الزبير ، ذلك لأن والد إبراهيم وجده كانا قتلا في معركة الجمل ٣٦هـ/ ٦٥٦م ـ في الجبهة المقابلة لجبهة الكوفة ـ مما جعل من المتعذر أن تكون هناك علاقة وديّة بينه وبين أهل الكوفة . ومن جهة أخرى فإن العلاقة بين الوالي وبين عامل الخراج لم تكن وديّة[٣] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص٥٦ « بتصرف » .

(٢) مقتل الحسين (لوط بن يحيى) ص٢٥٩ .

(٣) الخلافة الأموية (دكسن) ص٦٩ .

المختار والتوابين

بقي المختار في الكوفة يتابع الأوضاع عن كثب ، فجمهور الشيعة مع سليمان بن صُرد لا تعدل به أحداً ، وهو من صحابة الرسول ﷺ وكان اسمه يساراً فسماه رسول الله ﷺ سليمان ، وكان لـه سنٌ عالية وشرف في قومه ، فلما قبض رسول الله ﷺ تحول فنزل الكوفة ، وشهد مع علي (الجمل وصفين)[1] ، وهو شيعي مخلص في ولائه لأهل البيت عليهم السلام.

وكان أي دخول للمختار في ساحة الصراع يعني سقوطه الحتمي أولاً ، وتفكك التنظيم الشيعي الكوفي ثانياً ، والابتعاد عن الهدف المرصود لكلا الزعيمين وعامة الشيعة ثالثاً ، وبروز أعداءهم بحالة أقوى من سابقتها رابعاً .

ففضّل المختار التريّث وانتظار ما تؤول إليه الأمور ، والترقب حتى تذعن عامة الشيعة لخططه ، وتقتنع بأنه فعلاً المنقذ الوحيد .

فقد كان المختار يبعث إلى الشيعة ، ويدعوهم إلى نفسه ، ويحذرهم من الانضمام تحت لواء سليمان بن صُرد وأن حركته لا توصلهم إلى الهدف الذي يناضلون من أجله يقول :

. . . إن سليمان بن صُرد ـ يرحمنا الله وإياه ـ إنما هو عَشَمَةَ من العشم[2] وحفش بال ، ليس بذي تجربة للأمور ، ولا له علم بالحروب ، إنما يريد أن يخرجكم فيقتِل نفسه ويقتلكم[3] .

---

(١) تذكرة الخواص ص٢٥٥ .

(٢) رجل عَشَمَةَ : يابس من الهزال .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٨٠ .

وفي المقابل كان البعض يحاول أن يهيج سليمان بن صرد على المختار، فقد قال له حميد بن مسلم:

إن المختار والله يُثبِّط الناس عنك.. إني كنت عنده أول ثلاث، فسمعت نفراً من أصحابه يقولون: قد كملنا ألفي رجل، فقال سليمان: وهَبْ أن ذلك كان...[1]

ولم يتعرض للمختار بأي نقد أو تجريح أو إهانة، مع أن المختار قد بادر بانتقاده، ووضّح أن حركة سليمان بن صَرد حركة انتحارية فحسب، بينما هو يريد تغيير الكيان السياسي للبلاد، بل إعادة الاعتبار القيادي للعراق بعد أن فقده منذ صلح الإمام الحسن ﷺ مع معاوية.

والذي يظهر أن انتقاد المختار لسليمان بن صُرد حصل بعد أن أعلن توجهه للشام، وقبل هذا الإعلان كان المختار ساكتاً لم يعارض قيادة بن صُرد.

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٨٤.

حركة التوابين

حركة التوابين بدأت منذ قتل الحسين ﷺ ٦١هـ ـ إلا أنهم رأوا كتمان مبادئهم، وقضوا هذه الفترة بين عام ٦١ ـ ٦٤هـ، في الاستعداد للقتال وجمع الأسلحة واستمالة الناس.

وتزعم حركة التوابين خمسة من زعماء الشيعة هم ١ ـ سليمان بن صرد الخزاعي ٢ ـ المسيب بن نَجَبَة الفزاري ٣ ـ عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ٤ ـ عبد الله بن والي التميمي ٥ ـ ورفاعه بن شداد البجلي، وكلهم من خيار صحابة علي ﷺ، ونظرة واحدة إلى هذه الأسماء تعطينا فكرة عن القبائل التي ساهمت في هذه الحركة التوابية[١]. وكتب ابن صرد إلى شيعة المدائن وشيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين فأجابوه جميعاً إلى ما دعاهم إليه.

وفي الوقت المحدد. نادى سليمان بن صرد في أصحابه، فجعلوا يخرجون من منازلهم على الخيل العتاق، وقد أظهروا الآلة والسلاح، فجعلوا يسيرون في أسواق الكوفة، والناس يدعون لهم بالنصر والظفر، حتى إذا صاروا إلى النخيلة[٢] عسكروا بها[٣].

وكان شعارهم: (يا لثارات الحسين) ﷺ، وهم أول من نادى بهذا النداء[٤].

وتهيأ الناس للمسير وعزموا على ذلك، وجعل عبد الله بن عوف بن الأحمر الازدي يحرض الناس على ذلك... فأنشأ يقول:

---

(١) عشر ثورات في الإسلام ص١٠٨ نقلاً عن تاريخ الطبري والبلاذدي.

(٢) النخيله: موضع قرب الكوفة على سَمْت الشام. معجم البلدان ج٥ ص٢٧٨.

(٣) الفتوح ج٦ ص٥٨

(٤) نهضة الحسين بداية لا نهاية ص٥٥.

صحوتُ وودّعتُ الصِّبَا والغوانيا وقلتُ لأصحابي : أجيبُوا المُناديا
وقولوا له ، إذ قامَ يدعوا إلى الهُدى وقتْل العدَى : لبيكَ لبيكَ داعيا
وشُدُّوا له ـ إذ سَعَّرَ الحربَ ـ أزْرَه ليُجزَى امْرؤٌ يوماً بما كان ساعيا[١]

أين يكمن الطلب؟

تجمعت الجموع والأنصار المتحمسين للأخذ بثأر الحسين عليه السلام في معسكرهم في النخيلة ، وعندما عزم سليمان بن صرد على الرحيل ـ صوب الشام ـ حدث الخلاف

---

(١) الفتوح ج٦ ص٦١ ، والقصيدة طويلة ، منها :

وسيروا إلى القوم المحلين جنة وهزوا حرابا نحوهم وعواليا
ألسنا بأصحاب الحريبة والأولى قتلنا بها ما كان حيران باغيا
ونحن شمرنا لابن هند بجحفل كركن حوى يرجى إليه الدواهيا
فلما التقينا بيّن الطعنُ إننا بصفين كان الأصرع المتهاديا
وحتى استغاثوا بالمصاحف واتقوا بها وقعات يختطفن المحافيا
فدع ذا ولا تيئس له من ثوابه وتب واغز للرحمن إن كنت غازيا
ألا وانع خير الناس جدا ووالدا حسينا لأهل الدين أن كنت ناعيا
ليبك حسينا من رعى الدين والتقى وكان غياثا للضعيف وكافيا
ويبك حسينا كل عار ولا بس وأرملة لا تحمل الدهر حافيا
ويبك حسينا ذو أمان وحفظة عديمٌ وأيتامٌ عدمن المواليا
لحا الله قوماً أشخصوه وعودوا فلم ير يوم الناس منهم مواسيا
وأضحى حسين للرماح دريئة وغودر مسلوبا لدى الطف ثاويا
فيا ليتني إذ ذاك كنت شهدتهم وضاربت عنه الشانين الأعاديا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهدا وأعملت سيفي فيهم وسنانيا
ويا ليتني أخطرت عنه بأسرتي وأهلي وخلاني جميعاً وماليا
سقى الله قبرا ضمّن المجد والتقى بغربية الطف الغمام الغواديا
فصلى عليه الله ما هبت الصبا وما لاح نجم أو تحدّر هاويا
وقد كسفت شمس الضحى لمصابه وأصبحت الآفاق غبرا بواكيا
فيا أمة ضلت وتاهت سفاهة أنيبوا وأرضوا الواحد المتعاليا
وقوموا بحد الوال من حد سيفنا بخيلكم واتقوا الله عاليا

بين أصحابه وعامة جيشه حول الهدف المطلوب، وهل هو في الشام، أم بين ظهرانيهم في الكوفة؟ وكان هذا الخلاف من أشد المواقف حرجاً لسليمان، بل لكل قائد يريد أن يخطو الخطوة الأولى.

فقد ناداه الناس من كل مكان: أي رحمك الله! أنت قد عزمت إلى المسير إلى عبيد الله بن زياد وقد علمت أن الذي قتل الحسين وتولّى قتله هو عمر بن سعد وأصحابه، فأين تذهب وهٰهنا تذر الأقتال ـ الأعداء ـ وهم معك في البلد... ابدأ بعمر بن سعد ثم سر بنا إلى غيره...؟

فقال سليمان: إن عمر بن سعد ضعيفة قوته.. ذليلة عدّته، والذي قاد الجيوش إلى صاحبنا (الحسين) وقال له «مالك عندي أمان دون أن تستسلم فأنفذ فيك حكمي» هو الفاسق ابن الفاسق عبيد الله بن زياد، فإن أظفرنا الله به رجونا أن من بعده أهون شوكه، وأن تستشهدوا فما عند الله خير وأبقى[١].

ونفس الخلاف دبّ بين زعماء الحركة الذين مع سليمان، فقد اعترض عليه عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي في اجتماع خاص بهم.

فقد قال موجهاً الخطاب إلى رؤوس أصحاب ابن صُرد:

... إنما خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتلة الحسين كلهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، ورؤوس الأرباع وأشراف القبائل، فأنّى نذهب هاهنا وندع لأقتال الأعداء والأوتار! فقال سليمان بن صُرد: فماذا ترون؟ فقالوا. (قياديو الحركة): والله لقد جاء برأي... والله ما نلقي من قتلة الحسين أن نحن مضينا نحو الشام غير ابن زياد، وما طلبتنا إلا هاهنا بالمصْر.

فقال سليمان: ولكن أنا ما أرى ذلك لكم، إن الذي قتل صاحبكم وعبأ الجنود إليه، وقال: «لا أمان له عندي دون أن يستسلم فامضي فيه حكمي» هذا الفاسق ابن

---

(١) الفتوح ج٦ ص٦٥.

الفاسق ابن مرجانة . . والله لو قاتلتم غداً أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلاً لم يكن يريد قتله ، فاستخيروا الله وسيروا . فتهيأ الناس للشخوص(١) .

نلاحظ أن الجميع هنا قد خضعوا لرأي سليمان بن صُرد ووافقوه في الرأي ، أن الوضع الداخلي للكوفة لا يسمح بأي حركة انقلابية داخلية . وهكذا أجمع الرأي على الخروج إلى الشام . . التي جيّشت الجيوش لحرب الحسين ﷺ .

خرج سليمان بالناس عشية الجمعة الخامس من ربيع الآخر سنة خمس وستين يقدمهم رؤساؤهم المذكورون ، فباتوا بمكان يُقال له دير الأعور ، وقد تخلف عنه ناس كثير(٢) ، وساروا باتجاه كربلاء لزيارة مثوى الحسين ﷺ فأقاموا بها يوماً وليلة يبكون ويندبون ويطلبون من الله سبحانه التوبة ، فما رؤيَ في يومٍ أكثر باكياً منه وهم يقولون :

ربنا قد خذلنا ابن بنت نبينا فاغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين ، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين(٣) .

وقال سليمان : الحمد لله الذي لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين ﷺ ، اللهم إذ حرمتنا معه فلا تحرمنا فيه بعده ، وتكلم الرؤساء من أصحاب سليمان فأحسنوا ، وقام في تلك الحال وهب بن زمعة الجعفي باكياً على القبر الشريف وأنشد أبيات عبيد الله بن الحُر الجعفي :

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٨٦ .

(٢) أصدق الأخبار ص٢٥ في الفتوح ج٦ ص٦٧ (ثم أنه عرض الناس هناك فإذا قد نقص منهم الف ومائة رجل زيادة أو نقصاناً) .

(٣) الانتفاضات الشيعية ص٤٣٦ .

تبيتُ النَّشاوى من أميةَ نُوّماً ... وبالطف قتلى ما ينامُ حميمُها

وما ضَيَّعَ الإسلامَ إلا قبيلة ... تأمّرَ نُوكاها ودام نعيمُها

وأضحت قناةُ الدين في كفِّ ظالم ... إذا أعْوَجَ منها جانبٌ لا يُقيمُها

فأقسمتُ لا تنفَكُّ نفسي حزينةً ... وعيني تبكي لا تَجفُّ سُجُومُها

حياتي أو تلقى أميَّةُ خزيَةٌ ... يذلُّ لها حتى المماتِ قُرومُها[1]

ومن كربلاء اتجه التوابون عبر الفرات حتى انتهوا إلى مدينة هيت، وخرجوا منها باتجاه قرقيسيا، وكان فيها ظفر أو زفر بن حارث الكلابي وكان يعمل لمصلحة ابن الزبير، فساعدهم ووضع لهم سوقاً ليأخذوا منه ما يحتاجون إليه في طريقهم، وأخبرهم بتحركات ابن زياد في ثلاثين ألف مقاتل من الشام، ونصحهم بأن يسبقوه إلى عين الوردة، وينزلوا غربيها ويجعلوها من ورائهم لتحمي ظهورهم.

وعندما التقى الجيشان في عين الوردة بعد خمسة أيام من نزولهم بها طلب منهم ابن زياد أن يستسلموا ويبايعوا لعبد الملك بن مروان ـ حيث انتهت السلطة بموت أبيه مروان بن الحكم إليه ـ فرفض قادة التوابين هذه الفكرة وطلبوا من جند الشام أن يخلعوا عبد الملك وينضموا إلى التوابين لقتال الأمويين والزبيريين وتسليم الخلافة لآل الرسول، فرفض أهل الشام هذا الرأي وقابلوه بنوع من السخرية وأصرّ كل منهم على القتال في سبيل الغاية التي خرجوا من أجلها.

وبدأت المعركة بين فريقين غير متكافئين لا في العدد ولا في العتاد، ومع ذلك فقد صمد التوابون لأهل الشام وقاتلوا قتال الأسود الضواري، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً، وكادت المعركة تنتهي لصالحهم لولا النبال التي انهالت عليهم من كل جانب، وأصيب قائدهم سليمان بسهم كانت به نهاية حياته.

---

(١) أدب الطف ج١ ص٩٣، أصدق الأخبار ص٢٦، ونسبها السيد المرتضى في أماليه إلى أبي دهبل الجمحي عدا البيتين الأخيرين. وفي الفتوح ج٦ ص٦٨ قال إنها من إنشاد وهب بن زمعة.

أخذ الراية من بعده المسيب بن نَجَبَه ، وكان من أبطال الكوفة ، فحمل بمن معه على أهل الشام . . . فقاتل قتال الأبطال ، ولما قتل استمات أصحابه وهاجموا أهل الشام هجوم من لا طمع له في الحياة ، وهاجمتهم جنود ابن زياد من جميع الجهات وهم يقولون : الجنة الجنة إلى البقية من أصحاب أبي تراب . . . الجنة الجنة إلى الترابية ، وتقدم نحوهم عبد الله بن سعد بن نفيل بمن بقي من التوابين ، ولكن جنود ابن زياد كاثروهم وثبتوا لهم ولما قتل عبد الله بن سعد بن نفيل وصرع أكثرهم انسحب رفاعة بن شداد من المعركة ، وبقي الحويرث العبدي بمن بقي منهم . . . وانتهت المعركة لصالح أهل الشام ورجع من بقي من التوابين ـ وهم قلة ـ كلٌّ إلى بلده ، وهم يبكون لأنهم لم يحققوا الهدف الذي حاربوا من أجله ، وكانوا يفضلون الموت على رجوعهم سالمين(١) .

قال أعشى همدان في ذلك ، وهي من المكتَّمات مما يكتم ذلك الزمان :

ألَـمَ خيـالٌ منـك يـا أُمَّ غـالب ... فحُيِّيْتَ عَنّا من حَبيب مُجانب(٢)

---

(١) الانتفاضات الشيعية ص٤٣٦ ، وفي تفاصيل الأحداث أمور شيقة في الأمهات من الكتب كتاريخ الطبري والكامل في التاريخ وأصدق الأخبار والفتوح وغيرها .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٦٠٨ ، وبقية القصيدة :

وما زلت لي شَجواً ومازلتُ مُقصداً ... لهمٌ عراني من فراقك ناصب

فما أنس لا أنس انفتالَك في الضحى ... إلينا مع البيض الوسام الخراعب

تراءت لنا هيفاء مَهْضُومةَ الحَشا ... لطيفة طيُّ الكشح ريَّا الحقائب

مبتّلة غَرَّاءَ رُؤْدٌ شبابُها ... كشمس الضُحى تنكلُّ بين السحائب

فلما تغشَّاها السَّحابُ وحولَهُ ... بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجب

فتلك الهوى وهي الجَوَى ليَ والمُنى ... فأحبْ بها من خُلَّة لم تُصاقب

ولا يبعد اللهُ الشبابَ وذكرَهُ ... وحبَّ تَصافي المعْصرَات الكواعب

ويزدادُ ما أحببْتُه من عتابنَا ... لُعَاباً وسُقياً للخَدين المُقارب

فإني وإن لم أنسَهُنَّ لذاكرٌ ... رزيئةَ مخبات كريم المَناصب

=

=

توسَّلَ بالتَّقوى إلى الله صادقاً … وتقوى الإله خيرُ تكساب كاسب

وخلّى عن الدنيا فلم يلتبس بها … وتابَ إلى الله الرَّفيع المراتب

تخلّى عن الدنيا وقال أطَّرحتُها … فلستُ إليها ما حييتُ بآيب

وما أنا فيما يُكبرُ الناسُ فَقدَه … ويسعى له الساعُونَ فيها براغب

فوجَّهَهُ نحو الثَّوِيَّة سائراً … إلى ابن زياد في الجموع الكباكب

بقوم هُمُ أهلُ التَّقِيَّة والنُّهى … مَصَاليتُ أنجادٌ سُرَاةٌ مَناجب

مَضوا تاركي رأي ابن طلحة حَسْبَهُ … ولم يستجيبوا للأمير المُخاطب

فساروا وهمْ من بين مُلتَمِس التُّقى … وآخرَ مما جرَّ بالأمس تائبْ

فلاقوا بعين الوردَة الجيشَ فاصلا … إليهم فحسُّوهم ببيض قواضب

يمانية تذرى الأكفَّ وتارةً … بخيل عتاق مُقْرَبات سَلاهب

فجاءهُم جمعٌ من الشام بعده … جُمُوعٌ كموج البحر من كلّ جانب

فما بَرحوا حتى أُبيدَتْ سُراتُهُم … فلم ينجُ منهم ثَمَّ غيرُ عصائب

وغودرَ أهلُ الصبر صَرْعي فأصبحوا … تُعاورُهم ريحُ الصَّبا والجنائب

فأضحى الخُزاعيُّ الرئيسُ مُجَدَّلاً … كأن لم يقاتل مَرَّةً ويُحارب

ورأس بني شمخ وفارسُ قومه … شَنُوءةَ والتيميُّ هادى الكتائب

وعمرو بنُ بشر والوليدُ وخالدٌ … وزيد بنُ بكر والحُلَيسُ بن غالب

وضاربُ من هَمدانَ كل مُشَيَّع … إذا شدَّ لم يَنْكِلْ كريمُ المكاسب

ومن كل قومْ قد أُصيبَ زعيمُهم … وذو حسب في ذروة المجد ثاقب

أبوْا غيرَ ضرب يفلقُ الهامَ وقعُهُ … وطَعْن بأطراف الأسنَّة صائب

وإنَّ سعيداً يومَ يَدْمُرُ عامراً … لأشجعُ من ليث بدُرنَى مُواثب

فيا خيرَ جيش للعراق وأهله … سُقيتم روايا كلِّ أسحَمَ ساكب

فلا يُقتَلُوا فالقتلُ أكرمُ ميتة … وكل فتىً يوماً لإحدى الشواهب

وما قُتِلُوا حتى أثاروا عصابةً … مُحلين ثوراً كالليُوث الضَّوارب

الحركة التوابية في الميزان

حركة التوابين هذه ـ التي هي أول من حمل لواء (يالثارات الحسين) دار حولها الكثير من الحديث يتعلق بتقييمها والنظر إلى ما ترتب عليها من إيجابيات وسلبيات ، ونتطرق هنا إلى هذين البعدين بإيجاز .

أولاً : لم يعلنوا عن هدف إصلاحي سياسياً أو اجتماعياً سوى ما تكلم به سليمان بن صرد مع جيش الشام عندما طلب منهم : أن يسلموا عبيد الله بن زياد ، ويخلعوا عبد الملك بن مروان ويخرج عمال عبد الله بن الزبير ، ويسلّم الأمر إلى أهل بيت رسول الله ﷺ[١] . ولذا يرى البعض أن التوابين لم يكن لهم هدف تغيير الواقع السياسي ، لمعرفتهم بعدم إمكانية تحقيق ذلك[٢] .

وهي كانت بالنتيجة ـ حركة انتحارية لا ترى لها هدفاً إلاّ التكفير عن الذنب الذي ارتكبته ـ في خذلانها الحسين عليه السلام .

ثانياً : إن مسير التوابين لمواجهة جند الشام قد صب في صالح دولة ابن الزبير ، وكان لوالي الكوفة من قبل ابن الزبير دورة في ذلك ، فقد خطب في مسجد الكوفة في الوقت الذي كان التوابون قد صمموا على الثورة ، فقال : « . . فقتال (ابن زياد) والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رققتم ، وتلك والله أمنية عدوكم . . » .[٣] فابن يزيد يعلم غرض ابن زياد . . فهو قادم لقتاله ورد العراق إلى حضيرة الدولة الأموية ،

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧١ .

(٢) مع المختار ص٧٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٦٥

فرأى في التوابين قوة يستخدمها في صد ابن زياد، دون أن يحرك هو ساكناً، والرابح الوحيد من لم يشترك بها[١].

ثالثاً: أن سليمان فكر في رأس عبيد الله بن زياد وجعله الهدف الأساسي لثورته فإن الرأس ليست مشكلة، فعبيد الله بن زياد يمكن قتله معنوياً أو جسدياً، ولكن الأهم هو ضرب القاعده التي ارتكز عليها عبيد الله بن زياد كعمر بن سعد وشبث بن ربعي، وحرمله بن كاهل وبقيّة المجموعة التي اشتركت في قتل الإمام الحسين عليه السلام الذين كانوا في الكوفة[٢].

رابعاً: كان من الأفضل لسليمان أن يحارب من أجل تلك المباديء والأهداف التي حارب من أجلها الإمام الحسين عليه السلام، لو كان يفعل ذلك لكانت النتيجة أن الموالي في الكوفة والعبيد كانوا يشتركون معه في الثورة، وهم الذين من أجلهم خرج الإمام الحسين عليه السلام[٣].

خامساً: تعتبر حركة التوابين أول أنضج تنظيم سرّي[٤] شيعي، وهي التجربة الأولى لهم، وأعقبتها تجارب أخرى.

سادساً: إن تكتلات الشيعة كانت ثقيلة على الزبيريين وأنصار الأمويين في داخل الكوفة، والفريقان كانا يحاذران من قوتها واتساعها، فليس من البعيد أن يكون لهما ضلع في تخدير الجماهير عن الانضمام لتلك الحركة. وليس للمختار صلة فيما انتهى إليه مصير تلك الحركة، ولا في بث روح التخاذل بين أنصارها ـ كما يرى بعض الباحثين من العرب والمستشرقين[٥].

---

(١) عشر ثورات في الإسلام ص١١٢ الانتفاضات الشعبية ص٤٣٥.

(٢) التاريخ الإسلامي ص٨٣.

(٣) التاريخ الإسلامي ص٨٤.

(٤) مع المختار ص٨٥.

(٥) راجع الانتفاضات الشيعية ص٤٣٩.

سابعاً: وليس أخيراً، إنها التي هيأت النفوس وأعطت المسلمين درساً، بأنه يمكن لهم الحصول على حقوقهم المهدورة بتكاتفهم ونضالهم في سبيل الحصول عليها أو الموت دونها. فبذلك عبأت النفوس وهيأتها للانضمام إلى ثورة المختار الثقفي. وكانت أهم أسباب نجاحها.

فلو أن سليمان كان ساكتاً لما وقعت ثورة المختار، ولو لم تقع ثورة المختار لما وقعت ثورة زيد بن علي ومن بعده ابنه يحيى، وتبعه قيام أبي مسلم الخراساني، وبعد ذلك سقوط الدولة الأموية[1].

فحركة سليمان والتوابين هي أول حركة ثورية تتوجه - على قلتها وضعفها - لمحاربة الدولة الأموية في عقر دارها، الأمر الذي لم يفكر فيه أحدٌ من قبل، ولا حتى ابن الزبير القوي الفتي فكر في ذلك. ولولا هذه القلة في العدد والعُدّة لكانت احتمالات الانتصار عسكرياً واردة جداً، ولتغيرت معادلة التاريخ من ذلك الوقت.

---

(١) التاريخ الإسلامي ص٨٥ .

وجهة نظر

الملاحظ هو أن سليمان لم يعلن عن وجهة الحركة قبل تلك الساعة ـ في جيشه في النخيله ـ بل واعتراض بعض الزعماء على السير نحو الشام، ليدل أن الشام لم تكن في حسبانهم، وكأنهم كانوا لا يرون بديلاً عن الكوفة للقيام بثورتهم. وهذا التغيير المفاجيء قد يكون نتيجة ضعف العدد الذي لبّا نداء الثورة ـ يالثارات الحسين ـ من ١٦ ألف إلى ٥ آلاف وصفى منهم ٤ آلاف. وأيضاً ضعف الإمكانات المادية، فلم يكن قد جمع سليمان ما يفي بالغرض من المال والسلاح، وقد مر أنه لم يعجبه العدد والعُدّة لجيشه في النخيله ولم يكن الموقف يسمح بالتراجع . . . وحركة بهذا الضعف لا يمكن أن تصمد أمام قوة الدولة والأشراف ـ الذي كان أكثرهم قد اشترك في دم الحسين عليه السلام ـ، بل ستوأد بأنفاسها الأولى وتنتهي، وليست ثورة عبد الله بن عفيف ببعيدة[١].

فقد تكون هذه الأسباب وأسباب أخرى، كضعف الدولة الأموية التي قامت لتوّها من نزاع طويل على السلطة وفقدها الكثير من هيبتها بخضوع ولاياتها الواحدة تلو الأخرى لسلطان ابن الزبير، وكون دولة ابن الزبير دولة فتية قوية، كل هذه الأسباب أدّت بسليمان أن يعلن أن المعركة ستدور رحاها على أبواب الشام، ويضع في حسابه إن سقطت الشام أن تكون الحكومة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فهم الأجدر بالحكم من كل أولائك الذين يدّعون حق الأولوية به[٢].

(١) فقد قال سليمان في خطبته في النخيلة: «. . . وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير، وما هي إلا سيوفنا على عواتقنا ورماحنا بأيدينا»، وكان يتألم لخذلان أهل الكوفة له ونكثهم ببيعتهم فقال: «سبحان الله، أما وافاني من ستة عشر ألفاً إلاّ أربعة آلاف»: هذا قبل أن يعلن توجهه إلى الشام. (أنساب الأشراف) ج٦ ص٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٢) مضى في ص ١٦١، عن أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧١.

وسليمان عندما نقل له تحرك المختار لكسب الأنصار لم ينتقده ولم يطعن فيه، بل تألم لعدم وفاء الذين بايعوه، وهذا قد يدل على ارتياح سليمان لنشاط المختار.

الخلاصة: أن حركة التوابين بزعامة سليمان بن صُرد، حركة مدروسة ومخطَّط لها بعناية، وكانت تحمل في طياتها نظرة إصلاحية سياسية اجتماعية، وتهدف للقضاء على الفساد المتمثل أولاً: بالقتلة المجرمين - الذين انتهكوا حرمة آل بيت رسول الله ﷺ وأراقوا دمائهم، وثانياً: تجريد المدّعين - لحق الأولوية بالحكم - من صلاحياتهم، وتسليم السلطة إلى أصحابها الشرعيين، وهم أهل بيت رسول الله ﷺ، ولو وصلوا إلى مرادهم لما توانوا عن تسليمها إلى أصحابها الحقيقيين. وهكذا صمموا على المضي نحو أهدافهم المنشودة أو الموت دونها، بل الموت عندهم خير من معاشرة الظالمين الطغاة. وعلى غرار هذا الاستنتاج فإن كثيراً من الانتقادات التي وجهت إلى سليمان وزعماءِ الثورة والثورة ذاتها لم تكن في محلها وغير واردة إطلاقاً.

نعم، لا تخلو أي ثورة من بعض الأخطاء التي قد ترتكب نتيجة سوء إدارة أو نقص معلومات أو غيرها.

الفصل السابع

الكوفة بلا معارضة

الكوفة بلا معارضة

خرج التوابون باتجاه الشام في الخامس من ربيع الثاني عام ٦٥هـ وانتهت مهمتهم ـ كما قلنا ـ في أواخر شهر جمادى الأولى[١] من نفس العام.

في غضون هذين الشهرين زال الرعب عن قتلة الحسين عليه السلام، بعد أن كان أخذهم كل مأخذ أثناء ثورة التوابين، ولكنهم فطنوا إلى أن الخطر لا يزال كامناً، ولكن هذه المرّة من قبل المختار الثقفي وأنصاره الذين يزدادون يوماً بعد يوم، وهم لا يريدون غير رؤوس هؤلاء المجرمين ـ قتلة أولاد النبيين ـ القابعين في الكوفة بكل اطمئنان، تحميهم عشائرهم وحكومة ابن الزبير، كيف لا وهم أشرافها!

بدأ هؤلاء بالتحرك لوأد هذا الخطر الذي بدأ بالظهور وهو يحدق بهم. توجه هؤلاء الأشراف عند الوالي للوشاية بالمختار للإيقاع به قبل أن يقعون هم في شباكه.

كان في مقدمة هؤلاء الأشراف الخائفين على رؤوسهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، وشَبَث بن ربعي ويزيد بن الحارث بن رُوَيْم، جاء هؤلاء عند الوالي عبد الله ابن يزيد الخطمي ومعاونه إبراهيم بن محمد بن طلحة وقالوا له:

إن المختار أشد عليكم من سليمان بن صُرد. إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم، ويذللهم لكم، وقد خرج عن بلادكم، وإن المختار يريد أن يثبت عليكم في مصركم[٢] وهو ـ المختار ـ يقول إذا ذكر ابن صُرد: أنه عَشَمه من العشم وحفش من الأحفاش بال. ليس بذي تجربة للأمور، ولا علم بالحروب، وأنا رجل أعمل على مثال مُثّل ليَ، وأمر تُقُدِّم فيه إليّ، ويُدِلّ بنفسه غير إدلال ابن صُرد، وليس

(١) أصدق الأخبار ص٣٣.

(٢) تاريخ الطبري ج٥ص٥٨٠.

البلد والمختار فيه لكم ببلد ، فاودعوه الحبس حتى يجتمع الناس على رجل[١] .

فعل هذا الكلام فعله عند الوالي ، فقام من فوره وخرج إليه مع إبراهيم بن محمد ، فما شعر بشيء حتى أحاطوا به وبداره فاستخرجوه ، فلما رأى جماعتهم قال : ما بالكم ! فوالله بَعْدُ ما ظفرت أكفكم ، فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة لعبد الله بن يزيد : شُدَّه كتافاً ، ومَشِّه حافياً ، فقال له عبد الله بن يزيد : سبحان الله ! ما كنت لأُمشيه ولا لأُحَفِّيه ، ولا كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر لنا عداوة ولا حرباً ، وإنما أخذناه على الظن[٢] .

فقال إبراهيم : ليس هذا بعُشِّك فادرُجي[٣] . . ما هذا الذي بلغنا عنك يا ابن أبي عبيد ؟

فقال : ما بلغك عني إلا باطل ، وأعوذ بالله من غش كغش أبيك وجدّك[٤] .

وأقبل عمر بن سعد على فرس له حتى وقف على المختار ، وقد أخرج من منزله ، فقال لإبراهيم بن محمد بن طلحة :

أيها الرجل ! هذا رجل يريد أن يخرج عليكم في مصركم هذه فيفسد عليكم البلد ، فأوثقوه بالحديد وخلّدوه السجن إلى أن يستقيم للناس أمر[٥] .

وأُتي المختار ببغلة دهماء يركبها ، فقال إبراهيم لعبد الله بن يزيد : ألا تشدّ عليه

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٣. وفي تاريخ الطبري (وخلّدوه في السجن حتى يستقيم أمر الناس) .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٨١ ، بعض المصادر كالفتوح وعوالم العلوم وغيرها تذكر أن عبد الله بن يزيد هو الذي أمر إبراهيم بن محمد بكتاف المختار وتمشيته حافياً فرفض إبراهيم . وهذا اشتباه في الأسماء ، فالأقرب إلى الصواب مانقله الطبري ، كما يظهر من مجمل سيرة عبد الله وسيرة إبراهيم ، وإن عبد الله هو الأمير لا إبراهيم .

(٣) مثل يَضرب لمن يتعاطى ما لا ينبغي له .

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٤ ص١٧٣ .

(٥) الفتوح ج٦ ص٧٤ .

القيود؟ فقال: كفى له بالسجن قيداً[١] ، وقيل بل كان مقيّداً[٢] .

وهكذا انتهى الأمر بالمختار إلى السجن نتيجة وشاية قَتَلَة الحسين وبعض أشراف الكوفة عند الوالي ، في نفس الفترة التي كان التوابون يضاربون بسيوفهم جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد .

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٨١ .

(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص١٧٣ .

المختار في السجن

خلت أرض الكوفة من أي زعيم معارض، وخلا الجو وصفى للزبيريين والأمويين وقتلة الحسين عليه السلام بسجن المختار.

في الفترة التي كان في السجن داهمه المرض[١].

وذهب يحيى بن أبي عيسى وحميد بن مسلم الأزدي لزيارة المختار وتعاهده يقول يحيى: فرأيته مقيّداً... فسمعته يقول:

«أما ورب البحار، والنخيل والأشجار، والمهامة والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلنّ كل جبار. بكل لَدن خَطّار، ومهند بتار في جموع الأنصار، ليسوا بميل أغمار[٢] ولا بعُزل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، ورأبت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر أولاد النبيين، لم يكبر عليّ زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى، إذا كان المصير إلى دار الجزاء» فكان إذا أتيناه وهو في السجن ردّد علينا هذا القول، حتى خرج منه[٣].

في هذه الأثناء مشى قوم من وجوه أهل الكوفة إلى عبد الله بن يزيد، فقالوا: أيها الأمير إن المختار بن أبي عبيد رجل من شيعة آل محمد ﷺ وأنت عارف به قديماً وحديثاً، وإنما قدم علينا لأنه رأى من أمير المؤمنين جفوة، فأحب أن يكون في ناحيتنا، ولم يظهر لنا ولا لك عداوة منه ولا حرباً، فإن رأى الأمير أن يشفعنا فيه! فأبى عبد الله بن يزيد ذلك، فانصرف القوم مغضبين[٤] فبلغ المختار تشفّع وجوه أهل

(١) البداية والنهاية ج٨ ص٢٦٩.

(٢) ميل: وهم الذين لا رماح لهم. أغمار: وهم الذين لا تجارب لهم بالأمور.

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٨١ ونحوه في الفتوح ج٦ والكامل في التاريخ ج٤ والبداية والنهاية ج٨ وغيرها.

(٤) الفتوح ج٦ ص٧٤.

الكوفة وردّ الوالي لشفاعتهم، فجعل يقول نحواً مما قاله لحميد بن مسلم[١].

فزاد حقد الناس بذلك على ابن الزبير وواليه بأمثال هذه الأعمال ورده لشفاعة وجهاء الكوفة في إطلاق سراح المختار، وهو الذي قال قبل ذلك «. . . وإنما أخذناه على الظن»[٢].

والقضية البارزة هي أن المختار لم توهن عزيمته بالسجن، بل كانت معنوياته قوية جداً، فكان يقول لزواره الكلام الذي ذكرناه في كونه الذي سينتقم من الجبارين وسيقيم عمود الدين.

ولم ينقطع عن الاتصال بأنصاره فقد كانت هناك جمعية من خمسة أعضاء ـ كلهم من عرب اليمن يعملون للمختار ويأخذون البيعة له وهو في السجن وهم:

١ ـ السائب بن مالك الأشعري.

٢ ـ يزيد بن أنس

٣ ـ أحمر بن شميط

٤ ـ رفاعة بن شداد الفتياني

٥ ـ عبد الله بن شداد الجُشَمي

مراسلة بقايا التوابين

وكان يبعث بالرسائل تلو الرسائل[٣] لتشجيعهم وتقوية عزائمهم بالخصوص بعد أن حلّ بالتوابين ما حل، ورجعت بقاياهم القليلة إلى الكوفة مع زعيمهم رفاعة ابن شداد البجلي، الذي أنقذ بقية جيش التوابين من الهلاك المحقق، عندما أخذ الراية وقال ارجعوا بنا لعل الله يجمعنا ليوم شرّهم[٤].

(١) الفتوح ج٦ص٧٥ .

(٢) مر في الصفحة ص ١٧٠ .

(٣) الخلافة الأموية (دكسن) ص٦٩، وتاريخ الطبري ج٦ ص٩ .

(٤) الكامل في التاريخ ج٤ ص١٨٤ .

دخل رفاعة بن شداد الكوفة مع الناجين من التوابين، فبعث المختار إليهم رسالة[١] ترفع من معنوياتهم وتبشرهم بالثواب، وتبشرهم بقرب الفرج ويذكر لهم أسس دعوته ويدعوهم إلى الانضمام إليه، فهو من سيحقق مطالبهم، وكان منها:

أما بعد فمرحباً بالعصبة الذين عظّم الله لهم الأجر حين انصرفوا، ورضي فعلهم حين قُتلوا. أما ورب البيت ما خطى خاط منكم خطوة ولا ربا ربوة إلا كان ثواب الله له أعظم من الدنيا، إن سليمان قضى ما عَليه وتوفاه الله، وجعل وجهه مع أرواح النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تُنصرون.

إني أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، المقيد من الأوتار، فاعدوا واستعدوا وأبشروا. . أدعوكم إلى كتاب الله، وسُنة نبيّه، والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المحلّين، والسلام[٢]

وأيضاً بعث برسالة أخرى إلى أصحاب سليمان بن صُرد بعد عودتهم إلى الكوفة جاء فيها.

«أما بعد، فإن الله عظم لكم الأجر وحطّ عنكم الوزر بمفارقة القاسطين وجهاد المحلّين. . إنكم لم تنفقوا نفقة ولم تقطعوا عقبه ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة وكتب لكم حسنة ، فابشروا، فأني لو خرجت إليكم جرّدت فيما بين المشرق والمغرب من عدوكم السيف[٣] بأذن الله، فجعلتهم ركاماً، وقتلتهم فَذاً وتُؤاما. فرحب الله بمن قارب واهتدى ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى، والسلام يا أهل الهدى».

---

(١) يتبين من رواية ابن أعثم في الفتوح ج٦ ص٨٦ أن المختار كان خارج السجن عند وصول بقايا التوابين فقد ذكر أنه خرج إليهم المختار بن أبي عبيد فعزّاهم وقال: أبشروا فقد قضيتم ما عليكم، وبقي ما علينا، ولن يفوتنا منهم من بقي إن شاء الله.

(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص١٨٥. تاريخ الطبري ج٥ ص٦٠٦ مع بعض الاختلاف.

(٣) في نسخة تاريخ الطبري (في عدوكم).

وأرسل هذه الرسالة مع رجل يقال له (سبحان) أو سيحان قد أدخله في قلنسوته بين الظهارة والبطانة ، فلما جاء الكتاب ووقف عليه جماعة من رؤساء القبائل[١] أعادوا إليه الجواب مع عبد الله بن كامل ، وقالوا : قل له قرأنا كتابك ونحن حيث يسرّك فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك من الحبس فعلنا . فأتاه فدخل عليه السجن ، فأخبره بما أرسل إليه به ، فسُرّ باجتماع الشيعة له ، وقال لهم : لا تفعلوا هذا فإني أخرج في أيامي هذه[٢] .

---

(١) هم ١ ـ رفاعة بن شداد ٢ ـ المثنى بن مخرّبه ٣ ـ سعد بن حذيفة بن اليمان ٤ ـ يزيد بن أنس ٥ ـ أحمر بن شُميط الأحمسي ٦ ـ عبد الله ابن شداد ٧ ـ عبد الله بن كامل (عن تاريخ الطبري ج٦ ص٧) .

(٢) أصدق الأخبار ص٥٥ وتاريخ الطبري ج٦ ص٧ .

وساطة ابن عمر

هذا الكلام من المختار يدل على وثاقته بخروجه قريباً، وهو لا يريد أن يخرج بقوة السلاح، فهو يعني أن الثورة قد بدأت، وهو بعدُ لم يكن قد أكمل العدة.

فقد كان المختار قد بعث غلاماً يُدعى (زربِيّاً) إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ صهره وزوج أخته ـ وكتب إليه :

أما بعد، فإني قد حبست مظلوماً، وظن بي الولاة ظنوناً كاذبة، فاكتب فيّ يرحمك الله إلى هذين الظالمين كتاباً لطيفاً، عسى الله أن يخلصني من أيديهما بلطفك وبركتك ويُمنك والسلام عليك، وفي البداية والنهاية : إنه كتب إلى أخته[1].

فلم يتوانَ ابن عمر أن كتب إلى الوالي وصاحبه يتوسط في إطلاق سراح المختار. فكان في كتابه :

أما بعد، فقد علمتُما الذي بيني وبين المختار بن أبي عبيد من الصِّهر، والذي بيني وبينكما من الودّ، فأقسمت عليكما بحق ما بيني وبينكما لَمّا خلّيتما سبيله حين تنظران في كتابي هذا، والسلام عليكما ورحمة الله[2].

وانصاع الوالي بسرعة غريبة لرغبة عبد الله بن عمر، قد يكون سببها عدم وجود أدلة تدين المختار، ورجوع التوابين منكسرين، مما جعل الوالي يتشجع للإفراج عن المختار، بالخصوص بعد وساطة أشراف الكوفة قبلها.

فقد أرسل الوالي (عبد الله بن يزيد) وإبراهيم بن محمد بن طلحة إلى المختار فأخرجاه من السجن وقالا له : هات بكفلاء يضمنونك بنفسك أن لا تُحدث أمراً

(١) البداية والنهاية ج٨ ص٢٨٥ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٨، مقتل الحسين (لوط بن يحيى) ص٣١٥، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٣ .

والزم منزلك[١] فأتاه أناس من أصحابه كثير: فقال يزيد بن الحارث بن يزيد بن رؤيم لعبد الله بن يزيد: ما تصنع بضمان هؤلاء كلهم! ضمّنه عشرة منهم أشرافاً معروفين ودع سائرهم، ففعل ذلك[٢].

فلما ضمنوه، دعا به عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة فحلّفاه «بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة.. الرحمن الرحيم، لا يبغيهما غائله، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فعل فعليه ألف بَدَنة ينحرها لدى رتاج الكعبة، ومماليكهُ كلهم ـ ذكرُهم وأنثاهم ـ أحرار». فحلف لهما بذلك، ثم خرج فجاء داره فنزلها[٣].

وعمّت بذلك الفرحة قلوب شيعة أهل البيت بخروجه من السجن، ولكن هذا القسم الثقيل تصوره البعض أنه مانع من المضي نحو الهدف المنشود، فقال لمن يثق به:[٤]

«قاتلهم الله، ما أحمقهم حين يرون أني أفي لهم! أما حلفي بالله فإنني إذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها كفّرت عن يميني، وخروجي عليهم خيرٌ من كفّي عنهم، وأما هدي البُدُنُ وعتق المماليك فهو أهون علي من بصقه، فوددتُ أن تم لي أمري ولا أملك بعده مملوكاً أبداً[٥]».

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٨ ـ الفتوح ج٦ ص٧٧ ـ الأنساب ج٦ ص٣٨١.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٨، والذين ضمنوه هم ١ ـ زايدة بن قدامة الثقفي ٢ ـ عبد الرحمن بن أبي عمير الثقفي ٣ ـ السائب بن مالك الأشعري ٤ ـ قيس بن طهفة النَهْدي ٥ ـ عبد الله بن كامل الشاكري ٦ ـ يزيد بن أنس الأسدي ٧ ـ أحمر بن شميط البجلي ٨ ـ عبد الله بن شداد الجُشمي ٩ ـ رفاعة بن شداد البجلي ١٠ ـ سُليمبن يزيد الكندي ١١ ـ سعيد بن منقذ الهمداني ١٢ ـ مسافر بن سعيد بن عمران الناعطي ١٣ ـ سعر ابن أبي سعر الحنفي (أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨١).

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٨، مقتل الحسين (لوط بن يحيى) ص٣١٥.

(٤) في تاريخ الطبري ج٦ ص٩ وغيره أن هذه الكلام قاله المختار لحميد بن مسلم، وقد يكون أن هذه الكلام وصل لابن مسلم عن طريق بعض الثقات.

(٥) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٢.

وكان إطلاق سراحه من السجن ـ بوساطة عبد الله بن عمر ـ في هذه المرة ـ والمرة التي سبقتها ـ فرصة أتاحت له أن يلعب دوره بمهارة في تاريخ العالم الإسلامي[١] .

عمت الفرحة أرجاء الكوفة بخروج المختار من السجن وتفاءل الناس بذلك ، وانهالوا عليه من كل جانب يقدّمون له فروض الولاء والطاعة . فقد أصبح زعيم الشيعة بلا منازع ، وخضع له كبار الشيعة لما وجدوا فيه من الصلابة وحسن التصرّف في المواقف المحرجة ـ يقول الرواة : عندما صار إلى داره تداكّت عليه الشِّيَعُ يبايعونه ، واجتمعت الشيعة عليه واتفق رأيها على الرضا به[٢] .

وهكذا استمر نجم المختار في التألّق والصعود ، ولم يزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى ويشتد[٣] .

وقد أدرك عبد الله بن الزبير في هذا الوقت خطر المختار وحركته[٤] وأدرك عدم قدرة الوالي للتصدي لما يمكن أن يحدث من أخطار قد تقوّض كيان دولة ابن الزبير ، فبادر إلى عزل عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد لإخراجهما المختار من السجن[٥] ، واستعمل عبد الله بن مطيع على عملهما وولاّه الكوفة[٦] . وربما أن ابن الزبير كان قد أمره أن يكون أكثر حذراً وحزماً من أسلافه . وقد أمكن قدوم هذا الوالي الجديد المختار من العمل بحرية أكثر طالما لم تكن بينهما أيّة ارتباطات وعهود[٧] .

---

(١) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٢٢ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٢ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٩ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٢ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٦ .

(٤) الخلافة الأموية (دكسن) ص٧٠ .

(٥) عبد الله بن الزبير ص١٤٤ .

(٦) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٢ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٩ .

(٧) الخلافة الأموية (دكسن) ص٧٠ .

الوالي الجديد

عندما همّ ابن مطيع التوجه لاستلام منصبه الجديد، لقيه بحير بن رستان (ريسان) الحميري عند مسيره إلى الكوفة فقال له: لا تسير الليلة فإن القمر بالناطح[١] فلا تسر. فقال له: وهل نطلب إلاّ النطح! فلقي والله نطحاً وبطحاً كما يريد[٢].

وقد كان ابن مطيع شجاعاً، وعندما بلغ عبد الملك بن مروان تولية عبد الله بن مطيع قال: حازم وكثيراً ما يسقط، وشجاع وما يكره أن يفرّ[٣].

قدم عبد الله بن مطيع الكوفة في رمضان سنة خمس وستين يوم الخميس ٢٥ من شهر رمضان، فدخل قصر الإمارة[٤]، فقال لعبد الله بن يزيد: إن أحببت أن تقيم معي أحسنت صحبتك، وأكرمت مثواك وإن لحقت بأمير المؤمنين عبد الله بن الزبير فبك عليه كرامة وعلى من قبله من المسلمين. وقال لإبراهيم بن محمد بن طلحة: الحق بأمير المؤمنين [٥] فلما كان من الغد نادى في الناس أن يحضروا المسجد الأعظم، فحضروا وفيهم يومئذ المختار بن أبي عبيد وجماعة من أصحابه الذين كانوا بايعوه[٦].

---

(١) الناطح والنطح: من منازل القمر مما يُتشاءم به.

(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٢، تاريخ الطبري ج٦ ص٩.

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠.

(٤) وفي الفتوح ج٦ ص٨٧ لثلاث بقين من شهر رمضان.

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٢ أن ابن مطيع حبس إبراهيم قبل خروجه فكتب إليه إسماعيل بن طلحة: «والله لَتُطلقنّه أو لتعلمنّ أني لك بئس الشعار وأنها لك بئس الدار» فأطلقه، فخرج إبراهيم إلى المدينة وكسر الخَراج على ابن الزبير (أي سرقه).

(٦) الفتوح ج٦ ص٨٧.

وجاء عبد الله بن مطيع فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد، فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصْركم وثغوركم، وأمرني بجباية فيئكم، وإلاّ أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضاً منكم، وأن أتبع وصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم، وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني، فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي، ولأقيمن درء الأصعر المرتاب[١].

فالتفت المختار إلى من حوله من الشيعة فقال: إنه قد تكلم بما قد سمعتم فقوموا فردوا عليه ولا تمهلوه! فوثب إليه السائب بن مالك الأشعري فقال: «أيها الأمير! إنّا قد سمعنا كلامك[٢] أما أمر ابن الزبير إياك أن لا تحمل فضل فيئنا إلا برضانا، فإنّا نُشهدُكَ إنا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنّا، وألاّ يُقسَم إلا فينا، وألا يُسار فينا إلاّ بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك (رحمة الله عليه)، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، فإنها كانت إثرةً وهوىً، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا، وإن كانت أهون السيرتين علينا ضراً، وقد كان لا يألوا الناس خيرا». فقال يزيد بن أنس: صدق السائب بن مالك وبرّ، رأينا مثل رأيه، وقولنا مثل قوله[٣].

وتكلم عامة الناس بما تكلم به السائب بن مالك الأشعري، وقالوا: أحسنت ياسائب! فلا يعدمك المسلمون. فقال عبد الله بن مطيع: يا هؤلاء! اسكتوا فوالله مانسير فيكم إلا بما تحبون، ثم نزل عن المنبر ودخل إلى منزله[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٢.

(٢) الفتوح ج٦ ص٨٨.

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١١ ونحواً منه في الكامل في التاريخ وأنساب الأشراف وغيرهما.

(٤) الفتوح ج٦ ص٨٨.

فقال يزيد بن أنس الأسدي : ذهبت بفضلها يا سائب ، لا يعدمك المسلمون ! أما والله لقد قُمْتَ وإني لأريد أن أقوم فأقول له نحواً من مقالتك ، وما أحبّ أن الله ولّى الردَّ عليه رجالاً من أهل المصر ليس من شيعتنا[١] . وهذا يعني أن كلام الوالي كان قد أغاض حتى غير الشيعة من أهل الكوفة .

يقول الدكتور عبد الأمير دكسن :

«إن خطبة الوالي أوضحت جهله للموقف السياسي في الكوفة من جهة ، ولشعور الشيعة نحو سياسة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان المالية . فقد كان الكوفيون يتذكرون خلافة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ حيث كانت الكوفة عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ، ومحل بيت المال ، عندما كان فيئهم يوزّع بينهم . فلا غرابة إذن أن أثارت خطبة الوالي أهلَ الكوفة . . الذين عارضوه بصورة علنية وشديدة حتى أجبروه على التراجع . . . وقد كان (تعيين هذا الوالي) أيضاً اختياراً غير موفق من قبل ابن الزبير لولاية الكوفة . . مركز الحركة الشيعية آنذاك»[٢] .

وهكذا تمت الغلبة للمختار وأنصاره على الوالي الجديد في المواجهة الأولى بينهم وبينه . وشعر المتآمرون على الإسلام بالخطر على حياتهم يبرز مجدداً على يد المختار وأنصاره ، فبدؤا بإيغار صدر الوالي الجديد ـ الذي هو صديق المختار ـ على المختار للإيقاع به من جديد .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١١ .

(٢) الخلافة الأموية ص٧٠ .

الوشاية بالمختار

كان على شُرَط ابن مطيع إياس بن مضارب العجْلي، وقال له حين ولاّه: عليك بحسن السيرة والشدة على أهل الريبة، جاء إياس هذا إلى ابن مطيع فور عودته من المسجد، فقال له: أصلح الله الأمير: إن الذي اعترض عليك في المسجد، وقال ما قال هو رجل من الأشعريين من رؤساء أصحاب المختار، ولست آمن المختار أن يخرج عليك في عملك (ولايتك) هذا، ولكن ابعث إليه الساعة فأدعه إليك، فإذا جاءك فاحبسه في سجنك حتى يستقيم أمر الناس، فإن عيوني قد أتتني فخبّرتني أن أمره قد استجمع له، وكأنه قد وثب بالمصر. فدعا عبد الله بن مطيع زائدة بن قُدامه والحسين بن عبد الله الهَمْداني، وقال لهما: انطلقا إلى المختار فادعواه إليّ.

فأقبلا حتى دخلا على المختار، فسلما عليه ثم قالا: يا أبا إسحاق! أجب الأمير، فإنه يدعوك لأمر أحب فيه مشورتك، فدعا المختار بثيابه وأمر بإسراج دابته وتحرك للذهاب معهما، فلما رأى زائدة بن قدامه ذلك قرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثْبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[١] ففهمها المختار، فجلس ثم ألقى ثيابه، ثم قال: ألقوا عليّ القطيفة، ما أراني إلا قد وُعكت، إنّي لأجد قفقفة[٢] شديدة، وتمثل بهذا البيت[٣].

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

(٢) القفقفة: الرِّعدة من حُمّى أو برد.. (لسان العرب ج٩ ص٢٨٨) مادة «قفف».

(٣) لعبد العزّى بن صُهَل الأزدي.

إذا ما معشرٌ تركوا نَدَاهُم ولم يأتوا الكريهةَ لم يُهابوا

ارجعا إلى الأمير، فأعلماه حالي التي أنا عليها، فقال له زائدة بن قدامه: أما أنا ففاعل ذلك يا أبا إسحاق، فقال المختار: وأنت يا أخا همدان فاعذرني عنده، فإنه خير لك (عندي).

يقول الهمداني: قلت في نفسي: والله إن أنا لم أبلغ عن هذا ما يرضيه ما أنا بآمن من أن يظهر غداً فيهلكني، فقلت له: نعم أنا أضَع عند ابن مطيع عذركَ، وأُبلغه كل ما تحب فخرجا من عنده، فإذا أصحابه على بابه، وفي داره منهم جماعة كثيرة، فأقبل حسين الهمداني وزائدة نحو ابن مطيع وفي الطريق قال حسين الهمداني لزائدة: أما إني قد فهمت قولك حين قرأت تلك الآية، وعلمت ما أردتَ بها، وقد علمت أنها هي ثبّطته عن الخروج معنا بعد ما كان لبس ثيابه، وأسرج دابته وعلمت حين تمثَّل البيت الذي تمثل إنما أراد يخبرك أنه قد فهم عنك ما أردت أن تفهمه، وأنه لن يأتيه. قال: فجاحدني زائدة أن يكون أراد شيئاً من ذلك، فقلت له: لا تخف، فوالله ما كنّت لأبلِّغ عنك ولا عنه شيئاً تكرهانه، ولقد علمت أنك مشفق عليه، تجد له ما يجد المرء لابن عمه. ثم أقبلا حتى دخلا على عبد الله بن مطيع فخبّراه بعلّة المختار، فصدّقهما.

ويقال أن ابن مطيع توقف عند نقطة مهمة وهي كثرة زوّار المختار وبعث إلى المختار من يستجوبه عنها وكان السؤال هو: «ما هذه الجماعات التي تغدوا وتروح إليك؟ فقال المختار في جوابه: «مريض يُعاد»[1]. ولهى الوالي عن ذكر المختار وجعل المختار يجمع أصحابه ويقول: تهيّؤا وكونوا على أهبة الخروج والطلب بدماء أهل بيت نبيكم محمد ﷺ[2].

---

(١) أصدق الأخبار ص٥٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١١، الفتوح ج٦ ص٨٩.

المختار والخوارج

لابد من الإشارة أنه في هذا الوقت الذي كان المختار يخطو خطواته الأولى للسيطرة على الكوفة ، كان في الجانب الآخر من العراق في البصرة ونواحيها الصراع دائراً بين الخوارج وبين ولاة ابن الزبير ، ففي الوقت الذي كان المختار يدعو إلى إقامة خلافة علوية كان الخوارج الإزارقه يسارعون إلى بيعة زعيمهم نافع ابن الأزرق بأمرة المؤمنين وكان الخوارج قد وضعوا برنامجاً دينياً ينافسون به برنامج الشيعة ، فقالوا : «لو خرج منّا خارجون في سبيل الله ، فقد كانت منّا فترة ، منذُ خرج أصحابنا ، فيقوم علماؤنا في الأرض فيكونون مصابيح للناس ، يدعونهم إلى الدين ، ويخرج أهل الورع والاجتهاد فيلحقون بالرب ، فيكونون شهداء مرزوقين عند الله أحياء» ، وكانوا قد انضموا إلى عبد الله بن الزبير ضد الأمويين ، لكن إصرار ابن الزبير على تمجيد عثمان والإشادة بذكره ، جعل الخوارج يفارقونه ، وعاد بعضهم إلى اليمامة والبقية إلى البصرة ، وانضم إليهم خوارج عُمان واليمامة ، فصاروا أكثر من عشرين ألفاً ، وبدأوا بالسيطرة على الأهواز وفارس وكرمان وبدأوا يستعدون للهجوم على العراق .

وبدأ التنافس بين الخوارج والمختار حول السيادة في العراق ، ولكنهم اتفقوا لا إرادياً على مناهضة الدعوة الزبيرية العدو المشترك .

وربما رأى المختاريون والخوارج أن يقتسموا النفوذ في العراق ، وأن لايصطدموا ، حتى لا يستفيد أعداؤهم الأمويون والزبيريون من هذا الصدام ، فبدأ المختاريون يسيطرون على الكوفة ، بينما كان الخوارج قد سيطروا على البصرة ، وارتاع أهل

البصرة لما يعلمون من إقدام الخوارج على سفك الدماء[1]، واستنجدوا بزعيمهم الأحنف بن قيس الذي حشد عشرة آلاف رجل، وبدأ قتال عنيف. وانتهت هذه المعركة بمصرع نافع ابن الأزرق ـ رأس الخوارج ـ وفرت فلول الخوارج إلى كرمان وأصفهان.

وتنفس المختار الصعداء، فقد كان الخوارج سيزحفون حتماً إلى الكوفة بعد فراغهم من أمر البصرة، وقد كفاه أهل البصرة وولاة ابن الزبير شر الخوارج، دون أن يبذل جهداً وكان المختار قد جنى فوائد عظيمة من ثورات الخوارج بالعراق، فقد شغلوا الولاة الأمويين فانصرفوا إلى إخماد ثورتهم، وغفلوا عن تحركات المختار ودعوته. كما اشتغل ولاة ابن الزبير بصد الخوارج ومراقبتهم عن مراقبة المختار فتمكن ـ كما سنرى ـ من السيطرة على الكوفة ومعظم أرجاء شرق العالم الإسلامي. وكان هؤلاء الولاة الزبيريون يعتقدون أن الخوارج أعظم خطراً من المختار.

كما أن أهل العراق تناسوا خلافاتهم ومشاكلهم أمام هجمات الخوارج، وإزاء أقدامهم على سفك الدماء. وأقبلت الشيعة على الالتفاف حول المختار حتى يصبحوا جميعاً قوة أمام أعدائهم الألداء ـ الخوارج ـ الذين يكفّرون علي بن أبي طالب، والذين قاتلوه بالأمس في النهروان، وكانوا سبب تقويض الحكم العادل له ودق الحجر الأساس للدولة الأموية والظلم والاستبداد المستمر[2].

---

(١) يقول عبد الله بن أباض ـ رأس الفرقة الأباضية ـ في الاعتراض على نافع بن الأزرق ـ الذي كان قد كفّر المسلمين وحرّم ذبيحتهم ومناكحتهم ـ يقول: إن القوم كفّار بالنعم والأحكام، وهم بُراء من الشرك، ولا تحلّ لنا إلا دماؤهم، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام! (تاريخ الطبري ج٥ ص٥٦٨).

(٢) نقلنا هذا الفصل بالإجمال مع بعض التنقيح عن كتاب (المختار الثقفي مرآة العصر الأموي) للدكتور علي الخربوطلي ص ٢٧٢ إلى ص٢٧٨.

المختار . . الأمل!

نعود إلى الكوفة ـ البلد الساخن بالأحداث والمفاجآت ـ لنشهد حركة المختار وهي تظهر من مكمنها إلى السطح وبداية نشاطها العلني التي ستجني ثمارها الأولى في غضون شهور قليلة قادمة .

فقد حملت الأيام في أفقها الأمل بقرب الوصول إلى الأهداف النبيلة التي يتطلّع إليها المؤمنون بشغف . . الأمل الذي يشفي الصدور بإنصافه المظلومين والاقتصاص من الجُناة الظالمين . . وعندما يعود العدل يعود معه الخير وفيراً ، وتعمّ البهجةُ قلوبَ المنكوبين . . وتنفض الأرواح اليأسَ المقيت ، وتعود الحياة بمعناها السامي بين البشر ، فتزهر ورودهم الذابلة وتتقوم أعوادهم المائلة ، وتكون الحياة كما أرادها الله للإنسانية . . .

حلّ شهر محرم الحرام من عام (٦٦هـ) الشهر الذي حدثت فيه مأساة أهل البيت عليهم السلام قبل خمس سنوات . رأى المختار أن هذا الشهر خير توقيت للقيام بثورته ، لما يحمل هذا الشهر من خصوصية هيجان المشاعر الإنسانية غيضاً على مرتكبي تلك المجزرة البشعة ، الذين يمشون بكل اطمئنان في أزقة الكوفة وشوارعها ، وكأنهم أبطال شعبيون .

وبما أن المختار كان قد حصل على بيعة الكثير من وجهاء أهل الكوفة وعامتهم ، والحكومة الزبيرية ضعيفة تقاتل في جبهتين . . في المشرق تقاتل الخوارج ، وفي المغرب في مواجهة مع الأمويين ، وفي الداخل عدم تماسك وفقدان الشعبية . بعث المختار إلى أصحابه فجمعهم حوله في الدور وأراد الوثوب بهم في هذا الشهر ـ محرم الحرام ـ والسيطرة على الحكم[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٤ ، الأنساب ج٦ ص٣٨٤ .

في هذه الأثناء التي قد عزم فيها المختار النهوض جاء رجل من أصحابه من شبام[1] عظيم الشرف وهو عبد الرحمن بن شريح إلى وجوه الشيعة[2]، واجتمعوا في منزل سعر الحنفي فخطب فيهم بن شريح : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[3]:

«أما بعد فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ولا ندري أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ، فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به المختار ، وبما دعانا إليه ، فإن رخّص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيءٌ من أمر الدنيا آثر عندنا من سلامة ديننا !!» فقالوا له :

أرشدك الله ! فقد أصبت ووفّقت ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا من أيامهم[4].

وسبب هذه الرغبة في الوقوف على رأي ابن الحنفية هو إعلان المختار كونه قد حصل على إذن من ابن الحنفية على زعامة الطائفة الشيعية في الكوفة وقيادتها ، وأنه يسير على خط مرسوم له من قبل أهل البيت ﷺ، وهو ادعاء عظيم حصل المختار بموجبه على الكثير من الأنصار والمؤيدين . بينما ابن صُرد الذي قاد التوابين لم يعلن عن امتلاك تفويض من أهل البيت ﷺ كالذي صرح به المختار ، وسنرى بالفعل كم استقوى المختار بهذا التفويض ، وكان أحد أهم الأركان التي أنجحت مسعاه وأوصلته إلى أن يصبح بطلاً حقيقياً في نظر أهل البيت ﷺ ، وفي نظر عامة المسلمين ، بل وغيرهم .

---

(١) شبام : حَي من همدان ، عن «ابن الأثير» .

(٢) منهم (١) سعيد بن منقذ الثوري (٢) سعر بن ابي سعر الحنفي (٣) الأسود بن جراد الكندي (٤) قدامة بن مالك الجُشَمي . عن بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٤ ، تاريخ الطبري ج٦ ص١٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٤ .

(٣) في رواية بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٤ : أن هؤلاء المجتمعون قالوا لعبد الرحمن بن شريح .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص١٢ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٤ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٤ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٤ .

وخرج هؤلاء وَمعهم آخرون(١) حتى قدموا على ابن الحنفية(٢) وكان إمامهم عبد الرحمن بن شريح ، فلما دخلوا عليه ، وسلموا ردّ عليهم السلام ، وقرّبهم وأدناهم ، ثم سألهم عن حال الناس ، فخبّروه عن حالهم وما هم عليه بعد هذا الترحيب والحوار القصير ، قال ابن الحنفية مستفسراً : ما الذي أقدمكم إلى مكة وما هذا وقت الحج ؟ فقالوا : حاجة مهمة ! فقال لهم : أفعلانية أم سر ؟ فقالوا : بل سرٌّ ! ، قال : رويداً إذن ، فمكث قليلاً ، ثم تنحّى جانباً ودعاهم ، ثم قالوا له : أنتكلم ؟ فقال : تكلموا . .

فبدأ عبد الرحمن بن شريح فتكلّم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنكم أهل بيت خصّكم الله بالفضيلة ، وشرّفكم بالنبوة ، وعظم حقكم على هذه الأمة ، فلا يجهل حقكم إلا مغبون الرأي ، مخسوس النصيب . قد أُصبتم بحسين (رحمه الله) عظمت مصيبة اختصصتُم بها بعد ما عمّ بها المسلمون ، وقد قدم المختار بن أبي عبيد يزعم لنا أنه قد جاء من قِبَلكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسُنّة نبيه ﷺ ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، فبايعناه على ذلك ، ثم أنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، وندبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه !

يقول الأسود بن جراد الكندي ، ثم تكلمنا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبنا ، وهو يسمع ، حتى إذا فرغنا ، حمد الله وأثنى عليه وصلى علىٰ النبي ﷺ ثم قال :

أما بعد ، فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فالحمد لله على ما آتانا وأعطانا ، أما المصيبة بحسين فقد

(١) رواية أنساب الأشراف .

(٢) « كان اللقاء في مكة » كما صرحت رواية الفتوح (وكان اللقاء في المدينة) كما عن أصدق الأخبار ، ولم تذكر أغلب المصادر مكان الاجتماع .

خصت أهله وعمّت المسلمين ، فإن ذلك كان في الذكر الحكيم ، وهي ملحمة كتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان فيها درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . وأما ما ذكرتم من أمر المختار بن أبي عبيد فوالله لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم(١) .

يقول جعفر بن نما ﷺ أن ابن الحنفية قال لهم : قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم عليّ بن الحسين ﷺ ، فلما دخل ودخلوا عليه أخبر خبرهم الذي جاؤوا لأجله ، قال ﷺ : يا عم لو أن عبداً زنجياً تعصّب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته ، وقد وليتك هذا الأمر ، فاصنع ما شئت ، فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون إذن لنا زين العابدين ﷺ ومحمد بن الحنفية(٢) .

وهكذا عاد الركبُ إلى الكوفة وقلوبهم مطمئنة بأن دعوة المختار مسندة من قبل أهل البيت ﷺ ، بالخصوص الإمام زين العابدين ﷺ ومحمد بن الحنفية ـ الذي يحمل تفويضاً من الإمام ﷺ بتوجيه الثورة . وكان واضحاً الجو المضطرب الذي يعيش فيه زين العابدين ﷺ ، فهو يعيش وسط دولتين متصارعتين متناقضتين ، ولم تتفقا إلاّ على العداء لأهل البيت ﷺ، ولذلك كان الإمام ﷺ متكتّماً يحاول أن لا يظهر في الواجهة حفاظاً على البقية الباقية من المؤمنين ـ الذين نجوا من سيوف البغي والأحقاد التي طالتهم في كربلاء وفي وقعة الحَرّة ـ الذين بهم يُقام شعار الدين وبهم تُحفظ ثغور الإسلام الحنيف ويُصان القرآن الكريم . وسيتبين ذلك من مطاوي البحث في الكثير من الجوانب التي تربط حركة المختار بأهل البيت ﷺ ، ويظهر لنا أن الروابط بين

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٣ ـ الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٤ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٤ ـ الفتوح ج٦ ص٩١ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٤ ـ أصدق الأخبار ص٥٩ ـ مع المختار ص١٠٦ ـ المفيد في ذكرى السبط الشهيد ص١٨٨ ـ عوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٦٨٤ .

المختار وأهل البيت ﷺ لم تبرز إلى العلن إلا في مناسبات نادرة لهذه الجهة التي ذكرناها .

« وهذه الحادثة ـ وأشباهها ـ تفيدنا أن الإمام زين العابدين ﷺ كان في غاية الالتزام بالكتمان ، وعملاً بمبدأ التقيه الثوري خاصة وأن الإمام كان يحاول إيهام السلطة الأموية بأن الإمام غيره ، وأن علي بن الحسين ﷺ ما هو إلا هاشمي وعلوي فقط ، فكيف إذا ما انكشف دوره في توجيه ثورة شعبية كبرى معروفة النتائج . . . وملخصاً يمكن أن تقول أن المختار كان شرعياً في قيادته لجماهير الكوفة للأخذ بثأر الحسين ﷺ وآله وأصحابه »[١] .

---

(١) المختار ضمير وسط الظلام ص١٨ .

الفصل الثامن

الإنقـــــلاب

الاضطـراب

في هذا الوقت الذي ذهبت هذه المجموعة إلى استشارة محمد بن الحنفيـة لـم يكـن المختار على علم بذلـك، وعندما علـم بخروجهـم شق ذلك عليه خوفاً من أن لا يجيبهـم ابن الحنفية بما يجب، فيتفرق عنه الناس ـ لما يعلـم من تـردّي الأوضـاع السياسية في الحجاز، وعدم إمكان تصريح ابن الحنفية بما يدعم حركـة المختار بسبب ذلك فكان يريد النهوض بأصحابه قبل قدومهم من هناك فلم يتيسّر له ذلك[1].

وقد كانت بعض مجاميع الشيعة ممن بايعوا المختار قد توقفوا ينتظـرون عـودة هـذا الوفد ليطلعوا منه على صحة ادعاء المختار ليقرّروا على أساسها النُصرة أو الخذلان.

في هـذا الجـو المضطرب كـان المختـار يحـاول أن يخفـف مـن وطء الصدمة علـى أنصاره ـ أن كان جواب ابن الحنفية سلبياً ـ فكان يقول:

«إن نُفَيْراً منكـم تحيّروا وارتـابوا، فـإن هـم أصـابوا أقبلوا وأنـابوا، وإن هـم كبـوا وهابوا، واعترضوا وانجابوا، فقد ثُبروا وخابوا»[2].

كان جواب ابن الحنفية لوفد الكوفة حديث الساعة، فمن الناس من يراهن على كون جواب ابن الحنفية مؤيداً للمختار وآخـرون يحدثـون بخـلاف ذلـك، وفي هـذه الأثناء وإذا بالوفد قد وصل الكوفـة، ولـم ينفـض عـن نفسـه وعثـاء الطريـق وغبـار الصحـراء حتـى دخلـوا علـى المختـار قبـل دخولهـم إلـى بيوتهـم، فـالأمر جليـل لا يحتمل التأخير.

---

(١) أصدق الأخبار ص٦٠ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص١٤.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١٤ بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٥.

استقبلهم المختار مستفهماً مستنكراً، فقال لهم ما وراؤكم: فقد فتنتم وأرتبتم!

فقالوا: إنّا قد أُمرنا بنصرك.. فقال المختار: الله أكبر! أنا أبو إسحاق[١] أنا جزّار القاسطين[٢].. أجمعوا إليّ الشيعة فجمع من كان قريباً منهم[٣].

فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا شيعة آل محمد المصطفى، أن نفراً أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به إليكم[٤]، فخرجوا إلى إمام الهدى والنجيب المرتضى وابن المصطفى المجتبى (يعني زين العابدين ﷺ) فعرّفهم أني ظهيره ورسوله، وأمركم باتّباعي وطاعتي[٥] فيما دعوتكم إليه من قتال المُحلّين، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين[٦].

وبعدها تكلم عبد الرحمن بن شريح الهمداني -رئيس الوفد- فقال: أنا أحببنا أن نستخبر لأنفسنا خاصة ولكم عامة، فقدمنا مكة إلى أبي القاسم محمد بن علي، فخبّرْنا بخبر المختار بن أبي عبيد، فأمر بمظاهرته ومؤازرته وإجابته إلى ما دعانا إليه[٧]، فأقبلنا طيّبة أنفسنا، منشرحة صدورنا، قد اذهب الله منها الشك والغل والريب، واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدونا، فليبلغ ذلك شاهدكُم غائبكَم، واستعدوا وتأهّبوا[٨].

وقام الوفد رجلاً رجلاً فتكلّموا بنحو ما تكلم به عبد الرحمن[٩]، فاستجمعت

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٤، وفي الأنساب ج٦ ص٣٨٤ (أُذن لنا في نصرتك).

(٢) الفتوح ج٦ ص٩٣.

(٣) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٤، تاريخ الطبري ج٦ ص١٤.

(٤) عن الفتوح ج٦ ص٩٣.

(٥) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٥.

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص١٤ - الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٤.

(٧) الفتوح ج٦ ص٩٣.

(٨) تاريخ الطبري ج٦ ص١٥.

(٩) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٥.

له الشيعة وحَدبت عليه[١] وبايعوه[٢] .

و «مما لا شك فيه أن جواب تأييد ابن الحنفية هذا ـالذي جاء به الوفد ـ رفع من مكانة المختار، وزاد من عدد أتباعه . لأنه شجع أولئك الذين شكّوا في ادعاءات المختار في أنه كان يعمل لابن الحنفية على الانضمام إليه، أو على الأقل أن يشاركوهم في مشاعرهم، فالمحدث المشهور عامر الشعبي وأبوه شرحبيل كانا من بين أولئك المترددين الذين استجابوا للمختار بعد هذه الحادثة»[٣] بل كانا أول مَن أجاب المختار[٤] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٥ .

(٢) الفتوح ج٦ ص٩٤ .

(٣) الخلافة الأموية (دكسن) ص٧٢ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص١٥ .

ضـم إبراهيم الأشـتر

يقول أبو مخنف : فلما تهيأ أمر المختار ودنا خروجه ، قال له أحمر بن شميط ويزيد بن أنس وعبد الله بن كامل وعبد الله بن شداد : أن أشراف الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع ، فإن جامعنا على أمرنا إبراهيم بن الأشتر رجونا بإذن الله القوّة على عدونا ولا يغرّنا خلاف من خالفنا ، فإنه فتى بئيس ، وابن رجل شريف وبعيد الصيّت ، وله عشيرة ذات عزّ وعدد[٢] .

قال المختار : فصيروا إليه ، كلموه وادعوه إلى ما نحن عليه ، وأعلموه الذي أُمر به من الطلب بدماء أهل البيت ورغّبوه في ذلك ، فإن فعل وإلا صرت إليه أنا بنفسي . . .[١]

فخرج إليه وجوه الشيعة[٢] وفيهم يومئذ أبو عثمان النهدي وعامر الشعبي[٣] وأشباههما ، حتى صاروا إلى ابن الأشتر فدخلوا إليه وسلّموا عليه ، فرد عليهم السلام ، ورفعهم وقرب مجلسهم ، ثم قال : تكلموا بحاجتكم ![٤] فتكلم يزيد بن انس ، فقال : (يا أبا النعمان) إنا قد أتيناك في أمر نعرضه عليك وندعوك إليه ، فإن قبلته كان خيراً لك ، وإن تركته فقد أدينا إليك فيه النصيحة ، ونحن نحب أن يكون عندك مستوراً ، فقال لهم إبراهيم بن الأشتر : وإن مثلي لا تُخاف غائلته ولا سعايته ، ولا التقرب إلى السلطان باغتياب الناس ، إنما أولئك الصغار الأخطار الدِّقاق همَماً ، فقولوا ما أحببتم ! ، فقالوا له : إن الأمر على ما ذكرت وأجبت[٥] فقال له ابن أَنس :

(١) الفتوح ج٦ ص٩٤ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٥ .

(٣) أن عامر الشعبي كان من الوجوه ولم يكن من الشيعة . كما سترى فيما بعد .

(٤) الفتوح ج٦ ص٩٤ .

(٥) الفتوح ج٦ ص٩٥ .

أنما ندعوك إلى ما قد أجمع عليه رأي الملأ من الشيعة . . إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، والطلب بدماء أهل البيت، وقتال المحلّين، والدفع عن الضعفاء . ، ثم تكلم أحمر بن شميط، فقال له: أني لك ناصح، ولحظك محب، وأن أباك قد هلك وهو سيد الناس، وفيك منه أن رعيت حق الله خلف . . قد دعوناك إلى أمر إن أجبتنا إليه عادت لك منزلة أبيك في الناس، وأحييت من ذلك أمراً قد مات، إنما يكفي مثلك اليسير حتى تبلغ الغاية التي لا مذهب وراءها، إنه قد بنى لك أولّك مفتخراً .

وأقبل القوم كلّهم عليه يدعونه إلى أمرهم ويرغّبونه فيه، عند ذلك قال لهم إبراهيم بن الأشتر: فإني قد أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته ﷺ على أن تولوني الأمر[١] ، فقال له يزيد بن أنس: [٢] والله إنك لأهل لذلك ومحلّه، ولكنّا بايعنا هذا الرجل . . المختارين أبي عبيد، لأنه قد جاءنا من عند أبي القاسم محمد بن علي، وهو الأمير والمأمور بالقتال، وقد أُمرنا بطاعته، وليس إلى خلافه من سبيل . . . فسكت عنهم إبراهيم بن الأشتر ولم يجبهم إلى شيء . فلما رأوه لم يردّ عليهم جواباً وثبوا وانصرفوا إلى المختار، فخبّروه بذلك[٣] .

يقف بعض المحققين عند هذه النقطة وأمثالها فيقول:

«ولكن من الصعب جداً تبرير عدم انضمام إبراهيم بن الأشتر إلى سليمان بن صُرد الخزاعي في حركته أو إلى المختار بن عبيد الثقفي في البداية . فيفترض ولهاوزن ـأحد المستشرقين ـ (أن إبراهيم لم يكن يؤمن بالحركة الشيعية كما كانت آنذاك) ولكن ربما أن إبراهيم لم يكن يثق بأي من هذين الزعيمين، أو أنه اعتبر نفسه مساو لهما على الأقل ـ إن لم يكن يفوقهما كفاءة»[٤] وإن كان الاحتمال الأخير هو الأقرب كما سنرى خلال البحث .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٥ .

(٢) وفي روايات الطبري والأنساب وابن الأثير (فقالوا له . .) .

(٣) الفتوح ج٦ ص٩٥ .

(٤) الخلافة الأموية ص٧٣ .

عندما سمع المختار بشرط ابن الأشتر هذا، حاول أن يكسبه إلى جانبه بأن وفّق بين ما يريده هو وبين مطلب ابن الأشتر[١] ، وبالفعل نجح المختار في هذا التوفيق، فإن ابن الأشتر قوة لا يستهان بها، ولا يمكن التفريط بها أبداً. فبعد ثلاثة أيام من رد إبراهيم بن الأشتر وفد المختار ـ وكان المختار قد سكت عنه[٢] ـ دعا المختار بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه[٣] ـ قال الشعبي: أنا وأبي فيهم ودفع إليّ كتاباً مختوماً ـ فسار بنا ومضى أمامنا يقدّ بيوت الكوفة قدّاً[٤] لا ندري أين يريد حتى وقف على باب إبراهيم بن الأشتر وقيل: المختار أمين آل محمد[٥] فاستأذنا عليه فأذن لنا[٦]. وهو جالس في صحن الدار فسلمنا عليه، وألقيت لنا الوسائد فجلسنا عليها وجلس المختار معه على فراشه[٧].

وتكلم المختار ـ وكان مفوّهاً ـ فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: [أما بعد يا أبا النعمان][٨] أن الله قد أكرمك، وأكرم أباك من قبلك بموالاة بني هاشم ونُصرتهم، ومعرفة فضلهم، وما أوجب الله من حقهم، وقد كتب إليك محمد بن علي بن أبي طالب[٩] . . . وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا، فإن فعلت اغتبطت، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجّة عليك، وسيغني الله المهدي محمداً وأولياءه عنك . . .

يقول الشعبي: فلما قضى كلامه، قال لي: ادفع الكتاب إليه، فدفعته إليه، فدعا

---

(١) الخلافة الأموية ص٧٣.

(٢) الفتوح ج٦ ص٩٦.

(٣) فيهم (١) يزيد بن أنس (٢) أحمر بن شميط (سليط) (٣) عبد الله بن كامل (٤) أبو عمرة كيسان.

(٤) يقدّ الطريق: قطعه (المنجد ص٦١١).

(٥) الطبقات الكبرى ج٥ ص٩٩.

(٦) وهو جالس في صحن الدار، فسلمنا عليه عن الأخبار الطوال ص٢٨٩.

(٧) نقلاً عن تاريخ الطبري ج٦ ص١٦، وقريباً منه في الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٥، الفتوح ج٦ ص٩٦، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٥ وغيرها.

(٨) نقلاً عن الفتوح ج٦ ص٩٦.

(٩) الأخبار الطوال ص٢٨٩.

بالمصباح وفضّ خاتمه، وقرأه[١] فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن علي إلى إبراهيم الأشتر، أما بعد، فإن المختار بن أبي عبيد على الطلب بدم الحسين، فساعدْه وآزره يثبْك الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة[٢].

كأن إبراهيم تشكك في أمر الكتاب وارتاب فيه، فقال: فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إليّ؟ يقول الشعبي: فقال له يزيد بن أنس وأحمر بن شميط وعبد الله بن كامل وجماعتهم - إلا أنا وأبي - فقالوا: نشهد أن هذا كتاب محمد بن علي إليك[٣].

فقال إبراهيم للمختار: سمعاً وطاعة لمحمد بن علي، فقل ما بدا لك، وادع إلى ماشئت[٤].

فتأخر إبراهيم عند ذلك عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه، فقال: ابسط يدك أبايعك، فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم[٥].

ثم قدمت لهؤلاء الضيوف الفواكه وشراب من عسل، وبعد أن أكلوا وشربوا خرجوا من عند إبراهيم الأشتر. وخرج معهم إبراهيم وركب مع المختار حتى أوصله إلى محل إقامته[٦].

وانتهى مسعى المختار ووجوه الشيعة بالنجاح في كسب إبراهيم بن مالك الأشتر إلى صفوفهم بعد أن كان بعيداً عن التوجه الشيعي السياسي، ودخل معهم في العمل بكل ثقله - كما سنرى.

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٦.

(٢) الأخبار الطوال ص٢٨٩.

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١٧ وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٦ أضاف أسماء: الشاكري (غير الهمداني) وورقاءبن عازب الأسدي.

(٤) الأخبار الطوال ص٢٨٩.

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص١٧.

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص١٧ «بتصرف».

الشعبي وبداية التهريج

تسليم المختار لإبراهيم بن الأشتر كتاباً من قبل محمد بن الحنفية أثار الكثير من الهرج والتسقيط ، وكان أول من أثار هذه الزوبعة هو راوي الحادثة ـ نفسه ـ أو نسبت إلى الراوي عن قصد ـ ، وبعد ذلك التزم الكثير من كتاب التراث ـ قديما وحديثاً ـ هذا التهريج ضد المختار ومن ثم تسقيطه وتجريده وثورته من الشرعية التي طالما أعلن عنها وتمسك بها .

ففي رواية الطبري ـ وقد أخذها عنه بعض من تأخر عنه ـ أنه لما عاد إبراهيم من توديع المختار منصرفاً ، يقول الشعبي : «أخذ بيدي ، فقال : انصرف بنا يا شعبي ، قال : فانصرفت معه ومضى بي حتى دخل بي رحله ، فقال : يا شعبي ، إني قد حفظت أنك لم تشهد أنت ولا أبوك ، افترى هؤلاء شهدوا على حق ؟ قال : قلت له : قد شهدوا على ما رأيت وهم سادة القرّاء ومشيخة المصر وفرسان العرب ، ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً . قال : فقلت له هذه المقالة وأنا والله لهم على شهادتهم متهّم ، غير أني يعجبني الخروج وأنا أرى رأي القوم ، وأحب تمام ذلك الأمر ، فلم أطلعه على ما في نفسي من ذلك»[1] .

وفي رواية الفتوح التفت المختار إلى عدم شهادة الشعبي وأبيه ، تقول الرواية : «فلما أصبح ـ المختار ـ أرسل إلى الشعبي فدعاه وقال : إني أعلم أنك لم تشهد البارحة بما شهد أصحابي لا أنت ولا أبوك ، فما منعكما عن ذلك فسكت الشعبي ولم يقل شيئاً ، فقال له المختار: تكلم بما عندك . أترى هؤلاء الذين شهدوا البارحة عليّ على حق شهدوا أم على باطل ؟ فقال الشعبي : لا والله يا أبا إسحاق ما أدري

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٧ .

غير أنهم سادة أهل العراق وفرسان الناس ولا أظنهم شهدوا إلاّ على حق . وكان قد علم وتيقّن أن المختار كتب ذلك من نفسه »[١] .

وفي رواية الدينوري جاء بصورة ثالثة : « قال الشعبي : ودخلتني وحشة من شهادة النفر الذين كانوا معي على أنهم رأوا محمد بن الحنفية حين كتب ذلك الكتاب إلى إبراهيم بن الأشتر فأتيتهم في منزلهم رجلاً رجلاً ، فقلتُ : هل رأيت محمد بن الحنفية حين كتب ذلك الكتاب ؟ فكلٌ يقول : نعم ، وما أنكرت من ذلك ؟ !

فقلت في نفسي : إن لم أستعلمها من العجمي - يعني أبا عمرة - لم أطمع فيها من غيره . فأتيته في منزله ، فقلت : ما أخوفني من عاقبة أمرنا هذا أن ينصب الناس جميعاً لنا ، فهل شهدت محمد بن الحنفية حين كتب ذلك الكتاب ؟ فقال : والله ما شهدته حين كتبه ، غير أن أبا إسحاق - يعني المختار - عندنا ثقة ، وقد أتانا بعلامات من ابن الحنفية ، فصدّقناه . قال الشعبي : فعرفت عند ذلك كذب المختار ، وتمويهه ، فخرجت من الكوفة حتى لحقت بالحجاز ، فلم أشهد من تلك المشاهد شيئاً »[٢] .

فالنتيجة الإجمالية لهذه الرواية التي نقلت بعدّة صور أن عامر الشعبي يشكك بصحة صدور الرسالة وأن المختار هو من كتبها ، وأن أولئك الشهود - الذين هم باعترافه سادة القرّاء ومشيخة المصر وفرسان العرب - ما كانت شهادتهم إلا زوراً وبهتاناً .

وعجيب أمر أساتذة التاريخ ، كيف قبلوا قول الشعبي وردّوا قول مشيخة المصر وكبار الشيعة ووجوههم ، وحكموا على هذا الأساس بأن الرسالة لا أساس لها من الصحة ، وأخذوا قول الشعبي على أنه من المسلّمات التاريخية[٣] . وأسأل : هل عدم

(١) الفتوح ج٦ ص٩٨ .

(٢) الأخبار الطوال ص٢٨٩ .

(٣) من جملة هؤلاء الكتاب (١) الدكتور عبد الأمير دكسن في كتابه (الخلافة الأموية) (٢) والدكتور إبراهيم بيضون في كتابه إتجاهات المعارضة في الكوفة وغيرهما .

شهادة الشعبي على الرسالة دليل على عدم صحتها ؟ ! وهل كان هو مع الوفد الذي سافر إلى الحجاز والتقى بابن الحنفية ليكون قوله دليل صحة أو عدم صحة ؟ ! فالتاريخ لم يذكر اسمه مع الذين التقوا بابن الحنفية على الأقل .

وبعد ذلك لنرى ماذا يقول عنه من كتب في علم الرجال ! فقد كتب العلامة ابن الأثير عن الشعبي فقال : « إنه كان بينهما ـ بين الشعبي والمختار ـ ما يوجب أن لا يُسمع كلام أحدهما في الآخر »(١) .

ونفس الكلام يقوله ابن عبد البر : « كان بينه ـ المختار ـ وبين الشعبي ما يوجب أن لا يقبل قول بعضهم في بعض »(٢) .

هذا ناهيك عن كون الشعبي كان من المتملّقين للحكّام مما يوجب حجب الثقة عنه ، « فقد عُرف عنه تزوير الحقائق ، وتشويه الصور ، وانحرافه عن أهل البيت »(٣) . وسنشير إلى انتهازيته وفسقه في الفصل الخاص به .

ولا يبعد أن يكون هو من اضاف كلمة (المهدي) على اسم محمد بن الحنفية في كتابه لابن الأشتر(٤) وأضاف الحوار الذي دار بين إبراهيم بن الأشتر والمختار بعد قراءة إبراهيم لرسالة ابن الحنفية إليه ، وقد جاء في الحوار : « قال إبراهيم : لقد كتب إليّ ابن الحنفية وكتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إليّ إلا باسمه واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان . . »(٥) .

وهذا يبيّن مدى ركاكة الرواية ، فقد أشرنا سابقاً أن ابن الحنفية كان لا يرغب أن ينسب إليه لقب « المهدي »(٦)، ولو كان المختار قد زوّر بالفعل الكتاب لكان راعى

(١) أُسْد الغابة في معرفة أهل الصحابه ج٤ ص٣٣٦ .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب القسم الرابع ص١٤٦٥

(٣) مع المختار الثقفي ص١٠٧ .

(٤) فقد ذكر الطبري والبلاذري وابن الأثير أول الكتاب هكذا : من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص١٧ .

(٦) مضى في ص١٤٩ .

أسلوب ابن الحنفية و لم يضف إليه لقب «المهدي»، ليضيف على تصرفه مزيداً من الاطمئنان عند إبراهيم بصحة الكتاب، وأن من كتبه هو ابن الحنفية لا غير.

تسجيل الشهود

أن إبراهيم بن الأشتر أحب أن يحتفظ بأسماء الذين شهدوا على الكتاب وأنه من ابن الحنفية، فقال للشعبي: اكتب لي أسماءهم فإني ليس كلّهم أعرف. فدعا بصحيفة ودواة، وكتب الشعبي فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما شهد عليه السائب بن مالك الشعري، ويزيد بن أنس الأسدي، وأحمر ابن شميط الأحمسي ومالك بن عمرو النهدي -حتى أتى على أسماء القوم- شهدوا أن محمد بن علي كتب إلى إبراهيم بن الأشتر يأمره بمؤازرة المختار ومظاهرته على قتال المحلين، والطلب بدماء أهل البيت، وشهد على هؤلاء النفر الذين شهدوا على هذه الشهادة شراحيل ابن عبد -وهو أبو عامر الشعبي- وعبد الرحمن بن عبد الله النخعي وعامر بن شراحيل الشعبي».

فقال الشعبي: ما تصنع بهذا رحمك الله؟ فقال: دعْه يكون[1].

والقصة كلها من الكتاب المزوّر والشهادة الكاذبة وكتابة أسماء الشهود من صنع الشعبي، للتشنيع على المختار وتشويه صورته أمام محبيه. وطبق كلام ابن الأثير وابن عبد البر لا يمكن الاعتماد على روايات الشعبي المنتقصة للمختار، بالخصوص أن أي راوٍ آخر لم يسند كلام الشعبي هذا. فالقصة كلها أسطورة قُصد بها التشويه لا غير، فتأمل!

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٧ ، وفي الفتوح ج٦ ص٩٧ أن إبراهيم طلب من الشعبي كتابة الأسماء عند شهادتهم ، في المجلس ، وليس بعد ذلك . وسأله الشعبي : وما تصنع بهذا رحمك الله ؟ فقال : على [أي] حال أحب أن تكون أسماءهم عندي .

توقيت الثورة

وبالفعل أذعن إبراهيم بن الأشتر لزعامة المختار وانضم تحت لوائه . وعندها دعا إبراهيم عشيرته وإخوانه ومَن أطاعه وأقبل يختلف (يجتمع) عند المختار كل عشية عند المساء يدبرون أمورهم[١] .

في هذا الوقت كانت الأخبار تصل إلى الوالي ـ عبد الله بن مطيع ـ عن تحركات مشبوهة تحوم حول المختار ، فاستخدم الإرهاب والعنف مع الشيعة وبث في صفوفهم الخوف والرعب[٢] ، علّ هذا السلاح ينفع في تنفيرهم عن المختار ، ومن ثمّ أبعاد شبح الثورة عن أرض الكوفة ، لكن حنكة المختار وأصحابه وحسن تدبيرهم تغلّبت على تصرفات الوالي الظالمة .

فمكث المختار وأصحابه يدبرون أمرهم بينهم حتى اجتمعت آراءهم أن يخرجوا الأربعاء مساءاً (ليلة الخميس) ١٤ ربيع الأول / ١٩ تشرين الأول سنة ٦٨٥م ـ[٣] .

ولم تغب هذه التحركات عن عيون الحكومة ، فنقل الخبر إلى الوالي رئيسُ الشرطة إياس بن مضارب بقوله : أصلح الله الأمير أن المختار بن أبي عبيد خارج عليك لا محالة ـ إحدى الليلتين ، وذلك أنه قد بايعه إبراهيم بن الأشتر ، وفي ديوانه ـ أي المبايعون ـ بضعة عشر ألف رجل ما بين فارس وراجل ، فُخذ حذرك ، ثم قال له : إني قد بعثت ابني ـ راشداً ـ إلى الكناسة ، فلو بعثت في كل جبّانة[٤] بالكوفة

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٦ ، الأخبار الطوال ص٢٨٩ ، الفتوح ج٦ ص٩٨ تاريخ الطبري ج٦ ص١٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٥٨ « بتصرف » .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١٨ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٦ ، الفتوح ج٦ ص٩٨ .

(٤) الجبانة هي : مجالاً خالياً ، غير مبني وغير مسيج بعد ، وهي تحتل ما يقرب من هكتار على الأقل ، وتحدّ امتداد البناءات في الخطة القبلية . الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ص٢٥٠ .

عظيمة رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة، هاب المريب الخروج عليك.

فأرسل عبد الله بن مطيع إلى قوّاده فجمعهم، ثم أخبرهم بالذي وصله من أمر المختار وقرب ثورته عليه، ثم قال: أريد أن يكفيني كل رجل منكم ناحيته التي هو منها، فبعث ابنُ مطيع عبدَ الرحمن بن سعيد بن قيس إلى جبّانة السبيع، قال له: اكفني قومك، لا أوتينّ من قبلك، وأحكم أمر الجبانة التي وجهتك إليها، لا يحدثن بها حَدَث (وحمّله المسؤولية كاملة في حال الفشل). وبعث كعب بن أبي كعب الخثعمي إلى جبانة بشر، وبعث زحر بن قيس إلى جبّانة كندة، وبعث شمر بن ذي الجوشن إلى جبّانة سالم، وبعث عبد الرحمن بن مخنف بن سُليم إلى جبّانة الصائديّن وبعث يزيد بن حارث بن رؤيم ـ أبا حوشب ـ إلى جبانة مراد... وبعث شبث بن ربعي إلى السبخه. وأوصى كل رجل أن يكفيه قومه، وألاّ يؤتى من قبله، وأن يُحكم الوجه الذي وجهّه فيه.

ثم أردف قائلاً: فإن سمعتم الأصوات قد علت في جوف الليل فتوجّهوا إليهم بالخيل واكفوني أمرهم. فقالوا: نفعل ذلك أيها الأمير، فلا يهولنّك أمر المختار ولا من بايعه، فإنما بايعه شرذمة من هؤلاء الترابية.. ثم خرج القواد من عنده وانفض الاجتماع[1].

الملاحظ في هذا التكتل الذي يتحمس للقضاء على ثورة الشيعة والضعفاء بزعامة المختار أمران:

الأول: «أن ابن مطيع حارب الثائرين مع المختار بالرجال الذين تولّوا قتل الحسين عليه السلام، لقد حاربهم بشمر بن ذي الجوشن، وعمرو بن الحجاج، وشبث بن ربعي، وأمثالهم. وكان هذا كافياً في حفز الثائرين على المضي في ثورتهم والتصميم على النصر»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٨ ـ ١٩ ـ الفتوح ج٦ ص٩٨ ـ ٩٩ و« بتصرف ».

(٢) ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية ص٢٧٤ .

والثاني : هو استخفاف هؤلاء القوّاد بالثائرين لكونهم ضعفاء ومن شيعة علي بن أبي طالب ﷺ « الترابية » ، وكأنه قد غاب من بالهم أن هؤلاء يقاتلون بعزائمهم وإيمانهم لا بسلاحهم فقط ، بغض النظر عن كونهم يقاتلون ببصيرة وصدق وفي أعماقهم هدف نبيل يبغون الوصول إليه .

في ذلك اليوم الرهيب قد شحنت أزقة الكوفة وساحاتها بالخيل والرجال ، وأن الشُرَط قد أحاطوا بالأسواق والقصر بقيادة رئيس الشرطة إياس بن مضارب . وهكذا أخذت الحكومة كل احتياطاتها وأكملت استعداداتها للمواجهة صبيحة يوم الإثنين أو الثلاثاء ـ قبل موعد الثورة بيومين أو يوم واحد ـ .

في عشية ذلك النهار المخيف كان إبراهيم بن الأشتر مع جمع من عشيرته وممن أطاعه يتداولون الحديث ، وكان قد بلغهم النفير العام الذي قامت به الحكومة تحسّباً لما سيطرأ في هذه الليالي[1] .

قام إبراهيم بن الأشتر فأذّن ، ثم استقدم فصلى بهم المغرب ـ وكانت ليلة مقمرة ـ ولكن الجو الشتوي كان قد خيّم على الكوفة ، فهم في تشرين الأول ، والغيوم قد حجبت نور القمر والنجوم عن الأرض . وعند اشتداد الظلام بحيث لا يميز الصديق من العدو ، عند ذلك خرج إبراهيم يسير في نحو مائة رجل من بني عمه وأصحابه عليهم الدروع وقد ستروها بالأقبة ، وليس معهم من سلاح إلا السيوف على عواتقهم . كان إبراهيم قاصداً بيت المختار ـ كعادته كل ليلة ـ ، ولما كانت الطريق نحوه تمرّ بالمسجد والقصر وهي مليئة بالحرس ـ وهي في الجهة الشمالية الشرقية من الساحة المركزية وبيت المختار في الجهة الشمالية ملاصقاً للجامع ـ اقترح عليه البعض تجنّب هذا الطريق والمسير باتجاه مَرابط بجيله في الشمال الغربي ، ثم الانحراف باتجاه بيت المختار ، رفض إبراهيم هذا الاقتراح واعتبره نوعاً من الانهزامية ، وكان لا يكره

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٨ ـ ١٩ ـ الفتوح ج٦ ص١٠١ و « بتصرف » .

أن يلقاهم . وكان فتىً حدثاً شجاعاً ـ فقال : والله لأمرّن على دار عمرو بن حريث ـ إلى جانب القصر وسط السوق ، ولأرعبنّ به عدوّنا ولأُرينّهم هوانهم علينا[١] .

نعود إلى الكوفة ـ البلد الساخن بالأحداث والمفاجآت ـ لنشهد حركة المختار وهي تظهر من مكمنها إلى السطح وبداية نشاطها العلني التي ستجني ثمارها الأولى في غضون شهور قليلة قادمة .

الحدث المفاجئ

وبالفعل سار إبراهيم وأصحابه على الخطة التي رسمها هو ، حتى إذا تجاوز دار عمرو بن حريث ، وإذا هم وجهاً لوجه مع رئيس الشرطة إياس بن مضارب مع الشرُط وفي أيديهم السلاح ، فأستوقفهم وقال : من أنتم ؟ وما أنتم ؟ فقال إبراهيم : أنا إبراهيم بن الأشتر ، فقال له ابن مضارب : ما هذا الجمع معك ؟ وما تريد ؟ والله إن أمرك لمريب ! وقد بلغني أنك تمرّ كل عشيه هاهنا في جمعك هذا ، وما أنا بتاركك حتى آتي بك الأمير فيرى فيك رأيه ، فقال إبراهيم : خلّ سبيلنا وامض لشأنك ! أنت تأتي بي [إلى] الأمير ؟ ! فقال : نعم والله ، ولا صرت إلاّ معي إلى الأمير ! فقال له إبراهيم : يا عدو الله ألست من قتلة الحسين بن علي ؟ !

رأى إبراهيم أن موقفه محرج وعليه أن يخرج من هذه المواجهة بسلام وبدون حرب ، فالحرب قد تكون نتيجتها وأد الثورة في مهدها وقبل الإعلان عنها ، . فاستغل وجود أحد أبناء عشيرته مع الشرطة كمرافق عسكري[٢] .

فالتفت إبراهيم إليه وكان من أصحاب إياس بن مضارب يكنّى أبو قَطَن الهمداني ـ وكان يصحب أمراء الشرطة فهم يكرمونه وكان صديقاً لابن الأشتر ومن عشيرته ـ

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٩ ـ الفتوح ج٦ ص١٠١ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٣٨٩ ـ الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٧ .

(٢) المختار ضمير وسط الظلام ص٢٤ .

فقال له ابن الأشتر: يا أبا قَطَن أدنُ مني ، فظن أنه يريد أن يطلب منه أن يشفع له عند إياس ، فدنا منه ـ وكان مع أبي قطن رمح طويل ـ فتناوله منه ابن الأشتر وهو يقول: إن رمحك هذا لطويل ! ! وبحركة سريعة خاطفة أنبته في ثغرة نحر إياس فصرعه ، وقال لرجل من قومه : أنزل، واحتز رأسه ، فنزل إليه فاحتز رأسه ، ومضى أصحابه هاربين على وجوههم ورجعوا إلى ابن مطيع وأعلموه بالخبر ، فعين فوراً على الشرطة ابنه راشد بن إياس ـ وصيّر مكان راشد بالكناسة سويد بن عبد الرحمن المنقري .

تدارك الحدَث وإعلان الثورة

وصل إبراهيم وأصحابه بسلام إلى بيت المختار ، استقبله المختار بحفاوة هو ومن معه ، فقال له إبراهيم : إنا اتّعدنا للخروج [الليلة] القابلة ، وهي ليلة الخميس ، وقد حدث أمر لابد لنا من الخروج الليلة ! قال المختار ما هو ؟ قال : عرض لي إياس بن مضارب في الطريق ليحبسني بزعمه ، فقتلته . . . وألقى رأسه بين يديه ، ففرح المختار بقتل إياس وقال : بشرّك الله بخير ، فهذا طير صالح ، وهذا أول الفتح إن شاء الله تعالى[1] . وبالفعل أعلن المختار الثورة ودقت ساعة الصفر التي طالما انتظرها الضعفاء ليأخذوا بالحق من الظلمة المستهترين بالدماء والأعراض . . الذين طالما سحقوا كرامة البشر وأهانوا مقدساتهم ، وقد آن أوانهم ليذوقوا هم الكأس التي جرّعوها البؤساء الضعفاء .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٠١ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص١٩ (بتصرف) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٧ ـ أصدق الأخبار ص٦٦ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٠

كلمة السر وساعة الصفر

نهض المختار من مكانه ، فالأرض لا تحمله لشدة فرحه بقرب إدراك الهدف الذي طالما انتظره بفارغ الصبر ، وهكذا وضع أصحابه أمام اللحظة التاريخية الحاسمة ، فصاح برجل من أصحابه وقال : يا سعيد بن منقذ ! قم فأشعل النيران في الهوادي والقصب[١] ، وقم أنت يا عبد الله بن شداد فناد : (يا منصور أمت) - وكانت هذه كلمة السر للإعلان عن قيام الثورة - وقم أنت ياسفيان بن ليلى وأنت يا قدامة بن مالك فناديا في الناس : (يا لثارات الحسين بن علي) - وهو منهاج الثورة وأهدافها. ثم قال : يا غلام عليّ بدرعي وسلاحي ، فأخذ يلبس درعه وسلاحه وهو يقول :

قد علمت بيضاءُ حسناءُ الطلَل واضحةُ الخدين عجزاءُ الكَفَل
أني غداةَ الروع مقدامُ بطل لا عاجز فيها ولا وغد فشل

فقال له إبراهيم : إن هؤلاء الرؤوس الذين وضعهم ابن مطيع في المواضع يمنعون إخواننا من المصير إلينا واتياننا . فالرأي أن آتي قومي في كتيبتي هذه التي جئتك فيها فيأتيني كل من قد بايعني من قومي ، ثم أدور في نواحي الكوفة وأنادي بشعارنا فيخرج إليّ من أراد الخروج إلينا ، ومن قدر على إتيانك من الناس ، فمن أتاك حبسته عندك إلى من معك ولم تفرّقهم ، فإن عوجلت كان عندك من يمنعك إلى أن آتيك :

فقال له المختار : افعلْ وعجّلْ ، وإياك أن تسير إلى أميرهم تقاتله ، ولا تقاتل أحداً وأنت تستطيع أن لا تقاتل ، واحفظ ما أوصيتك به إلاّ أن يبدأك أحد بقتال[٢] ،

---

(١) الهردية أو الهودية هي : قصبات تضم ملوية بطاقات الكرم ، تحمل على قضبانه .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٠ والكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٨ ، الفتوح ج٦ ص١٠٢ أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٠ .

ثم خرج المختار من منزله على فرس له أدهم أغر محجّل[١]، ومعه إبراهيم بن الأشتر على ـ فرس ـ كميت له أرثم[٢]، وقد رفعت النار بين أيديهم في الهوادي والقصب والناس ينادون من كل موضع : يا لثارات الحسين بن علي[٣].

يا له من موكب رهيب ، يضم الأبطال والقُرّاء والأشراف ، والنيران أمامهم تنير الليل المظلم ، وصوت الحق . . ذلك الصوت الذي طالما كان مكبوتاً مكموماً أمسى يجلجل في سماء الكوفة الملبّد بالغيوم السوداء وكان صوت ـ يا لثارات الحسين ـ يخترق الآذان فيوقظ أصحابها من سباتها العميق الدافئ ، وتنهض القلوب تتبعها الأبدان لتلبي دعوة الحق وهكذا كان الرجال يخرجون من بيوتهم وأحيائهم بسلاحهم وما أمكنهم حمله من الطعام والماء صوب المختار وصوب جيش إبراهيم بن الأشتر بين فارس وراجل على كل صعب وذلول[٤] .

في هذه النقطة تختلف الروايات في تفاصيل الثورة ، فابن الأثير والطبري يذكرون تفصيلاً يخالفهم فيه البلاذري في أنسابه ، ويخالفهم جميعاً ابن الأعثم في فتوحه ، ونحن هنا نحاول أن نوفق بين الروايات ما أمكن ونحصل على خطوات موحّدة نحو الهدف والانتصار المرتقب .

---

(١) أدهم أغر محجّل : ما كان أسود من الخيل وبجبهته غُرَّة وفي قوائمه بياض (المنجد) .

(٢) كميت أرثم : من الخيل ما كان لونه بين الأسود والأحمر وفي طرف أنفه بياض (المنجد) .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٠٣ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٠٥ .

الخطوات نحو النصر

عندما ارتفع النداء في أزقة الكوفة بـ « يا منصور أمت » ، وطبّق السماء شعار « يا لثارات الحسين » ، أقبل الناس يخرجون وعليهم السلاح ، وهم يتسائلون عن سبب النداء في هذه الليلة ، مع أن الموعد كان في الليلة القادمة للثورة ، ولكن على كل حال حملوا أنفسهم وأسلحتهم وهم يتوجهون بحذر شديد نحو مركز المدينة عند بيت المختار ، ومن كان في ضواحي الكوفة التحق بإبراهيم بن الأشتر أو انتظر أن تحين الفرصة للالتحاق بالثوّار .

فإن إبراهيم بن الأشتر فارق المختار عند ضواحي داره في ساحة المدينة ، واتجه نحو قومه في الكتيبة التي كان قد أقبل فيها حتى أتى قومه ، واجتمع إليه جل من كان بايعه وأجابه ، وقد عرفوا ما حصل بين إبراهيم وبين رئيس الشرطة . فخرج معه قومه ، وسار بهم في سكك الكوفة وأحيائها طويلاً من الليل ، وهم يتنادون بكلمة السر وشعار « يا لثارات الحسين » ، والناس تلتحق بهم من كل صوب وناحية يمرّون بها وهم يتجنّبون المواضع التي فيها الأمراء والعساكر التي وضعها ابن مطيع ابتعاداً عن الاصطدام غير المُجدي[1] .

دخل إبراهيم وجيشه ومن التحق به في أراضي قبيلة كنده عند مسجد السَّكون ، وهو موقع بعيد عن مركز المدينة ، في هذه الأثناء جاءته جماعة من الفرسان ليس عليهم أمير من قوات الدولة التي تحت إشراف زحر بن قيس المكلفين بحراسة هذه المنطقة .

فشد إبراهيم وأصحابه عليهم وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أنا غضبنا لأهل بيت نبيك ، وثُرنا لهُم ، فانصرنا على هؤلاء ، وتمم لنا دعوتنا إنك على كل

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢ ، والكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٩ .

شيء قدير . . . » فكشفهم حتى أدخلهم جبّانة كندة ، عند مركز تجمعهم ، وخالطوهم وكشفوهم ، فركب أصحاب زحر بن قيس بعضهم بعضاً ، كلما لقيهم زقاق دخل منهم طائفة فيه ، وهكذا انتصر عليهم إبراهيم وجموع الثائرين(١) .

ثم رجع إبراهيم عنهم بعد أن هزمهم ، ثم سار حتى أتى جبّانة أُثَيْر من أراضي قبيلة « أسد » ، ووقف فيها طويلاً وأصحابه يتنادون بشعارهم « يا لثارات الحسين » ، والناس يخرجون إليهم الواحد تلو الآخر ، في هذه الأثناء وصل الخبر إلى سويد بن عبد الرحمن المنقري عن مكان إبراهيم وأصحابه ، وكان سويد معسكراً في الكناسة في حدود مدينة الكوفة من الجهة الجنوبية الغربية وقريباً من جبّانة أُثير . حرّك سويد بن عبد الرحمن عساكره تجاه إبراهيم وأصحابه ليصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيع . ولم يشعر ابن الأشتر إلاّ وهم معه في الجبّانة ، فقد باغتوه ولكنه كان على استعداد لذلك ، فقال لأصحابه « يا شرطة الله : إلي إلي ، فأحاطت به بنو عمه من قبائل مذحج والنخع ، فقال لهم : أنزلوا عن دوابكم فإنكم أولى بالنصر والظفر من هؤلاء الفسّاق الذين خاضوا في دماء أهل بيت رسول الله ﷺ ، فنزل الناس عن دوابهم ونزل معهم ابن الأشتر بنفسه ، ثم دنوا من جيش عبد الله بن مطيع وطاعنوهم طعاناً عنيداً ، وضاربوهم ضراباً شديداً(٢)، حتى أخرجوهم إلى الصحراء منهزمين وهم يتلاومون ، فقال قائل منهم : «إن هذا لأمر يُراد ، ما يلقون لنا جماعة إلاّ هزموهم» ، فلم يزل يهزمهم حتى أدخلهم الكُناسة وأعادهم إليها(٣) .

عند ذلك قال لإبراهيم أصحابه : اتبعهم واغتنم ما قد دخلهم من الرعب ، فقد علم الله إلى من ندعوا وما نطلب ، وإلى من يدعون وما يطلبون! قال : لا ، ولكن سيروا إلى صاحبنا حتى يؤمّن الله بنا وحشته ، ونكون من أمره على علم ، ويعلم هو

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢١ . الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٨ (بتصرف) .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٠٤ تاريخ الطبري ج٦ ص٢١ الكامل في التاريخ ص٢١٨ (بتصرف) .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٢١ (بتصرف) .

ما كان من نصرنا له فيزداد وأصحابه قوة وبصيرة إلى قواهم وبصيرتهم ، مع أني لا آمن أن يكون قد أُتي[١] .

فقد مر وقت طويل نسبياً على مفارقة إبراهيم وأصحابه للمختار ، وإن الوالي سيستغل هذا الافتراق ويحاول التخلص من المختار قبل انضمام إبراهيم إليه

وبالفعل صدق ظن إبراهيم ، عندما عاد بالجموع التي التحقت به صوب بيت المختار في ساحة المدينة المركزية . ومرّ بمسجد الأشعث القريب من القصر الحكومي في الجهة الجنوبية ، وتوقف بعض الوقت ليلتحق به من لم تسنح له الظروف قبل ذلك ، وتحرك نحو بيت المختار[٢].

في هذه الأثناء التي كان إبراهيم يدور حول الكوفة ، كان المختار وأصحابه ومن التحق به مجتمعون عند باب داره ، لعدم اتساع داره لهم جميعاً . وكانت الكوفة ـ كما أسلفنا ـ محاصرة من جميع مداخلها ، وتقريباً عزلت الشرط مركز المدينة عن أطرافها ، ومنعت ما امكنها من التحاق أنصار الثورة بالمختار ، بل حاولت التعجيل بالقضاء عليه قبل وصول المدد إليه من قبل إبراهيم بن الأشتر والثوار الذين معه .

وبالفعل كان شبث بن ربعي قد أقبل من السبخة وحجار بن أبجر العجلي من جهة القصر في جموع عظيمة وحاصروا المختار ، وشنوا عليه الهجوم سريعاً ، وكان المختار قد عبأ أصحابه وأرسل يزيد بن أنس لمواجهة شبث ، وجعل الأحمر بن شميص في مواجهة حجار بن أبجر وكان القتال عنيفاً ، ولم يكن المختار وأصحابه والثوار الذين معه قد علموا بالانتصارات التي تحققت على يدي إبراهيم وأصحابه[٣] .

عندما اقترب إبراهيم من مركز المدينة ومر بجانب القصر في طريقه إلى دار المختار ، سمع أصوات الخيل وصليل السيوف فحمل على جماعة حجّار بن أبجر

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢١ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٩ .

من الخلف وكبّر وكبّر أصحابه، فبلغ حجاراً وأصحابه أن إبراهيم جاءهم من ورائهم، فتفرّقوا قبل أن يصلهم إبراهيم، وذهبوا في الأزقّة والسكك[1].

أما من الجهة الشمالية التي كان يقاتل فيها شبث بن ربعي فقد جاءه قيس بن طهفه (أبو عثمان) النهدي في قومه، وكان قبلها قد ذهب أبو عثمان إلى قومه بني نهد من شاكر وفي يده راية صفراء، وهو ينادي: يا لثارات الحسين بن علي!! إلي إلي أيها الحيّ المهتدون، فأتت إليه الناس من كل ناحية، فحمل بهم - وهم قريباً من مائة رجل من بني نهد - على جيش شبث بن ربعي من الخلف، وبعد قتال عنيف خلى لهم الطريق حتى اجتمعوا مع يزيد بن أنس[2].

فلم تزل الناس تلك الليلة في قتال يشبه فيها ليلة الهرير بصفين إلى أن أصبحوا[3].

عند ذلك ترك شبث القتال لضعف عساكر الوالي وهروبهم السريع، وزيادة قوة المختار بعد أن التحق به إبراهيم بن الأشتر وأبو عثمان النهدي.

وتوجه شبث بن ربعي إلى الوالي عبد الله بن مطيع في القصر، واجتمع معه على وجه السرعة وأطلعه على آخر المستجدات غير المتوقعة بما مني به جيش الدولة من الانكسار والانهزامية، واقترح عليه أن يقوم فوراً بتجميع ما أمكن من القوات والعساكر وترك المواقع العسكرية التي عسكرت بها الجيوش في الجبّانات والاجتماع عند القصر. وتنظيمها من جديد، واستخدام أسلوب جديد في القتال يتناسب والتطورات الأخيرة «فإن أمر القوم قد قوي وقد خرج المختار وظهر واجتمع له أمره»[4].

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٩، الفتوح ج٦ ص١٠٤ أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩١.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢.

(٣) الفتوح ج٦ ص١٠٥

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٩.

وصل إلى المختار نبأ مشورة شبث بن ربعي على ابن مطيع ، وكان الفجر قد طلع ، فقرر فوراً التحرك بجموع الثائرين إلى السبخة في ظهر دير هند ، فهي ساحة أوسع يمكن له فيها المناورة ، وتتوفر له فيها اختيارات متعددة في المواجهة مع الخصم[١] ، فضلاً عن عدم وجود قوات للوالي تذكر هناك فإنها كانت تحت إشراف شبث بن ربعي ، وهو قد بقي عند الوالي ولم يعد إلى السبخة . فالطريق من بيت المختار إلى السبخة وبالعكس آمن ، قد خلا من الحشود العسكرية تقريباً .

في هذه الأثناء توجه أبو عثمان النهدي إلى بني شاكر وهم عشيرة كبيرة من همدان[٢]وهم مجتمعون في دورهم . . يخافون أن يظهروا في الميدان لقرب كعب بن أبي كعب الخثعمي منهم . وكان كعب في جبّانه بشر ، فلما بلغه أن شاكر تخرج جاء يسير حتى نزل بالميدان ، وأخذ عليهم أفواه السكك وطرقهم . فلما أتاهم أبو عثمان النهدي في عصابة من أصحابه وكان الفجر قد طلع ، فنادى : يا لثارات الحسين . . يا منصور أمت ـ يا أيها الحي المهتدون إلا أن أمير آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل دير هند ، وبعثني إليكم داعياً ومبشّراً ، فاخرجوا إليه ـ يرحمكم الله ـ فخرجوا من الدور يتداعَوْن : يا لثارات الحسين ! ومرّوا في جبانه بشر ، وقاتلوا كعباً ، حتى خلى لهم الطريق . فأقبلوا إلى المختار حتى نزلوا معه في عسكره في السبخة .

وأيضاً التحق بالمختار عبد الله بن قراد الخثعمي[٣] في جماعة من خثعم نحو المائتين حتى التحق بالمختار ، ونزل معه في عسكره ، وكان قد تعرّض لهم كعب ، فلما عرف أنهم من قومه خلّى عنهم ولم يقاتلهم ، وخرجت شبام ـ وهم حي من همدان ـ من آخر ليلتهم ، فاجتمعوا إلى جبانه مراد ، فبلغ خبرهم عبدَ الرحمن بن سعيد الهمداني ـ وكان الموكّل بالحراسة في جبانة السَّبيع ـ ، فأرسل إليهم : إن كنتم

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٩ ، الفتوح ج٦ ص١٠٥ .

(٢) الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ص٢٤٠ .

(٣) في رواية ابن الأثير : عبد الله بن قتادة .

تريدون اللحاق بالمختار فلا تمرّوا على جبانه السبيع ، فلحقوا بالمختار[١] وجاء عبيد الله بن الحُر الجُعفي في قومه وعشيرته[٢] .

وتوافى إلى المختار من كل قبيلة المائة والمائتان ، وكانوا يحملون على من عرض لهم من عساكر الوالي[٣] حتى تتامّ إليه ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل ، من اثني عشر ألفاً كانوا قد بايعوه وهناك في السبخة عبأ المختار أصحابه سريعاً وقسّمهم إلى كتائب ، وصلى بهم صلاة الصبح ، ثم قرأ ﴿ والنازعات ﴾ و ﴿ عبس وتولى ﴾ يقول الوالبي : فما سمعنا إماماً أمّ قوماً أفصح لهجة منه[٤] .

وأيضا جاءته الإمداد من الشيعة في البصرة والمدائن والأمصار. [٥]

وهكذا اجتمع للمختار قوة كبيرة ذات معنويات عالية وإيمان كبير بالهدف الذي يقاتلون من أجله ، يقابله في الجانب الآخر قوات مشتّة معنوياً ، وإن كانت ذات عدد وعتاد ، وأمامهم هدف شبيه بالأوهام لا يستحق التضحية ، وعساكر لم تجتمع إلا بقوة السيف وخوف البطش.

في هذه اللحظات نترك هذه الفئة المؤمنة ، وننتقل إلى الجانب الآخر في هذه المواجهة . . إلى جانب الوالي واستدراكه للمستجدات وما يفعل في هذا الوقت العصيب .

النفير العام

في هذا الظرف العسير نزل الوالي عند رأي شبث بن ربعي ، فأمر على الفور وفي ظلام تلك الليلة الرهيبة أهلَ الجبابين والعساكر التي في هذه المواقع العسكرية الموزعة

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٢ ـ ٢٣ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٠٣ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩١ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٣ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٠ .

(٥) تذكرة الخواص ص٢٥٥.

في أرجاء الكوفة الحضور فوراً إلى المسجد في وسط المدينة. وأمر راشد بن إياس ـ مدير الشرطة ـ أنْ ناد في الناس فليأتوا المسجد، فبعث راشد في أحياء الكوفة رجالاً ينادون: «ألا برئت الذمة من رجل لم يحضر المسجد الليلة»، فتوافى الناس إلى المسجد(١) خوفاً من السيف، ففي هذا الإعلان هدر دم كل من لم يقم بالانضمام إلى جيوش الدولة! قام ابن مطيع بمساعدة قادته بتنظيم الفرق والألوية التي ستواجه المختار وتعبأتهم.

فضم إلى شبث بن ربعي أربعة آلاف مقاتل ـ بين فارس وراجل ـ وراشد بن إياس على رأس ثلاثة آلاف من الشُرطة(٢) وحجار بن أبجر العجلي في ثلاثة آلاف، والغضبان بن القبثري في ثلاثة آلاف، والشمر بن ذي الجوشن في ثلاثة آلاف، وعكرمة بن ربعي في ألف، وشداد بن المنذر في ألف، وسويد بن عبد الرحمن في ألف(٣).

وطبق التخطيط أن تتوجه هذه العساكر لمقاتلة المختار، وهناك قطعات وألوية احتياطية اسنادية تبقى في الداخل، لتقوم بحماية القصر ودعم القطعات التي قد تصاب بالوهن والضعف في مواجهة قوات المختار. وأخذ عبد الله بن مطيع يبعث فرقة بعد فرقة وفوجاً بعد آخر، وأول فرقة تحركت نحو السبخة ـ محل تواجد معسكر المختار ـ كانت فرقة شبث بن ربعي، وكان بعد طلوع الفجر، وأردفها بفرقة راشد بن إياس ـ الشرطة أو قوى الأمن الداخلي فزحفت الخيل نحو المختار في عشرين ألف فارس أو يزيدون(٤).

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٣ ـ الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٠.

(٢) في تاريخ الطبري: شبث بن ربعي في نحو ثلاثة آلاف، وراشد بن إياس في أربعة آلاف من الشرُط.

(٣) الفتوح ج٦ ص١٠٥.

(٤) الفتوح ج٦ ص١٠٦.

المواجهة الساخنة

بعد أن أتم المختار وأصحابه صلاة الصبح وانصرفوا عنها سمعوا أصواتاً مرتفعة فيما بين سُليم وسكة البريد ـ شمال شرق الكوفة ـ قال المختار : من يعلم لنا علم هؤلاء ما هم ؟ قال أبو سعيد الصيقل : أنا ، أصلحك الله ، فقال المختار : إن كنت لا تفعل غير ذلك فألق سلاحك ، وانطلق حتى تدخل فيهم كأنك أحد النُظار ، ثم تأتيني بخبرهم . تقدمَ أبو سعيد نحو القوم وأشرف على حائط من حيطان الكوفة فجعل ينظر إلى هذه العساكر وقد وافت ، فقوم قد وصلوا وقوم لم يصلوا بعد ، وإذا بالمؤذن يقيم ، يقول أبو سعيد : فجئت حتى دنوت منهم فإذا شبث بن ربعي معه خيل عظيمة ، وعلى خيله شيبان بن حريث الضبّي ، وشبث في الرجّالة ، معه منهم كثرة ، فلما أقام مؤذنهم تقدّم شبث فصلى بأصحابه ، فقرأ ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ فقلت في نفسي : أما والله إني لأرجوا أن يزلزل الله بكم سريعاً إن شاء الله تعالى ! ثم قرأ في الركعة الثانية : بأم الكتاب و﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ فقلت : الغارة عليكم سريعاً إن شاء الله ، فلما سلّم الإمام قال أُناس من أصحابه : لو كنت قرأت سورتين هما أطول من هاتين قليلاً ؟ فقال شبث : يا سبحان الله العظيم ! أترون الترك والديلم قد نزلوا بساحتكم ، وتقولون لو قرأت بنا سورتين أطول من هاتين ! نعم ، قد كان يجب [عليّ أنْ أقرأ] بكم ﴿ البقرة ﴾ و ﴿ آل عمران ﴾[1] .

وهذا إن يدل على شيء فإنه يدل على مدى الهلع والخوف الذي كان قد دخل قوات الوالي ، فأرادوا تسكين خوفهم بكثرة قراءة القرآن أو تطويل القراءة لتبعيد المواجهة مع جيش المختار خوفاً منهم .

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٤ ، والفتوح ج٦ ص١٠٦ (بتصرف) . وفي الأصل (قد كان يجب عليه أن يقرأ بكم) والتعديل أنسب مع السياق ، أو أن قائل هذه الجملة هو الراوي أبو سعيد الصيقل.

عاد أبو سعيد الصيقل إلى المختار وأخبره خبر القوم والوضع الذي هم فيه. وما داخلهم من الرعب. في نفس الساعة التي وصل فيها خبر شبث وجيشه إلى المختار ظهر سعْر بن أبي سعر الحنفي فالتحق بالمختار بعد أن تخلص بأعجوبة من قوات راشد بن إياس التي استوقفته عند جبّانة مراد، ولكنه راوغهم وهرب من بين أيديهم على فرسه. وكان سِعر ممن قد بايع المختار، ولم يقدر على الخروج معه ليلة خرج مخافة الحرس وأخبره سعر الحنفي عن تواجد قوات الوالي في جبانة مراد بقيادة راشد بن إياس، وهي قد أغلقت عليه المنفذ الجنوبي إلى ساحة القصر والمسجد[1]، وحدّث سعر بن أبي سعر الحنفي المختار ـ بعد أن أضناه التعب ـ فقال: أيها الأمير، إنه قد وافتك عساكر عبد الله بن مطيع يتلو بعضها بعضاً، مستعدين للحرب، عازمين على الموت، فاصنع ما أنت صانع! فقال له المختار ـ بقلب مطمئن وإيمان راسخ ـ يا أخا بني حنيفة، فإن الله تبارك و تعالى يكسر شوكتهم ويهزمهم الساعة، إنشاء الله ولا قوة إلا بالله[2].

إذن كان أمام المختار قوتين عسكريتين تحت إشراف قائدين كبيرين هما شبث بن ربعي وفرقته قد سدّت المدخل الشمالي الشرقي، وراشد بن إياس وفرقته من الشرطة ـ قوى الأمن الداخلي ـ قد قطعت المدخل الجنوبي وهذه القوى التابعة للوالي توالي زحفها نحو الصحراء[3].

على الفور توجه إبراهيم بن الأشتر بأمر من المختار مع قوة تتراوح بين التسعمائة والألف ومائتي فارس لأجل مواجهة قوات الشرطة في جنوب الكوفة من جهة الصحراء. وتوجه نعيم بن هبيرة ـ أخا مصقلة بن هبيرة ـ بأمر المختار في ثلاث مائة فارس وستمائة راجل لصد قوات شبث بن ربعي على المدخل الشمالي الشرقي

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٤ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٠٧ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٠٧

للكوفة . وأوصاهما وقال لهما : «امضيا حتى تلقيا عدوكما ، فإذا لقيتماهم ، فانزلا في الرجال وعجلا في الفراغ وابدآهم بالأقدام , ولا تستهدفا لهم ؛ فإنهم أكثر منكم ، ولا ترجعا إليّ حتى تظهرا أو تقتلا»[1] .

وبالسرعة القصوى توجهت القوتان ، الأولى بقيادة نُعيم بن هبيرة نحو الشمال ، والثانية بقيادة إبراهيم بن الأشتر نحو الجنوب وهم يحرصون على أن تكون المواجهة داخل أزقة الكوفة ، فالقتال في الصحراء بهذه القوة الصغيرة توقعها في خطر الهلاك ، فأمام العدو إمكانية محاصرة هذه المجاميع الصغيرة والإحاطة بها وإبادتها سريعاً .

ونتوجه الآن نحو سكة البريد في الشمال الشرقي بصحبة نُعيم بن هبيرة ، ونتابع أحداث المواجهة الدامية هناك . وبعدها نقف على أخبار إبراهيم في القسم الجنوبي .

المواجهة مع شبث

توجه نعيم بن هبيرة بمجموعته الصغيرة من الفرسان والرجّالة التي لا تتجاوز التسعمائة مقاتل ، لمقاتلة جيش شبث بن ربعي ، وهو أكثر من ثلاثة أضعاف جيش نُعيم . ولكن مع ذلك صمد نعيم لقتال شبث فقاتله قتالاً شديداً ، بعد أن مشى هو في الرجّالة ـ حسب وصية المختار ـ وقاد سعر بن أبي سعر الخيل ، واستمر القتال بضراوة شديدة حتى أشرقت الشمس ، وانبسطت ، فلم يصمد أصحاب شبث وولّوا منهزمين ، واحتموا بالبيوت ودخلوا فيها .

اطمئن أصحاب نُعيم بالنصر ، ولم يتصوّروا أن تقوم لجيش شبث قائمة ، ولكن حصل العكس . فقد قام شبث منادياً في أصحابه المنهزمين : يا حُماة السوء ! بئس فرسان الحقائق أنتم ! أمن عبيدكم تهربون . . ؟ فثابت إليه منهم جماعة ، فحملوا على أصحاب نعيم ـ وكانوا قد تفرّقوا ـ فهزموهم ، وصبر نعيم بن هبيرة فقُتل

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٤ .

(رضوان الله عليه) ، وأُسر جماعة منهم سعر بن أبي سعر - قائد الخيالة - وأبو سعيد الصيقل وخُليد مولى حسان . . .

قُدم الأسرى إلى شبث بن ربعي ، فقال لخليد - وكان وسيماً جسيماً - : من أنت ؟ فقال : خليد مولى حسان بن محدوح الذُهلي ، فقال له شبث : يا ابن المتكاء ، تركت بيع الصحناة بالكُناسة[١]، وكان جزاء من أعتقك أن تعدو عليه بسيفك تضرب رقابه ! اضربوا عنقه ، فقتل ، ورأى سعراً الحنفي فعرفه ، فقال : أخو بني حنيفة ؟ فقال : نعم ، فقال : ويحك ! ما أردت إلى أتباع هذه السبئية ! قبّح الله رأيك ، دعوا ذا ، فتركوه . يقول أبو سعيد الصيقل : فقلت في نفسي « قتل المولى وترك العربي ، إن علم والله أني مولى قتلني » فلما عُرضت عليه قال : من أنت ؟ فقلت : من بني تيم الله ، قال : أعربي أنت أم مولى ؟ فقلت : لا بل عربي ، أنا من آل زياد بن خَصَفَه ، فقال : بخ بخ !

ذكرت الشريف المعروف ، الحق بأهلك ، فخرج والتحق بالحمراء[٢].

وصل خبر غلبة جيش شبث على قوات المختار ، وسقوط نُعيم قتيلاً ، وتشتت بقية القوة بين أسير وقتيلٍ ومختفٍ ، مما أوهن المختار وأضعف من عزيمة أنصاره .

وخلا الطريق أمام فرقة شبث بن ربعي ، وتوجهوا نحو السبخة ، وجاء شبث حتى أحاط بالمختار وببقية الموالين له المتواجدين في السبخة[٣].

---

(١) المتكاء من النساء : هي التي لم تخفض ؛ وهو من الشتم عندهم . الصحناء بالكسر أدام يتخذ من السمك ، يمد ويقصّر ، والصحناة أخص منه ». لسان العرب .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٥ . والحمراء الحي السكني للموالي في أطراف الكوفة وهي قريبة من السبخة .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٥ . الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢١ .

ابن الأشتر المنتصر

في هذا الوقت الذي حصلت فيه انتكاسة فرقة نُعيم بن هبيرة ، وعدم صمودها أمام قوة شبث بن ربعي ، ونتج عنها ضعف التحصينات في الجهة الشمالية لأنصار المختار وانكشافها أمام العدو ، كانت الانتصارات تتوالى في الجهة الجنوبية على يد إبراهيم بن الأشتر .

فإن إبراهيم بن الأشتر الذي توجه إلى جهة الجنوب مع قوة تتراوح بين الـ تسعمائة والألف ومائتي مقاتل . في حي مراد من قبيلة مذحج التقى بقوى الشرطة ـ الأمن الداخلي ـ وقوامها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مقاتل . والفرق واضح بين الفريقين ، فالشرطة بقيادة راشد بن إياس ذات عدد كبير وعُدّة جيدة وتسليح مناسب ، في المقابل كانت قوة إبراهيم هزيلة العدد وذات تسليح متواضع ، ولكن ذات بصيرة وإيمان عظيم .

توجه إبراهيم إلى أصحابه وقواته مخاطباً ومشجعاً : « لا يهولنكم كثرة هؤلاء ، فوالله لرُبّ رجل خير من عشرة ، ولَرُبّ فئة قليلة قد غلبت فئة كثيرة بأذن الله ، والله مع الصابرين » .

وقرر المناجزة السريعة ، فقال : يا خزيمة بن نصر ، سر إليهم في الخيل ، ونزل هو يمشي في الرجال ، وكانت راية إبراهيم مع مزاحم بن طفيل ، وإبراهيم يقول له : ازدلف ـ تقدم ـ برايتك . . امض بهؤلاء وبها قُدُماً قُدُماً .

قامت الحرب واقتتل الناس قتالاً شديداً ، في هذه الأثناء بصُر خزيمة بن نصر العبسي براشد بن إياس ، فحمل عليه فطعنه فقتله ، ثم نادى : قتلت راشداً ورب الكعبة .

وجعل إبراهيم يحرّض أصحابه فيقول : إنه ليس مع الحق قلّة ، ولا مع الباطل كثرة فـ ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله والله مع الصابرين ﴾[١] .

ويلمح البَصَر حلّت الهزيمةُ بأصحاب راشد ، وولّت الشرط منهزمين .

وصل خبر مقتل راشد إلى ابن مطيع ، فدخل أصحابه وأنصاره الفشل والوهن[٢] وقامت أخته ترثيه :

لحى الله قوماً أسلموا أمس راشداً بجبّانة الداريـن عنـد مـراد
فلا وَلَدَتْ عجليةٌ بعد راشد غلاماً ، ولا حلّت بصوب رعاد[٣]

وأقبل إبراهيم بن الأشتر وخزيمة بن نصر ومن كان معهم بعد قتل راشد نحو المختار ، وقدّم البشرى بين يديه مع النعمان بن أبي الجُعد يبشر المختار بالفتح عليه وبقتل راشد . فلما أن جاءهم البشير بذلك كبروا ، واشتدّت أنفسهم ، ودخل أصحاب ابن مطيع الفشل والوهن[٤] .

(١) البقرة ٢٤٩ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٦ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٢

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩١ .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٢ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٢٧ ،الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٢

عودة إلى السبخة «أُم المعارك»

وعاد جيش إبراهيم المنتصر إلى السبخة لينضم إلى جيش المختار ، ولكن الوالي ـ ابن مطيع ـ كان قد أرسل حسّان بن فائد بن بكر العبسي على جناح السرعة في جيش كثيف نحو من ألفين ، فاعترض إبراهيم بن الأشتر وجيشه فويق الحمراء ـ عند ضواحي منطقة الحمراء ـ ليردّه عمن بالسبخة من أصحاب ابن مطيع ـ الذين كانوا قد حاصروا المختار وأنصاره بعد قتلهم لنعيم بن هبيرة ـ ويحمي ظهورهم . فقدّم إبراهيمُ خزيمة بن نصر إلى حسان بن فائد في الخيل ومشى إبراهيم نحوه في الرجال ، وقبل ابتداء المعركة انهزم أصحاب حسّان ، فما تطاعنوا برمح ولا تضاربوا بسيف .

وعند الانهزام تأخر حسّان بن فائد يحمي أصحابه ، فحمل عليه خزيمة ، فعرفه فقال : يا حسان لولا القرابة لقتلتك ، فانجُ بنفسك ، ولكن لسوء الحظ عثر بحسان فرسه فوقع ، فقال مخاطباً نفسه : تُعساً لك أبا عبد الله ! فأحاطوا به ، فضاربهم ساعة بسيفه ، فناداه خزيمة بن نصر ، قال : إنك آمن يا أبا عبد الله ، لا تقتل نفسك وجاء حتى وقف عليه وكف الناس عنه ، فقال لإبراهيم ـ وكان قد مرّ به ـ : هذا ابن عمي وقد آمنته ، فقال له إبراهيم : أحسنت ، فأمر خزيمة بطلب فرسه حتى أتي به فحمله عليه ، وقال : الحق بأهلك[1]

وصلت قوات إبراهيم الأشتر إلى أرض المعركة ـ السبخة ـ بعد أن حطمت المواقع الدفاعية التي وضعت لمنعها من دخولها ، وصارت في قلب السبخة في ظهر قوات شبث بن ربعي ، التي تحاصر المختار وأصحابه وتقاتلهم .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٧ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٢ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٢ .

تحرك إبراهيم الأشتر للهجوم على قوات شبث ولفك الحصار عن المختار، وإذا يزيد بن الحارث ـ وهو على أفواه سكك الكوفة ومداخلها من جهة السبخة ـ يعترضه ليمنعه من الوصول إلى شبث وجيشه، فبعث إبراهيم طائفة من أصحابه مع خزيمة ابن نصر، فقال: إغنِ عنّا يزيد بن الحارث، وصمد هو في بقية أصحابه نحو شبث ابن ربعي.

تحرك إبراهيم بسرعة نحو شبث وأصحابه، وعلى الفور بدأ شبث وأصحابه ينكصون وراءهم رويداً رويداً، في نفس الوقت حمل يزيد بن أنس على خزيمة بن نصر واشتبك معه. انهزم شبث ومن معه إلى أبيات الكوفة، وأيضاً انهزم يزيد بن أنس بعد أن حمل عليه خزيمة بن ثابت، وازدحموا على أفواه السكك وفوق البيوت.

عندها صارت السبخة كلها بيد المختار وجيوشه، والطرق مكشوفة إلى مركز الكوفة، على الفور قرر المختار وأصحابه الدخول إلى الكوفة، وكان يزيد بن الحارث قد وضع الرماة على أفواه السكك وفوق البيوت. أقبل المختار وأصحابه لدخول الكوفة، فلما انتهى إلى أفواه السكك رمته الرُماة بالنبل فصدوه عن الدخول إلى الكوفة من ذلك الوجه ـ الجهة الشمالية الشرقية ـ[1].

---

(١) المصدر السابق.

الانهيــار

رجحت الكفة لصالح الثوار ، ولمس ابن مطيع الهزيمة وتجرّع طعم الانكسار . فتلك الجيوش الجرارة جاءته يركب بعضها بعضاً . . يملئها الرعب والخوف من تلك الجموع القليلة المليئة بالإيمان والتصميم لكسب المعركة . وازداد ابن مطيع انكساراً وانهياراً بسماع خبر قتل راشد بن إياس فأسقط في يده[١] ، ولم يهتد لمخرج من هذا الإعصار الزاحف ، وتملّكه اليأس .

عندما شاهد عمرو بن الحجاج الزبيدي الانهيار الذي يعيشه ابن مطيع دخل فوراً محاولاً تقوية عزيمته ، فقال له : « أيها الرجل ، لا تلق بيدك واخرج إلى الناس واندبهم إلى عدوك فإن الناس كثير وكلّهم معك إلا هذه الطائفة التي خرجت والله يخزيها[٢] ، وأنا أول منتدب ، فانتدب معي طائفة ، ومع غيري طائفة[٣] .

تشجع ابن مطيع بكلام عمرو بن الحجاج ، فخرج وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «أيها الناس ، إن من أعجب العجب عجزكم عن عصبة منكم . . قليل عددها . . خبيث دينها . . ضالّة مضلّة ،[٤] اخرجوا إليهم فامنعوا منهم حريمكم ، وقاتلوهم عن مصركم ، وامنعوا منهم فيئكم ، وإلا والله ليشاركنكم في فيئكم من لا حق له فيه . والله لقد بلغني أن فيهم خمسمائة رجل من محرّريكم ، عليهم أمير منهم ، إنما ذهاب عزّكم وسلطانكم وتغيّر دينكم حين يكثرون » ، ثم نزل[٥] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٨ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٣ .

(٢) في تاريخ الطبري « والله مخزيها ومهلكها » .

(٣) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٣ .

(٤) في الفتوح « يقاتلونكم على غير حق ، شجاعة منهم ، وجرأة على هذا الخلق . . . » .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٨ .

الطوارىء القصوى

وفوراً أعلن حالة الطوارئ القصوى ، وسلّم الكوفة بيد العسكر ، فقد عيّن القائد العسكري شبث بن ربعي حاكماً عاماً على مدينة الكوفة وسويد بن عبد الرحمن المنقري (أبا القعقاع) رئيساً للشرطة[١] ، وضم إلى عمرو بن الحجاج الزبيدي ألفي عسكري ، وبعثه إلى سكة الثوريين (طريق همدان) لقطع الطريق بين الشمال والجنوب[٢] ، وبعث شمر بن ذي الجوشن في ألفين إلى سكة ابن محرز[٣] ، وبذلك يحاول أن يقطع الطريق على المختار الذي لابد أنه سيعرج على السبخة للدخول إلى الكوفة ، أو عن طريق الكناسة.

وخرج ابن مطيع إلى الكناسة على رأس خمسة آلاف مقاتل بقيادة مساحق أو نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة[٤] ، وهكذا بهذه السرعة القصوى أعاد والي الكوفة ـ ابن مطيع ـ تنظيم الجيوش ، وكان هو على رأسها ، محاولاً إعادة الأمور إلى نصابها ، لكن إرادته كانت أضعف من أن تقف بوجه الإعصار الذي هب ليحق الحق ويدحر الباطل ، ولو إلى حين . . .

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٢ .

(٢) نقلاً عن الكوفة ، نشأة المدينة العربية ص٢٤٢ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٩ .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٢ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٢٩ .

اقتحام الكوفة

عندما تعسر على المختار دخول الكوفة من الجهة الشرقية (السبخة) بسبب منع جيوش الأمير المتحكمة في السكك ، جنود المختار من دخول الكوفة ، عند ذلك قرر المختار فوراً التوجه نحو الكناسة لدخول المدينة عن طريقها والوصول إلى المركز واستهداف القصر ، لكن المسير عبر الدائر الجنوبي الشرقي لا يخلو من مخاطره . وعلى الفور أمر بسلوك الدائر الشمالي الشرقي[1]، بعد مشاوراته مع كبار قواده . ترك المختار السبخة متجهاً نحو الدائر الشمالي شمالاً ، قاصداً الكناسة ، حتى ظهر على الجبانة ، ثم ارتفع إلى البيوت بيوت مزينة وأحمس وبارقه ، فنزل عند مسجدهم وبيوتهم فاستقبلوه بالماء ، فسقى أصحابه ، ولم يشرب هو لأنه كان صائماً ، فقال أحمر بن شميط لابن كامل : أترى الأمير صائماً ؟ قال : نعم قال : لو أفطر كان أقوى له ، قال : هو أعلم بما يصنع ، قال : صدقت ، أستغفر الله[2].

نظر المختار إلى المكان ثم قال : نعمَ مكان المقاتل هذا ، فقال له إبراهيم بن الأشتر : قد هزمهم الله وفلّهم ، وأدخل الرعبَ قلوبَهم ، وتنزل هاهنا ! سر بنا ، فوالله ما دون القصر أحد يمنع ، ولا يمتنع كبير امتناع ، فقال المختار : ليقُم هنا كل شيخ ضعيف وذي علّة ، وضعوا ما كان لكم من ثقل ومتاع بهذا الموضع حتى تسيروا إلى عدونا . ففعلوا ، فاستخلف عليهم أبا عثمان النهدي ، وقدّم إبراهيم بن الأشتر أمامَه ، وعبى أصحابه على الحال التي كانوا عليها في السبخة .

تحرك المختار بجموعه وأنصاره صوب الكناسه يتقدمهم إبراهيم بن الأشتر ، وعندما وصل قُبالة منازل همدان خرج إليه عمرو بن الحجاج في ألفي رجل ـ من

(١) الكوفة ، نشأة المدينة العربية ص٢٤٢ (بتصرف) .

(٢) أصدق الأخبار ص٧٧ .

سكة الثوريين ـ محاولاً قطع الطريق عليه، لكن المختار أرسل إلى إبراهيم: إن أطوه ولا تقمُ عليه، فطواه إبراهيم، فدعا المختار يزيد بن أنس، فأمره أن يصمد لعمرو بن الحجاج، فمضى نحوه، وسار المختار في أثر إبراهيم، فمضوا جميعاً حتى إذا انتهى المختار إلى موضع مصلى خالد بن عبد الله[١] وقف، وأمر إبراهيم أن يمضي على وجهه حتى يدخل الكوفة من قِبَل الكُناسة، فمضى.

وإذا بشمر بن ذي الجوشن يخرج إلى إبراهيم في ألفين من سكة ابن محرز[٦]، وكان موقف المختار كسابقه، فقد سرّح إليه سعيد بن منقذ الهَمداني فواقعه، وبعث إلى إبراهيم أن: اطوه وأمضى على وجهك. مضى إبراهيم مسرعاً نحو الكناسة وقاربها[٢].

فبينا عبد الله بن مطيع يشجع أصحابه ويحرضهم على القتال إذا بإبراهيم بن الأشتر وعبيد الله بن الحر قد أقبلا في قريب من أربعة آلاف فارس ما يرى منهم إلا الحدق[٣]. تقدم لصده قائد جيش الوالي نوفل بن مساحق وتحت رايته خمسة آلاف مقاتل ـ وكان ابن مطيع قد أمر سويد بن عبد الرحمن فنادى في الناس: أن الحقوا بابن مساحق[٤]. فلما نظر إبراهيم بن الأشتر إلى عبد الله بن مطيع نادى بأعلى صوته: أنا إبراهيم بن الأشتر أنا ابن الأفعى الذكر[٥]، ثم أمر أصحابه بالنزول، فنزلوا، فقال: قرّبوا خيولكم بعضَها من بعض، ثم امشوا إليهم مصلتين بالسيوف، ولا يهولنكم أن يقال: جاءكم شبث بن ربعي وآل عتبة بن النَّهاس وآل الأشعث وآل يزيد بن الحارث وآل فلان... فسمى بيوتات من بيوتات أهل

---

(١) يقع المصلى في العراء في خطة بُجيلة وقبالة مساكنها (الكوفة نشأة المدينة العربية) ص٢٤٢.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٩، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٣.

(٣) الفتوح لابن الأعثم ج٦ ص١١٠.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٩.

(٥) الفتوح ج٦ ص١١٠.

(٦) قد تكون هذه السكة بين خِطة جهينة وضبَّة غرب الكوفة.

الكوفة[١] فوالله لئن أذقتموهم حرّ الصفاح وشباة الرماح لا وقفوا لكم أبداً[٢]، ثم أخذ أسفل قبائه فأدخله في منطقة له حمراء من حواشي البرود[٣]، ثم قال لأصحابه : شدّوا عليهم[٤] فداكم أبي وأمي .

فحمل ابن الأشتر وعبيد الله بن الحُر وحمل الناس معهم ، وحمل المختار من ناحية أخرى[٥] ، فما لبثوا أن انهزموا ، وركب بعضهم بعضاً على أفواه السكك وازدحموا[٦] عليها . وانتهى ابن الأشتر إلى ابن مساحق ، فأخذ بلجام دابته ، ورفع السيف عليه ، فقال له ابن مساحق : يا ابن الأشتر ، أنشدك الله ، أتطلبني بثأر ، هل بيني وبينك من إحنة ؟ فخلّى ابن الأشتر سبيله ، وقال له : اذكرها ـ فكان يشكرها له ـ وأقبلوا يسيرون حتى دخلوا الكناسة في آثار القوم ـ جيش الوالي المنهزم ـ[٧] .

وانقلبت الموازين لصالح المختار ، ودخل أصحاب ابن مطيع المنهزمين أزقة الكوفة ، فأقبل المختار في عساكره حتى وقف على أفواه السكك وأمر أصحابه بالقتال ، فاقتتلوا قتالاً لم يسمع به ولا بمثله .

وجعل السائب بن مالك الأشعري ينادي : « ويحكم يا شيعة آل رسول الله ﷺ إنكم كنتم تُقتلون قبل اليوم ، وتُقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف ، وتسمل أعينكم ، وتُصلبون أحياءً ، على جذوع النخل ، وأنتم إذ ذاك في منازلكم لا تقاتلون أحداً ، فما ظنكم اليوم بهؤلاء القوم إن هم ظهروا عليكم ! فالله الله في أنفسكم

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٩ وفيها قدم (آل فلان) على (آل يزيد بن الحارث).

(٢) الفتوح ج٦ ص١١٠ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٢ ، والمنطقة هي ما يشد على الخصر (الحزام) وكان قد لبس تحت القباء درعاً . كما عن تاريخ الطبري ج٦ ص٣٠ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٠ .

(٥) الفتوح ج٦ ص١١٠

(٦) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٢ .

(٧) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٠ .

وأهاليكم وأموالكم وأولادكم . . قاتلوا أعداء الله المحلِّين ، فإنه لا ينجيكم اليوم إلا الصدق واليقين ، والطعن الشزر ، والضرب الهَبْر ، ولا يهولنكم ما ترون من عساكر هؤلاء القوم ، فإن النصر مع الصبر » .

والواقع كان يحتاج إلى أمثال هذه الخطب الحماسية ، فلم يكن من المستبعد أن يعيد ابن مطيع تنظيم قواته داخل الكوفة ويواجه عساكر المختار داخل الأزقة الضيقة ، وترجح كفته من جديد ، فكان الوضع يتطلب بث روح الحماس حتى لا يكتفي الناس ببريق النصر المتألق على مداخل الكوفة ، فالنصر لا يكون إلا بعد القضاء التام على الوجود الرسمي لحكومة ابن الزبير أو استسلامها للثوار .

وكان من أثر خطاب السائب أن : رمت الناس بأنفسهم عن دوابهم ، ثم جثوا على الرُكب ، وشرعوا الرماح وجرّدوا الصفاح ، وفوّقوا السهام وثار القتام ، واصطفقوا بالصفوف اصطفاقاً ، وتشابك القوم اعتناقاً ، فصبر القوم بعضهم لبعض ساعة ، وقُتل من الفريقين جماعة ، وانهزم أصحاب عبد الله بن مطيع ، واقتحم المختار وأصحابه الكوفة .

وعلت الأصوات وتصايح المشايخ والنساء من فوق البيوت ونادوا : يا أبا إسحاق ، الله الله في الحرم ـ فصاح عليهن : لا بأس عليكن ، الزموا منازلكن ، فأنا السليط على المحلين الفاسقين . . أولاد الفاسقين[١] .

تحرك المختار وأنصاره وتوغّلوا ، حتى وصلوا السوق والمسجد[٢] في قلب الكوفة ، ودخل عبد الله بن مطيع إلى قصر الإمارة في حشمة وغلمانه ونفر من خاصة أصحابه[٣] وأمر بباب القصر فغُلق ، وتفرق الناس وصاروا إلى منازلهم هاربين[٤] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٠٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٠ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١١٠

(٤) الفتوح ج٦ ص١١٠ .

الحصـار

وجاء المختار حتى دخل المسجد[١] شاكراً الله على ما أنعم عليه من النصر المؤزر في أقل من يومين ، ولكن بقيت المرحلة الأخيرة ليتم الأحكام الكامل على المدينة من دون خوف أحد ، فكان لابد من إخراج الوالي ومن اعتصم معه من القصر سلماً أو حرباً إن اقتضت الضرورة . فابتدأ بحصار القصر تحت إشراف إبراهيم بن الأشتر . وولّى المختارُ حصار القصر إبراهيمَ بن الأشتر ويزيد بن أنس وأحمر بن شميط ، فكان ابن الأشتر مما يلي المسجد وباب القصر ، ويزيد بن أنس مما يلي بني حذيفة وسكه دار الرّوميّين ، واحمر بن شميط مما يلي دار عمارة ودار أبي موسى[٢]. ومكث ابن مطيع ثلاثاً يرزق أصحابه الدقيق ومعه أشراف الناس إلا عمرو بن حريث ، فإنه دخل القصر معه ، ثم كره الحصار فخرج[٣] فأتى داره ، ثم خرج إلى البر[٤] .

لكن ابن مطيع لم يجلس مستسلماً ، فقد بعث إلى الحرس والجند ، فوافاه منهم نحو ثلاثة آلاف رجل. وعلى الفور نادى المختار بشعار « يا لثارات الحسين » فوافاه زهاء عشرة آلاف رجل ممن بايعه على الطلب بدم الحسين عليه السلام . وفي ذلك يقول عبد الله بن همّام :

« وفي ليلة المختار ما يُذهِلُ الفتى ... ويَزويه عن روُد الشباب شَمُوع »
« دعاء يا لَثارات الحسين فأقبلتْ ... كتائبٌ من همْدانَ بعد هَزيع »
« ومن مذحج جاء الرئيسُ ابنُ مالك ... يقود جُموعاً أُردفَت بجموع »

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٣ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٠ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٣ .

(٤) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٤ .

« ومن أسَد وافى يزيدُ لنصره بكل فتىً ماضي الجنان مَنيع »(١)

وخرج ابن مطيع من القصر ، واجتمع إليه الجنود ، ونهض إليه المختار في أصحابه ، وعلى مقدمته ابن الأشتر ، فالتقوا ، فاقتتلوا ، فقتل من أصحاب ابن مطيع بشر كثير فانهزموا .

وبادر ابن مطيع إلى القصر فتحصن فيه في طائفة من أصحابه(٢) .

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه كلّمه الأشراف ، فقام شبث فقال : أصلح الله الأمير ، أنظر لنفسك ولمن معك ، فوالله ما عندهم غنا عنك ولا عن

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٩١ ، والقصيدة الكاملة في تأريخ الطبري ج٦ ص٣٥ :

ألا انتسأتْ بالودُّ عنك وأدبَرَتْ معالنَةً بالهجر أمُّ سريع
وحمَّلها واش سعى غير مُؤتَلٍ فأبْتَ بهمٌّ في الفؤاد جميع
فخفّض عليك الشأن لا يردك الهوى فليس انتقالُ خلّةٍ ببديع
وفي ليلة المختار ما يذهلُ الفتى ويلهيه عن رؤد الشباب شموع
دعا يا لثارات الحسين فأقبلتْ كتائبُ من همدانَ بعد هزيع
ومن مذحج جاء الرئيسُ ابنُ مالك يقودُ جموعاً عُبّيت بجُمُوع
ومن أسد وافى يزيدُ لنصرهِ بكل فتى حامى الذّمار منيع
وجاء نعيم خير شيبان كلّها بأمر لدى الهَيجا أحدَّ جميع
وما ابن شميط . إذ يُحرِّضُ قومهُ هناك بمخذول ولا بمُضيع
ولا قيس نَهد لا ولا ابنُ هَوازن وكلٌّ أخو إخباتة وخُشُوع
وسار أبو النُّعمان لله سعيهُ إلى ابن إياس مصحراً لوقوع
بخيل عليها يومَ هيجا دُرُوعُها وأخرى حُسُوراً غيرَ ذات دُرُوع
فكرَّ الخيولُ كرةً ثقفتْهُمُ وشدَّ بأولادها على ابن مُطيع
فولّى بضرب يشدخُ الهام وقْعُهُ وطعن غداةَ السكّتين وجيع
فحوصرَ في دار الإمارة بائياً بذُلٍّ وإرغام له وخُضوع
فمنَّ وزيرُ ابن الوصيّ عليهمُ وكان لهم في الناس خيرَ شفيع

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٩٣ .

أنفسهم[١]، قال ابن مطيع : أيها الناس ، إنه ربما غلب أهلُ الباطل على أهل الحق ، وقد ترون غلبة المختار ، فهاتوا الآن أشيروا عليّ برأيكم !

فقال شبث بن ربعي : أصلح الله الأمير ، الرأي عندي أن تأخذ لنفسك من هذا الرجل أماناً ثم تخرج إليه ونخرج معك ، وإلا دام الحصار علينا في هذا القصر[٢] . . لا تهلك نفسك ومن معك[٣]، فقال عبد الله بن مطيع : والله إني لأكره لنفسي أن آخذ منه أماناً والأمور مستقيمة بأرض الحجاز وأرض البصرة وبلاد المشرق عن آخره . فقال له : أيها الأمير ، فتخرج إذاً من القصر ولا يشعر بك أحد فتصير إلى من تثق به من أهل هذا القصر ، فتنزل عنده أياماً حتى يستقر المختار ويسكن شرّ أصحابه ، فتخرج وتلحق بصاحبك[٤] ـ فقال لأسماء بن خارجة وعبد الرحمن بن مخنف وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس وإشراف أهل الكوفة : ما ترون في هذا الرأي الذي أشار به عليّ شبث ؟ فقالوا : ما نرى الرأي إلا ما أشار به عليك ، قال : فرويداً حتى أُمسي[٥] .

عندما كان أصحاب المختار يشددون الحصار على من في القصر ، وإذا بعبد الله ابن عبد الله الليثي أشرف عليهم من القصر ـ عشاءاً ـ يشتمهم وشتم المختار ، فرماه عمرو بن مالك النَّهْدي ـ أبو نمر ـ بسهم ، وهو يقول :

خذها من ابن مالك   من فاعل كذلك

فيمر بحلقه ، فقطع جلدة من حلقه فمال فوقع ، ولم يُقتل[٦] :

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٠ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١١١

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٣١ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١١١ .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٣١ .

(٦) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٣ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٣١ «بتصرف» .

الاستسلام

حلّت الليلة الرابعة على ابن مطيع والإشراف وهم تحت الحصار الشديد في القصر ، وكان قد أطبقت آراءهم على الاستسلام ، لما شاهدوا المختار وأصحابه وما هم فيه من التصميم للوصول إلى هدفهم ولو بخوض اللجُج وسفك المهج ، وما زاد في انهيارهم تسلّق همدان القصر بالحبال من ناحية دار عمارة [أو الوليد] بن عقبة بن أبي معيط(١) غير خائفين ولا وجلين .

وكان ابن همّام حين الحصار في القصر ، فتدلّى منه مع ناس تدلّوا أيضاً فقال :

أضحت سليمى بعد طول غياب — وتجرّم ونفاذ غرب شباب
قد أزمعت هجري وطول تجنبي — وتهوك مذ ذاك في أعتابي
لما رأيت القصر أغلق بابه — وتعلقت همدان بالأسباب
ورأيت أفواه الأزقة حولنا — ملئت بكل هراوة وذياب
ورأيت أصحاب الدقيق كأنهم — حول البيوت ثعالب الأسراب
أيقنت أن أمارة ابن مضارب — لم تبق منها قيس أثر ذباب(٢)

فلما كان الليل وأراد ابن مطيع الخروج من الحصار والهروب من القصر جمع إليه أصحابه ، ثم حمد الله ، وأثنى عليه وقال :

أما أنتم فجزاكم الله عني خيراً وعن أمير المؤمنين ! وبعد فأني ما علمتكم إلا سامعين مطيعين وناصحين ، وإنما خرج عليّ سفهاؤكم وعبيدكم ، وأنا مبلغ ذلك صاحبي عنكم ومعلمه طاعتكم وما أشرتم به عليّ من صلاح أمري . فقال له شبث بن ربعي :

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٩١ ، أصدق الأخبار ص٧٩ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٦ ، والبيت الأول والثاني عن تاريخ الطبري ج٦ ص٣٨ .

وأنت أيها الأمير فجزاك الله عنّا خير الجزاء ! فوالله لقد عففت عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك وقضيت الذي وجب عليك ، ولا والله ـ أصلح الله الأمير ـ ما كنّا بالذين نفارقك أبداً إلا ونحن منك في إذن . فقال عبد الله بن مطيع : أنتم في أوسع الأذن ، والله إني لأرجو أن يقتل الله هذا الكذاب قريباً ، ثم ترجعون إلى مراتبكم التي كنتم عليها ، ومنازلكم إن شاء الله سريعاً ، غير أني قد رأيت الساعة أن أخرج من هذا القصر ، ولا يتبعني أحد[1]. وكانوا قد أشاروا عليه أن يخرج في زي امرأة ففعل[2]، ثم وثب عبد الله بن مطيع في جوف الليل متنكراً، وخرج من قصر الإمارة في زي امرأة، فأخذ على دروب الروميين حتى صار إلى دار أبي موسى الأشعري ، وعلم به آل أبي موسى فآووه وكتموا عليه أمره[3].

بعد أن خرج ابن مطيع من القصر فتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشتر نحن آمنون ؟ فقال : أنتم آمنون فخرجوا[4] من القصر وأقبلوا إلى المختار فبايعوه وأخبروه بخروج عبد الله بن مطيع من القصر ، فقال المختار : وما علينا من عبد الله بن مطيع ، ذلك رجل كان بالكوفة أميراً فلم يجد بداً من القتال[5] .

ثم إن المختار جاء حتى دخل القصر فبات فيه[6] في نفس تلك الليلة، وراح القصر يهتف بالشعار الخالد مدى الحياة . وبات تلك الليلة داخل القصر وهو متوشح

---

(١) الفتوح ج٦ ص١١١ ، وأيضاً في تاريخ الطبري والكامل في التاريخ وأنساب الأشراف .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٩ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١١٢ . وقريباً منه في تاريخ الطبري والكامل في التاريخ وأنساب الأشراف .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٣١ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٥ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٤ .

(٥) الفتوح ج٦ ص١١٢ .

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٢١ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٥ ، لكن رواية ابن الأعثم والبلاذري ترى أن المختار دخل القصر في اليوم الرابع صباحاً .

بالنصر ويحلم بـ (يا لثارات الحسين) التي باتت قاب قوسين أو أدنى[1]. ثم نادى المختار في الناس فأعطاهم الأمان،واتصل بهم (أي سمعوا) أن عبد الله بن مطيع قد هرب فجعل الناس يخرجون إلى المختار[2] وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر[3]، وفي تلك الليلة وجد المختار في بيت مال الكوفة داخل القصر تسعة آلاف ألف درهم [تسعة ملايين][4].

وفي صباح يوم الأحد ١٧ ربيع الأول من عام ٦٦هـ (٢٣/ تشرين الأول من عام ٦٨٥م) وبعد أربعة أيام من العمل الشاق المتواصل والجهاد المنقطع النظير قطف المضحّون أولى ثمار النصر وهم يعدّون الثواني واللحظات ليروا أميرهم ـ المختار بن أبي عبيد ـ وهو يرتقي المنبر ويعلن ولادة دولتهم الجديدة التي أقاموها بعرقهم ودمائهم وهممهم . .

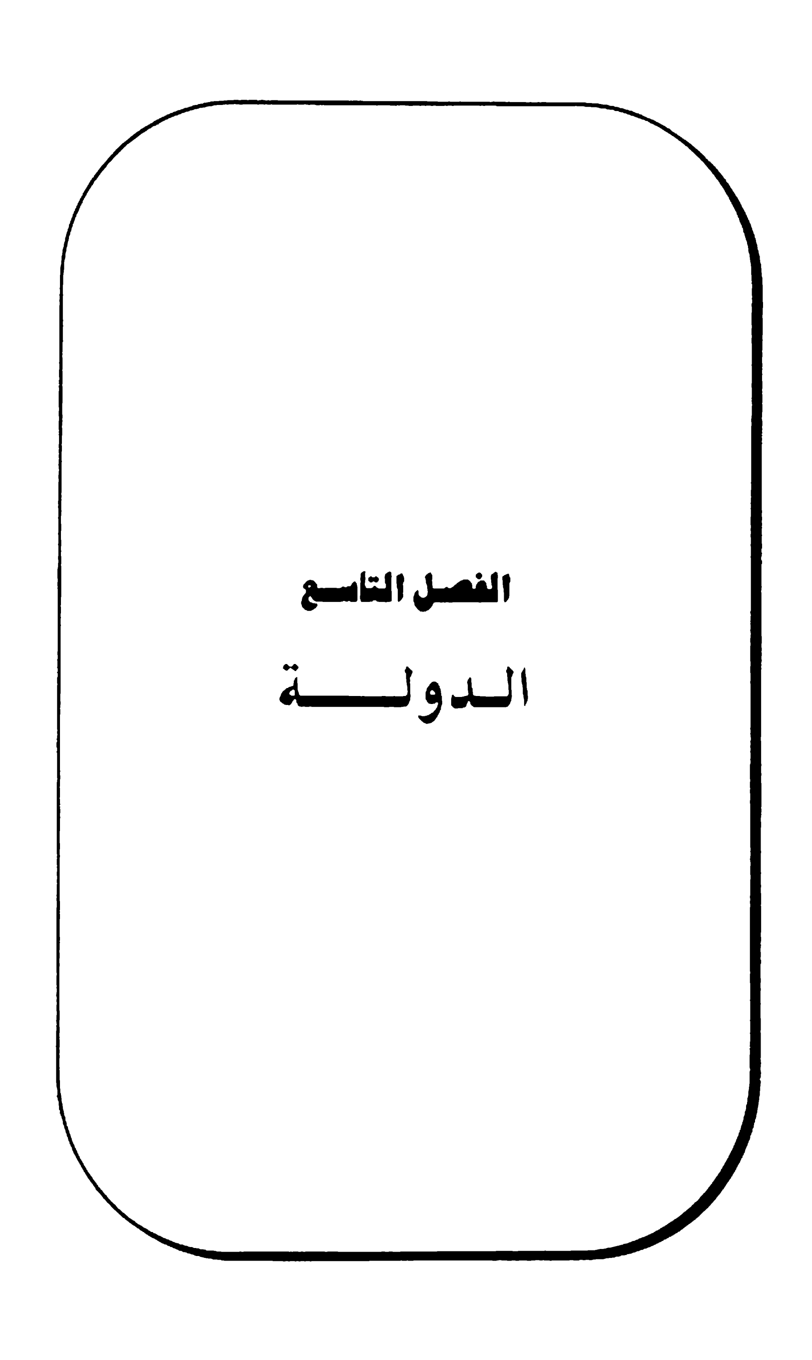
---

(١) المختار ضمير وسط الظلام ص٤٣ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١١٢ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٥ .

(٤) المصادر : الفتوح ج٦ ص١١٣ تاريخ الطبري ج٤ ص٣٣ بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٠ الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٦ أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٥ .



الفصل التاسع

الدولة

البيعة العامة

في ذلك الصباح خرج المختار إلى الجامع وأمر بالنداء «الصلاة جامعة»، فاجتمع الناس ورقى المنبر[١]، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «الحمد لله الذي وعد وليه بالنصر وعدوه الخسر وجعله منه إلى آخر الدهر وعداً مفعولاً وقضاءاً مقضياً وقد خاب من افترى، أيها الناس انه رُفعت لنا راية ومُدّت لنا غاية، فقيل لنا في الراية: أن ارفعوها ولا تضعوها، وفي الغاية أن اجروا إليها ولا تعدوها، فسمعنا دعوة الداعي [إهابة الراعي] فكم من ناعٍ وناعية[٢] [لقَتيلُ في الواغيه] وبعداً لمن طغى وأدبر وعصى وكذب وتولى. ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى، فلا والذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً والأرض فجاجاً سبلاً، ما بايعتم بعد بيعة [أمير المؤمنين][٣] علي وآل علي بيعةً أهدى منها». ثم نزل[٤] عن المنبر، فصلى ركعتين ودخل إلى قصر الإمارة[٥]، ودخل عليه أشراف الكوفة للبيعة، فبسط يده وابتدره الناس فبايعوه. يقول «تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيّه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لانقيلكم ولا نستقيلكم» فإذا قال الرجل: نعم بايعه[٦].

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٨.

(٢) في بحار الأنوار «... فكم من باغٍ وباغية ....».

(٣) ما بين الأقواس أخذ من أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٤.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٢.

(٥) الفتوح ج٦ ص١١٣.

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٢، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٦ وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٤ «فكان الرجل إذا عرض عليه ذلك فقال: نعم، ماسَحَهُ».

هفــوة

كان المختار ورعاً عن سفك الدماء ، حيث كان يجهد بـأن لا يراق دم ، ولذلك شاهدنا خلال أحداث الثورة أنه كان يحاول أن يجعلها ثـورة بيضاء قدر الإمكان ، ولذلك لم يتبع الهارب وأعطى الأمان لعدوه المقاتل وغض الطرف عن عبد الله بن مطيع الوالي السابق ، فكان أصحابه على قدر كبير من الانضباط والالتزام ، ولكن قد تصدر بعض الهفوات من عوام الناس لم تكن في حسبان القادة . فعندما جاء المنذر بن حسّان بن ضرار الضبّي ليبايع المختار ومعه ابنه حيّان فرآه جماعة من الشيعة قبل البيعة ـ أو بعدها ـ واقفة مع سعيد بن منقذ الثوري ـ عند المصطبة ـ قال أحدهم : هذا والله من رؤوس الجبارين ، فشدوا عليه وعلى ابنه فقتلوهما ، ولم تقف ممانعة سعيد بن منقذ دون تنفيذ إرادتهم الذي صاح بهم : لا تعجلوا لا تعجلوا حتى ننظر ما رأي أميركم فيه . وبلغ ذلك المختار فكرهه حتى استبينت في وجهه كراهته[1] ، وجعله في موقف حرج ، ولكن المختار بحنكته ودهائه غطى على الموقف وهدأ الأجواء .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٢ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٦ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٤ .

تثبيت دعائم الحكم

إستتب الأمن في الكوفة ، ودانت لسلطة المختار ، وقد سكن الخوف الذي كان قد ركب الناس لما رأوا من استقامة المختار ونزاهته وحس سيرته .

وأول عمل قام به هو أن قسم ما وجد في بيت المال على أولئك الذين وقفوا إلى جانبه وجاهدوا لإقامة دولة الحق ، فأعطى أصحابه الذين قاتلوا معه إلى حين حصر ابن مطيع في القصر ـ وهم ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل ـ كل رجل خمسمائة درهم وأعطى ستة آلاف رجل من الذين أتوه من بعد حصار القصر وأقاموا معه تلك الليلة وتلك الثلاثة أيام حتى دخل القصر مائتين مائتين وفرق الباقي على الناس وحبس عنده ألف ألف درهم (مليون)[1] . فكانت هذه فاتحة خير . واستقبل الناس بخير ومنّاهم العدل وحسن السيرة ، وأدنى الإشراف فكانوا جلساءه وحُدّاثه[2] .

وبالفعل وبعد أكثر من خمس وعشرين سنة تنسّم أهل الكوفة عبير الحرية واستشعروا الكرامة وذاقوا حلاوة الإسلام وعادت بهم الذاكرة إلى عقود خلت كانت عبقة بالعز والرفاهية نتيجة تطبيق المساواة في تلك الآماد البعيدة القريبة ، حين طبق عليٌ أميرُ المؤمنين عليه السلام لأول مرة وآخر مرة ـ نهج الإسلام الصحيح الذي صدع به رسول الله صلى الله عليه وآله .

ومن كثرة الظلم المتتالي على رؤوسهم ظنوا أن العدل وحسن السيرة قبرت وإلى الأبد مع ذلك الجسد الطاهر وكانوا يرددون مع سودة الهمدانية قولها وهي ترثي دولة الحق . . دولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :

(١) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢١٥ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٣ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٦ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٥ . بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٠ .

«صلّى الإلهُ على جسم تضمّنَهُ قبْرٌ ... فأصبح فيه العدْلُ مدفونا»
«قدْ حالفَ الحقَّ لا يبغي به بَدَلاً ... فصارَ بالحق والإيمان مقرونا»[1]

ولكن للباطل جولة وللحق دولة ، وبالفعل بصر الناس - بعد يأس - شمس العدل وهي تُغطي سماء الكوفة ، فتبعث فيهم الدفء من جديد ، وتُحيي أحلامهم المقبورة تحت الجليد السرمدي .

فكان بالفعل كما قال : « ما بايعتم بعد بيعة أمير المؤمنين علي وآل علي بيعة أهدى منها . . » .

إكرام الوالي السابق

لم يبق أمام المختار من عقبة سوى وجود الوالي المخلوع في أحد بيوتات الكوفة ، وكان الخبر قد وصله أن عبد الله بن مطيع مختف في دار أبي موسى[2] ، وجاءه ابن كامل فقال له : أعلمت أن ابن مطيع في دار أبي موسى ؟ فلم يجبه بشيء،فأعادها عليه ثلاث مرات فلم يجبه ، ثم أعادها فلم يجبه ، فظن ابن كامل أن ذلك لا يوافقه - وكان ابن مطيع قبل ذلك للمختار صديقاً[3] - حتى إذا كان الليل دعا بعبد الله بن كامل الهمداني ودفع إليه عشرة آلاف درهم ، وقال له : صر إلى دار أبي موسى الأشعري وادخل على عبد الله بن مطيع واقرأه مني السلام ، وقل له : يقول لك الأمير : إني قد علمت بمكانك ، وليس مثلي من أساء إلى مثلك ، وقد وجهت إليك بما تستعين به على سفرك ، فخذه والحق بأهلك وصاحبك ، فخرج عبد الله بن مطيع من الكوفة في جوف الليل هارباً ، واستحى أن يصير إلى مكة فيعيّره عبد الله بن الزبير بفراره من المختار ، فصار إلى البصرة - وبها يومئذ نائباً عليها من قبل عبد الله بن الزبير[4] .

---

(١) أعلام النساء ج٢ ص٢٧٠ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١١٥

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٣ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١١٥ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٠ عوالم البحر ج١٧ ص٦٩٠ ، وفي رواية تاريخ الطبري وأنساب الأشراف : أنه بعث إليه بـ مائة ألف درهم ، وقد يكون هذا الرقم مبالغ فيه .

خارطة العالم الإسلامي

بما أن الكوفة هي مركز ثقل في المنطقة في ذلك العصر، وكانت تعتبر معسكر الإسلام، وكانت تسمى بـ «كوفة الجند»، فكانت كل البلاد الواقعة إلى شرقها ـ وشرق العالم الإسلامي ـ تعتبر تبعاً للكوفة، فكل من حكم الكوفة فقد حكم شرق العالم الإسلامي[1].

فعندما سقطت حكومة ابن الزبير في الكوفة فقدْ فَقَدَ السيطرة على شرق العالم الإسلامي وخرج من قبضته، وصار في متناول يد المختار، هذا الشرق الكبير من خراسان وأصفهان والري [طهران اليوم] ماراً بأذربيجان وأرمينية ومنتهياً بهمدان وأرض الموصل وأرض الجزيرة بأجمعها وحدودها الجنوبية عند الجزيرة العربية والبصرة وما جاورها من بلاد فارس (المتبقى من دولة ابن الزبير)، وحدودها الغربية بلاد الشام (دولة بني أمية).

يقول ابن الأعثم: واحتوى المختار على الكوفة، فعقد لأصحابه وولاّهم البلاد من أرمينية وآذربيجان وأرّان وحوران والماهين إلى الري وأصفهان. . . والموصل ـ فجعل يجبي خراج البلاد[2].

---

(١) في عيون الأخبار ج٢ ص٢١٤ أن «عمل العراق هبتٌ إلى الصين والسند والهند، ثم كذلك إلى الري وخراسان إلى الديلم والجبال كلها، وأصبهان صُرّة العراق.». طبعاً في زمن المختار لم تصل فتوحات المسلمين بعد إلى الصين.

(٢) الفتوح ج٦ ص١١٦ وقد ورد ذكر «خراسان» في البداية والنهاية ج٨ ص٢٨٩ وقد ورد في تاريخ الطبري ج٦ ص٣٤، والأخبار الطوال ص٢٩٢ أسماء الولاة مع بعض الاختلاف اليسير بينهما. فقد جاء: أول رجل عقد له المختار ١ ـ عبد الله بن الحارث أخي الأشتر لأمه، عقد له على أرمينية ٢ ـ محمد بن عطارد التميمي على أذربيجان ٣ ـ عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني على الموصل ٤ ـ إسحاق بن مسعود على المدائن وأرض جوخى ٥ ـ قُدامة بن أبي سعيد عيسى النصري على بهقباذ الأعلى ٦ ـ محمد بن =

وعلى ما يبدو أن المختار أسس نوعاً ثالثاً من قوى الأمن تحت إشرافه المباشر باسم «شُرَطُ الله»[١]، لها مهام تختلف عن مهام شرطة ابن كامل وحرس أبي عمرة.

=

كعب بن قرضة على بقهباذ الأوسط ٧ ـ حبيب بن منقذ الثوري على بقهباذ الأسفل ٨ ـ سعيد بن حذيفة ابن اليمان على حُلوان ٩ ـ زيد بن معاوية البجلي على أصبهان وقُم وأعمالها ١٠ ـ ابن مالك البكراوي على . . . ماسبذان ١١ ـ يزيد بن أبي نَجَية الفزاري على طهران ودَسْتَبى، وفرّق سائر البلدان على خاصته. واستعمل على الشُرط عبد الله بن كامل الشاكري، وعلى الحرس الخاص كيسان أبا عمرة (مولى عُرينة).

(١) عصر المأمون ج١ ص٧٢.

الأشــراف

أخذ المختار بزمام الأمور في الكوفة ، وكان يحمل فكرة تغاير كـل المغـايرة الواقـع الاجتماعي والسياسي . فنظام الطبقات الموجود هناك ليس فيه مـن موازيـن الإسـلام شيء . فالمفاضلة لم تكن على أساس التقوى والتمسك بالدين كما نرى . بـل على أساس قَبَلي صرْف ، العربي فيه مقدم على غيره على كـل حـال ، وسيد القبيلـة لـه صلاحيات تفوق صلاحيات الشرع ، وقانون المساواات في العطاء لا توجد منه أي صورة ولـو مشـوّهة ، بـل حتى مجرد ذكـر لفـظ يعطي معنى المسـاوات كـان مـن المحرّمات التي يجرّم قائلها ، فالامتيازات كانت كلّها للسادة العرب الموالية للسـلطة ، وليس للبقية سوى السراب الخادع .

وهـؤلاء الأسياد كـانوا مسـموعي الكلمـة ، والضعيـف لا يتوانـى عـن طاعـة القوي . فهو هكذا تعوّد منذ أن أبصر النور ، ولا يمكن تغييره بين ليلة وضحاها .

رأى المختار أن يؤجل تنفيذ مخططاته لأجَلٍ قريـبٍ لكـي يتسنى لـه تركـيز أقدامه على الأرض ، فدولة بني أمية تجاوره من الغـرب،وهـي قـد أرسلت جيشـاً قويـاً إلـى الجزيرة لكي يقتحم العراق والكوفة بالخصوص ليعيدها لحظيرة بني أميـة ، وفي الجهـة الجنوبيـة يـتربص ابـن الزبـير الـذي يـرى أن المختـار أخـذ منـه أرض الكوفـة والشـرق اغتصاباً ، ولا بد أن يتحرك لاستعادتها ، بـالخصوص وأن البصـرة مـا زالـت بيـده[١] التي هي الأخرى مخزن الرجال والمـال ، فمـن الحماقـة والحـال هـذه أن يفتـح المختـار جبهة ثالثة داخلية ، وهذه أشد ضرراً من بني أمية وبني الزبير مجتمعين .

---

(١) إستلم مصعب إدارة البصرة في أول سنة ٦٧ هـ . أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٨ .

فقبل كل شيء يجب تأمين الوضع الداخلي وإحكام السيطرة عليه ، ولا يتم ذلك إلا بإرضاء الأشراف وإعطائهم بعض الامتيازات إلى حين ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن بعض هؤلاء الأشراف ممن كان له يد في إبادة العترة الطاهرة . وقد سمع هؤلاء عن أهداف ثورة المختار وأنه سينتقم من قتلة الحسين ـ ولذلك نراهم قد اشتركوا بقوة للوقوف بوجه ثورته عندما قامت . فابن مطيع لم يكن ليقاوم تلك المدّة لولا إعانة قتلة الحسين له وتحريضهم إياهم على المقاومة كشبث بن ربعي وعمر بن سعد وعمرو بن الحجاج وشمر بن ذي الجوشن والآخرين .

دعاهم المختار وطمئنهم وقرّبهم منه وأعطاهم بعض الامتيازات ، فظن هؤلاء المجرمون إن توعد المختار لقتل قتلة الحسين ﷺ ما هو إلا رداء يوصله إلى الهدف ويؤمّن القاعدة الشعبية ـ التي أكثرها من محبي أهل البيت ﷺ ـ فإذا وصل هدفه نزع ذلك الرداء ، فلا غنى له عن هؤلاء الأشراف الذين هم سادات قومهم ، كما فعل من قبل عبد الله بن الزبير عندما رفع لواء المطالبة بدم الحسين ﷺ .

قرّب المختار الأشراف وكانوا جلساءه ، وكان يُقبل عليهم بوجهه ويقدمهم على الآخرين مما أثار حفيظة الموالي والآخرين وظنوا به الظنون ، وتوجسوا في تصرفاته الخيانة(١) .

بل أن الخبر وصل إلى محمد بن الحنفية في الحجاز ، فلم يرضَ بذلك ولم يعذر المختار في تباطئه عن أخذ الثأر بل وتعمّد التهكّم عليه ، فكان يقول : «يزعم أنه لنا شيعة وقتلةُ الحسين جلساءه على الكراسي يحدّثونه !!» (٢) .

لكن المختار كان مدركاً لما يفعل ويتحيّن الفرصة المناسبة للانقضاض على هؤلاء المجرمين ، ويبحث عن أي سانحة منهم ليتذرع بها في قتلهم ، ويشفي غليل المؤمنين ، وهو

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٣ . «بتصرف»

(٢) المختار مرآة العصر الأموي ص٣١٤ .

يعرف حق المعرفة أن الأشراف لم يمحّضوه حبهم خلاف عامة أهل الكوفة[١] الذين أحبوه حباً شديداً[٢].

فبينما كان أبـو عَمْرة ـ مسؤول الحرس ـ واقفاً على رأس المختار وهـو يحدث الأشراف ، قال لأبي عمرة بعض أصحابه من الموالـي : أما تـرى أبا إسـحاق قد أقبل على العرب ما ينظر إلينا ! فطن المختار إلى همس الحديث ، فدعاه فقال لـه : ما يقـول لك أولئك الذين رأيتهم يكلّمونك ؟ فأسرّ إليه : شـق عليهـم ـ أصلحك الله ـ صرفك وجهَك عنهم إلى العرب ، فقال له : قل لهم : لا يشقّنّ ذلـك عليكـم فـأنتم مني وأنا منكم . . ثم سكت طويلاً ، ثم قرأ : ﴿إنّا من المجرمين منتقمـون﴾[٣]. فمـا هـو إلا أن سمعها الموالـي منه فقـال بعضهـم لبعـض : أبشـروا كـأنكم والله بـه قـد قتلهـم[٤]، وسنرى في الفصول القادمة كيف أن المختار وفى بعهده ، وأباد من وصلت إليـه يـده من قتلة أهل البيت المحمدي ، وأنه لـم يكـن مـن أولئك الذيـن يتدثّـرون بالشعـارات البراقة ، وعندما يصلون مآربهم ينسون هموم الأُمة ومتطلباتها المشروعه .

---

(١) تاريخ خلافة بني أمية ص١٤٥ .

(٢) مقتل الحسين (للخوارزمي) ج٢ ص٢١٨ ـ الفتوح ج٦ ص١١٩ .

(٣) السجدة : ٢٢ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٣ .

القضـاء

وبعد أيام قليلة وبعدما ركز المختار أقدامه في الكوفة وسائر البلاد التابعة لها ، أقدم على قضاء حوائج الناس بنفسه . فكان يجلس لقضاء حوائجهم مرتين يومياً ، وكان في الضمن يقضي بين الخصمين . ثم قال : والله إن لي فيما أزاول وأحاول لشغلاً عن القضاء بين الناس [١]، فكان يبحث عمن يعينه للقضاء ، لا لضعف يجده في نفسه -وهو القوي على هذه الأمانة- فلو كان لا يقوى على هذه المسؤولية أو كان يجهل أمور القضاء ويخطأ فيه لوصلنا ذلك ، ولم يحدثنا التاريخ أن أحداً اعترض على قضاء «المختار» مع العلم أن المجتمع الكوفي يزخر بالقضاة والعلماء . [٢] مع أن كتّاب التاريخ كانوا يبحثون عن أقل شائبة في سيرة المختار ليطبّلوا لها ويزمّروا ، وإن لم يجدوا له شحطة زيّفوا ما يلطخ سيرة هذا الرجل العظيم ظلماً وجوراً .

المهم أن المختار فيما كان يبحث عن من يليق للقضاء بين الناس -تحت إشرافه- ويظهر أنه كان يفضل أن يكون من الأشراف -لأسباب ذكرناها سابقاً- في هذه الأثناء دخل عليه محمد بن الأشعث فسلم عليه ودعا له وهنأه[٣]،وعرض عليه (المختار)

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٤ . الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٧ ، وانظر أيضاً الفتوح ج٦ ص١١٩ ومقتل الحسين (الخوارزمي) ج٢ ص٢١٨ .

(٢) مع المختار ص١١٦ .

(٣) في الفتوح ج٦ ص١١٩ : ثم دخل على المختار فسلّم عليه بالإمارة وقال : أيها الأمير : الحمد لله الذي نصرك وأعزك وأظهرك ، وبعدوك أظفرك ، أذ أنجز دعوتك ، وأعلى رتبتك ، ورفع منزلتك ، فإنك دعوت دعوة الهدى وأنجيتنا من الضلالة والعمى . فقال له المختار : أبا عبد الرحمن ! إن الذي غضبنا له هو نَصَرَنا ، وبعدوه اظفرنا ، وأن لربنا تعالى جنداً لا يُغلب ، وملكاً لا يُسلب ، وليس من يوم يأتي بعد يوم إلا والله تعالى معز فيه للمؤمنين مذل فيه للكافرين ، حتى يعود الدين كما بدأ . ثم أدناه المختار وأجلسه معه على سريره . . .

أن يجلس للقضاء فأبى ذلك[١]، فأجلس المختارُ شريحاً للقضاء فقضى بين الناس .
ولكن الناس أخذوا ينددون بهذا التنصيب لما يحمل شريحٌ معه من الماضي السيء ، فهو أولاً : عثماني ، وثانياً : ممن شهد على حُجر بن عدي ، وثالثاً : إنه لم يبلّغ عن هانيء بن عروة ما أرسله به ، وقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عزله عن القضاء[٢] ، فلما أن سمع شريحٌ بذلك ورآهم يذمونه ويسندون عليه مثل هذا القول ، خافهم فتمارض . عندها عزله المختار وجعل مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود ، ثم مرض فصيّر مكانه عبد الله بن مالك الطائي[٣] .

تفرغ المختار للنظر في أمن الدولة الفتيّة والترصد لأعدائها الكثر في الداخل والخارج ، ومن ثم التخطيط في الالتفاف على من استحل دماء العترة الطاهرة وأراقها في غير حق ، فينتقم منهم ليشف غليله وغليل بقية آل البيت عليهم السلام وشيعتهم ومحبيهم .

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٥ ، وفي العبارة غموض لا يفهم مَن عرض على مَنْ القضاء ومَن أبى ، فهل الذي عرض هو المختار أو محمد بن الأشعث وقد يكون الأقرب ما ذكرناه بالخصوص أن محمد بن الشعث كان وجلاً من المختار .

(٢) في كتاب « مع المختار . . » ص١١٦ : أن علياً عليه السلام عزله عن القضاء ، لأنه قضى قضية نقم عليه أمرها ، وقال له : والله لأنفينك إلى مانيقيا ـ أو « بانقيا » من قرى الكوفة أكثر سكانها يهود ـ شهرين تقض بين اليهود ، ثم عزله ونفاه إلى هناك .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٤ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٥ ، الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٧ .

المســاواة من جديـد

كان المختار عادلاً ، فوضع أسس حكومة تعدل بين الناس وتساوي بين الجميع[١] . وهو كما يقول (ولهاوزن Wellhausen) أول من عمل على إزالة الفوارق الاجتماعية في عصره[٢] . وأظهر العدالة والأمن للجميع[٣] .

وساوى في العطاء بين الموالي وأسيادهم ، وهو أول مَن خطا هذه الخطوة بعد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، وبعد أن قاسى الناس الأمرّين في العهود السابقة. فكان اكثر المال يذهب إلى القليل من الأسياد،والأكثرية العظمى من الناس لا يصلها في أحسن الحالات سوى الضئيل .

وعندما ساوى المختار في العطاء[٤] ثارت حفيظة الأشراف،واعتبروا تصرف المختار هذا إهانة كبرى لا تغتفر .

فهاجوا وماجوا ضده ، فجاء شبث بن ربعي ونقل إليه نقمة الأشراف عليه ، وعللها بقوله : عمدت إلى موالينا وهم فيءٌ أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقنا رقابهم . . نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فلم ترضَ لهم بذلك حتى جعلتهم شُركاء في فيئنا ! .

فلم يكن هؤلاء يرضون بالمساواة على أساس الدين ، ولا يرضون بالتنازل عن امتيازاتهم التي اعتادوا عليها أكثر من خمسين سنة خلت ، ولكن المختار لم يرضَ

---

(١) المختار مرآة العصر الأموي ص٤٢ .

(٢) الخلافة الأموية ص٥٧ .

(٣) الخلافة الأموية ص٧٩ .

(٤) هو مال الضرائب الذي يُجبى من الأراضي العامرة التي فتحها المسلمون عنوة (بقوة السلاح) ـ ويسمى خراجاً ـ ، فالأرض العامرة المفتوحة عنوة واردها للمسلمين قاطبة . (الفقه ، باب الجهاد) . ج٤٧ ص٣٤٣ وغيره .

أبداً بالتنازل عن مبدأ المساواة مما عرضه لمتاعب كثيرة .

وموقف المختار هذا بعث الأمل في نفوس الموالي بإمكانية حصولهم على حقوقهم التي شرعها الإسلام بعد غياب طويل ولكي نتعرف على الوضع الاجتماعي آنذاك ، وشدة العقبات التي تقف في وجه الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي الذي يطبقه المختار ، ما علينا إلاّ أن نعود إلى الوراء . . إلى العهد الإسلامي الأول ، لنرى بداية الانحراف عن التشريع الإلهي ، وما سببه من فتن ودمار نخرت في البنية الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين .

ففي زمن رسول الله ﷺ كانت الأموال توزع بصورة متساوية وعادلة . . لا فرق بين عربي وأعجمي ولا فرق بين امرأة حبشي مسلم وامرأة الرسول ﷺ . .

وسار أبو بكر على منهج الرسول ﷺ في مدة حكمه[١] فلم يكن يفضل أحداً على أحد . ولم يكن هذا يروق لعمر بن الخطاب فعندما قَسَمَ أبو بكر قَسْماً فسوّى فيه بين الناس قال له عمر : تُسَوِّي بين أصحاب بدر وسواهم من الناس ؟ فقال أبو بكر : إنما الدنيا بلاغ وخير البلاغ أوسعه ، وإنما فضلهم في أجورهم[٢] .

ولم يقتنع عمر بهذا الجواب ، فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان قد أشار به على أبي بكر ، فقال : «إن أبا بكر رأى في هذا الحال رأياً ولي فيه رأي آخر . . . لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه»[٣] .

«ففضل السابقين على غيرهم ، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين ، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، وفضل العرب على

---

(١) نظريات الخليفتين ج٢ ص٤٧ .

(٢) نظريات الخليفتين ج٢ ص٥٤ نقلاً عن تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٠٧ وفي جواب آخر له في ص٥٦ قال : إن الله لم يفضل أحداً على أحد ، ولكنه قال ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ [التوبة : ٦٠] ولم يخص قوماً دون قوم .

(٣) حياة الإمام الحسين ج١ ص٢٨٤ .

العجم ، وفضل الصريح على المولى »[١] وفضل مضر على ربيعة ، وفضل الأوس على الخزرج[٢] .

ولم يكتف بهذا ، بل ساوى بالعطاء معاوية وأبا سفيان بالمهاجرين الأولين كعلي ابن أبي طالب « خمسة آلاف درهم سنوياً » ، فكان راتب أبي سفيان الذي قاتل رسول الله يوم بدر وأُحُد أعلى من راتب سعد بن عبادة ورفاقه « أربعة آلاف درهم » المشاركين في معركة بدر مع رسول الله ﷺ ! !

وفضّل من زوجات الرسول ثلاثاً ، وأعطاهن أعلى راتب «اثني عشر ألف» درهم[٣] بينما فرض لنساء المسلمين ما بين خمسمائة درهم (نساء أهل بدر) ومائتين (نساء ما بعد الحديبية)[٤] .

ولا ندري ما هو السر في تفضيل أولئك النسوة على بقية نساء الأمة ورجالها؟!

وقد ولّد هذا المبدأ فيما بعد أسوء الآثار في الحياة الإجتماعية ، حيث أنه وضع أساس تكوّن الطبقيات في المجتمع الإسلامي ، وجعل المزيّة الدينية من سُبُل التفوق المادي ، وزوّد الأرستقراطية القرشية بمبرر جديد للاستعلاء والتحكم بمقدرات المسلمين ، فجميع اعتبارات التفضيل تجعل القرشيين أفضل في العطاء من غير القرشيين[٥]، وهذا يعني أن قريشاً أفضل الناس لأنها قريش ! وكفى بهذا مبرراً للتحكّم والاستعلاء !

---

(١) شرح النهج ج٨ ص١١١ .

(٢) شرح النهج ج٨ص٢٨ .

(٣) نظريات الخليفتين ج٢ ص٦٥ .

(٤) نظريات الخليفتين ج٢ ص٥٩ .

(٥) فهم عرب .. قرشيون .. مضريون .. مهاجرون ... يقول نجاح الطائي في « نظريات الخليفتين ج٢ ص٥٥ » : وكان عمر قد جعلها طبقيّة على أساس السابقة في الدين . ففضّل أهل بدر على غيرهم ، وجعلها قومية ففضل العرب ، وجعلها إقليمية ففضل قريشاً على الأنصار !!

وقد صار هذا المبدأ سبباً جديداً من أسباب الصراع القبلي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج . .

ونظن أن هذا المبدأ قد أرسى أول أساس من أسس الصراع العنصري بين المسلمين العرب وغيرهم من المسلمين بما جرى عليه عمر من تفضيل العرب على العجم والصريح على المولى[١] .

إنه إجراء أوجد تفاوتاً إجتماعياً وإقتصادياً . . إجراء أوجد بذور التنافس والتفاضل بين المسلمين[٢]، وكان من نتائجها ظهور التكتلات على أساس قَبَلي أو قومي ، لا كما أراد القرآن الكريم ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٣].

وكأن عمر قد أدرك في آخر أيامه الأخطار السياسية والاجتماعية التي يؤدي إليها مبدؤه هذا ، لذلك أعلن عزمه على الرجوع إلى المبدأ النبوي في العطاء ، ولكنه قتل قبل أن تحين الفرصة.فجاء عهد عثمان وسار على نظام التفاضل بل وضرب به عرض الجدار ، فلم تمض فترة وجيزة إلا وآل أبيه (بنو أمية) يتقاسمون بيت مال المسلمين !

وعندما اعترض المسلمون على عثمان في ذلك أجابهم بقوله : «لَنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام»[٤]، فتكونت طبقة صغيرة ثرية تملك كل شيء وطبقة كبيرة لا تملك شيء .

والطبقة الثانية ترى حقوقها في بطون الطبقة الأولى ، وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال : ما رأيت نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حق مضيّع »[٥] .

---

(١) ثورة الحسين ص٢٩ .

(٢) الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية ص٢٥١ د . عبد الله سلام .

(٣) الحجرات : ١٣ .

(٤) ثورة الحسين ص٣٩ .

(٥) لماذا تأخر المسلمون ص٧٤.

ومع مرور الأيام تزداد الهوة اتساعاً بين هاتين الطبقتين، ومن ثَمَّ حالة الانقسام والتنافر.

وعندما آل الأمر إلى علي بن أبي طالب ﷺ أعاد مبدأ المساواة في العطاء ـ كما كان على عهد رسول الله ﷺ .

فقد قال ضمن خطابه : . . فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسوية . . لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب . . وإذا كان غداً إنشاء الله فاغدوا علينا فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم ولا يتخلفن أحد منكم . . عربي ولا أعجمي . . كان من أهل العطاء أو لم يكن إلاّ حضر، إذا كان مسلماً حُرّاً . . » . وفي الغد قسّم المال عليهم لكل واحد أيّاً كان ثلاثة دنانير[1] .

ولم يدم الحال طويلاً، فقد أقام المتضررون حركات تمرّد باستمرار، حتى اغتيل (سلام الله عليه) بعد أقل من خمس سنوات، وانتهى بذلك عهد الإصلاح .

ولما جاء معاوية إلى الحكم وسّع نظرية عمر في العطاء فاتسع الاختلاف الطبقي، فعثمان فتح بيت مال المسلمين لأفراد بني أمية وآخرين من غيرهم، أما معاوية فأحدث في هذا الشأن ما لا يصدقه المسلمون، إذ أعطى الأموال الطائلة لبني أمية ولمن أحب من أفراد حزبه، واشترى ضمائر الناس وأسرف وأترف في أموال المسلمين .

وبذل معاوية خزائن عظمى من الأموال لمن زوّر الأحاديث واختلق سيرة مرضية له، فساير رجال السلطة معاوية في هواه، فانحرف الدين وطُمست الشريعة وضاع الحق وبزغ الباطل .

فضاعت المساواة التي سار عليها رسول الله ﷺ في العطاء يوم كان يأخذ بقدر ما يعطيه لخادمه أبي رافع غير ناظر إلى نبوته وقدم إسلامه ونسبه وغير ذلك[2] .

والجانب الاقتصادي هذا قد أثر على السلوك الاجتماعي عند المسلمين،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٧ ص٣٧ـ٣٨ .

(٢) نظريات الخليفتين ج٢ ص٤٩ .

فأصبحت قريش في المرتبة الأولى تليها مضر من العرب ثم بقيتهم، وبعدهم في أسفل السُلّم غير العرب من الموالي والعجم، وأسفل منهم العبيد المملوكون.

وكان أول من سنّ القوانين على معاملة هؤلاء المسلمين على أساس طبقاتهم هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، عندما منع زواج العجم في العرب قائلاً: لأمنعن فروجهنّ إلا من الأكفاء[١]، فأطلق عمر تزويج قريش في سائر العرب والعجم، وتزويج العرب في سائر العجم، ومنع العرب من التزويج في قريش، ومنع العجم من التزويج في العرب[٢].

ثم ازدادت هذه الحالة تدريجياً ووصلت إلى أوجها في زمن معاوية بن أبي سفيان.

فقد أرسل معاوية رسالة إلى زياد بن أبيه (واليه على العراق) جواباً عن رسالته تبين نظرة عمر إلى الموالي من غير العرب.. جاء فيها:

انظر إلى هذا الحي من اليمن، فأكرمهم في العلانية وأهنهم في السر فإني كذلك أصنع. وانظر إلى الموالي ومن أسلم من الأعاجم فخذهم بسنة عمر بن الخطاب، فإن في ذلك خزيهم وذلّهم.. أن تنكح العربُ فيهم ولا ينكحونهم، وأن تقصر بهم في عطائهم وأرزاقهم، وأن يقدّموا في المغازي.. يصلحون الطريق ويقطعون الشجر. ولا يؤم أحد منهم في الصلاة، ولا يتقدم أحد منهم في الصف الأول إذا حضر العرب إلاّ أن يُتموا الصف[٣].

وقد بدأ سياسة التحقير لهذه الطائفة من المسلمين أيضاً الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فإنه رأى امرأة في زي استغربه، فسأل عنها فقيل له: إنها الأَمَةُ فلانة، فضربها بالدِّرَّة ضربات وهو يقول لها: يا لكعاء! أتتشبهين بالحرائر؟!![٤] وكانت

(١) نظريات الخليفتين ج١ ص٣٧٤ عن المسترشد ص١٤٢.

(٢) نظريات الخليفتين ج١ ص٣٧٥.

(٣) نظريات الخليفتين ج١ ص٣٧٣.

(٤) عبقرية عمر «للعقاد» ص١٣٨.

الإماء تلبس ملابس تختلف عن ملابس الحرائر ـ في الجاهلية ـ بينما الإسلام محى الفروقات بين المسلمين ، فجعلهم يقفون في صفوف الصلاة بلا مزايا قومية ومالية وعشائرية وغيرها[١] .

أما في ظل الوضع الراهن فقد احتكر العرب الوظائف المهمة في المجتمع ، مثل : القضاء وقيادة الجيوش وإمامة الصلاة . وقد اعتبروا (الحرب والتجارة) هما المهنتين الوحيدتين اللتين تلائمهم ، أما الموالي فكانوا من الجهة الأخرى يشتغلون بصورة رئيسية بالأعمال اليدوية كالزراعة والصناعة ، ورغم أن الموالي كانوا يستخدمون في الجيش بشكل مشاة فإنهم لم يكونوا مسجلين في الديوان ، ولهذا فلا يدفع لهم العطاء ! وحتى في الحالات القليلة التي كانوا فيها يستلمون عطاءاً ، فإن ذلك العطاء كان أقل مما يستلمه أسيادهم من العرب[٢] .

النتيجــة :

استمر الحكام والولاة على نهج عمر ونظريته ، في تفضيل العنصر العربي على العجم والموالي ، وتفضيل قريش على سائر العرب .

وكانت فترة حكم عمر وعثمان والأمويين الطويلة قد عوّدت الناس على هذه النظرية[٣]، وحذا عبد الله بن الزبير حذو سلفه ، ولم يحقق لهم العدل الاجتماعي الذي يطلبونه [٤].

وعندما جاء المختار ، طرح نهجه الجديد على أن يكون التقسيم للعطاء بالسوية . للعربي مثل المولى لا فرق بينهما ، سائراً على نهج رسول الله ﷺ الذي

(١) نظريات الخليفتين ج١ ص٣٩٢.

(٢) الخلافة الأموية ص٨٠ .

(٣) نظريات الخليفتين ج٢ ص٤٩ .

(٤) ثورة الحسين ص٢٧٣ . وقد أشرنا سابقاً أن عبد الله بن مطيع والي الكوفة من قبل ابن الزبير ، وفي أول خطابه أعلن عزمه على تطبيق نهج عمر وعثمان بأمر من ابن الزبير .

كان يأخذ هو ومولاه العطاء نفسه بلا فرق ، وعلى نهج أمير المؤمنين علي عليه السلام ، الذي يأخذ هو وغلامه « قنبر » بالتساوي ، ولم يجد لبني إسماعيل على بني إسحاق فضلاً ـ كما قال عليه السلام ـ .

عصر الإصلاح :

فبعد مرور أكثر من ربع قرن على نهاية حكومة الإمام علي عليه السلام كان المختار أول من أدرك وحاول أن يعالج التمايز القائم في الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين العرب والموالي(١) ، بل كان من جملة أهدافه الاعتماد على العنصرين (العرب والموالي) ، وإقامة التوازن والتسوية بينهما(٢) .

فطبقة الموالي (المسلمين غير العرب) قد كانت عليهم واجبات المسلمين ، ولم تكن لهم حقوقهم(٣) فلما استتب الأمر للمختار أنصفهم ، فجعل لهم من الحقوق

---

(١) الخلافة الأموية ص٦٧ .

(٢) تاريخ العرب والإسلام (عادل زيتون) ص١٥٣ .

(٣) وقد طال عدم الإنصاف هذا وضع الموالي ذلك القرن ، فقد أهمل هؤلاء المؤرخون العرب ـ إلا المنصفين منهم وقليل ما هم ـ الحقائق التي أوصلت الموالي إلى ما هم فيه من الاحتقار والدونية وتناسوا أن أول من حطّ من قيمة الموالي في الإسلام هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، عندما أعلن مرسومه القاضي بتبني دولة الخلافة الراشدة لنظام الطبقية . . بزيادة الامتيازات للعرب لأنهم عرب ، وهضم حقوق الموالي واحتقارهم لأنهم موالي لا غير .

فأغمضوا عيونهم ، وتجاهلوا المصادر التاريخية الكثيرة التي أشارت إلى هذه الحقيقة المخجلة ، وتمسكوا بقول ورد في كتاب «الأموال» لـ «أبي عبيد» ص٢٣٥ أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى ولاته بالمساواة بين العرب والموالي في الحقوق والواجبات والعطاء .

تمسكوا بهذا القول ، وبه اعتبروا «عمر بن الخطاب» الخليفة العادل وتركوا أمهات المصادر التي تطرقت إلى تمييزه العنصري ، وتفضيله للعربي على غيره ـ في السياسة والاقتصاد والاجتماع ومن المصادر التي ذكرت تمييز عمر بن الخطاب للعرب على غيرهم شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، فقد ذكر في ج٨ ص١١١ أن عمر فضل العرب على العجم . ناهيك عن تفضيله بعض المسلمين على بعض بلا دليل عقيلي أو شرعي ، فقد أعطى عائشة اثني عشر ألف درهم في حين أعطى اختها «أسماء بنت أبي بكر» ألف درهم (طبقات ابن سعد) عن (تاريخ اصبهان ج٢ ص٢٩٠) .

وأعطى من قاتل مع رسول الله يوم بدر (الأنصار) أربعة آلاف درهم في حين أعطى من قاتل رسول الله =

مثل ما لغيرهم من عامة المسلمين[١].

لقد أباح المختار للموالي مشاركة العرب بالفيء وركوب الخيل ، وقد عين «كيسان أبا عمره» مولى عرينه على حرسه[٢]. بهذه التصرفات وأمثالها أراد المختار أن يسقط الأرستقراطية العربية في الكوفة من على عرشها ، ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يقضي فيها على التمايز بين العرب والفرس ، وبين السادة والرعية (كما يقول المؤرخ الألماني «فلهاوزن»)[٣].

ومع ذلك هو لم يمل إلى أي نوع من العصبية سواء القبلية أو العصبية الجنسية . . . ورغم تأييد الموالي والرقيق للمختار ، ورغم اهتمامه بتحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فقد قرب العرب إليه وولاّهم مناصب قيادة وحكم الولايات ، وأغدق عليهم الصلات ، وبذلك حفظ المختار التوازن بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين .

أقبل الموالي على تأييد المختار ، وخفت العصبية بين العرب والموالي . وكان المختار حصيفاً . . فطناً ، فهو لم يغفل في الوقت نفسه امتيازات العرب بل أدناهم وأكرمهم إلى جانب أنصافه الموالي[٤].

=

يوم بدر من أهل مكة من كبار قريش مثل أبي سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان خمسة آلاف درهم وفرض لأشراف العجم الفي درهم (تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٥٣) وهكذا في باقي المصادر أمثال تاريخ الطبري والمستدرك للحاكم والطبقات الكبرى لابن سعد والكامل في التاريخ لابن الأثير وفتوح البلدان للبلاذري . أما من الناحية الاجتماعية ، فقد منع زواج غير العرب من النساء العربيات وقال : لأمنعن فروجهن إلا من الأكفاء . (نظريات الخليفتين ج١ ص٣٧٤) عن المسترشد ص١٤٢ ومنع غير العربي من الاقتصاص من العربي وحكم عليه بالدية (النبطي مع عبادة بن الصامت) (مختصر تاريخ دمشق ، ابن عسكر ج٩ ص١١٤) وضرب الأمة العجوز لأنها لبست لباس الحُرّة . (عبقرية عمر للعقاد ص١٣٨) فهل تصمد رواية أبي عبيد أمام هذا السيل من أمّهات المصادر ؟!!

(١) ثورة الحسين ص٢٧٤ .

(٢) الخلافة الأموية ص٨٢ .

(٣) عشر ثورات في الإسلام ص١٣٢ .

(٤) عشر ثورات في الإسلام ص١٢٩ .

وتناهى إلى أسماع الموالي والرقيق في بلاد العراق ظهور حاكم عادل مصلح ، فخرجوا من جميع المدن إلى الكوفة ، حيث عاشوا في كنف المختار[١] .

وأصبح المختار في العراق كما سيكون (ابراهام لنكولن) في الولايات المتحدة الأمريكية محرراً للعبيد . ولم يكن المختار مبتكراً أو مبتدعاً بل كان يطبق التعاليم الإسلامية[٢] .

العطـــاء :

يقول الدينوري : وقرب ـ المختار ـ أبناء العجم وفرض لهم ولأولادهم الأعطيات وقرب مجالسهم[٣] ، ورفع عطاء الموالي ـ أي المرتبات التي يمنحها بيت المال لهم شهرياً ـ فقد كان عطاء الموالي في خلافة معاوية بن أبي سفيان خمسة عشر درهماً ، فرفعها المختار إلى عشرين درهماً . . .

وكان عطاء كل جندي من جنود المختار خمسمائة درهم[٤] . فليس غريباً لذلك إن ازداد عدد الموالي والعبيد[٥] بين أتباعه إلى درجة كبيرة ، فبعد أن كانوا في بداية الثورة خمسمائة فقط ، انضم إليه جميع الموالي في الكوفة تقريباً وهو في قمة انتصاره[٦] ، وهو أول من أدرك أن الموالي كانوا عنصراً أساسياً في المجتمع .

---

(١) عشر ثورات في الإسلام ص١٣٨ .

(٢) المختار مرآة العصر الأموي ص٣٤٢ .

(٣) الأخبار الطوال ص٢٩٩

(٤) المختار مرآة العصر الأموي ص٣٥٠ ، وهذا القول ـ مرتبات الموالي ـ ضعيف بلا دليل ، ولم أجده في أي مصدر آخر . وهو يخالف ما ذكره الرواة من أنه ساوى في العطاء بين العرب والموالي ، فتأمل!

(٥) والذي يظهر إن بعض المؤلفين قد خلطوا بين « الموالي » و « العبيد » ، واعتبروهما لفظين لمعنى واحد ، لكن « العبيد » كانوا تبعاً لأسيادهم وأرقّاء لهم ، أما « الموالي » فهم المحرَّرون ، ولكن بقي ارتباطهم بأسيادهم ، من حيث الحماية القانونية والاجتماعية وما شابه . و« الموالي » هم من انطووا تحت لواء المختار ، وهم أحرار شرعاً وقانوناً ، وسيتكرر هذه الخلط في أقوال المؤلفين التي ننقلها « فلاحظ » .

(٦) الخلافة الأموية ص٨٢ .

توحيد الصف

سيرة المختار مليئة بالمواقف الزاهية البيضاء، التي لا تدل إلاّ على إخلاصه لآل البيت النبوي ﷺ، وعزمه الحقيقي على تنفيذ ما وعد، والحفاظ على أنفس الناس ودمائهم وأعراضهم إلا بالحق، وأيضاً مواقفه الدائمة للحفاظ على صفاء الجو بين أصحابه وأنصاره، وإزالة أي شائبة يمكن لها أن تعكر الود بينهم. وقد أشار إلى هذه الحقيقة أحد باغضيه عندما قال ناصحاً قومه بعدم الخروج على المختار:

... أخاف أن تختلفوا وتفرقوا ومع الرجل شجعانكم ومواليكم وكلمتهم واحدة..»[1]. وهذا يدل على شدة كياسته وبُعد نظره.

فعندما دبّ الخلاف بين أصحابه بسبب عبد الله بن همام أصلح الأمر فوراً ولم يتركه يكدر العلاقة بينهم. ففي أحد الأيام وعندما كان المختار جالساً للناس في القصر، دخل عليه عبد الله بن همّام السلولي الشاعر ـ بعد أن استأمن له عبد الله بن شداد ـ ومعه قصيدة فيها مدح للمختار ورجاله وتبجيل النصر الذي أحرزوه، فأنشده قصيدته العينية:

وفي ليلةِ المختـارِ ما يُذهِلُ الفتى ... ويُلهيه عن رُؤْدِ الشَّبابِ شَموعِ[2]

فحمله المختار على فرس وقال لأصحابه[3]: قد أثنى عليكم كما تسمعون، وقد أحسن الثناء عليكم، فأحسنوا له الجزاء، ثم قام المختار، فدخل. وقال عبد الله بن شداد الجُشَمي: يا ابن همّام، إن لك عندي فرساً ومُطرفاً[4] وقال قيس بن طهفة النهدي: فإن لك عندي فرساً ومطرفاً ـ واستحيا أن يعطيه دون عطية صاحبه ـ وقال ليزيد بن أنس:

---

(١) أصدق الأخبار ص٨٨ وهو عبد الرحمن الأسدي.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٥.

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٦.

(٤) المُطرّف هو: رداء من خزّ ذو أعلام (المنجد) ص٤٦٤.

فما تعطيه ؟ فقال يزيد : إن كان ثواب الله أراد بقوله فما عند الله خيرٌ له ، وإن كان إنما اعترى بهذا القول أموالنا ، فوالله ما في أموالنا ما يسعه ، قد كانت بقيتْ من عطائي بقيّة فقوّيت بها أخواني . فقال أحمر بن شميط ـ مبادراً لهم قبل أن يكلموه ـ : يا ابن همام ، إن كنت أردت بهذا القول وجه الله فاطلب ثوابك من الله ، وإن كنت إنما اعتريت به رضا الناس وطلب أموالهم ، فاكدْم الجَنْدل ، فوالله ما مَنْ قال قولاً لغير الله وفي غير ذات الله بأهلٍ أن يُنْحل ولا يُوصَل ، استشاط ابن همام غضباً ، فقال : عضضت بـ . . . أبيك ! فرفع يزيد بن أنس السوط وقال لابن همام : تقول هذا القول يا فاسق ! يا ابن شميط اضربه بالسيف ، فرفع ابن شميط عليه السيف ، ووثب ووثب أصحابهما يتفلتون على ابن همّام[1] ، أخذ بيده إبراهيم بن الأشتر[2] فألقاه وراءه ، وقال : أنا له جار ، لمَ تُؤتون إليه ما أرى ! فوالله إنه لواصل الولاية . . راضٍ بما نحن عليه . . حسنُ الثناء ، فإن أنتم لم تكافؤوه بحسن ثنائه ، فلا تشتموا عرضَه ، ولا تسفكوا دمه . ووثبت مذحج فحالت دونه ، وقالوا : أجاره ابن الأشتر . . لا والله لا يُوصل إليه .

سمع المختار لغطهم ، فخرج إليهم ، وأومأ بيده إليهم ـ أن اجلسوا ـ فجلسوا ، فقال لهم : إذا قيل لكم خير فاقبلوه ، وإن قدرتم على مكافأة فافعلوا ، وإن لم تقدروا على مكافأة فتنصَّلوا ، واتقوا لسان الشاعر ، فإن شرّه حاضر ، وقوله فاجر ، وسعيه بائر ، وهو بكم غداً غادر . فقالوا : أفلا نقتله ؟ قال : إنّا قد آمنّاه وأجرناه ـ إشارة إلى الأمان الذي أخذه عبد الله بن شداد له ـ ، وقد أجاره أخوكم إبراهيم بن الأشتر ، فجلس مع الناس بعد أن ذهب عنه الهلع .

---

(١) كان عبد الله بن همّام عثمانياً ، وكان قد سمع أبا عمر ـ رئيس الحرس فيما بعد ـ يذكر الشيعة وينال من عثمان بن عفان ، فقنّعه بالسوط . فاستخفى حين ظهر الشيعة وقوي أمرهم ، حتى استأمن له عبد الله بن شداد عند المختار .

تاريخ الطبري ج٦ ص٣٥ ـ أنساب لأشراف ج٦ ص٣٩٦ .

(٢) في أنساب الأشراف « . . فأجاره ابن الأشعث . . » وهو خطأ والصحيح ما ذكرناه .

ثم أن إبراهيم بن الأشتر قام فانصرف إلى منزله فأعطاه ألفاً (ألف درهم) وفرساً ومطرفاً ، فرجع بها وقال : لا والله ، لا جاورت هؤلاء أبداً .

وأقبلت هوازن واجتمعت في المسجد غضباً لابن همّام ، وكادت الفتنة أن تقع ، فاستدرك المختار الأمر فبعث إليهم وسألهم : أن يصفحوا عما اجتمعوا له ، ففعلوا[١] .

وأقبل عبد الله بن شداد من الغد فجلس في المسجد يقول : علينا توثّب بنو أسد واحمس ! والله لا نرضى بهذا أبداً ، فبلغ ذلك المختار ، فبعث إليه فدعاه ، ودعا بيزيد بن أنس ويابن شميط ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يابن شداد ، إن الذي فعلتَ نزغة من نزغات الشيطان ، فتُب إلى الله ، قال : قد تبت ، وقال : إن هذين أخواك ، فأقبل إليهما ، وأقبل منهما ، وهب لي هذا الأمر ، قال : فهو لك[٢] .

انتهت المشكلة وارتسمت البسمة على الوجوه من جديد وعادوا إلى ودهم القديم ، يخطون نحو هدفهم الذي ضحّوا له بالغالي والنفيس .

تمكن المختار بكياسته وحسن تصرفه ـ في أمثال هذه المواقف الحرجة ـ أن يخمد نار هذه الفتنة ، وبالنتيجة يرضي جميع الأطراف ، ويبقي على التكاتف والمودة بين أصحابه وبالتالي بين عشائر الكوفة .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٦ . وبعدها « فقال ابن همّام لابن الأشتر يمدحه :

أطفأ عني نار كلبين ألّبا ... عليّ كلاباً ذو الفعال ابن مالك
فتىً حين يلقى الخيل يفرق بينها ... بطعن دراك أو بضرب مواشك
وقد غضبت لي من هوزان عصبةٌ ... طُوالُ الذُّرا فيها . . عراض المبارك
إذا ابن شميط أو يزيد تعرّضا ... لها وقعاً في مستحار المهالك
وثبتم علينا يا مواليّ طيّىء ... مع ابن شميط شرّ ماش وراتك
وأعظم ديّار على الله فرية ... وما مفتر طاغ كآخر ناسك
فيا عجباً من أحمس وما عجبٌ ... تَوَثَّبُ حولي بالقنا والنيازك
كأنكم في العز قيس وخثعمٌ ... وهل أنتم إلاّ لئام عوارك

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٧ .

حريـة الـرأي

دولة المختار كانت أول حكومة تفتح باب الحرية الفكرية على مصراعيه ـ بعد عهد رسول الله ﷺ ودولة الإمام علي عليه السلام ـ فللناس أن يعلنوا عن عقائدهم وأن يقولـوا ما يعتقدون . وبما أن أغلب أهل الكوفة كانوا من شيعة أهـل البيـت عليهم السلام وكـانوا مـن قبـل قد عاشوا محتبسـة أنفاسـهم ، لا يتمكـن أحدهـم مـن إظهـار حبـه وولائـه لآل بيـت رسول الله ﷺ ، طوال السنين الماضية التي قضوها تحت رحمة سياط بني أميـة ، وابـن الزبير الذي سار على نهجهم . ولأجل أن نعي تعطشـهم للحرية لابـد أن نمـر سـريعاً على ما عانوه من ضغوط أيام معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد .

فقد كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله ـ وولاته ـ بعد عـام الجماعـة[1] : «إن برئت الذمة ممن روى شيئاً مـن فضـل أبي تـراب وأهـل بيتـه» ، فقـام الخطبـاء في كـل كورة ، وعلى كل منبر ، يلعنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته . وكـان أشد الناس بلاءاً حينئذ أهـل الكوفـة ، لكثرة مـن بهـا مـن شيعة علـي عليه السلام واستعمل معاوية عليهم زيـاد بـن سـمية ـ وضـم إليـه البصـرة ـ فكـان يتتبـع الشـيعة ـ وهـو بهـم عارف ، لأنه كان منهم أيام علي عليـه السـلام ، فقتلهـم تحـت كـل حَجَـر ومـدر ، وأخـافهم ، وقطـع الأيـدي والأرجـل ، وسَمَل العيـون ، وصلبهـم علـى جـذوع النخل ، وطردهم وشرّدهم من العراق ، فلم يبق بها معروف منهم .

ثم كتب معاوية إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان :

«انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحب علياً وأهـل بيتـه ، فـامحوه مـن الديـوان ،

---

(١) عامة الجماعة : هو العام الذي دانت فيه جميع بلاد المسلمين لحكومة معاوية بن أبي سفيان ، بعد صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام في عام ٤١ من الهجرة ، وهي تسمية مغلوطة كما لا يخفى .

وأسقطوا عطاءه ورزقه » وشفع ذلك بنسخة أخرى : « من اتهمتوه بموالاة هؤلاء القوم ، فنكّلوا به ، واهدموا داره » فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ، ولاسيما الكوفة[١] . .

وزاد فوق ذلك زياد بن أبيه في سبيل تصفية الشيعة من الكوفة ، وكسر شوكتهم ، فأجلى خمسين ألفاً منهم إلى خراسان المقاطعة الشرقية في فارس[٢] أقصى حدود الدولة الإسلامية في ذلك الزمان .

وازداد الأمر سوءاً بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه ، أو طريد في الأرض[٣] .

وأيضاً ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام ، وهو يحدث بعض أصحابه بما مرّ على شيعة أهل البيت عليهم السلام من الظلم والجور زمن معاوية . . بالخصوص بعد استشهاد الحسن عليه السلام ، يقول : « فقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة ، وكان مَن يُذكر بحبنا والانقطاع إلينا سُجن أو نهب ماله ، أو هُدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد . . . »[٤] .

هذه بعض أشكال المآسي التي مرت على شيعة أهل البيت عليهم السلام بالخصوص في الكوفة . ويمكن لك أن تتصوّر مدى الفرح وعظيم البهجة التي غمرت قلوبهم إبان حكومة المختار ، بعد أكثر من ربع قرن على الاضطهاد والتنكيل بهم لا لشيء إلا لمجرد كونهم أتباع هذا البيت الطاهر . وعندما حلت الكارثة على الحسين وأهل بيته قبل سنوات وإلى هذا اليوم هم يتكتمون على دموعهم ويقسرون أحزانهم على المكوث في أعماق نفوسهم .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١١ ص٤٤ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ج١ ص١٤٧

(٣) شرح نهج البلاغة ج١١ ص٤٦ .

(٤) شرح نهج البلاغة ج١١ ص٤٣ .

وفي هذا العهد الجديد الذي أزيلت فيه كل أنواع القسر والإرهاب، وهبت عليهم تباشير الحرية، بدأ الناس يذكرون فضائل آل الرسول ﷺ في أنديتهم، ويشيد الخطباء بمناقبهم. وفوق ذلك قام الناس بذكر مصائب الحسين[1]، وآل بيته في يوم عاشوراء، وأسبلوا دموعهم الجواري، مما أزعج قتلة الحسين الموجودين في الكوفة.

لمزيد من التوضيح انظر الخريطة في آخر الكتاب

(١) المختار ضمير وسط الظلام ص٤٨ (بتصرف).

الفصل العاشر

بين المختار وابن الزبير

بين المختار وابن الزبير

أحكم المختار سيطرته على الكوفة والشرق الإسلامي ، ولكنه كان بين فكي كماشة . الأمويون في الغرب والزبيريون في الجنوب . وهو بعد في أول الطريق ، ويرمق ببصره بعيداً ! يريد إعادة أهل البيت ﷺ إلى سدّة الحكم بعد أن سُلب منهم مرتان، وكان يرى في نفسه الكفائة الكاملة لإنجاز هذا العمل العظيم .

ولكن وقبل كل شيء يجب تأمين الحماية الكاملة لنظامه سواء من الداخل أو الخارج .

في فترة الحكم الأولى كان لا يخشى إلا من ابن الزبير ، فالجيش الأموي لم يخرج بعد من رمال الجزيرة ، ولم يتسنَ له عبور العقبات على طريق الكوفة ولكن لا يؤمَنون ، والداخل المتمثل بالأشراف كان مؤمناً بحسن مداراته لهم . وتبقى الحدود الشمالية مكشوفة أمام غزوات ابن الزبير وأحقاده ، فهو لم ينسى أن المختار قد أخرج أمير الكوفة من قبله ـ عبد الله بن مطيع ـ في الفترة الماضية ، فكان المختار خائفاً من أن يوجه إليه ابن الزبير جيشاً[1] لذلك السبب .

كان المختار يؤثر تحاشي الاصطدام الدموي مع ابن الزبير ، وكان منصرفاً إلى تثبيت حكمه[2] ـ كما ذكرنا ـ . فرأى أن لا مناص من ترطيب الأجواء مع ابن الزبير ، مع اعتقاده الكامل أن ما فعل كان حقه ضمن الاتفاق الذي أبرمه معه ، إلا أن ابن الزبير لم يف له ، فكتب إليه : « أما بعد ، فقد عرفت مناصحتي إيّاك وجهدي على أهل عداوتك ، وما كنتَ أعطيتني إذا أنا فعلتُ ذلك من نفسك ، فلما وفيتُ

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٥ .

(٢) تاريخ العرب والإسلام (د سهيل زكار) ص١٥١

لك ، وقضيتُ الذي كان لك عليّ ، خسْتَ بي ، ولم تف بما عاهدتني عليه ، ورأيت مني ما قد رأيت . فإن تُرِد مراجعتي أراجعك ، وإن تُرد مناصحتي أنصح لك » ، وهو يريد بذلك كفّه عنه ، حتى يستجمع له الأمر[1] وليتم أمره في الدعاء لأهل البيت عليهم السلام[2] .

والذي يظهر أن مكاتبته لابن الزبير كانت سريّة ، لم يُطلع الشيعة على شيء منها[3] .

لكن الغباء السياسي لابن الزبير دعاه لارتكاب خطأ آخر بحق المختار ، فدعا بـ« عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، فقال له : تجهّز إلى الكوفة ، فقد وليّناكها ، فقال : كيف وبها المختار ! قال : إنه يزعم أنه سامع مطيع . فتجهّز المخزومي بما بين الثلاثين ألف درهم إلى الأربعين ألفاً ثم خرج مقبلاً إلى الكوفة[4] .

فعبد الله بن الزبير لم يحاول أن يستفيد من مهادنة المختار ، بالخصوص وأن جيش الشام على أعتاب الحجاز ، بل على العكس من ذلك زاد في الطين بله فأجّج الموقف بينه وبين المختار ، وعبد الملك بن مروان في الشام ينظر إلى تنافرهم جذلان مسروراً ، فهو المستفيد الأول .

فابن الزبير خاس بعهده للمختار الذي كان فيه « أن يوليه على أفضل عمله إذا ظهر » وهنا ثانياً أراد أن ينتزع الحكم من المختار . وشيعة أهل البيت ـ بعد ما بذلوا في سبيل الحصول عليه الغالي والنفيس . وما هذا إلاّ من أشد أنواع الغباء والحماقة السياسية ـ بغض النظر عن رأي الشريعة في ذلك ـ ويأتي الخبر من مكة إلى المختار ـ بواسطة مخبريه ـ قبل وصول قافلة الوالي الجديد .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٧١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٣٥ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٧١ (بتصرف) .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٧١ .

ومرة أخرى يتحاشى المختار الاصطدام بلباقة وحنكة ، فقد دعا زائدة بن قُدامة ، وقال له : احمل معك سبعين ألف درهم ضعف ما أنفق هذا في مسيره إلينا ، وتلقّه في المفاوز ، وأخرج معك مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي في خمسمائة فارس دارع رامح ، عليهم البَيْض ، ثم قل له : خذ هذه النفقة فإنها ضعف نفقتك ، فإنه قد بلغنا أنك تجهّزت وتكلّفت قدر ذلك ، فكرهنا أن تُغرَمَ ، فخذها وانصرف ، فإن فعل . وإلا فأره الخيل وقل له إن وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة . فأخذ زائدة المال ، وأخرج معه الخيل ، وتلقاه بالمفاوز ، وعرض عليه المال ، وأمره بالانصراف ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد ولاّني الكوفة ولابد من إنفاذ أمره . فدعا زائدةُ بالخيل وكان قد أكمنها في جانب[1] ، فقال : إني محاربك بمن ترى ووراءهم مثلهم ومثلهم[2] ، فلما رآها قد أقبلت قال : هذا الآن اعذرُ لي وأجمل بي ، هات المال ، فقال له زائدة : إما أنه لم يبعث به إليك إلاّ لما بينك وبينه ، فدفعه إليه فأخذه[3]، فاستحيا من الرجوع إلى مكة فصار إلى البصرة[4] ، فاجتمع بها هو وابن مطيع في إمارة الحارث بن عبد الله « القُبَاع »[5] المولّى عليها من قبل ابن الزبير .

هكذا حاول المختار حل هذه الأزمة السياسية بينه وبين ابن الزبير . فالمختار عليه أن يختار بين سيطرته على الكوفة أو إرضاء ابن الزبير عنه[6]، ومن المستحيل التنازل عن الكوفة وهو بعد لم يحقق أحلامه وأحلام المضطهدين !

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٧١

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٦ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٢ .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٦ .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٢ .

(٦) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٢٩٧ .

البصـرة

كان المثنى بن مخرِّبة (أو مخرمة) العبدي قد خرج من البصرة مع ثلاثمائة مقاتل لنصرة التوابين[١] ، ورجع فيمن بقي منهم إلى الكوفة . والمختار محبوس ، فأقام حتى خرج المختار من السجن ، فبايعه المثنى سراً[٢] وقال له : إن لنا في البصرة شيعة فأذن لنا في القدوم عليهم والدعاء لهم ، فأذن له المختار في ذلك[٣] ، وقال له : الحق ببلدك بالبصرة فارْعَ الناس ، واسرّ أمرك . فقدم البصرة فدعا ، فأجابه رجال من قومه وغيرهم[٤] بقي المثنى يدعو سراً للمختار بكل هدوء ليرى ما تؤول إليه الأمور .

رأى المثنى أن الفرصة قد واتت لإعلان حركته الموالية للمختار ، عندما علم أن المختار قد أخرج عبد الله بن مطيع من الكوفة ، ومنع مبعوث ابن الزبير عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ـ بعنوانه والياً جديداً على الكوفة من دخولها ، ووصول هذين المخلوعين إلى البصرة[٥] ، ويقتضي أن هذه الحركة قد ظهرت بعد أكثر من شهر على سقوط الكوفة بيد المختار .

أعلن المثنى دعوته فاتخذ مسجداً يصلي فيه بأصحابه ، واجتمع إليه قومه والشيعة منهم[٦] . كان والي البصرة من قبل ابن الزبير في حينها « الحارث بن عبد الله

(١) مع المختار ص١٥٧ ، وفي « الخلافة الأموية » ص١٢٦ : كان المثنى أحد أتباع علي بن أبي طالب عليه السلام حارب معه في معركة الجمل ، وسانده ضد معاوية .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٦ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٥ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٦ .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٦ (بتصرف) .

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٦ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٦ .

ابن أبي ربيعة» المعروف بـ «القباع»[١] .

وقبل البدء بالحديث عن حركة المثنى لا بأس أن نشير إلى نوعية الولاء الذي كان سائداً بين أهل البصرة في ذلك الحين، وأهميّة البصرة بالنسبة إلى المختار .

قد كانت قبائل البصرة آنذاك هي : أهل العالية (بينهم قبيلة باهله المعروفة بشعورها الأموي والمعادي للعلويين) ، وتميم ، وبكر بن وائل ، والأزد ، وعبد القيس. إن هذه القبيلة الأخيرة كانت معروفة بولائها لأهل البيت ﷺ ولكنها من جهة أخرى كانت قليلة العدد وغير مهمة من الناحية السياسية . هذا وقد وصفت البصرة بأنها (عثمانية) ـ غير علوية ـ في ولائها السياسي .

ولقد حاول المختار الاستيلاء على البصرة لعدة أسباب مهمة ، إذ باستيلائه عليها وعلى ما يتبعها ستعم سيطرته على جميع العراق والأقاليم الشرقية ، وهكذا يجرّد ابن الزبير من مصادر غنية ويحدده بالحجاز ـ ذلك القطر الفقير الذي لايكاد أن يسد حاجته ـ إذ أن مصر كانت قد انتزعت منه قبل ذلك ودخلت تحت سيطرة الأمويين . كما أن احتلال البصرة يعطي المختار مؤيدين جدداً مما يزيد في قوته العسكرية ، مما قد يمكنه من مواجهة عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان معاً، وقد كان الوقت مناسباً جداً لمحاولة المختار هذه ، ذلك لأن البصرة كانت مهددة بصورة مستمرة من قبل الخوارج مما جعل مركز الوالي فيها مهدداً باستمرار . إضافة إلى ذلك أن عبد الله بن الزبير لم يكن باستطاعته آنذاك إرسال جيش ضد المختار بسبب الضغط الشديد الذي كان موجهاً عليه من قبل عبد الملك بن مروان واستعداده لمواجهته . وأخيراً فإن احتلال البصرة كان جزءاً من استراتيجية المختار ، إذ أنه من المفيد له أن يخلق متاعب جديدة لابن الزبير دونما حاجة إلى تحويل جزء من جهوده عن تثبيت سلطته في الكوفة[٢] .

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٦ .

(٢) الخلافة الأموية ص٨٧ .

خرج المثنى بأنصاره وعسكر عند مدينة الرزق ، وجمعوا الميرة بالمدينة[١] - مدينة الرزق - تحرك القُباع على الفور ، فأرسل إليهم عبّاد بن حصين - رئيس الشرطة - وقيس بن الهيثم في الشرُط والمقاتلة لتفريق المثنى وأنصاره . تحرك الشرط والمقاتلة نحو السبخة ، وفي الطريق انضمّ إليهم ورّاد مولى بني عبد شمس[٢] وفي السبخة وقفوا بعد أن أوقفهم أصحاب المثنى . عندها قال عبّادُ لورّاد : قف مكانك مع قيس ، فوقف قيس بن الهيثم مع ورّاد ، ولم يكن أمرهم بالقتال ، رجع عبّاد مع بعض رجاله والتفّ حتى وصل مدينة الرزق - التي يظهر أنها كانت في ظهر المثنى وأصحابه ، فوقف ودعا بسُلّم فوضعه على حائط المدينة - مدينة الرزق - فصعد ثلاثون رجلاً ، وقال لهم : الزموا السطح ، فإذا سمعتم التكبير فكبّروا على السطح . ثم رجع عبّاد إلى قيس بن الهيثم ، يظهر أن المثنى وأصحابه خلال هذه الفترة لم يحركوا ساكناً ولم يفكروا بالهجوم مطلقاً - عندها قال عبّاد لورّاد : حَرِّش القوم ، فطاردهم ورّاد ثم التبس القتال . كان القتال خفيفاً ، فورّاد كان كارهاً الخروج كما رأينا ، والمثنى في حالة دفاع وشعور بالضعف ، قُتل بعض الرجال من الفريقين[٣] ، وسمع الرجال الذين فوق السطوح في دار الرزق الضجة والتكبير فكبّروا ، سمع المثنى وأصحابه التكبير من ورائهم ، فانهزموا وأمر عباد وقيس بن الهيثم الناس بالكف عن أتباعهم ، وأخذوا مدينة الرزق وما كان فيها ، والتجأ المثنى

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤٥ . و« مدينة الرزق » هي إحدى مسالح العجم « بالبصرة » قبل أن يختطها المسلمون .

(٢) عندما خرج عبّاد إلى السبخة لزم الناس دورهم ، فلم يخرج أحد ، فجعل عبّاد ينظر هل يرى أحداً يسأله ! فلم ير أحداً ، فقال : أما ههنا رجل من بني تميم ؟ فقال خليفة الأعور مولى بني عديّ - عدي الرباب - : هذه دار ورّاد مولى بني عبد شمس ، قال : دقّ الباب ، فدقّه فخرج إليه ورّاد ، فشتمه عبّاد ، وقال : ويحك ! أنا واقف هاهنا ، لِمَ لمْ تخرج إلي ! قال : لم أدر ما يوافقك ، قال : شد عليك سلاحك واركب ، ففعل .

(٣) يقول الطبري : قتل أربعون رجلاً من أصحاب المثنى وقتل رجل واحد من أصحاب عباد . هذا الرقم بعيد كل البعد لعدم نية القتال لدى كل من الفريقين .

وأصحابه إلى قبيلته - عبد القيس - ورجع عبّاد وقيس ومن معهما إلى القبّاع[١] . أن تحركات عباد لم تكن لتدل إلا على إرادة إنهاء هذه الثورة دون إراقة دماء ، فهو يقول عند أمره بالهجوم لورّاد : حرِّش القوم ، ويأمر من على سطح دار الرزق أن يكبّروا بمجرد سماع صوت التكبير ، ويأمر بعدم إتباع المثنى وأصحابه والكف عنهم . والنتيجة رجوع المثنى وأصحابه إلى قومه ، ولم يكن القتلى قد تجاوز عدد الأصابع .

لكن القباع لم يكن ليرضى بهذه النتيجة السِّلْميّة ، فأرجع عباداً وقيساً إلى عبد القيس لإحضار الثوار أو قتلهم توجه قيس بن الهيثم من ناحية الجسر ، وأتاهم عبّاد من طريق المربد ليقطعوا عليهم طريق الهروب . لكن حالت قبيلتي بكر بن وائل والأزد دون وصول قوات الوالي إلى قبيلة عبد القيس ، فأقبل زياد بن عمرو العَتَكي - وهو رئيس الأزد يومئذ[٢] - إلى القباع وهو في المسجد جالس على المنبر ، فدخل زياد المسجد على فرسه ، فقال للقُبّاع : أيها الرجل ، لتَرُدّنَّ خيلك عن أخواننا أو لنقاتلنّها ! فأرسل القباع على الفور « الأحنف بن قيس » - رئيس قبيلة بني تميم[٣] - « وعمر بن عبد الرحمن المخزومي » ليصلحا أمر الناس ، ويحلّوا هذه المشكلة بما فيه صلاح الناس والبلد . فأتيا إلى مضارب عبد القيس ، فقال الأحنف موجهاً خطابه إلى جموع بكر والأزد وبقية الناس : ألستم على بيعة ابن الزبير ؟ قالوا : بلى ، ولكنّا لا نُسلم إخواننا ، قال : فمروهم فليخرجوا إلى أي بلاد أحبّوا ، ولا يفسدوا هذا المصْرَ على أهله ، وهم آمنون ، فليخرجوا حيث شاءوا . عندها مشى مالك بن مسْمَع - كبير بكر بن وائل[٤] - وزياد بن عمرو ووجوه أصحابهم إلى المثنى ، فقالوا

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٧ (بتصرف) .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٦ .

(٣) الخلافة الأموية ص٨٦ ، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٧ « وهو على مُضر » .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٦ ، ويذكر هنا أن مالكاً هذا كان يرى رأي المثنى . ولعله سيقول ما يقول مسايرة للرأي العام الذي لا يرى رأي المثنى ولا يحب تأييد ما يتعلق بأهل البيت ﷺ من قريب أو بعيد .

له ولأصحابه[١]: إن هؤلاء القوم قد دعوا إلى الصلح ، وأعطوا النَصَف ، ولم نأتكم حين آتيناكم ، ونحن نرى رأيكم ، ولكنّا حمينا لكم أن تَضاموا وتوطئوا . . . ثم أخذا بيد المثنى ، فقالا له : إن الذين يرون رأيك قبَلنا قليل[٢] فالحقوا بصاحبكم وأنتم آمنون ، فقبل المثنى قولهما وما أشارا به ، رضوخاً للأمر الواقع وانصرف ورجع الأحنف . . . ورجع عبّاد وقيس إلى القبّاع ، وهدأت الأوضاع وشخص المثنى إلى الكوفة في نفر يسير من أصحابه[٣] .

وهكذا انتهت ثورة المثنى بدون مكاسب على الأرض . ولكن الحادثة ـ مع ذلك ـ لم تكن دون أهمية فقد أثبتت للمختار ، بأن مركز قوته هو الكوفة حيث غالبية الشيعة ، وكذلك جعلته يفهم موقف رؤساء قبائل البصرة[٤] والعامة هناك .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٨ (بتصرف) .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٧ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٨ .

(٤) الخلافة الأموية (دكسن) ص٨٨ . وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٧ ، عندما حدث المثنى المختار بموقف رئيسي الأزد وبكر بن وائل وذبّهما عنه حتى شخص من البصرة ، فطمع المختار فيهما ، فكتب إليهما : « أما بعد ، فاسمعا وأطيعا وداوما على أحسن ما أتيتما أوتيكما من الدنيا ما شئتما ، وأضمن لكما الجنة إذا تُوُفيتُما » ، فلما قرأ مالك الكتاب ضحك ، وقال لزياد : لقد أكثر لنا أخو ثقيف ، وأوسع . . أعطانا الدنيا والآخرة ! فضحك زياد وقال : نحن لا نقاتل بالنسيئة ، من عجّل لنا النقد قاتلنا معه .
وأيضاً كتب رسالة إلى الأحنف يستهجن فيه موقفه من المثنى وأنصاره ـ جاء فيها : « أما بعد فويل أم ربيعة ومضر ، من أمر سوء قد حضر ، وإن الأحنف قد أورد قومه سقر ، وإني لا أملك القَدَر ، وماخُط في الزُبرُ ، ولعمري لئن قاتلتموني وكذّبتموني ! لقد كُذّب من كان قبلي وما أنا بخيرهم » .
ويفهم الدكتور عبد الأمير دكسن ، من هذا : أن أهل البصرة كانوا في ذلك الوقت مستعدين لتقديم ولائهم وتأييدهم لأي جهة تدفع أكثر ، كما حصل عندما مالوا عن مصعب إلى عبد الملك بن مروان . الخلافة الأموية ص٨٦ .

محمد بن الحنفية ومخالب ابن الزبير

في أواسط هذا العام (٦٦هـ) قام عبد الله بن الزبير بحركة هستيرية ضد محمد بن الحنفية وأتباعه ، فقد قام بحبسه وأهلَ بيته وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة ـ من أنصاره ـ بزمزم ، بعد أن كانوا امتنعوا عن البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة ، واستجاروا ببيت الله في الحرم . توعدهم ابن الزبير بالقتل والإحراق ، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعّدهم به ، وضرب لهم في ذلك أجلاً . وكان هذا قبل تمرّد أهل الكوفة ، وقبل مواجهة يزيد بن أنس (قائد جيش المختار) مع جيش عبيد الله بن زياد بفترة .

فإن ابن الزبير عندما نظر إلى المختار وغلبته على البلاد ، وعلم أنه إنما يفعل ذلك بظهر محمد بن الحنفية[١] ، وعندما أظهر الشيعة دعوة ابن الحنفية خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به[٢] ، فأخذ يجد في أخذ البيعة من ابن الحنفية وأنصاره ، وابن الحنفية يقول له : إذا لم يبق أحد من الناس غيري أُبايعك . فأبى ابن الزبير أن يتركه وأبى ابن الحنفية أن يبايع وجرى بينهما كلام كثير[٣] ، فلم يزل الأمر يغلظ حتى

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٢٥ .

(٢) ابن خلدون ج٣ ص٣٦ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٢٥ وقد ورد فيه تفصيل ذلك ، فقد جاء في نفس الصفحة : فأرسل ابن الزبير إلى نفر من أصحاب ابن الحنفية ، فدعاهم ، ثم قال لهم : إني لا أراكم تفارقون هذا الرجل ، فمن أنتم ، فأني لا أعرفكم؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الكوفة ، قال : فما يمنعكم من بيعتي ، فقد بايعني أهل بلدكم ؟ لعله قد غرّكم هذا المختار الكذاب ! فقالوا : يا هذا ! ما لنا وللمختار ، إننا لو أردنا أن نكون مع المختار لما قدمنا هذه البلدة . نحن قوم قد اعتزلنا أمور الناس وأتينا هذا الحرم ، فنزلناه لكيلا نَقتل ولا =

=
نُقتل . . لا نؤذي ولا نؤذى ، فنحن ههنا مقيمون عند هذا الرجل محمد بن علي ، فإذا اجتمعت الأمة على رجل واحد دخلنا فيما دخل فيه الناس . قال : فقال عبد الله بن الزبير : فأنا لا أفارقكم أو تبايعوا طائعين أو مكرهين ، قالوا : فإننا لا نبايع أبداً أو نرى صاحبنا هذا قد بايع . قال : فغضب ابن الزبير ثم قال : ومن صاحبكم ؟ فوالله ! ما صاحبكم هذا برضًى في الدين ، ولا محمود الرأي ، ولا راجح العقل ، ولا لهذا الأمر بأهل . قال : فقال له رجل من القوم يقال له معاذ بن هانيء : أيها الرجل ! إننا لا ندري ما يقول ، ولكنا رأيناه على هدانا وأمرنا وطريقتنا ، وقد اعتزل الناس وما هم فيه ، ونحن قعود بهذا الحرم لكيلا نقتل ولا نؤذي إلى أن يجمع الله أمر الأمة على ما شاء من خلقه ، فندخل فيما دخل فيه الأسود والأبيض ، فأجبناه على ذلك ولزمنا هديه وطريقته ومذهبه ، ومع ذلك فإنه لا يكافئ بالسوء ، ولا يغتاب ولا يمكر به ، ثم إنه فقد أمرنا أن نكف أيدينا ولا نسفك دماءنا ، ففعلنا ما أمرنا به ، ولعمري يا ابن الزبير ! لئن لم يخالفك أحد من الناس إلا كخلافنا إياك فإنه لم يدخل عليك في ذلك شيء من الضرر .

قال : ثم تقدم عبد الله بن هانيء وهو أخو هذا المتكلم فقال : يا ابن الزبير ! إننا قد سمعنا كلامك وما ذكرت به ابن عمك من السوء ، ونحن أعلم به منك وأطول له معاشرة ، وهو والله الرجل البر . . الطيب الطعمة . . الكريم الطبيعة . . الطاهر الأخلاق . . الصادق النية ، وهو مع ذلك أنصح لهذه الأمة منك ، لأنك أنت رجل تدعو الناس إلى بيعتك ، فمن لا يبايعك استحللت ماله ودمه ، وهو رجل لا يرى ذلك ، وبعد يا ابن الزبير فإننا ما خليناك وتركنا هذا الأمر أن تكونوا ولاة علينا إلا لمكان الرسول محمد ﷺ ، لأنكم أولى الناس بمنزلته وميراثه وقيامه في أمته ، إذ كنتم من قريش ، فإنا سلمنا إليكم هذا الأمر من هذا الطريق ، فإن أنتم عدلتم بينكم كما عدلنا عليكم علمت أنت خاصة أن صاحبنا هذا محمد بن علي هو أهل لهذا الأمر وأولى الناس به ، لمكان أبيه علي بن أبي طالب ، فإن أبيت أن تقر بهذا الأمر أنه مكذب فإنا وجدناه رجلاً من صالحي العرب . . معروف الحسب . . ثابت النسب . . ابن أمير المؤمنين ، وابن أول ذكر صلى مع النبي ﷺ ، قال : فغضب ابن الزبير وقال : من ههنا اهزؤه وأوجؤه في قفاه ! قال ابن هانيء : يا ابن الزبير ! إنه حرم الرحمن وجوار البيت الحرام الذي من دخله كان آمناً .

قال : ثم تقدم أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني فقال : يا ابن الزبير ! إن تريد ألا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين فقال ابن الزبير : وأنت ههنا يا ابن واثلة ؟ فقال : نعم أنا ههنا يا ابن الزبير ! فاتق الله ولا تكن ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم . قال : أفلا تسمع إلى كلام هذا الرجل الذي يضرب لي الأمثال ويأتيني بالمقاييس ؟ فقال عبد الله بن هانيء : إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، قال : فازداد غضب ابن الزبير ، ثم قال لأصحابه : ادفعوهم عني ، فإنهم بئس العصابة .

قال : فأخرجوا من بين يديه وأقبلوا إلى محمد ابن الحنفية فأخبروه بما كان بينهم وبين ابن الزبير ، فقال لهم : جزاكم الله عني من قوم خير الجزاء ! أما إني أتقى عليكم من هذا المسرف على نفسه ، وأرى لكم
=

خاف منه خوفاً شديداً ومعهم النساء والذُرّيّة ، فأساء جوارهم وحصرهم وآذاهم . وقصد لمحمد بن الحنفية فأظهر شتمه وعيبه ، وأمره وبني هاشم أن يلزموا شعبهم بمكة ، وجعل عليهم الرقباء[1] ، ولكن ابن الزبير لم يكتف بذلك ، فعمد إلى

=
الرأي أن تعتزلوني وتكونوا قريباً مني إلى أن تنظروا ما يكون من عاقبة أمري وأمره ، فإني أكره أن تكونوا معي ولعله ينالكم منه أمر أغتمُّ لكم منه . قال : فقال أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني : جعلت فداك يا ابن أمير المؤمنين ! والله ما أنطق إلا بما في قلبي ، ولا أخبر إلا عن نفسي ، وأنا أشهد الله في وقتي هذا أني قد رضيت أن أقتُل إن قتلت ، وأن أؤسر إن أسرت ، وأن أحبس إن حبست ، وأن أشبع إن شبعت ، وأن أجوع إن جعت ، وأن أظمأ إن ظميت ، ولا والله لا أفارقك في عسر ولا يسر ، ولا ضيق ولا جهد ما أردتني وقبلتني ! أرى لك ذلك عليَّ فرضاً واجباً وحقاً لازماً ، وما لا أبغي به منك جزاء وإكراماً ، ولا أريد بذلك إلا ثواب الله والدار الآخرة ، ودفع الظلم عن أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قال : ثم وثب معاذ بن هانىء الكندي فقال : جعلت فداك ! نحن شيعتك وشيعة أبيك من قبلك ، نواسيك بأنفسنا ، ونقيك بأيدينا ، ونحن معك على الخوف والأمن والخصب والجدب ، إلى أن يأتيك الله تبارك وتعالى بالفرج من عنده ، غضب ابن الزبير بذلك أم رضي .

قال : فقال محمد بن الحنفية : إن قدرتم على ذلك فأنا أستأنس بكم ، وإن عرضت لكم مآرب وأشغال فأنتم في أوسع العذر .

قال : فبينا القوم كذلك إذا بعمر بن عروة بن الزبير قد أقبل حتى دخل على محمد بن الحنفية فسلم . ثم قال : إن أمير المؤمنين يقول لك : هلم فبايع أنت وأصحابك هؤلاء الذين معك ، فإنكم [إن] لم تفعلوا حبستكم وأطلت حبسكم . قال : فسكت القوم وأقبل عليه ابن الحنفية فقال له : ارجع إلى عمك فقل له : يقول لك محمد بن علي : يا ابن الزبير ! أصبحت منتهكاً للحرمة .. متلبثاً في الفتنة .. جرياً على سفك الدم الحرام ، فعش رويداً ، فإن أمامك عقبة كؤدا ، وحساباً طويلاً ، وسؤلاً حفياً ، وكتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وبعد فوالله لأبايعنك أبداً أو لا يبقى أحد إلا بايعك ، فاقض ما أنت قاض ! قال : فرجع عمر بن عروة بن الزبير إلى عمه عبد الله بن الزبير فأخبره بذلك . قال : وهمّ أصحاب محمد بن الحنفية بالوثوب على عبد الله بن الزبير ، فقال لهم محمد : مهلاً يا قوم ! لا تفعلوا فوالله ما أحب أني أمرتكم بقتل حبشي أجدع وأنه أجمّع لي بعد ذلك سلطان العرب قاطبة من المشرق إلى المغرب .

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠١ وفيه «يقول سليم بن عامر الأنصاري : فرأيت محمد بن الحنفية محبوساً في زمزم والناس يمنعون من الدخول عليه ، فقلت : والله لأدخلّن عليه ، فدخلت فقلتُ : ما بالك وهذا الرجلَ ؟ فقال : دعاني إلى البيعة فقلت إنما أنا من المسلمين فإذا اجتمعوا عليك فأنا كأحدهم ، فلم يرض بهذا منّي ، فاذهب إلى ابن عباس فأقرِيُه مني السلام ، وقل يقول لك ابن عمّك ما ترى ؟ يقول سليم : فدخلت على ابن عباس ـ وهو ذاهب البصر ـ فقال : من أنت ؟ فقلت : أنصاري ، فقال : رُبَّ
=

حبس محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم[١] وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة بزمزم ، وتوعّدهم بالقتل والإحراق ، وأعطى اللهَ عهداً إن لم يبايعوا أن ينفّذ فيهم ما توعّدهم به ، وضرب لهم في ذلك أجلاً . فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية عليه أن يبعث إلى المختار وإلى من بالكوفة رسولاً يُعلمُهم حالهم وحال من معهم ، وما توعّدهم به ابن الزبير . فوجّه ثلاثة نفر من أهل الكوفة ـ حين نام الحرس على باب زمزم[٢] ـ وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفة يُعلمهم حاله وحال من معه[٣] . وجاء في الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن علي ومَن قبله من آل رسول الله ﷺ إلى المختار بن أبي عبيد ومَن قِبَله من المسلمين ، أما بعد فإن عبد الله بن الزبير أخذنا ، فحبسنا في حجرة زمزم ، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو لنبايعنّه أو ليضرمنّها علينا ناراً ، فيا غوثاه[٤] .

=

أنصاريٌ هو أشد علينا من عدونا ! فقلت : لا تخف ، إنما ممن كان كُلّه لك . قال : هات ، فأخبرته بقول ابن الحنفية ، فقال : قل له لا تُعطه ، ولا نَعمَتْ عينٌ إلا ما قلتَ ، لا تزده عليه ، فرجعت إلى ابن الحنفية فأبلغته ما قال ابن عباس .

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦١ .

(٢) في الطبقات ج٥ ص١٠١ ، فبعث أبا الطفيل عامر بن واثله .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٦ .

(٤) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦١ ، وقد جاء في الفتوح ج٦ ص١٣١ الكتاب بأسلوب آخر ، فقد جاء فيه : «من محمد بن علي إلى المختار بن أبي عبيد ومَن بحضرته من شيعة أهل البيت ، سلام عليكم ، أما بعد فأني أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الجنة ، وأن يصرف عنا وعنكم عوارض الفتنة ، وإني كتبت إليكم كتابي هذا وأنا وأهل بيتي وجماعة من أصحابي محصورون لدى البيت الذي « من دخله كان آمنا » وقد مُنعنا عذب الماء ، وطيبَ الطعام ، وكلامَ الناس ، نُتهدد في كل صباح ومساء بأمر عظيم ، وأنا أنشدكم الله الذي يجزي بالإحسان ويتولى الصالحين أن لا تخذلوا أهل بيت نبيكم فتندموا ، كما ندمتم من قبل عن قعودكم عن الحسين بن علي عليه السلام إذ قُتل بساحة أرضكم ، ثم لم تمنعوهم ولم تدفعوا عنهم ، فأصبحتم على ما فعلتم نادمين ، هذا كتابي إليكم وهو حُجة عليكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المختار ينتصر لابن الحنفية

فلما قرأ المختار كتاب ابن الحنفية خنقته العَبرة واستعبر باكياً ، ثم قال : يا غلام : ناد في الناس « الصلاة جامعة » ، فنادى المنادي ، واجتمع الناس إلى المسجد الأعظم ، وخرج المختار حتى دخل المسجد وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : هذا كتاب مهديكم وصريح آل [بيت] نبيكم ، يستغيث بكم مما نزل به من ابن الزبير(١) . وقد تركوا محظوراً عليهم كما يُحظر على الغنم ينتظرون القتلَ والتحريق بالنار في آناء الليل وتارات النهار ، ولستُ أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزّراً ، وإن لم أُسَرِّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، كالسيل يتلوه السيل ، حتى يحلّ بابن الكاهلية الويل(٢) .

ثم قال : يا أبا المعتمر ! اخرج فعسكر بدير هند ، بجَدٍّ وجد ، على خيل طائر وسعد ، واخرج أنت يا هانيء بن قيس ! فعسكر بدار السري . .

فخرج الناس فعسكروا كما أمرهم به المختار . ثم دعا بأبي عبد الله الجَدَلي ـ وكان من خيار أهل الكوفة وأكابرهم ـ(٣) فدفع إليه أربعمائة ألف درهم وأمره بالمسير إلى محمد بن الحنفية(٤) وكتب إلى محمد بن علي مع الطفيل بن عامر ومحمد بن قيس بتوجيه الجنود إليه(٥) .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٣١ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٦ (ابن الكاهلية) المقصود به ابن الزبير) .

(٣) أبو عبد الله الجَدَلي هو : عَبْدَه بن عَبْد الله . . . كان شديد التشيّع ـ الطبقات الكبرى ج٦ ص٢٢٨ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٣٢ .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٦ . وقد جاء في كتاب الفتوح ج٦ ص١٣٢ نص رسالة المختار لابن الحنفية وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

للمهدي محمد بن علي ، من المختار بن أبي عبيد ، أما بعد فقد قرأت كتابك وأقرأته شيعتك وأخوانك من أهل الكوفة ، وقد سيّرت إليك الشيعة إرسالاً ، يتبع أولهم آخرهم ، وبالله أقسم قسماً صادقاً لئن لم يكف عنك من تخاف غائلته على نفسك وأهل بيتك لأبعثن الخيل والرجال ما يضيق به =

فخرج الناس من الكوفة يريدون مكة . . إلى محمد بن الحنفية لنصرته وحمايته . وقبل أن يسير جاءه المختار ، فعقد له عليهم ، وقال له : سرْ فإن وجدت بني هاشم في الحياة فكن لهم أنت ومَن معك عضداً وانفذ لما أمروك به ، وإن وجدت ابن الزبير قد قتلهم فاعترض أهل مكة حتى تصل إلى ابن الزبير ، ثم لا تدع من آل الزبير شُفراً ولا ظُفراً . وقال : يا شرطة الله ! لقد أكرمكم الله بهذا المسير ، ولكم بهذا الوجه عشر حجج وعشر عُمَر [١] .

ثم سرّح المختارُ أبا عبد الله الجدلي في ألف فارس ، واتبعه بألف ثم بألف وألف[٢] ، نظر الجدلي إلى جيشه فقال : هذه خيلٌ عظيمة ، وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيعجل على بني هاشم ، فيأتي عليهم ، فانتدبوا معي . . فانتدب معه ثمانمائة فارس جريدة خيل[٣] .

أسرع أبو عبد الله الجدلي بهذا الخيل ، وكان قد تقدم هو بسبعين فارساً حتى نزل « ذات عرْق »[٤] ثم لحقه عمير بن طارق في أربعين راكباً ويونس بن عمران في أربعين راكباً ، فتمموا مائة وخمسين . فارساً فسار بهم[٥] مجداً قاصداً مكة ، وخلفه بقية

=

مكة على من عاداك وناوءك ، حتى يعلم ابن الزبير أنك أعز منه نفراً ودعوة وأكثر نفيراً ، فأبشر فقد أتاك الغوث وجاءك الغيث ، وقد وجهت إليك بأربعمائة ألف درهم لتجعلها فيمن أحببت من أهل بيتك وشيعتك ، وقد سرحت إليك رجالاً ينصرونك ويحفظون المال حتى يؤوده إليك ، ثم يقومون بين يديك فيقاتلون عدوّك ويدفعون الظلم عنك وعن أهل بيته ، فأبشر بالجيش الكبير والجند الكثير ، والله الذي أنا له لو لم أعلم أني أعزّ لك ولأهل بيتك بهذا المكان إذاً لسرتُ إليك بنفسي وأذّب عنك وعن أهل بيتك وعن وليك وشيعتك . دفع الله عنك وعنهم السوء أجمعين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠١ .

(٢) تذكرة الخواص ص٢٦٥ .

(٣) مروج الذهب ج٣ ص٨٦ (بتصرف) وكان قد نفر بأربعة آلاف فارس .

(٤) ذات عرق : عرق جبل بطريق مكة ومنه ذات عرق . معجم البلدان ج٤ ص١٠٧ . وهي تبعد عن مكة ٩٤ كيلو متراً إلى الجهة الشمالية الشرقية منها . (الحاج في الحرمين) ص٨٣ .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٦ (بتصرف) .

الجيش ، إنهم ليمرون على مسالح ابن الزبير ما يعرض لهم أحد[١].

والمتيقّن أن ابن الزبير كان قد فرض الإقامة الجبرية على بني هاشم وأنصارهم ، ولكن اختلف في أماكن الإقامة الجبرية ، ولا يبعد أنه كان قد حبسهم في كل تلك الأماكن ، فعامّة بني هاشم في شعب أبي طالب خارج مكة ـ كما ذكرنا ـ ومحمد بن الحنفية وابن عباس ووجوه أهل الكوفة من أنصاره في قبة زمزم وبعض دور مكة فمن حصرهم في الشِّعب جمع لهم حطباً عظيماً لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد[٢]، وكذلك جمع الحطب عند زمزم ليحرق مَن فيه[٣]، أو قوله : الموعد بيني وبينه أن تغرب الشمس ، ثم أضرم داره عليه ناراً[٤].

اقتحام مكة وتخليص ابن الحنفية

في هذه الأثناء وصله خبر قدوم النجدة من الكوفة وعلى رأسها أبو عبد الله الجدلي ، جاؤوا لنصرة ابن الحنفية وبني هاشم ومحاربته ، فأسرع يحاول إدراك الوقت فجمع من كان بحضرته من بني هاشم وجعلهم في محبس واحد ، وملأه حطباً وأضرم فيه النار أو كاد أن يفعل . وأكثر الرواة على أن ذلك كان عند قبة زمزم من المسجد الحرام[٥]. وعندما أشرف أبو عبد الله الجدلي وقواته على مكة ، جاءه المستغيث : اعْجلوا فما أراكم تدركونهم[٦]. فما شعر ابن الزبير إلا والرايات

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ص٤٤٥ ترجمة عبد الله بن جابر .

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٨٥ .

(٣) تاريخ الطبري ج٢ ص٧٦ ، تذكره الخواص ص٢٦٥ ، ابن خلدون ج٣ ص٢٦١ .

(٤) مروج الذهب ج٦ ص٨٦ ، وكان قد خطب ابن الزبير فقال : قد بايعني الناس ، ولم يتخلف عن بيعتي إلا هذا الغلام محمد بن الحنفية ، والموعد بيني . . . فدخل ابن عباس على ابن الحنفية فقال : يا ابن عم ، أني لا آمنه عليك فبايعه ، فقال : سيمنعه مني حجاب قوي ، فجعل ابن عباس ينظر إلى الشمس ويفكر في كلام ابن الحنفية .

(٥) تفرّد كتاب الأغاني ج٩ ص٣ أو ص٣١٣٥ بنقل خبر إضرام النار في الحطب الذي أوردناه بتصرف .

(٦) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٢ .

تخفق على رأسه داخل المسجد الحرام نهاراً جهاراً وهم ينادون : يا لثارات الحسين ! حتى انتهوا إلى زمزم[١] وبأيديهم الخشب كراهة إشهار السيوف في الحرم[٢]. وأطفأوا النار ـ إن كانت قد اشتعلت ـ وأزاحوا الحطب عن أبواب السجن ، وعجل علي بن عبد الله بن عباس ـ وهو يومئذ رجل ـ فأسرع في الحطب يريد الخروج فأدمى ساقه . وانطلق ابن الزبير هارباً حتى دخل دار الندوة ، ولاذ بأستار الكعبة وقال : أنا عائذ الله [بالله][٣].

أقبل أهل الكوفة إلى محمد بن الحنفية ، فجعلوا يفدونه بآبائهم وأمهاتهم ، وهم يقولون : جُعلنا فداك يا ابن أمير المؤمنين فخلٍّ بينا وبين ابن الزبير حتى يرى أننا أعزّ نفراً[٤] ، وقدم أبو عبد الجدلي في الناس ، فقالوا لابن عباس وابن الحنفية : ذرونا نريح الناس من ابن الزبير ؟ فقالا : هذا بلد حرّمه الله ، ما أحله لأحد إلا للنبي ﷺ ساعة ، ما أحله لأحدٍ قبله ولا يحلّه لأحدٍ بعده ، فامنعونا وأجيرونا[٥] .

وعندما استجمع ابن الزبير أنفاسه قام خطيباً في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فالعجب كل العجب من هذه العُصبة الرديّة السبئيّة الترابية الذين يناوؤني في سلطاني . ثم انهم ينعون حسيناً ، ويسمعوني ذلك حتى كأني أنا الذي قتلت الحسين بن علي ، والله لو قدرت على قَتَلَة الحسين لقَتَلْتُهم ، وهؤلاء الذين كاتبوا الحسين بن علي فأطمعوه في النصر ! فلما صار إليهم خذلوه وأسلموه لعدوه »

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٦ ، وانظر البداية والنهاية ج٨ ص٢٩٩ .

(٢) ابن خلدون ج٣ ص٣٦ . وهذا بناءاً على توصيات محمد بن الحنفية إذ لم يسمح لأتباعه بحمل الأسلحة داخل الحرم ، مما يؤيد هذا ـ كما نرى ـ هو أن ابن الحنفية كان دائماً ضد العنف . وكانوا قد أخفوا سيوفهم (الخلافة الأموية ص٩٢).

(٣) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٢ . وانظر أيضاً مروج الذهب ج٣ ص٨٦ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٣٣ .

(٥) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٢ .

ثم أرسل إلى أبي عبد الله الجدلي وأصحابه القادمين من الكوفة فدعاهم، ثم قال: اخبروني عنكم يا أهل الكوفة، أما كفاكم خروجكم مع المختار وإفسادكم عليَّ العراق حتى قدمتم هذا البلد تناوؤني في سلطاني! أتظنون أني أخليٍّ صاحبكم هذا دون أن يبايع وتبايعوا أنتم أيضاً معه صاغرين! فقال له أبو عبد الله الجدلي: أي والركن والمقام، والحلّ والحرام، وهذا البلد الحرام، وحرمة الشهر الحرام لتُخلين سبيل صاحبنا [محمد] بن علي، ولينزلن من مكة حيث يشاء ومن الأرض حيث يحب أو لنجاهدنّك بأسيافنا جهاداً وجلاداً يرتاب منه المبطلون! في هذه الأثناء أقبل محمد ابن الحنفية في جماعة من أصحابه حتى دخل المسجد الحرام. نظر ابن الزبير فإذا أصحابه كثير وأصحاب ابن الحنفية قليل، غير أنهم مغضبون مجمعون على الحرب.. محبّون لذلك، فعلم أن جانبهم خشن وأن وراءهم شوكة شديدة من قبل المختار، فجعل يتشجع ويقول لأخوته وأصحابه: ومن ابن الحنفية وأصحابه هؤلاء! والله ما هم عندي شيء! ولو أني هممت بهم لما مضى ساعة من النهار حتى تقطف رؤوسهم كما يُقطف الحنظل، فقال له ـ قيس بن مالك[1] ـ: والله يا ابن الزبير لئن رمت ذلك منا فإني أرجو أن يوصل إليك من قبل أن ترى فينا ما تحب. ثم ضرب الطفيل[2] بيده إلى سيفه فاستله فهمّ أن يفعل شيئاً، فقال ابن الحنفية لأبيه: يا أبا الطفيل، قُل لابنك فليكف عما يريد أن يصنع[3]. فكف ابن الحنفية أصحابه وحذرهم الفتنة[4]. ثم قدم أبو المعتمر في مائة فارس وهانيء بن قيس في مائة،

---

(١) الاسم من تاريخ الطبري.

(٢) أبو الطفيل عامر بن واثلة الكندي صحابي مات سنة ١٠٠هـ وابنه الطفيل قُتل مع ابن الأشعث يوم دير الجماجم. انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٧ ص٢١٠.

(٣) الفتوح ج٦ ص١٣٣، وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص٧٧.

(٤) في الفتوح ج٦ ص١٣٥: فقال [ابن الحنفية]: يا هؤلاء مهلاً، فإني أذكركم الله ألا كففتم عنا أيديكم وألسنتكم، فإني ما احب أن أقاتل أحداً من الناس، ولا أقول للناس إلا حُسنا، ولا أريد أيضاً أن أنازع ابن الزبير في سلطانه، ولا بني أمية في سلطانهم. ولا أدعوكم إلى أن يضرب بعضكم بعضاً =

وظبيان بن عُمارة في مائتين ـ ومعه المال ـ حتى دخلوا المسجد الحرام ، فكبّروا : يا لثارات الحسين ! فلما رآهم ابن الزبير خافهم[١] وانطلق هارباً حتى دخل دار الندوة أو لاذ بأستار الكعبة وقال : أنا عائذ الله [بالله][٢].

عندها خرج ابن الحنفية مع أنصاره وأهل بيته ومن قدم عليه من الكوفة خارج مكة ، إلى شعب أبي طالب[٣] ـ وكان ابن الزبير قد أحرق داره[٤] ـ فقسم عليهم من المال الذي وجّه به المختار ما قسّم ، وقسّم باقي ذلك في أهل بيته وقرابته ، وأقام في ذلك الشعب ممنوعاً على تفصيل يأتي لاحقاً[٥] .

وحبس ابن الزبير الحسن بن محمد بن الحنفية في الحبس المعروف بحبس عارم ، وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله ، فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن ،

=

بالسيف ، وإنما آمركم أن تتقوا الله ربكم ، وأن تحقنوا دمائكم ، فإني قد اعتزلت هذه الفتنة التي فيها ابن الزبير وعبد الملك بن مروان إلى أن تجتمع الأمة على رجل واحد ، فأكون كواحد من المسلمين. فقال رجل : من أصحاب عبد الله بن الزبير : صدق والله الرجل ! والله ما هذه إلا فتنة كما قال ! والسعيد عندي من اعتزلها ، فصاح به ابن الزبير وقال : اسكت أيها الرجل ! فإنك لا تعقل ما تأتي وما تدري من هذا حتى يُسمع قوله ويُؤخذ برأيه ، إنما كان هذا مع أخويه الحسن والحسين كالسيف الذي لا يؤامر ولا يُشاور ، فقال له محمد بن الحنفية : كذبت والله ولؤمت ! ما كان أخواي بهذه المنزلة ، ولكنهم كانوا أخويّ وشقيقي ، وكنت أعرف لهم فضلهم ونسبهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ ، وقد كانوا يعرفون لي من الحق مثل ذلك ، وما قطعوا أمراً دوني مذ عقلت ، وأما قولك : إنه لا ينبغي أن يسمع قولي ولا يؤخذ برأيي ، فأنا والله أوجب حقاً على الأمه منك وأحق بالمودة والنصر لحق علي بن أبي طالب وقرابته من الرسول محمد ﷺ ، ولو أني أعتمد على الناس بحق النبوة أنها في بني هاشم دون غيرهم لكان ينبغي لذوي الرأي والعلم أن يؤخذوا برأيي ويستمعوا لقولي ، ويكونوا لي أود ومني أسمع ولي أنصح منهم لك يا ابن الزبير .

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٧ .

(٢) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٢ ، وانظر أيضاً مروج الذهب ج٣ ص٨٦ .

(٣) ذكر بعض المصادر هذا الشُعب باسم « شِعب علي » كما في تاريخ الطبري وغيره وهو خطأ .

(٤) تذكرة الخواص ص٢٦٥ .

(٥) الفتوح ج٦ ص١٣٦ .

وتعسّف الطريق على الجبال حتى أتى منى، وبها أبوه محمد بن الحنفية . وكأن الحادث كان في وقت الحج من هذا العام ٦٦هـ . وفي ذلك يقول كثيرٌ الشاعر المعروف .

تخبِّر من لاقيتَ أنَّكَ عائذٌ ! بل العائذُ المظلومُ في سجن عارم
ومَنْ يَرَ هذا الشيخَ بالخَيْف من منى من الناس يعلَمْ أنَّهُ غيرُ ظالم
سُمِيُّ نبيٍّ الله وابْنُ وصيِّه وفكّاكُ أغلال وقاضي مَغَارم[1]

ومن العجيب اتهام الحافظ ابن كثير محمد بن الحنفية وأنصاره بأنهم أخذوا من الحجيج مالاً كثيراً وقسّمه بينهم، ونسب ذلك إلى ابن جرير الطبري[2]. وهذا الاتهام لا يكون غير مقصود ، فقد عرف ابن كثير بالبغض لأهل هذا البيت . وبعد مراجعة الطبري لم نجد هذا الاتهام ، بل أورد كما ذكرنا أنه قسّم المال الذي بعثه المختار على أصحابه لا غير[3].

وقد ترك ابن الحنفية إثر ذلك مكة وذهب إلى الطائف، مؤثراً إياها على الكوفة التي فيها الكثير من أنصاره ، وربما كان يحاول بعدم ذهابه إلى الكوفة تجنب عداوة كل من عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، خاصة وأن مستقبل المختار كان لا يزال غير مضمون[4] .

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٨٥ .

(٢) البداية والنهاية ج٨ ص٢٩٩ .

(٣) راجع تاريخ الطبري ج٦ ص٧٧ .

(٤) الخلافة الأموية، ص٩٢ .

الأمويون ودولة المختار

مرّت على سلطة المختار على الكوفة وتوابعها ما يناهز الثمانية أشهر دون أعمال عسكرية ، فابن الزبير مشغول ـ مع قلة عدد جيشه ـ مع جيش الشام . والوضع داخل الكوفة هادىء ـ على الأقل في ظاهر الأمر ، وجيش الشام المبعوث إلى العراق ـ بقيادة عبيد الله بن زياد ـ يحاول اجتياز عقبات الجزيرة للوصول من ثمّ إلى العراق . وكان مروان بن الحكم قد جعل لعبيد الله بن زياد ـ إذ وجهه إلى العراق ـ ما غلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً . فاحتبس بالجزيرة وبها قيس عيلان بزعامة زُفَر بن الحارث على طاعة ابن الزبير ، فلم يزل عبيد الله بن زياد مشتغلاً بهم عن العراق (نحو سنة) . فتوفي مروان[١] ، وولي بعده ابنه عبد الملك بن مروان ، فأتاه كتاب عبد الملك بن مروان يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثّه على السير إلى العراق[٢] .

فقد بلغ عبدَ الملك بن مروان ما فيه المختار من غلبته على البلاد ، وأنه مع ذلك ضعيف ، يواجه مشاكل مع عبد الله بن الزبير ، والأشراف يضمرون له في سرائرهم الحقد والكراهية ـ لما قام به من مساواة الموالي بهم في العطاء وغيره ـ فأحب أن يبدأ به قبل غيره ، ثم يتفرغ لعبد الله بن الزبير ، فأمر عبيد الله بن زياد بالمسير نحو الجزيرة والعراق ، ليفرغ من أمر المختار[٣] ، فلما لم يتمكن بن زياد من الظفر بزفر بن الحارث ، أقبل نحو الموصل[٤] ، وخرجت مقدمته في عشرين ألفاً نحوها . فكتب عبد الرحمن بن سعيد بن

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٨ وفي ص١٩١ مات مروان عام ٦٥هـ في شهر رمضان

(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص١٩٠ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٣٩ وقد جاء فيه أن عبد الملك بن مروان خاطب عبيد الله بن زياد شفاهية ، لا بواسطة كتاب نحوه .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٦ .

قيس عامل المختار على الموصل إلى المختار : «أما بعد فإني أخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصل ، وقد وجه قِبَلي خيله ورجاله ، وأنيّ انحزت إلى تكريت حتى يأتيني رأيك وأمرُك ، والسلام عليكَ فكتب إليه المختار : «أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت كل ما ذكرت فيه ، فقد أصبت بانحيازك إلى تكريت ، فلا تبرحنّ مكانك الذي أنت به حتى يأتيك أمري إن شاء الله ، والسلام عليك»[1] .

المواجهة العسكرية

عندها دعا المختار برجل من سادات الكوفة وشجعانهم : يقال له يزيد بن أنس الأسدي ، فقال له :

«يا يزيد ! إنك قد علمت أن العاقل ليس كالجاهل ، وإن الحق ليس كالباطل ، وإني أخبرك خبر من لم يكذب ولم يخالف ولم يرتب ، إننا نحن المؤمنون ، الميامين المساليم العالمون ، وإنك صاحب الخيل العتاق ، وفارس أرض العراق ، وستُورد خيلك حياض المنون ، منابت الزيتون . . غائرة عيونها . . لاحقة بطونها ، وهذا ابن زياد قد أقبل في المحلين وأبناء القاسطين ، فسرْ إليه في المؤمنين ، واطلب بدم ابن بنت نبي رب العالمين» ، فقال له يزيد بن أنس : «أيها الأمير ! أضمم إليّ ثلاثة آلاف فارس ـ ممن أنتخبهم أنا ، وخلني والوجه الذي توجهني إليه[2] ، فإن احتجت إلى مدد فأني سأكتب إليك بذلك إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فقال له المختار : اخرج فانتخب من أحببت من الناس على بركة الله وعونه .

فخرج يزيد بن أنس فجعل ينتخب القائد بعد القائد والرجل بعد الرجل ، حتى انتخب ثلاثة آلاف من سادات فرسان العرب[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٩ .

(٢) بين القوسين من تاريخ الطبري ج٦ ص٣٩

(٣) الفتوح ج٦ ص١٤٠ ، وانظر أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٦ ، والكامل في التاريخ ج ٤ ص٢٢٨ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧١ ، وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٣٩« . . فجعل على رُبع المدينة النعمان بن =

بعد ذلك خرج ابن أنس من الكوفة يقود جيشه المهيب ، فخرج معه المختار والناس يشيعونه ، حتى إذا صار إلى دير أبي موسى أقبل عليه المختار يوصيه ، فقال له : يا يزيد ! انظر إذا لقيت العدو نهاراً فلا تنظرهم إلى الليل ، وإن أمكنتك الفرصة فلا تؤخرها ، وليكن عندي خبرك في كل يوم ، وإن احتجت إلى مدد فاكتب إليّ في ذلك ، مع أني ممدك بالخيل والرجال[١] ولو لم تستمدد ، فإنه أشد لعضُدك ، وأعز لجندك ، وأرعب لعدوك » . فقال له يزيد بن أنس : [أيها الأمير ! ما أريد منك أن تمدّني إلا بالدعاء وكفى لي به مدداً ، والسلام ، ثم ودعه وسار][٢] وقال له الناس : صحبك الله وأيدك وادّاك سالماً غانماً . وودّعوه ، فقال لهم : سلوا الله لي الشهادة ، وأيمُ الله لئن لقيتهم ففاتني النصرُ لا تفتْني الشهادة إنشاء الله[٣] .

هذا الموقف العاطفي المتبادل الحميم كانت له أسبابه ، فهذا أول جيش يخرج بشكل متواضع لقتال الدولة الأموية ـ التي كانت وراء كل ما حلّ بأهل البيت ﷺ خصوصاً وبمحبّيهم عموماً ـ ذات الجيش الضخم المناهز للثمانين ألف مقاتل بقيادة مجرم الحرب والسِّلم عبيد الله بن زياد وأمثاله من الوالغين بدماء الأبرياء ، وهي أول حركة عسكرية للدفاع عن هذه الدولة الفتية التي لم تحقق أحلامها بعد.

سار يزيد بن أنس مودَّعاً بالدموع والدعاء ، حتى صار إلى تكريت ، وانضم إليه عبد الرحمن بن سعيد في ألف رجل[٤] ، فسار في أربعة آلاف فارس ، وأقبل حتى

=

عوف بن أبي جابر الأزدي ، وعلى رُبع تميم وهمدان عاصم بن قيس بن حبيب الهمداني ، وعلى مذحج وأسد ورقاء بن عازب الأسدي ، وعلى رُبع ربيعة وكنده سعْر بن أبي سعر الحنفي » .

(١) الفتوح ج٦ ص١٤١

(٢) ما بين قوسين من الفتوح ج٦ ص١٤١ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٠ . ثم خرج يزيد بن أنس بالناس حتى بات ، بـ «سورا» ، ثم غدا بهم سائراً حتى بات بهم بالمدائن ، فشكا الناس إليه مادخلهم من شدة السير عليهم ، فأقام بها يوماً وليلة ، ثم إنه دخل بهم أرض جوخى حتى خرج بهم في الراذانات . . . » .

(٤) بعد أن سلّمه كتاب من المختار جاء فيه « أما بعد ، فقد توجه إلى ما قبلك يزيد بن أنس ، وهو من قد علمت في البأس والشدة ، فإذا قدم عليك فخلّ بينه وبين البلاد ، وكن تحت رايته سامعاً مطيعاً له ،

=

نزل على خمسة فراسخ من أرض الموصل[١] بموضع يقال له «بافكّى»[٢].

وبلغ مكانه ومنزله الذي نزل به عبيدَ الله بن زياد، فسأل عن عدتهم، فأخبرته عيونُه أنّه خرج معه من الكوفة ثلاثةُ آلاف فارس، فقال عبيد الله: فأنا أبعث إلى كل ألف الفين، ودعا ربيعة بن المخارق الغنوي وعبد الله بن حملة الخثعمي، فبعثهما فيّ ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، وبعث ربيعة بن المخارق أوّلاً، ثم مكث يوماً، ثم بعث خلفه عبد الله بن حمْله، ثم كتب إليهما: «أيكما سبق فهو أمير على صاحبه، وإن انتهيتما جميعاً فأكبركما سنّاً أميرٌ على صاحبه والجماعة.

فسبق ربيعةَ بن المخارق فنزل بيزيد بن أنس، وهو بـ «بافكى»[٣]، فخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض مضني[٤]، ولم يمهله التزاماً بأوامر المختار. وعدم الإمهال هو الذي يقتضيه الظرف، فجيش الأمويين ثلاثة آلاف وغداً يتضاعف عدده بوصول عبد الله بن حملة وجماعته، ومن ورائهم عشرات الآلاف. ولكن الليل كان قد حلّ، واعتل يزيد بن أنس في ليلته تلك علة شديدة، وأصبح موعوكاً لما به. في الصباح دعا بحمار مصري لـه فاستوى عليه وجعل يجول في عسكره[٥].. معه الرجال يمسكونه عن يمينه وعن شماله.. بفخذيه وعضديه وجنبيه[٦] أن لا يسقط من الحمار، فجعل يوصي أصحابه [ويقف على الأرباع ربعاً ربعاً[٧]]

=

والسلام» الفتوح ج٦ ص١٤١، وأيضاً في تاريخ الطبري ج٦ ص٤٠، والكامل في التاريخ ج٤ ص٢٢٩.

(١) الفتوح ج٦ ص١٤٢ (بتصرف).

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧١، وهي ناحية بالموصل قرب الخازر تشتمل على قرى يجمعها هذا الاسم. انظر معجم البلدان ج١ ص٣٢٦. أما «بنات تلى» كما في تاريخ الطبري أو «باتلى» كما في الكامل في التاريخ فلم نجده في معجم البلدان.

(٣) في الأصل «بنات تلى»، والصحيح ما ذكرناه.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٠.

(٥) الفتوح ج٦ ص١٤٢.

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٠.

(٧) ما بين الحاصرتين عن تاريخ الطبري ج٦ ص٤٠.

ويقول : «يا شرطه الله ! اصبروا تؤجروا ، وصابروا عدوكم تظفروا ، و﴿ . . قاتلوا أولياءَ الشَّيطان ، إنَّ كَيْدَ الشَّيطان كان ضَعيفاً ﴾[1] . فقد ترون مابي من العلـة ، فإن هلكت فأميركَم من بعدي ـ ابن عَمي ـ ورقاء بن عازب الأسدي ، فإن أصيب فعبد الله بن ضَمْره العذري فإن أصيب فسعر بن أبي سعر الحنفي »[2] .

فجعل ينظم الويته ـ وهو في حالة إعياء شديد ـ فجعل عبد الله بن ضمرة على ميمنته ، وسعر بن أبي سعر على ميسرته ، وجعل ورقاء بن عازب على الخيل ، ونزل هو فوُضِع بين الرجال على سرير[3] أو كرسي ، فجلس عليه[4] . ـ ثم قال لهم : ابرزوا لهم بالعراء ، وقدّموني في الرجال ، ثم إن شئتم فقاتلوا عن أميركم ، وإن شئتم ففروا عنه[5] وإن شئتم فعن أنفسكم وعن دينكم ، وخذوا بدم ابن بنت نبيكم محمد صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم[6] .

كان ربيعة ابن المخارق قد عبأ أصحابه أيضاً ، وجعل على ميمنته ابن أخيه ، وعلى ميسرته عبد ربه السلَمَي ، وخرج هو في الخيل والرجال وقال : «يا أهل الشام ، إنكم إنما تقاتلون العبيد والأبّاق ، وقوماً قد تركوا الإسلام وخرجوا منه ، ليس لهم تقيّة ، ولا ينطقون بالعربية»[7] . وهذا المنطق لا يخلو من الاعتداد بالنفس والاستعلاء والنظرة القومية الفاشلة . . الهزيلة فضلاً عن كذبه[8] . وأين

(١) النساء : ٧٦

(٢) الفتوح ج٦ ص١٤٢ وانظر أيضاً بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧١ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٤١ (بتصرف) .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٤٣

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٤١ .

(٦) الفتوح ج٦ ص١٤٣ .

(٧) تاريخ الطبري ج٦ ص٤١ .

(٨) فكما ذكرنا أن يزيد بن أنس انتخب ثلاثة آلاف فارس من سادات فرسان العرب . وهذا الكذب من القائد كان له الأثر السلبي على فرسانه عندما اكتشفوا الحقيقة : يقول عمرو بن مالك القيني ـ من جيش الشام ـ فوالله إن كنت لأحسب ذلك كذلك حتى قاتلناهم . فوالله ما هو إلاّ أن اقتتل الناس إذا رجل من =

هذا من حالة التفاني التي قد اشرأبّ بها جيش المختار . . الذي خرج دفاعاً عن المبدأ الحق ﴿ . . إن تنصروا الله يَنصرُكم ، ويُثَبِّتْ أقدامَكم ﴾(١).

في يوم عرفة ٩/ ذي الحجة ٦٦هـ/ ٧ تموز ٦٨٦م عند شفق الصبح . . قبل شروق الشمس ، وبعد أن أقاموا صلاة الفريضة ، دنا القوم بعضهم من بعض واشتبكوا . وحملت ميسرة أهل الشام على ميمنة أهل العراق فاشتد قتالهم ، وحملت ميسرة أهل العراق على ميسرة أهل الشام ، فهزمتها . وفي نفس الوقت حمل ورقاء بن عازب الأسدي في الخيل وقتل رجلاً من أهل الشام نكّسه عن فرسه قتيلاً ، ثم صاح بأهل العراق فحملوا جميعاً وهزموا جيش الشام هزيمة قبيحة ، ووضع أهلُ العراق فيهم السيف ، فجعلوا يقتلونهم . عندما رأى ربيعة ابن المخارق ـ قائد جيش الشام ـ الهزيمة قد حلت بجيشه ، وبقي وحيداً قد انهزم عنه أصحابه وهو نازل(٢) ، أخذ ينادي : يا أولياء الحق ، ويا أهل السمع والطاعة ، إليّ إليّ أنا ابن المخارق ، عندها عطف عليه عبد الله بن ورقاء بن عازب الأسدي وعبدُ الله بن ضمرة العُذري فقتلاه . وانتهت المعركة قبل ارتفاع الضحى بقتلهم وتشتتهم واحتواء عسكرهم .

هربت بقية جيش الشام باتجاه الشام ، وبعد مسير ساعة من الفرار تلقّاهم «عبد الله بن حمله الخثعمي» قائد الجيش الثاني ، وشاهد ما هم فيه من سوء المنقلب واستوضح منهم الأمر ، فردهم معه وأقبل حتى نزل قريباً من يزيد بن أنس وجيش العراق . وكان الجيشان متعبين ، هذا من القتال وذاك من السفر ، فباتا متحارسين إلى الصباح الثاني من يوم الأضحى ١٠/ ذو الحجة ٦٦/ ٨تموز ٦٨٦م .

= أهل العراق يعترض الناس بسيفه وهو يقول :

برأت من دين المحكّمينا وذاك فينا شرُّ دين دينا

ثم انهم هزمونا حين ارتفع الضحى . تاريخ الطبري ج٦ ص٤١ .

(١) محمد : ٧.

(٢) كأنه قد فقد فرسه أو عُقِر .

في ذلك الصباح وبعد أداء صلاة الصبح عبأ كل طرف أصحابه، وكان الذعر قد ركب جيشَ الشام، وإن كانوا في وضع أفضل، فجيش العراق مُتعب قد أنهكته الحرب، وكانت حالة الترقب قد أخذت بالألباب.

والتحم القتال، والفرسان يطارد بعضهم بعضاً، وصمد بعضهم لبعض، حتى أتعبهم القتال، فتوقفا. وبعد صلاة الظهر والأرض تلتهب من تحتهم والهواء الحارق يلفح الوجوه، نشب القتال من جديد، ولاحت علائم الهزيمة بجيش الشام عندها نزل «عبد الله بن حملة» فأخذ ينادي أصحابه: الكرّة بعد الفرة.. يا أهل السمع والطاعة! فلم يمهله عبد الله بن قُراد الخثعمي فقتله. وحلّت الهزيمة مجدداً بجيش الشام، وجعل أهل العراق يقتلونهم إلى خمسة فراسخ، حتى ألحقوهم بصاحبهم «عبيد الله بن زياد»، وجعلوا يحدثوه بمالقوا من جيش المختار.

أما أصحاب يزيد بن أنس فقد حووا عسكر أهل الشام، وأتوه بثلاثمائة أسير أو يزيدون، فأوقفوهم بين يديه ـ وهو لما به لا يقدر على الكلام ـ فجعل يومىء بيده: أن اضربوا أعناقهم، فضربت أعناقهم عن آخرهم.

فما حلت على يزيد بن أنس تلك الليلة حتى توفي ـ رحمه الله ـ فغُسل وكفّن وحُفر له في ناحية من المعسكر، وتقدم ورقاء بن عازب الأسدي فصلى عليه، ودفن في جوف الليل، وسوى قبره بالأرض لكيلا يعلم أحد بموضع قبره[1]

وداخل أهل العراق الغم بموت صاحبهم يزيد بن أنس، فقال لهم ورقاء بن عازب ـ القائد الجديد: أيها الناس، دعوا عنكم هذا الجزع الذي قد تداخلكم، فكل حي ميت، فلا تُشربوا قلوبكم الهم والغم[2]. إنه قد بلغني أن عبيد الله بن زياد

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٤١، الفتوح ج٦ ص١٤٣ «بتصرف». ورواية تاريخ الطبري فقط هي التي تتحدث عن قتال في يومين (٩ ـ ١٠/ ذو الحجة)، وقد ذكر البلاذري أن الأسرى الذين قتلهم ستة آلاف أسير، وقبلها يقول أن مجموع جيش عبيد الله بن زياد المتقدم للقتال كان ستة آلاف وهذا من الخلط الواضح في الأرقام.

(٢) الفتوح ج٦ ص١٤٤.

قد أقبل إلينا في ثمانين ألفاً من أهل الشام » . فأخذوا يتسللون ويرجعون . فتدارك ورقاء بن عازب الأمر فدعا رؤوس الأرباع وفرسان أصحابه ، فقال لهم : يا هؤلاء ، ماذا ترون فيما أخبرتكم ؟ إنما أنا رجل منكم ، ولست بأفضلكم رأياً ، فأشيروا عليّ ، فإن ابن زياد قد جاءكم في جند أهل الشام الأعظم ، وبجلّتهم وفرسانهم وأشرافهم ، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقةً على هذه الحال ! وقد هلك يزيد بن أنس أميرنا ، وتفرّقت عنّا طائفة منّا ، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا قبل أن نلقاهم ، وقبل أن نبلغُهم ، فيعلموا أنّا إنما ردّنا عنهم هلاك صاحبنا ، فلا يزالوا لنا هائبين لقتلنا منهم أميرهم ؟ ولأنّا إنما نعتل لانصرافنا بموت صاحبنا . وإنّا إن لقيناهم اليوم كنّا مخاطرين ، فإن هُزمنا اليوم لم تنفعنا هزيمتُنا إياهم قبل اليوم[1] ، وإن هزمناهم لن ينفعنا هزيمتُهم شيئاً لكثرة جمعهم وعددهم[2]، قالوا : فإنك نعمّا رأيت . . انصرف رحمك الله[3]. فرحل القوم في جوف الليل نحو العراق[4] . وأشرقت الشمس في النهار التالي وليس في معسكر أهل العراق نَفسُ حي .

المرجفون والنصر

وصل خبر عودة الجيش إلى الكوفة ، ولكن من دون قائده يزيد بن أنس ، فأرجف أعداء المختار وبثّوا الشائعات أن ابن أنس قد قتل وجيشه قد هزم ، وتشوش الأمر على الناس وعلى المختار ، فاغتمّ لذلك ولم يدر حقيقة الحال ، فاستطلع المختار ذلك من عامله على المدائن ، فأخبره بموته ، وأن العسكر انصرف من غير هزيمة ولا كسرة ، فطاب قلب المختار[5] ووصلت طلائع أصحاب يزيد بن أنس

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٤٤ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٤٤ .

(٥) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٢ « بتصرف » وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣ والفتوح ج٦ ص١٤٤ .

إلى الكوفة يخبرون بما كان من أمرهم[١].

وهدأت الأوضاع في الكوفة ، وارتفعت معنويات أهلها ، فجيشها الهزيل عدداً وعُدّة هزم ستة آلاف فارس من طلائع جيش الشام المناهز لـ « ثمانين ألف فارس » .

ولكن الخطر ما زال جاثماً على أبواب العراق يتهدده بين لحظة وأخرى . ويجب تدارك الأمر بالسرعة القصوى ، ولم يكن لها سوى فارس الكوفة وعلمها ، وابن بطل صفين ومحورها . . إبراهيم بن مالك الأشتر .

(١) الفتوح ج٦ ص١٤٥ .

الإستعداد لمواجهة أخرى

طابت نفس المختار ونفوس أنصاره بهذا النصر الكبير ، ولكن عليهم الإسراع في اتخاذ التدابير اللازمة للوقوف بوجه هـذا الجيش العرمرم الضخم القادم إليهم من الشام . . يحمل الأحقاد فوق الأحقاد لما لاقوه في معركة عين الورده من سليمان بن صُرَد وأصحابه الانتحاريين ، وكذلك في المعركتين الأخيرتين مع يزيد بن أنس ـ رحمه الله ـ وأصحابه الأشاوس ، ناهيك عن الحقد القديم من أيام صفّين .

عقد المختار اجتماعاً طارئاً ضمّ إبراهيم الأشتر ، وبعد الحديث عن الأخطار القادمة مع قدوم جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد ، توجه المختار إلى إبراهيم بن الأشتر وقال له : «أيها الرجل إنما هو أنا وأنت ، فسر إليهم ، فوالله لتقتلن الفاسق عبيد الله بن زياد ، أو لتقتلن الحُصين بن نمير ، وليهزمنّ الله بك ذلك الجيش . أخبرني بذلك من قرأ الكتاب ، وعرف الملاحم» . قال إبراهيم : «ما أحسبك أيها الأمير بأحرص على قتال أهل الشام ، ولا أحسن بصيرة في ذلك منّي ، وأنا سائر»[1]

وبدأ المختار وإبراهيم بن الأشتر يعدون العُدّة لمواجهة جيش الشام الزاحف نحوهم ، واتصلوا بالقبائل لتجميع جيش آخر قوي .

واجتمع لإبراهيم قريباً من سبعة آلاف من قبائل العرب وألفين من الحمراء ـ الموالي ـ وقيل خرج في اثني عشر ألفاً ـ أربعة آلاف من القبائل وثمانية آلاف من الحمراء ـ الموالي ـ[2] وكان قد ضم إليه أصحاب يزيد بن أنس وغيرهم من فرسان

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٩٣

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٢ ، وفيه (على القول الأول) : خرج معه ألفين من مذحج وأسد ، وألفين من =

أهل الكوفة ورجّالتهم ، وقال له : « سر إلى عدوك فناجزهم وطالعني بأخبارك في ليلك ونهارك ، وإن رأيت أمراً لا طاقة لك به فلا تلق بيدك إلى التهلكة ، واكتب لي حتى أمدك بخيل ورجال ما تكتفي بهم إنشاء الله تعالى ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . فخرج إبراهيم بن الأشتر(١) .

وخرج المختار يشيّعه ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب رحمك الله ! فقال المختار : إني لاحتسب الأجر في خُطاي معك ، وأحب أن تتغبر قدماي في نُصرة آل محمد ﷺ والطلب بدم الحسين ، فشيّعه فرسخين . ثم ودّعه وانصرف ، وبات إبراهيم بموضع يقال له : حمّام اعين(٢) ، ثم رحل حتى وافى ساباط المدائن(٣) .

ولم يبق مع المختار سوى أربعة آلاف مقاتل(٤) .

=

تيم وهمدان ، وألف وخمسمائة من قبائل المدينة ، وألف وأربعمائة من كندة وربيعة ، وألفين من الحمراء . وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣ « فعقد له على سبعة آلاف رجل » . أما الدينوري فيقول : انتخب له المختار عشرين ألف رجل مع البقية من جيش يزيد بن أنس ، فصار في ثلاثين ألفاً . الأخبار الطوال ص٢٩٣ وابن سعد في طبقاته ج٥ ص١٠٠ يقول : بعث إبراهيم بن الأشتر في عشرين ألفاً . إلى عبيد الله بن زياد .

(١) الفتوح ج٦ ص١٤٥ .

(٢) وحمام اعين : بالكوفة . . . منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقّاص . معجم البلدان ج٢ ص٢٩٩ . ويقتضي أن يكون هذا الحمام في اتجاه الشمال الشرقي من الكوفة ولا يقل بعده عنها عن الفرسخين حسب رواية بحار الأنوار . لاحظ !

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٢ . الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٩٦

(٤) الفتوح ج٦ ص١٤٩ .

بـوادر التمـرّد

في نفس هذا الوقت كانت المؤامرة تُحاك مـن قبـل المتضررين ـ للإطاحـة بالمختـار وإسقاطه . فكان أشراف الناس مـن هـؤلاء يلتقـون بالنـاس . . . وأخـذوا يقولـون : والله لقد تأمّر علينا هذا الكـذّاب بغير رضاً منّا ، ولقـد عمـد إلـى عبيدنا وموالينـا ، فقربهم وأدناهم وحملهم علـى الخيـل ، وأعطـاهم وأطعمهـم فيئنـا ، ولقـد عصتنـا عبيدنا ، فَحَرَب[1] بذلك أيتامنـا وأراملنـا » . وقـالوا : إنمـا هـو كـاهن ، وعزمـوا أن يغدروا بالمختار ، وأن ينقضوا عهده وبيعته[2] ، بعدما توسم أهـل الكوفـة في المختـار القلّة والضعف[3] . فاتّعدوا منزل شبث بن ربعي ، وقالوا : نجتمع في منزل شيخنا ، فاجتمعوا فأتوا منزله ، فصلى بهم ، ثم تذاكروا هذا النحو من الحديث[4] .

ولم يكن فيما أحـدث المختـار عليهـم شـيء هـو أعظـم مـن أن جعـل للموالـي في الفيء نصيباً[5] . فلما ذكروا له ذلك قال لهم : لا تعجلوا حتى ألقاه فأكلمه في ذلك .

أقبل شبث بن ربعي ـ مفوضاً في الحديث نيابه عن هؤلاء الكبار الرافضين لسلطان المختار ـ حتى دخل على المختار فسلّم وجلس ، ثـم تكلـم فلـم يتـرك شـيئاً ممـا أنكـره عليه أهل الكوفة إلا ذكره له[6] .

فطن المختار إلى ما يبيتونه له من الغدر والشر . . مستغلين هذا الظـرف العصيب الذي يمـرّ بـه ، وبـالخصوص بعـد خـروج إبراهيـم بـن الأشـتر بجيـش الكوفـة الأكـبر

(١) الحَرَبُ هو : الهلاك والويل (المنجد ص١٢٤) .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣ ، الفتوح ج٦ ص١٤٥ ، أنساب الأشراف . ج٦ ص٣٩٨ .

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٢ « بتصرف » .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣ ، يصفه ابن الأعثم في كتـاب الفتـوح ج٦ ص١٤٦ : كان شبث من أشراف بني تميم ، وكان جاهلياً إسلامياً ، فارساً لا يُدفع عن حسب ولا شرف . . بطلاً شجاعاً .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣ .

(٦) الفتوح ج٦ ص١٤٦ .

الموُالي للمختار ، ولم يبق معه إلا القليل من المدافعين الموالين . رأى أن لا يرد لهم طلباً ليرى إلى أين يريدون ! وفي نفس الوقت يكسب الوقت الكافي ليعيد جيش إبراهيم بن الأشتر ليحمي بها الدولة الفتية التي قامت لتوّها .

فأخذ شبث لا يذكر خصلة إلا قال له المختار : أرضيهم في هذه الخصلة ، وآتي كل شيء أحبّوا ، فذكر المماليك ، قال : فأنا أردّ عليهم عبيدهم ، فذكر الموالي . فقال : أيها الأمير ! وأعظم الأشياء عليك[1] إنك عمدت إلى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعاً ، فأعتقنا رقابهم . نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فأخذتهم إليك ، ثم لم ترض بأخذهم حتى جعلتهم شركائنا في فيئنا ! ! لا يحلّ لك أيها الأمير هذا في دينك ، ولا يُجمل بك في شرفك !

فقال له المختار : إنْ أنا تركت لكم مواليكم ، وجعلتُ فيئكم فيكم أتقاتلون معي بني أميّة وابن الزبير ، وتعطون على الوفاء بذلك عهدَ الله وميثاقه ، وما اطمئن له من الأيمان ؟ فقال شبث : ما أدري حتى أخرج إلى أصحابي فأذاكرهم ذلك ، فخرج فصار إلى أصحابه ، فذكر لهم ذلك ، فغضبوا غضباً شديداً وضجّوا وقالوا : لا والله ما نقاتل معهم أحداً ، ولكنّا نقاتله وننقُض عليه بيعته . واجمع رأيهم على قتال المختار[2] ، وكانوا لا يرون فرصة ضعف للمختار أفضل من هذه . وبدأوا التحرك لحشد الأنصار لإطفاء هذا النور . ولكن السؤال هو : هل كان المختار مستعداً أن يقوم بهذه التنازلات بإخلاص للأشراف من أجل الحصول على ثقتهم وتأييدهم ويتخلّى بذلك عن الموالي المخلصين له ؟ يبدوا أن المختار بتقديمه هذا العرض كان واثقاً من رفضهم لعدائهم له ، وأنه كان يريد من هذه التنازلات إرضائهم بصورة مؤقتة في الوقت الذي كان فيه غالبية جيشه بعيداً عنه ، هذا وإن المختار لجأ إلى نفس هذا التكتيك عندما انفجرت ثورة الأشراف ضده[3] - كما سنرى .

(١) أي التي نؤاخذك بها .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٤٦ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٤٤ .

(٣) الخلافة الأموية ص٩٤ .

المؤامـرة

عزم هؤلاء المتضررون على محاربة المختار ، ورأوا أن الفرصة مواتية لتنفيذ مآربهم ، بالخصوص بعد أن تقرر أن يخرج إبراهيم بن الأشتر من الكوفة بأكثر أنصار المختار لمواجهة « عبيد الله بن زياد » قائد الجيش الأموي ذي الثمانين ألف مقاتل . ولكن عليهم أن يجمعوا مزيداً من الأنصار والمقاتلين .

وبدأوا التحرك بسرعة ، فجاء شبث بن ربعي وشمر بن ذي الجوشن ومحمد بن الأشعث وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس[١] ودخلوا على كعب بن أبي كعب الخثعمي محاولين كسبه إلى جانبهم ، فتكلم شبث ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أخبره باجتماع رأيهم على قتال المختار ، وسأله أن يجيبهم إلى ذلك ، وقال فيما يعيب به المختار : أنه تأمر علينا بغير رضا منّا ، وزعم أن ابن الحنفية بعثه إلينا ، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل ، وأطعم موالينا فيئنا ، وأخذ عبيدَنا ، فحَرَبَ بهم يتامانا وأراملنا ، وأظهر هو وسبئيته البراءة من أسلافنا الصالحين . . . » فرحب بهم كعب بن أبي كعب ، وأجابهم إلى ما دعوه إليه[٢] ، وانصاع لرغباتهم وأمانيهم الخاوية .

وأيضاً ذهب أشراف الكوفة المتضررون ، ودخلوا على عبد الرحمن بن مِخنف الأزدي ، فدعوه إلى أن يجيبهم إلى قتال المختار ، فقال لهم : « يا هؤلاء ! اتقوا الله ولا تخرجوا على هذا الرجل ، فقد بايعتموه أنكم لا تغدرون به ، وأنا أخاف عليكم

(١) عبد الرحمن هذا هو نفسه والي المختار على الموصل الذي انحاز إلى تكريت عند قدوم عبيد الله بن زياد بجيش الشام . وقد أرسل المختار مكانه يزيد بن أنس ، ولعل هذا التعديل لعدم اطمئنان المختار له وصدّقت الأيام ظنّه ، كما يرى « سليم عبد الله » في كتابه (مع المختار الثقفي) ص١٢١ ، ويفسّر الدكتور « عبد الأمير دكسن » في كتابه الخلافة الأموية ص١٢٨ : أن الشعور القبلي كان قوياً بين عرب ذلك الوقت . ولعل الحالتين معاً كانت وراء التبدّل الطارىء .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٤ .

أنكم إن قاتلتموه أن تختلفوا وتتخاذلوا فيظفر بكم. لأن الرجل اليوم محتوٍ على بلدكم وَمعه أشرافكم وشجعانكم وفرسانكم، ومعه أيضاً عبيدكم ومواليكم وأولادكم، وكلمة هؤلاء واحدة، وعبيدكم ومواليكم أشدّ حنقاً عليكم من عدوكم، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم. فكفوا عن الرجل ولا تقاتلوه، فهذا مصعب بن الزبير في البصرة[١]، ولو قد فرغ من حرب الأزارقه لسار إليه وكفاكم أمره، وهذا عبيد الله بن زياد بالموصل في ثمانين ألفاً ويزيدون، فعسى الله تبارك وتعالى أن يكفيكم أمره بأحدهم، فتكونوا قد كفيتموه بغيركم، ولم تجعلوا بأسكم بينكم...» فقالوا له: يا ابن مخنف! ننشدك بالله أن لا تفسد علينا ما اجتمعنا عليه من أمرنا وما اجتمعت عليه جماعتنا، قال: فأنا رجل منكم، فإذا شئتم فاخرجوا، ولكن إن كنتم قد عزمتم على الخروج عليه فلا تعجلوا وتلبثوا حتى يمضي إبراهيم بن الأشتر إلى عبيد الله بن زياد، ويبقى المختار ههنا في نفر يسير، فعند ذلك فافعلوا ما بدا لكم إن لم يكن لكم ناصر ينصره ويذب عنه. وارتؤا جميعاً الانتظار حتى يذهب عنه إبراهيم بن الأشتر.

نقض البيعة

فسكت المتآمرون عن المختار، واضمروها له، حتى علموا أن ابن الأشتر قد بلغ ساباط المدائن وثبوا به وخرجوا عليه وارتفعت الضجة، ونقضوا بيعة المختار وخرجوا عليه، ولم يبق أحد بالكوفة ممن كان مختفياً وشارك في قتل الحسين بن علي عليهما السلام إلاّ ظهر[٢] وسلّوا عليه سيفاً واحداً[٣].

لا بد أن نلمح هنا إلى دور البيعة في نفوس المسلمين في ذلك العهد الأول، وبإيجاز واقتضاب لكي لا نبتعد عن إطار البحث التأريخي.

---

(١) أن مصعب تولى البصرة في أول عام (٦٧هـ) والمؤامرة حصلت في الكوفة كما سنرى في العشر الأواخر من ذي الحجة (٦٦هـ)، ولعل تولية مصعب البصرة كان قد تقرر وشاع بين أهل الكوفة.

(٢) الفتوح ج٦ ص١٤٦، تاريخ الطبري ج٦ ص٤٤.

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٢.

تعتبر البيعة واحدة من القيم المصعّدة التي أعاد الإسلام إنتاجها وترسيخها في الواقع الإجتماعي الإسلامي ، تعزيزاً لقيمة إجتماعية قائمة ، تثمّن كثيراً مفاهيم العهد والوفاء والإلتزام والعقد ، فراح الإسلام يؤكد على التلاحم بين هذه المفاهيم الإجتماعية والدين ، وإحتواء تلك المفاهيم داخل البيعة كمفهوم إسلامي وكقيمة دينية إجتماعية . وبسبب هذا الاندماج والتلاحم الذي أحدثه الإسلام بين بعديها الديني والإجتماعي ، صار التعامل معها مؤسساً على هذين البعدين ، وأن الالتزام بها أو خرقها يندكّ في صميم الكرامة الفردية والقيمة الاجتماعية للأشخاص . وفي البعد الديني ، صار الخرق والنكث محظوراً شرعاً وعرفاً ، ومن أشد المنكرات . وقد جاء في رواية عن علي عليه السلام قال : ثلاث موبقات : نكث البيعة وترك السُنّة ، وفراق الجماعة[1] .

ولكن ولظروف معقدة مرت بها الأمة ـ يطول شرحها ـ فقدت البيعة جزءاً كبيراً من رصيدها الإجتماعي والعقدي ، بفعل الانحطاط السياسي . . . ولم يعد الالتزام بالبيعة متصلاً بالكرامة الفردية أو بالاعتبار الديني ، فهناك إرث من النكث ، وهناك إرث من الخصومات والإدعاءات والتفسيرات والتبريرات الشرعية والإجتماعية ، وهناك ثالثاً : إنحسار في المجال الديني ، أي انخفاض في مستوى التديّن في الحياة الإجتماعية[2] .

فلكل هذه الأسباب ولأسباب أخرى سهل على هؤلاء نقض البيعة ومخالفة العهود والمواثيق التي قدموها بين يدي المختار قبل أشهر قلائل . . بسبب ما تمليه عليهم مصالحهم الشخصية المهدورة ، والخوف من المستقبل الغامض في ظل سلطة تهدف إلى تصفية مجرمي الإنسانية . . الذين هتكوا حرمات أهل البيت عليهم السلام .

---

(١) مستدرك رسائل الشيعة ج١١ ص٣٦٩ .

(٢) يراجع في ذلك بحث « البيعة . . الأبعاد الاجتماعية والدينية والسياسيّة عند العرب » ص١٥٣ لكاتبه فؤاد إبراهيم في مجلة «الواحة» الفصلية . عدد (١٣) ربيع الأول ١٤١٩هـ ١٩٩٨م الصادرة في بيروت .

المتآمرون

كان من وجوه هؤلاء المتآمرين : ١ـ إسحاق بن محمد بن الأشعث ٢ـ عبد الرحمن ابن سعيد الهمداني ٣ـ كعب بن أبي كعب الخثعمي ٤ ـ بشير بن جرير ٥ـ زحر بن قيس ٦ ـ عبد الرحمن بن محنف ٧ ـ شبث بن ربعي ٨ ـ شمر بن ذي الجوشن ٩ ـ حسّان بن فائد العبسي ١٠ ـ ربيعه بن ثروان الضبّي ١١ ـ حجار بن ابجر العجلي ١٢ـ يزيد بن الحارث بن رؤيم ١٣ـ عمرو بن الحجاج الزبيدي[1] وغيرهم .

وبالنظرة الأولى نكتشف أن هذه الوجوه كانت دائماً في طليعة القوات التي أقامت مجزرة كربلاء الدامية في حق آل بيت رسول الله ﷺ ، وأيضاً وقفت في وجه حركة المختار الإصلاحية . وهم يعرفون أن المختار غير متنازل عن رأيه بقتل قَتَلة الحسين ﵇ ، فهم يحاولون أن يسبقوه إلى الايقاع به قبل أن يوقع هو بهم . وكان خروج إبراهيم بوجوه أصحاب المختار وخيرة فرسانه عن الكوفة فرصة ذهبية لهم لا تعوض .

في فجر ذلك اليوم الاثنين ١٧/ ذي الحجة ٦٦هـ (١٥/ تموز ٦٨٦م) وعندما خلى الجو انتفض هؤلاء المتآمرون تتبعهم عشائرهم وأحلافهم في عموم الكوفة .

عسكر المتآمرون في ثمانية نقاط تحوط مركز الكوفة من جميع الجهات .

١ ـ ففي شمال مدينة الكوفة خرج عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني في همْدان ، وعسكر في جبانة السبيع ـ وستكون محور القتال فيما بعد ـ

٢ ـ وخرج كعب بن أبي كعب الخثعمي في جبانة بشّر .

٣ ـ وفي الغرب منها خرج عبد الرحمن بن مخنف في « الأزد » في جبانة مخنف ،

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٥ ، الفتوح ج٦ ص١٤٨ « بتصرف » .

وانضوت تحت لوائه « بجيلة » و« خثعم » .

٤ ـ وفي الجنوب الغربي خرج شبث بن ربعي ومحمد بن عمر بن عطارد وحسان ابن فائد العبسي وربيعة بن ثروان الضبِّي في « مضر » بالكناسة ـ وستكون محوراً مهماً فيما بعد ـ

٥ ـ وفي الجنوب خرج عمرو بن الحجاج الزبيدي بمن تبعه من « مذحج » في جبانة مراد .

٦ ـ وخرج زحر بن قيس وإسحاق بن محمد بن الأشعث في جبّانة كندة .

٧ ـ وفي الجنوب الشرقي نزل حجار بن ابجر العجلي ويزيد بن الحارث بن يزيد ابن رُؤيم في ربيعة بين التمارين والسبخة .

٨ ـ وأخيراً وفي الشرق من مدينة الكوفة عسكر شمر بن ذي الجوشن في « قيس » في جبانة بني سلول[1] .

وهكذا أحكموا الحصار على المختار وعلى أصحابه ـ وهم في مركز المدينة ـ وقد أخذ أهل الكوفة عليهم بأفواه السكك ، فليس شيء يصل إلى المختار ولا إلى أصحابه من الماء إلاّ القليل ، يجيئهم إذا غفلوا عنه[2] .

المختار المحاصر

في تلك الصبيحة وصلت الأخبار إلى المختار بخروج هؤلاء المتآمرين في ذلك الظرف الصعب . على الفور دعا برجل من خاصته يقال له « عمرو بن توبة » فأمره بالركض « أي الإسراع » إلى إبراهيم بن الأشتر يخبره بقصته ـ وهو بساباط ـ وكتب

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٥ ، الفتوح ج٦ ص١٤٨ (أنساب الأشراف) ج٦ ص٣٩٨ .
ويعرّف المحقق « هشام جعيط » في كتابه « الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية » ص٢٥٠ : الجَبّانة كما يلي : كانت الجبانة مجالاً خالياً ، غير مبني وغير مسيّج بعد ، وهي تحتل ما يقرب من هكتار على الأقل ، وتحدُّ امتداد البناءات في الخطّة القبلية ، فأتاحت بذلك تجمّع عدّة آلاف من الخلائق .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٦ .

إليه ، «انظر ، لاتضع كتابي من يدك أو تقبل إليّ راجعاً بجميع من معك ، فإن أهل الكوفة قد نقضوا بيعتي وخرجوا عليّ - والسلام ، فالعجل العجل»[١] . ومضى الرسول إلى إبراهيم بن الأشتر .

أما الوضع الداخلي ، فالمختار على يقين أنه لا يمكنه المقاومة ، فهو بقوته الصغيرة لا يمكنه مواجهة هذه الآلاف المؤلفة ، بل قد ينفرط جيشه بسبب الروابط القبلية . . فالقليل القليل من الناس من يمكنه حمل السيف في وجه قبيلته أو أحلافها .

اتبع المختار مع هؤلاء الخارجين أسلوب المراوغة واضاعة الوقت عليهم - لحين رجوع إبراهيم بن الأشتر بجيشه .

بعث المختار رسُلُه إلى هؤلاء الذين خرجوا عليه لينقلوا إليهم رسالته ، فقال : يا هؤلاء ! أخبروني ما الذي حملكم على نقض بيعتي والخروج عليّ ؟ وأخبروني ما الذي تريدون ؟ فأني صانع كل ما أحببتم ! فقالوا : إنا نريد أن تعتزل عنّا ، فإنك زعمت أن محمد بن الحنفية أرسلك إلينا وقد كذبت على ابن الحنفية . فرجع الرسل إلى المختار فأخبروه بذلك ، فأرسل إليهم المختار : «يا هؤلاء فلا عليكم ، ها أنا ههنا بين أظهركم مقيم ، فابعثوا إليه من قبلكم وفداً ، وابعث إليه من قبلي وفداً ، ثم انظروا في ذلك حتى تتبيّنوه ، ولا تعجلوا» ، وجعل المختار يرسل إليهم رسولاً بعد رسول ، كل ذلك ليشغلهم عن حربه إلى أن يقدم ابن الأشتر ، والقوم يأبون ذلك . وأخذ هؤلاء في تشديد الحصار على المختار وأصحابه فأخذوا عليهم بأفواه السكك وأغلقوها . ولكن مع ذلك أمر المختار أصحابه فكفوا عن قتال أهل الكوفة ، غير أنهم - المتآمرون - ساروا إليه يريدون قتاله وقتله[٢] ، فلم يجد المختار أمامه غير الحرب دفاعاً عن النفس لحين قدوم إبراهيم وجيشه.

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٤٨ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٤٦ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٤٨ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٤٩ «بتصرف» .

ففي اليوم الثاني (أي الثلاثاء ١٨/ ذي الحجة (١٦/ تموز) تحرك المتآمرون لقتال المختار . يسابقون الوقت لينهوه قبل وصول المدد إليه .

كان المختار وجنده في مركز الكوفة ، محاصرين من قبل المتآمرين من جميع الجهات ، كما ذكرنا فلما رأى أنهم بغوا عليه أمر أصحابه بالحرب ، فاقتتلوا يومهم ذلك إلى الليل . وباتوا على حرب وأصبحوا على حرب والمختار يعلم أن لا طاقة له بهم ، وهو يومئذ في قريب من أربعة آلاف[1] .

عودة الأشتر

توجه عمرو بن توبة ـ رسول المختار ـ مسرعاً نحو ساباط ووصلها تلك الليلة ، والتقى إبراهيم بن الأشتر وسلّمه الرسالة وأطلعه على تفاصيل الانقلاب الغادر . أمر إبراهيم بن الأشتر المنادي فنادى : « أن ارجعوا إلى الكوفة » ، وتحرك في تلك الليلة على الفور باتجاه الكوفة ، وفي آخر الليل نزل فتعشى أصحابه ، وأراحوا الدواب شيئاً كلا شيء ، ثم أمر بالرحيل ، فسار بقية تلك الليلة حتى صلى صلاة الصبح في « سورا »[2] . وبعد الاستراحة سار نحو مقصده مسرعاً ، فوصل عند العصر من ذلك اليوم عند مدخل مدينة الكوفة ، فصلى العصر على باب الجسر ، وبعد ذلك دخل الكوفة وبات ليلته تلك في المسجد ومعه أصحابه أهلُ القوة والجَلَد[3] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٤٩ . وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٤٦ « وخرج عبد الله بن سبيع في الميدان ، فقاتله شاكرٌ قتالاً شديداً ، فجاءه عقبة بن طارق الجُشمي فقاتل معه ساعة حتى ردّ عاديتهم عنه ، ثم أقبلا ـ المتآمران ـ على حاميتهما يسيران حتى نزل عُقبة بن طارق مع قيس في جبانة بني سلول ، وجاء عبد الله بن سبيع حتى نزل مع أهل اليمين في جبانة السبيع » .

(٢) سورا ، مدينة تحت الحلة ، لها نهر ينسب إليها (الأخبار الطوال) ص٢٩٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٦ « بتصرف » . وفي الفتوح ج٦ ص١٤٩ : وإذا إبراهيم بن الأشتر وافى في اليوم الثاني فصلى الفجر على باب الجسر ، ثم أقبل بخيله ورجله حتى دخل الكوفة ، وعلم أولئك الخارجون أن ابن الأشتر قد وافى . . . » .

علم أولئك الخارجون أن ابن الأشتر قد وافى ، فافترقوا فرقتين ، فصارت ربيعة ومُضر على حدة واليمن على حدة[١] ، وما لبث ربيعة ومضر أن انقسمتا ، فصاروا ثلاث جبهات ، مضر في الكُناسة وأهل اليمن في جبانة السبيع وربيعة في السبخة[٢] .

في صبيحة هذا اليوم الثالث الأربعاء ١٩/ ذي الحجة (١٧ تموز) استعد كل فريق للقتال . . المختار وابن الأشتر في قلب الكوفة ، والمناوؤون في الجبهات الثلاثة .

صباحاً خرج المختار إلى المنبر فصعده . . . وبينا هو يخطب وإذا برجل أقبل مسرعاً حتى صعد إلى المختار على المنبر ، فأخبره أنه سمع أهل اليمن يقولون : أن سار المختار إلى إخواننا من مُضر سرنا إليهم ، وإن سار الينا ساروا إلينا ، فقال المختار : أما هم فخُلَقاء لو سرتُ إلى مضر أن يسيروا إليهم ، أما أهل اليمن فاشهد لئن سرتُ إليهم لا تسير إليهم مضر[٣] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٤٩ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٣ .

(٢) الخلافة الأموية (دكسن) ص٩٦ ، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٨ عن اجتماع أهل اليمن في صعيد واحد جاء : وبلغ من في جبانة السبيع أن المختار قد عزم على معالجتهم (قتالهم) فأقسموا على من في النواحي من الأشراف اليمانية « الازد وبجيلة وخثعم » أن يصيروا بأصحابهم إليهم ، فتواقف اليمانية جميعاً في جبانة السبيع ، ويقال أن عمرو بن الحجاج الزبيدي وحده أقام فيمن معه بجبانه مراد ولم يأتهم .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٧ ، فكان بعد ذلك يدعو ذلك الرجل ويكرمه .

تقسيم الأعمال وبدء الهجوم

ثم نزل المختار عن المنبر ، واجتمع مع كبار قادته يعبيء الجيش وينظم العساكر في السوق - وكان السوق إذ ذاك ساحة فسيحة ليس فيها بناء - وبعد إتمام التعبئة توجه إلى إبراهيم بن الأشتر فقال : إلى أيّ الفريقين أحبُّ إليك أن تسير ؟ فقال : إلى أي الفريقين أحببتَ ! ، فنظر المختار - وكان ذا رأي فكره أن يسير إلى قومه فلا يبالغ في قتالهم - فقال : سرْ إلى مُضر بالكناسة . . وأنا أسير إلى أهل اليمن[١] . فنفذ إبراهيم لأمره ، ومضى هو حتى صار في طرف الجبّانة[٢] .

مرة ثانية يقف فيها المختار وأنصاره - أنصار الحق - وجهاً لوجه مع أعداء الحق - النفعيين - ولكن هذه المرّة هو ذو السمة الرسمية ، وهو السلطة ، وهم الخارجون المتمرّدون . وفي كلا المرتين كان المختار وأنصاره - وبعد استمساكهم بحبل الله - وبالتخطيط السليم والرأي السديد . . هم الغالبون ، ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

الخلاصة : أن ابن الأشتر سار بجيشه الذي أتى به حتى صار إلى الكناسة ، وسار المختار إلى جبانة السبيع[٣] .

الكناسة

توجه إبراهيم بن الأشتر صوب الكناسة - وكان قد اجتمع هناك يومئذ خلق كثير من مضر[٤] - وهناك لقى شبث بن ربعي وهو على رأس الخارجين ، وفيهم حسان بن

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٧ « بتصرف » ، وانظر أيضاً الفتوح ج٦ ص١٤٩ ، وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٣ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٩ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٤٩ ، وانظر تاريخ الطبري وبحار الأنوار وأنساب الأشراف .

(٤) في الفتوح ج٦ ص١٤٩ « وقد اجتمع بالكناسه يومئذ خلق كثير من ربيعه ومضر » .

فائد العبسي . . جعل ابن الأشتر يقول : ويحكم ـ انصرفوا عني فحسبكم مني ، أنا ابن الأشتر ـ أنا ابن الصِّلِّ الذكر[١] ، والله ما أحب أن يصاب أحد منكم على يدي ! فأبوا عليه ، ونشبت المعركة بينهم واشتد القتال حتى انتصف بعضهم من بعض ، ثم وقعت الهزيمة بعد ذلك عليهم ، فانهزموا هزيمة قبيحة من بين يديه ، فأبقى عليهم ابن الأشتر فلم يتبعهم[٢]، وكان من أصيب من مضر بالكناسه بضعة عشر رجلاً[٣] .

جبانة السبيع

أما الجبهة الأخرى والتي هي بقيادة المختار ، فكانت مهمتها دحر تجمع القبائل اليمانية المتواجدة في جبانة السبيع ، في شمال مدينة الكوفة وبين البيوت ، بخلاف الكناسة التي هي ساحة مكشوفة في الصحراء .

بعد أن عبأ المختار أصحابه في السوق ـ كما ذكرنا ـ سار بجموعه صوب الجبانة ، وقبل أن يصل إليها وقف عند دار عمر بن سعد بن أبي وقاص[٤] ، وأعدّ كتيبتين للالتفاف على اليمانيين في الجبّانة ، فكانت الكتيبة الأولى بقيادة أحمر بن شميط البَجليّ، وقال له : إلزم هذه السكه حتى تخرج إلى جبانة السبيع من بين دور قومك « بجيلة » . وكانت الكتيبة الثانية بقيادة عبد الله بن كامل الشاكري ، فقال له : إلزم هذه السكة حتى تخرج على جبانة السبيع ـ من دار الأخنس بن شريق ـ ودعاهما فأسرّ إليهما : أنّ « شباماً » قد بعثت تخبرني أنهم قد أتوا القوم من ورائهم .

مضى القائدان وسلكا الطريقين الذين أمرهما بهما ، وبلغ أهلَ اليمن مسيرُ هذين

---

(١) الصِّلّ هو : الأفعى .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٥٠ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٤٩ (بتصرف) .

(٣) المصدر : ج٦ ص٥٦ .

(٤) دار عمر بن سعد ضمن دور الأشراف لابد أنها ورثت عن سعد بن أبي وقاص ، وكانت في مركز الكوفة إلى شمال المسجد ، كما يحددها « هشام جعيط » في كتابه « الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ص٢٢٨ ، وكما هو موضح في الخريطة المرفقة عن الكوفة من هذا الكتاب .

الرجلين إليهم ، فاقتسموا تينك السكتين وجيشوا فيها الجيوش .

فأما السكة التي في دبر مسجد احمس - طريق عبد الله بن كامل الشاكري - فإنه وقف فيها ١ - عبد الرحمن بن سعيد الهمداني ٢ - إسحاق بن الأشعث ٣ - زَحْر بن قيس ، وأما السكة التي تلي الفرات[١] - طريق أحمر بن شميط البجلي - وقف فيها ١ - عبد الرحمن بن مخنف ٢ - بشير بن جرير بن عبد الله ٣ - كعب بن أبي كعب .

التحم القتال بين أنصار المختار والمتمردين ، وكان القتال - كما وصفه أبو مخنف - كأشد قتال اقتتله قوم . فكل فريق يرى أن هذه المعركة مصيرية والخاسر فيها قد انتهت أيامه.

بعد فترة من القتال ليست بالوجيزة ضعفت كتيبة أحمر بن شميط وكذلك كتيبة عبد الله بن كامل - ولم تذكر المصادر عدد أفرادهما - وانكشف بعض أفراد هاتين الكتيبتين وتركوا ساحة المعركة وعادوا إلى المختار . فلم يُرَع المختار إلا وقد جاءه الفَلّ قد أقبل ، فقال - متعجباً - : ما وراءكم ؟ قالوا : هُزمنا ، قال : فما فعل أحمر بن شميط ؟ قالوا تركناه عند مسجد القُصّاص - مسجد أبي داود في وادعة - وقد نزل معه أناس من أصحابه ، وقال أصحاب عبد الله : ما ندري ما فعل ابن كامل ! فصاح بهم : انصرفوا .

وتحرك المختار على الفور لتدارك الموقف ، فتقدم نحو دار أبي عبد الله الجدلي بهؤلاء الفل ، وأمر كتيبتين بالتحرك فوراً لإسناد ابن شميط وابن كامل . وتحركت الكتيبة الأولى فيها مائتا رجل من المشاة - من أشد الناس بأساً - بقيادة مالك بن عمرو النهدي ، ومائتا فارس بقيادة عبد الله بن شريك النهدي ، تحرك هؤلاء لإسناد أحمر ابن شميط ، وكان بن شميط قد ثبت مكانه على قلة ناصرية ، فانتهت إليه النجدة وقد علاه القوم وكثروه ، فاقتتلوا عند ذلك كأشد القتال .

---

(١) لعل المقصود بالفرات هنا ترعة ماء أو بستان أو ما شابه تقع في خطط بجيلة أو همدان ، لا نهر الفرات المعروف الذي يقع شرق مدينة الكوفة ، واحداث جبانة السبيع في الشمال منها - فتأمل .

أما الكتيبة الثانية فكانت بقيادة عبد الله بن قراد الخثعمي وفيها أربعمائة رجل بين فارس وراجل ، قال له المختار : سر في أصحابك إلى ابن كامل ، فإن يك هلك فأنت مكانه ، فقاتل القومَ بأصحابك وأصحابه ، وإن تجده حيّاً صالحاً فسرْ في مائة من أصحابك كلُّهم فارس ، وادفع إليه بقية أصحابك ، وأمرهم بالجد معه والمناصرة له فإنهم أنما يناصحونني ، ومن ناصحني فليبشر ، ثم امض في المائة حتى تأتي أهل جبانة السبيع مما يلي حمّام قَطَن ابن عبد الله . فمضى فوجد ابن كَامل واقفاً عند حمام عمرو بن حريث معه أناس من أصحابه قد صبروا ، وهو يقاتل المتمرّدين ، فدفع إليه ثلاثمائة من أصحابه ، ثم مضى حتى نزل قريباً من جبّانة السبيع ، ثم أخذ بالالتفاف حتى انتهى إلى قرب مسجد عبد القيس فوقف عنده ، وقال لأصحابه : ما ترون ؟ قالوا : أمرنا لأمرك تَبَع ـ وكان كل من معه من قومه وهم مائة ـ فقال لهم : والله إني لأحب أن يظهر المختار ، ووالله إني لكارهٌ أن يهلك أشراف عشيرتي اليوم ، ووالله لأن أموتَ أحبّ إليّ من أن يحل بهم الهلاك على يديّ ، ولكن قفوا قليلاً فإني قد سمعت شباماً يزعمون أنّهم سيأتونهم من ورائهم ، فلعل شباماً هي تفعل ذلك ، ونُعافى نحن منه ، قال له أصحابه : فرأيك . فثبت كما هو عند مسجد عبد القيس[1].

وفي نفس هذا الوقت كانت شبام قد اجتمعت ورئيسها أبو القلوص ـ تريد إتيان أهل اليمن من ورائهم ، فقال بعضهم لبعض : أما والله لو جعلتم جدّكُم هذا على من خالفكم من غيركم لكان أصوب ، فسيروا إلى مضر ، وإلى ربيعة فقاتلوهم ـ وشيخهم أبو القلوص ساكت لا يتكلم ـ فقالوا : يا أبا القلوص ، ما رأيك ؟ فقال : قال الله جلّ ثنائه : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليَجدوا فيكم غلْظَةً ﴾[2] ،

---

(١) وهذا الموقف ليدل بوضوح مدى قوة الأواصر القبلية في ذلك الزمان ، بحيث بقي عبد الله الخثعمي وأمثاله متردّدين بين الأنتصار للحق وبين عدم الرغبة في سفك دماء المتمردين من عشائرهم . وكم هم الذين يحبون الحق تركوا نُصرته ، بل حاربوه لمجرد أن قبيلتهم أرادت ذلك !

(٢) سورة التوبة : ٣ .

قوموا ، فقاموا ، فمشى بهم مقدار رمحين أو ثلاثة ثم قال لهم : اجلسوا فجلسوا ، ثم مشى بهم أنفس من ذلك شيئاً ، ثم قعد بهم ، ثم قال لهم قوموا ، ثم مشى بهم الثالثة أنفس من ذلك شيئاً ، ثم قعد بهم ، فقالوا له : يا أبا القَلوص ، والله إنك عندنا لأشجع العرب ، فما يحملك على الذي تصنع ؟! قال : أن المجرّب ليس كمن لم يجرّب ، إني أردت أن ترجع إليكم أفئدتكم ، وإن توطّنوا على القتال أنفسَكُم ، وكرهت أن أُقحمكم على القتال وأنتم على حال دَهَش ، قالوا : أنت أبصَر بما صنعت . وكانوا في طريقهم إلى جبّانة السبيع .

وفي هذه الأثناء جاءت البشرى إلى المختار من قبل إبراهيم الأشتر بهزيمة مُضر ، فكبّر المختار وكبّر أصحابه ، فبعث المختار البشرى من قِبَله إلى أحمر بن شميط وإلى ابن كامل ، فزادت عزائمهم وكبّروا لذلك ، وأغنت أهل كل سكّة ما يليها . وعندما سمع المتمرّدون التكبير فزعوا لذلك وعلموا أن أصحابهم قد انهزموا ، فانكسروا انكساراً شديداً ، واقتحمت شبامٌ على المتمرّدين جبانة السبيع ، فاستقبلهم على المدخل « الأعسر الشاكريّ » ، فحمل عليه الجُندعي وأبو الزبير بن كريب فصرعاهُ ، ودخلا الجبّانة ودخلت شبامُ الجبّانة في آثارهم ، فقال عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني ـ وهو أحد كبار قادة المتمردين : ويحكم ! من هؤلاء الذين أتَوْنا من ورائنا ؟ قيل له : شبام ، فقال : يا عجباً ! يقاتلني بقومي من لا قوم له .

فدخلت شبامُ وهم ينادون يا لثارات الحسين ! فأجابهم أصحاب ابن شميط ـ وكانوا جنوب الجبانة ـ يا لثارات الحسين : وأجابهم أصحاب ابن كامل ـ وكانوا شرق الجبّانة ـ : يا لثارات الحسين ! وأطبقوا على المتمردين في الجبانة من هذه الجبهات الثلاثة وحملوا عليهم حملة واحدة وشتتوهم .

عندها لم يتحمّل أحدهم ـ يزيد بن عمر بن ذي مُرّان من همدان ـ فعندما سمع نداء « يا لثارات الحسين » قال : يا لثارات عثمان ، فازدادوا ضَعفاً . فقال لهم رفاعة بن

شداد : مالنا ولعثمان لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان ، فقال له أناس من قومه : جئت بنا وأطعناك ، حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف قلت : انصرفوا ودَعُوهم ! فعطف عليهم بسيفه ـ وهو يقول :

أنا ابنُ شدّاد على دين علي لستُ لعثمانَ ابن أروى بوَلي

لاصْلينّ اليومَ فيمنْ يصطلي بحرّ نار الحرب غير مؤتل

فقاتل حتى قتل[1] ـ رضوان الله عليه ـ فيا تُرى ، هل أن وقوفه معهم كان تكتيكياً ، ليكسر شوكتهم عند الحسم ؟ ! أو بسبب تقريب الموالي ، وتماديهم ، وتعسّفهم باستخدام حقوقهم المسلوبة ، ولا أرى رجحاناً لمن زعم أن وقوفه معهم كانا بسبب كذب «المختار» وأن انحيازه عنهم بسبب ندائهم : «يا لثارات عثمان» ، لأنه لا يجهل أن قتلة الإمام الحسين ﷺ معهم ، فكان عليه على أقل تقدير أن يعتزل الفريقين ، إن استشهاده في خندق «المختار» يؤكد لنا ولاءه ، وانقياده له[2].

وكان ضمن القتلى «شُرَحْبيل بن ذي بُقلان» من الناعطيّن وكان من بيوتات همْدان ، فقال يومئذ قبل أن يقتل : يا لها قتلةً ، ما أضل مقتولها ! قتال مع غير إمام ، وقتال على غير نيّة ، وتعجيل فراق الأحبة ، ولو قتلناهم إذاً لم نسلم منهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! أما والله ما خرجت إلا مواسياً لقومي بنفسي مخافة أن يضطهدوا ، وأيمُ الله ما نجوتُ من ذلك ولا أنجوا ، ولا أغنيت عنهم ولا أغنوا ، ورماه أحمر بن هديج الهمداني بسهم فقتله[3].

وأطبق أنصار المختار على هؤلاء المتمردين في الجبّانة من هذه الجهات الثلاث ـ الشمال ، الجنوب ، الشرق ـ وحملوا عليهم حملة واحدة ، فلم يلبثوا أن هُزموا من

---

(١) وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٩ يذكر : أن رفاعة بن شداد البجليّ قاتل مع المختار ، وقال آخرون : إنه قاتل يومئذ مع أهل الكوفة فقُتل ، ويقال : إنه بقي بعد المختار ، وذلك الثبْت . انتهى .

(٢) مع المختار الثقفي ص١٢٤ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٦ .

جبانة السبيع[١].

ولما حلّت الهزيمة بمضر وقبائل اليمن تفرّقت ربيعة[٢] - التي كانت قد تجمعت في السبخة - وقد كان يزيد بن الحارث بن يزيد بن رؤيم وحجّار بن أبجر - رؤوس ربيعة - بعثا رسلاً لهما، فقالا لهم: كونوا من أهل اليمن قريباً، فإن رأيتموهم قد ظهروا فأيكم سبق إلينا فليقل «صَرَفان»، وإن كانوا هُزموا فليقل «جُمْزان»، فلما هُزم أهل اليمن أتتهم رسلهم، فقال لهم أول من انتهى إليهم: «جُمْزان»، فقام الرجلان فقالا لقومهما: انصرفوا إلى بيوتكم، فانصرفوا[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٤٧ - ٥٦ «بتصرف» وراجع أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٩، الفتوح ج٦ ص١٥٠.

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٣٩٩.

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٢. وفي الأخبار الطوال ص٣٠٠، «ويقال: إن المختار نادى فيهم: يا معشر ربيعة! ، ألم تبايعوني؟ فلمَ خرجتم عليّ؟ فقالت ربيعة: قد صدق المختار، فقد بايعناه وأعطيناه صفقة أيمانا، فاعتزلوا وقالوا: لا نكون على واحد من الفريقين» والدينوري تفرّد برواية هذا الخبر.

المختار المنتصر

وانتهت المعركة ، وكان النصر المؤزّر حليف المختار وأنصاره ، وحلت الهزيمة النكراء بأعدائه ، أعداء الدين والإنسانية . . الذين تألّبوا من قبل وقتلوا ريحانة رسول الله ﷺ ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، وسبوا نساءه ، ووقفوا في وجه المختار عندما أراد أن يبسط العدالة ويُنصف المظلومين .

حلّت الهزيمة بهم ، فمنهم من اختفى في منزله ، ومنهم من خرج هارباً في البرّية على وجهه ، ومنهم من لحق بسلطان ابن الزبير في البصرة(١) .

وأُحصي قتلى المختار ، فكانوا مائة وخمسة وثلاثين رجلاً ، وأُحصي من قتل من الخارجين عليه فكانوا ستمائة وأربعين رجلاً ، فذلك سبعمائة وخمسة وسبعون رجلاً(٢) .

وكان ضمن هؤلاء القتلى العديد من الأشراف وعلية القوم مما أنزل فاجعة كبيرة على أهل الكوفة(٣) ، حتى قام أعشى همدان يرثيهم ، ويلقي اللوم على قبيلة

(١) الفتوح ج٦ ص١٥١ ، ويذكر هناك « . . ومنهم من لحق بمصعب بن الزبير بالبصرة فكان معه » ، ومعلوم أن مصعب حكم البصرة بعد هذه الأحداث بأكثر من أسبوع أي في أول المحرم كما ذكرنا سابقاً .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٥١ ، وفي الأخبار الطوال ص٣٠٠ قد قتل من أهل الكوفة نحو خمسمائة رجل .

(٣) وكان ضمن القتلى « حسان بن فائد العبسي » الذي مات حين أُدخل على أهله ، وقد كان له وهو على فراشه قبل موته إفاقة فقال : أما والله ما كنت أحب أن أعيش من جراحتي هذه ، وما كنت أحب أن تكون منيتي إلا بطعنة رمح ، أو بضربة سيف ، فلم يتكلم بعدها كلمة حتى مات ، وقُتل الفرات بن زحر بن قيس الجعفي ، وأرتثّ زحر بن قيس ، وقتل عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، وقتل عمر بن مخنف ، وأُصيب عبد الرحمن بن مخنف وحملته الرجال على أيديها وما يشعر ، وقتل مالك بن حزام ابن ربيعة ـ وهو ابن أخي لُبيد بن ربيعة الشاعر ـ وغيرهم كثير من الأشراف . واختصم في عبد الرحمن بن سعيد الهمداني نفرٌ ثلاث عند المختار ، سعر بن أبي سعر الحنفي ، وأبو الزبير الشّبامي ورجل آخر . فقال سعر : طعنته طعنة ، وقال أبو الزبير : لكن ضربتُه أنا عشرَ ضَرَبات أو أكثر ، وقال له ابنه : يا أبا الزبير ، =

هَمْدان(١) التي أسندت المختار في هذه المعركة بقوة(٢).

=

أتقتل عبد الرحمن بن سعيد سيد قومك ! فقال : ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون مَن حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهُم ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، فقال المختار : كلكم محسن .

راجع تاريخ الطبري ج٦ ص٤٩ ـ ٥٠ ص٥٦ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠١ وغيرها من المصادر .

(١) غريب حديث الشيخ جعفر المهاجر عن قبيلة همْدان عندما ينفي عنها أي دور في أحداث حركة المختار ، فيقول : «هنا لا نعثر على أي دور لهمدان ، لا بين الثائرين ، المنتقمين ، ولا بين من ثاروا منهم» . (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية) ص٧٨ .

مع العلم أنهم أول من تصدى لرفض تأمير عمر بن سعد والياً على الكوفة بعد موت يزيد ، فقد خرجت نساء همدان يندبن الحسين عليه السلام في المسجد الجامع ، فأدى ذلك إلى عزوف الناس عن تعينه في ذلك المنصب . «مروج الذهب ج٣ ص٩٣» ، وكانوا السند الأعظم للمختار في ثورته وتركيز حكمه ، وكذلك في اخضاع المتمردين ، كما مرّ معنا . وكان المختار يذكر لهم هذا الدور الكبير ، فكان يقول :

نسربَلْتُ من همْدانَ درعاً حصينة ... تردُّ العوالي بالأُنوف الرَّواغم

الأعلام ج٨ ص٧٠

فهمدان كانت وفيّة مع أمير المؤمنين عليه السلام ، وبقيت على وفائها لأهل البيت عليهم السلام ، ولم تترك فرصة تمرُّ دون إظهارها الوفاء لهم عليهم السلام ، فلاحظ !

(٢) يقول أعشى همْدان :

جزى الله إبراهيم عن أهل مصره ... جزاء امرئ عن وَجهه الحقُ ناكبُ
سما بالقنا من أرض ساباط مُرقلاً ... إلى الموت أرقال الجمال المصاعب
فصب على الأحياء من صوب وَدقه ... شآبيبَ موت عُقِّبَتْ بالحرائب
فأضحى ابنُ صهبان قتيلاً مجدلاً ... كأنْ لم يقاتل مرةً ويحارب
فأما أبو إسحاق فانصاع سائراً ... إلى عسكر جم القنا والكتائب
فلما التقينا بالسبيع وأنْسَلوا ... إلينا ضَرَبْنا هامَهُم بالقواضب
فما راعنا الاشبامُ تحسُّنا ... بأسيافها ، لا أُسقيت صوب هاضب
فقتّل من أشرافنا في محالهم ... عصائب منهم أردفت بعصائب
فكم من كميّ قد أبارت سيوفُهم ... إلى الله أشكو رُزء تلك المصائب
يُقَتّلُنا المختار في كل غائط ... فيا لك دهرٌ مرصدٌ بالعجائب

=

وجاءت الفرصة الذهبية للمختار كي يفي بوعده وما اخذ على نفسه أن لا يبقي على الأرض ديّاراً ممن ولغوا في دماء الحسين ﷺ وأهل بيته الزواكي . . بل لا فرصة أحلى من هذه .

ونادى منادي المختار إنه : من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلاً شرك في دم آل محمد ﷺ (١) .

لمزيد من التوضيح انظر الخريطة في آخر الكتاب

=

أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٢ والأبيات الثلاث الأخيرة في « الأخبار الطوال » ص٣٠١ وبدل « شِبام » كتب الدينوري « همْدان » ، و« شِبام » فخذ من « همدان » .

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥١ .

الفصل الحادي عشر

التطهير

التطهيــر

(المرحلة الأولى)

خبا صوت الباطل ، وانتكست أعلامه ، وتشتّت أصوله وتفرقت فروعه . وحانت الفرصة التي طالما حلم بها هؤلاء الضعفاء بالاقتصاص من رؤوس الفتنة . . الذين انتهكوا حرمة رسول الله ﷺ بسفك دماء ذريته باسم القانون وباسم الإسلام ، والإسلام منهم براء .

وبدأت المرحلة الأولى فور انتهاء المعركة في الجبانة ، فجعل أصحاب المختار يفتشون الدور بحثاً عن هؤلاء المجرمين ويخرجونهم إلى المختار مكتفين . فكان من استخرج من دور الوادعيين ـ من همدان ـ خمسمائة أسير .

أخذ عبد الله بن شريك النهدي ـ وهو من رؤساء أصحاب المختار ـ لا يخلو بعربيّ إلا خلّى سبيله ، فرفع ذلك للمختار « درهم » مولى لبني نَهْد ، فرفض ذلك المختار وقال : اعرضوهم عليّ وانظروا كل من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به ، فأخذوا لا يُمَرُّ عليه برجل قد شهد قتل الحسين إلاّ قيل له : هذا ممن شهد قتله ، فيقدّمه فيُضرب عنقه ، حتى قتل منهم قبل أن يخرج مائتين وثمانية وأربعين قتيلاً وأطلق سراح الباقين ، وأخذ عليهم المواثيق : ألا يجامعوا عليه عدواً ، ولا يبغوه ولا أصحابه غائلة ، إلا سُراقة بن مرداس البارقي ، فإنه أمر به أن يساق معه إلى المسجد[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥١ .

وعندما أقبل المختار إلى القصر ، أخذ سُراقة بن مرداس ينادي بأعلى صوته :

امنن عليّ اليوم يا خير مَعَد ... وخير مَنْ حلّ بشحر والجَنَد

وخيرَ مَن حيّا ولبّى وسجد[١]

فبعث به المختار إلى السجن ، فحبسه ليلةً ، ثم أرسل إليه من الغد فأقبل إلى المختار[٢] .

وكان سُراقة رجلٌ بهيٌ جميل ، فقال له المختار : مَن أنت ؟ فقال : أيها الأمير ! أنا سُراقة بن مرداس البارقي ، ولستُ ممن قاتل الحسين بن علي ولا مشارك في دمه ، فاسمع كلامي ولا تعجل ! فقال له المختار : فقل ما تشاء فإني سامع منك ، فأنشأ يقول :

ألا أبلغ أبا إسحاق إنا ... نزونا نزوة كانت علينا

خرجنا لا نرى الأبطال شيئاً ... وكان خروجنا بطراً وحَيْنا

نراهم في صفوفهم قليلاً ... وهم مثل الدَّبا لَمّا التقينا

برزنا إذ رأيناهم فلما ... رأينا القوم قد برزوا إلينا

لقينا منهم ضرباً عنيداً ... وطعناً مسجحاً حتى انثنينا

(١) وفي الفتوح ج٦ ص١٥١ : وإذا برجل أسود قد أُتي به حتى وقف بين يديه ، فجعل الأسود يرتعد ويقول :

امنن عليّ اليوم يا خير معد ... وخير من صلى وخير من سجد

وخير من حلّ بقوم ووَفَد ... وخير من لبّى لجبار صمد

فقال له المختار : إني قد سمعت كلامك بالأمس وتحريضك ، وأنت تنادي وتقول : أيها الناس قاتلوا الكذّاب ! أخبرني ما أعلمك بأني كذّاب ؟ نعم أنا الكذّاب كما زعمت إن لم أذيقك حر الحديد فضربت عنقه صبراً . وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠١ أن هذا الحوار دار مع « سُحَيْماً مولى عُتبة بن فرقد السُلَمي » .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٤ . وفي ص٥١ : كان سراقة يقاتل حول عبد الرحمن بن محنف (وكنيته : أبو حكيم) وهو يوقول :

يا نفسُ إلاّ تَصْبري تُليمي ... لا تتولَّيْ عن أبي الحكيم

زففت الخيل يا مختار زفاً بكل كتيبة قتلت حسينا
نُصرت على عدوك كل يوم بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصرة أحمد في يوم بدر ويوم الشّعب إذ لاقى حنينا
فأسْجح إذ ملكت فلو ملكنا لجرنا في الحكومة واعتدينا
تقبّل تَوبةً مني فإني سأشكر إن جعلت النقد دينا[١]

فقال له المختار : إنني سمعت شعرك وأنت ممن قاتلني ولا بد من قتلك أو تخليدك السجن ، فقال سُراقة : ولِمَ ذلك ، فوالله وإلاّ فعلي كذا وكذا إن لم أرَ الملائكة بالأمس تقاتل معك ، فلما وضعت الحرب أوزارها رأيت الملائكة تطير بين السماء والأرض ، فقال له المختار : وأنا أحلف إنك ما رأيت مما رأيت من أمر الملائكة ، وقد حلفت بالله كاذباً ، وقد حقنت لك دمك فاخرج عن الكوفة والحق بأي بلد شئت ! فقال سُراقة : صدقت ـ والله ـ أصلح الله الأمير ـ ما رأيت شيئاً ، وما كنت في يمين حلفت به ساعة قط أشد اجتهاداً ولا مبالغة في كذب من تلك اليمين ، ولكني خفت سيفك . ثم خرج سراقة بن مرداس من الكوفة هارباً حتى صار إلى مصعب بن الزبير[٢] .

وعندما اطمئن به الحال أخذ يهجو المختار ، وعندما بلغ المختار ما قاله سراقة قال : أما أنا فلو علمت ذلك منه لما أفلت من مخالبي[٣] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٠ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٥٤ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٥٤ : وكان قد هجاه بقوله :

ألا أبلغ أبا إسحاق أني رأيت البُلق دُهماً مصمتات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً عليّ قتالكم حتى الممات
أرُي عينيّ ما لم تُبصراه ! كلانا عالم بالتُّرّهات
إذا قالوا أقول لهم : كذبتم وإن خرجوا ، لبست لهم أداتي

=

=

ويشكك الدكتور عبد الأمير دكسن في كتابه «الخلافة الأموية» ص٩٨ في صحة هذه القصة، وعلى القول بصحتها يعتبرها قطعة من الأدب الخيالي التي استغلها المختار لتقوية موقفه أمام أتباعه. ومن البعيد جداً أن تستغل هذه الحادثة وأمثالها لتقوية الموقف، ففيها مساس بعقيدة المختار واتهام واضح، بالخصوص على رواية تاريخ الطبري وأنساب الأشراف والأخبار الطوال المتقاربة التي تروي أن سراقة بعد ادّعائه رؤية الملائكة تقاتل إلى جانب المختار، أمره المختار أن يصعد المنبر فيعلم ذلك المسلمين. وكان ذلك سبب عفوه عنه. «فتأمل»!

راجع تاريخ الطبري ج٦ ص٥٥، أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠١.

التطهير

(المرحلة الثانية)

وما هو إلا أن فرغ المختار من أهل السبيع وأهل الكناسة ، فما نزل إبراهيم بن الأشتر إلا يومين حتى أرسله إلى قتال عبيد الله بن زياد وجيشه ـ الذين هم من أهل الشام ـ من جديد ، فخرج يوم السبت ٢٢ ذي الحجة ٦٦هـ (٢٠ تموز ٦٨٦م)[١].

ثم أرسل إلى وجوه أصحابه وثقاته ، فجمعهم عنده ، ثم قال :

« اعلموا أنه ليس يسوغ لي الطعام ولا أحب أن أُروى من الماء وقتلة الحسين بن علي يمشون في هذه الدنيا ! وقد استوسق لي الأمر وأطاعني الناس ، ولست بالناصر لآل محمد ﷺ إن لم أطلب بدمائهم ، وأقتل من قتلهم ، وأُذل من جهل حقهم ! ولكن سموهم لي فعليّ أن اطهر الأرض منهم »[٢] .

وتجرد المختار لقتلة الحسين ﷺ ، وخرج أشراف الناس فلحقوا بالبصرة[٣] . وكأن البعض قد اعترض عليه في قتل هؤلاء أو رأى أن التوقيت غير مناسب ، فكان جواب المختار :

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٨١ ، أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٢ « بتصرف » .

قد حصل خلط في تاريخ وقعة جبانة السبيع عند تاريخ الطبري ، ففي ج٦ ص٥٧ : « كانت وقعة جبانة السبيع يوم الأربعاء لست ليالي بقينَ من ذي الحجة » أي يوم ٢٤ ذي الحجة ، وفي ص٨١ : « . . . فما نزل إبراهيم بن الأشتر إلا يومين (أي بعد السبيع) حتى أشخصه إلى الوجه الذي كان وجهه له لقتال أهل الشام ، فخرج يوم السبت لثمان بقينَ من ذي الحجة » أي يوم ٢٢ ذي الحجة فتكون وقعة جبانة السبيع في يوم ٢٠ ذي الحجة » ، فيكون الفرق بين الروايتين أربعة أيام ، والطريف أن الروايتين منقولتان عن راوٍ واحد هو « النَّضْر بن صالح » .

(٢) الفتوح ج٦ ص١١٩ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٧ .

« ما من ديننا ترك قوم قتلوا الحسينَ يمشون أحياءاً في الدنيا آمنين ، بئس ناصر آل محمد أنا إذاً في الدنيا ! أنا إذاً الكذّاب كما سموّني . فإني بالله أستعين عليهم ، الحمد لله الذي جعلني سيفاً أضربهم به ، ورمحاً أطعنهم به ، وطالب وتْرهم ، والقائم بحقهم . . إنه كان حقاً على الله أن يقتل مَن قتلهم ، وأن يذل من جهل حقهم ، فسمّوهم لي ثم اتبّعوهم حتى تفنوهم[١] .

وبذلك برّ بوعده بالثأر للحسين والذي تمت البيعة له بموجبه ، وحقق ما وعد به الكوفيين في الانتقام من القتلة[٢] المجرمين . بالخصوص بعد رواج مقولة محمد بن الحنفية التي يعلن فيها بصراحة استيائه لعدم إقدام المختار على الانتقام من قَتَلة الحسين ﷺ بقوله : « عجباً للمختار ! يزعم أنه يطلب بدمائنا وقَتَلةُ الحسين جلساءُه وحُدّاثه . . يحترفون في المصر »[٣] .

وهكذا لم يتنعّم هؤلاء المجرمون بعد قتلهم الحسين ﷺ وأهل بيته وأنصاره إلا قليلاً . وقد بدأ الموت الزؤام يحصدهم حصداً بعد أن امتلؤا رعباً وخوفاً ﴿ فأذاقَهُمُ اللهُ الخِزْيَ في الحياة الدُّنيا ولَعَذابُ الآخرة أكبرُ لَو كانُوا يَعلَمون﴾[٤] .

واستمرت عمليات التطهير هذه حتى أواخر سلطة المختار ، واشتد أُوارها بعد انتصار إبراهيم بن الأشتر الساحق على جند الشام في الموصل .

سيف الحق

الذين حضروا كربلاء في يوم عاشوراء كانوا طائفتين ، الطائفة الأولى رفعت السيف في وجه الإمام الحسين ﷺ ، ولعقت من دماء آل بيت رسول الله ﷺ ،

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٧ .

(٢) الخلافة الأموية ص٩٧ ، وانظر أيضاً تاريخ العرب والإسلام د . سهيل زكار ص١٥٠ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٥ .

(٤) الزُمَر : ٢٦ .

وارتكبت المجازر بحقهم وبحق أنصارهم ، وروعت نساء رسول الله ﷺ والأطفال وارتكبوا بحقهم . كل منكر قدروا عليه .

أما الطائفة الثانية : فكانت فقط متفرجة ، ولم تحمل السلاح في وجه أهل بيت الطهر ، أو لم يتسنَّ لهم ذلك لعدم مواتاة الفرصة لهم .

ومع هاتين الطائفتين استعمل المختار أسلوبين مختلفين في الشدة ، يتناسب مع ما ارتكب المجرم من الإجرام ، وكان التنكيل الأشد من نصيب الطائفة الأولى ، وهو دون ما يستحقون .

فالذين باشروا في قتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وأنصاره ، يقتلهم بعد أن ينكّل بهم أشد التنكيل ، وإن كانوا قد شاركوا في القتال مجرّد المشاركة ، كان يأمر بهم فتضرب أعناقهم صبراً ، [1] ويهدم بيت من يفلت من يديه ، وغيرها من صنوف الأهوال التي كان ينزلها عليهم .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٥١ « بتصرف وإجمال » ، وقد يكون في هذا الكلام الكثير من المبالغة ، والصورة ستوضح أكثر في التفاصيل التي سننقلها عن المؤرخين .

القصــاص

(من أغلق بابه فهو آمن إلاّ رجلاً شرك في دم آل محمد ﷺ)[١] ، دوّى هـذا النداء في جميع أزقة الكوفة وأحياءها ، وتزلزلت الأرض من تحت أقدام أولئك الذين ولغوا في دماء آل بيت محمد ﷺ واكفهرّت السماء في وجوههم . وإذا بهم بعد الاستقرار والسيادة هائمون على وجوههم الخاسئة في الصحراء وفي كل جُحر يظنون فيه الأمان ولا أمان ، وكيف لهم أن يأمنوا ولم يذوقوا جزاء ما كسبت أيديهم ! وقد سرقوا الحلم الجميل من أعين بنات رسول الله ﷺ ، وأرعبوا أطفاله حتى أذاقوهم الأمرين .

أول ما قام به المختار بعد إخماد التمرّد ، هو إسناد الانتقام من قَتَلة الحسين إلى رئيس شرطته عبد الله بن كامل الشاكري على رأس ألف رجل لتعقب كل من كان له يد في مقتل الحسين عليه السلام[٢] .

والثاني : إنشاء فرقة بقيادة كيسان أبي عمرة فيها ألف رجل من الفَعَلَة بالمعاول ، مهمّتها تَتَبُّع دُور من خرج إلى قتال الحسين بن علي عليهما السلام فتهدمها[٣] ، وقد تستدعي الظروف في بعض الحالات أن يساعد أبو عمرة عبد الله بن كامل في مهمة تعقب المجرمين والاقتصاص منهم .

فأخذ المختار يتتبع قَتَلة الحسين واحداً واحداً . .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥١ .

(٢) تاريخ العرب والإسلام (زكار) ص١٥٠ (بتصرف) .

(٣) الأخبار الطوال ص٢٩٢ (بتصرف) .

الذين رضّوا جسد الحسين عليه السلام :

فأول من بدأ به المختار الذين رضّوا جسد الحسين عليه السلام بخيولهم ، فأخذهم وطرحهم على ظهورهم ، وضرب سكك الحديد في أيديهم وأرجلهم ، وأجرى الخيل عليهم حتى قطّعتهم ، ثم أحرقهم بالنار[1] ، وهم[2] : ١) إسحاق بن حُوَيّة[3] ، ٢) الأخنس بن مرثد[4] ، ٣) عمرو بن صُبيح الصيداوي[5] ، ٤) هانيء بن ثبيت الحضرمي[6] ، ٥) أسيد بن مالك ، ٦) حكيم بن الطفيل السُّنبسي[7] ، ٧) رجاء ابن منقذ العبدي ، ٨) سالم بن خثيمة الجُعفي ، ٩) صالح بن وهب الجعفي ، ١٠) واحظ بن ناعم .

شمر بن ذي الجوشن :

أما شمر فقد كان من رؤوس المتمردين على المختار يوم جبانة السبيع ، وتمكن من الإفلات ، وفرّ خارج الكوفة . وعلم المختار أن شمر بن ذي جوشن خرج

---

(١) أصدق الأخبار ص٩٤ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٤ ، عوالم العلوم « الإمام الحسين عليه السلام » ص٦٩٥ .

(٢) جاء في بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٩ : . . . ثم نادى عمر بن سعد في أصحابه ، [عصر عاشوراء] : من ينتدب للحسين فيوطىء الخيل ظهره ، فانتدب منهم عشرة وهم . . . فداسوا الحسين عليه السلام بحوافر خيلهم حتى رضّوا ظهره وصدره . وجاء هؤلاء العشرة حتى وقفوا على ابن زياد ، فقال : أسيد بن مالك ، أحد العشرة شعراً :

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر ... بكل يعبوب شديد الأسر

فقال ابن زياد : مَن أنتم ؟ فقالوا : نحن الذين وطئنا بخيولنا ظهر الحسين حتى طحنّا جناجن صدره ، فأمر لهم بجائزة يسيرة .

قال أبو عمر والزاهد : فنظرنا في هؤلاء العشرة فوجدناهم جميعاً أولاد زنا .

(٣) وهو الذي سلب الحسين عليه السلام قميصه فلبسه فصار أبرصاً ، وامتعط شعره . بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٧

(٤) وهو الذي أخذ عمامة الحسين عليه السلام . . . فاعتمّ بها فصار معتوهاً . بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٧ .

(٥) راجع ص ٣٤٣.

(٦) وهو قاتل عبد الله بن الحسن عليه السلام . بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦ .

(٧) راجع ص٣٣٨.

هارباً ، ومعه نفر ممن شرك في قتل الحسين عليه السلام (١) .

دعا المختار بغلام له أسود يُقال له « رزين »(٢) وكان فارساً بطلاً ، فقال له : ويلك يا رزين ! قد بلغني عن الشمر بن ذي الجوشن أنه قد خرج عن الكوفة هارباً في نفر من غلمانه ومن اتبعه ، فاخرج في طلبه فلعلك تأتيني به أو برأسه ، فإني ما أعرف مَن قاتل الحسين بن علي عليه السلام أعتى منه ، ولا أشد بغضاً لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله .

فاستوى رزين على فرسه ، وخرج في طلب الشمر بن ذي الجوشن(٣)، ومعه مائة فارس على الخيل العتاق ، فجعل يجدّ السير حتى انقطع عن أصحابه إلا عشرة فوارس(٤)، وهو في ذلك يسأل عنه فيُقال له : نعم إنه قد مرّ بنا آنفاً ، فلم يزل كذلك حتى نظر إليه من بعيد ، وحانت من الشمر التفاتة ، فنظر إلى رزين غلام المختار(٥) فقال لأصحابه : تباعدوا عني لعل العبد يطمع فيّ ، فتباعدوا عنه ، ولحقه العبد حتى إذا انقطع عن أصحابه ،(٦) عطف الشمر على غلام المختار وتطاعنا برمحيهما ، فطعنه الشمر طعنة قتلته(٧) ، وانهزم أصحابه العشرة(٨) . .

ومضى الشمر وأصحابه حتى نزلوا جانب قرية(٩) يُقال لها : « الكلتانية » قريباً من البصرة . . على شاطئ نهر [الفرات] إلى جانب تل(١٠) . وبلغ ذلك المختار ، فاغتم

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٣ .

(٢) في تاريخ الطبري ج ص ٥٢ والأخبار الطوال ص ٣٠١ اسم هذا الغلام « زربي » ، وفي تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٣٣٩ « زريق » .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٥٥ .

(٤) أصدق الأخبار ص١٠٣ .

(٥) الفتوح ج٦ ص١٥٥ .

(٦) أصدق الأخبار ص١٠٣ .

(٧) الفتوح ج٦ ص١٥٥ .

(٨) أصدق الأخبار ص١٠٣ .

(٩) في تاريخ الطبري ج٦ ص٥٢ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٣ .

(١٠) أصدق الأخبار ص١٠٣ ، وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص٥٢ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٣ ، =

لذلك غماً شديداً ، ثم دعا برجل يُقال له عبد الرحمن بن عبيد الهمداني «أبو الكنود» فضمّ إليه عشرة من أبطال أصحابه ، وقال له : يا عبد الرحمن ، إن الشمر قد قتل غلامي رزيناً ومرّ على وجهه ، ولست أدري أي طريق سلك ، ولكني أنشدك الله يا أخا همدان ألاّ قررّت عيني أنت ومن معك بقتله ـ إن قدرتم على ذلك .

فخرج عبد الرحمن بن عبيد بأصحاب المختار في طلب الشمر بن ذي الجوشن ، فجعلوا يسيرون ويسألون عنه ويمضون[1] على هذه الحال .

والذي يبدو أنهم وصلوا إلى قريب من البصرة ، وتوقفوا عند مسلحة أبي عَمْرة ، ولم يعثروا على شمر وأصحابه .

وكان الشمر قد أرسل إلى تلك القرية ، فأخذ منها علْجاً[2] فضربه ، ثم قال : النجاء بكتابي هذا إلى المصعب بن الزبير ، وكتب عنوانه «للأمير المصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجوشن» ، فمضى العلج حتى دخل قرية فيها بيوت ، وفيها أبو عمرة ـ وقد كان المختار بعثه في تلك الأيام إلى تلك القرية ومعه خمسمائة فارس لتكون مَسلحة [حرس حدود] فيما بينه وبين أهل البصرة ـ[3] فلقي ذلك العلجُ علجاً من تلك القرية ، فأقبل يشكو إليه ما لقي من شمر ، فإنه لقائم معه يكلّمه إذ مرّ به رجل من أصحاب أبي عَمْرة ، وهو عبد الرحمن بن عبيد المكلّف بقتل شمر ، فرأى الكتاب مع العلج ، وعنوانه : لمصعب من شمر ، فسألوا العلج عن مكانه الذي هو به فأخبرهم ، فإذا ليس بينهم وبينه إلاّ ثلاثة فراسخ فأقبلوا يَسيرون إليه[4] .

=

الفتوح ج٦ ص١٥٦ . وقد ورد تحديد مكان هذه القرية ما بين السوس والصَّيْمَرَة ، كما عن معجم البلدان ج٤ ص٤٧٦ .

(١) الفتوح ج٦ ص١٥٥ .

(٢) العلْج : الرجلُ الضخم القوي من كفّار العجم ، وبعضهم يُطلقه على الكافر عموماً . المنجد . مادة : عَلَجَ ص٥٢٥ .

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٤ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٥٣ (بتصرف) .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٣ والفرسخ يعادل : ثلاثة أميال عربية ، وهي بين خمسة إلى ستة كيلو مترات .

كان الشمر في غاية الاطمئنان ، وهو يحاول أن يتظاهر باللامبالاة بقوة المختار ، فقد كان جالساً في غلمانه ، ومعه قومٌ قد صحبوه من أهل الكوفة من قتلة الحسين ابن علي عليه السلام وهم آمنون مطمئنون ، والشمر قد نزع درعه ورمى به ورمى ثيابه ، واتّزر بمئزر وجلس ، ودوابه بين يديه ترعى ، فقال له بعض أصحابه ممن كان معه : إنك لو رحلت بنا عن هذا المكان لكان الصواب ، فإنك قد قتلت غلام المختار ، ولا نأمن أن يكون قد وجّه في طلبنا ، فغضب الشمر من ذلك ، وقال : ويلكم ، أكلّ هذا خوفاً وجزعاً من الكذاب ! والله لا برحت من مكاني هذا إلى ثلاثة أيام ، ولو جائني الكذّاب في جميع أصحابه[1] . . ملأ الله قلوبكم رعباً . يقول أحد أصحابه ـ مسلم ابن عبد الله ـ وكان بذلك المكان الذي كنا فيه دبىً كثير ـ وهو الجراد الصغير ـ فوالله إني لبين اليقظان والنائم ، إذ سمعت وقع حوافر الخيل ، فقلت في نفسي : هذا صوت الدبى ، ثم إني سمعته أشد من ذلك ، فانتبهت ومسحت عينيّ ، وقلت : لا والله ، ما هذا بالدبى . وذهبت لأقوم ، فإذا أنا بهم قد أشرفوا علينا من التل ، فكبّروا ، ثم أحاطوا بأبياتنا[2] ، فهرب أصحاب شمر وتركوا خيلهم[3] . فلما نظر إليهم شمر وثب قائماً فتأمّلهم ، ونظروا إليه ـ وكان أبرصاً ، والبرص على بطنه وسائر بدنه كأنه ثوب مُلَمّع ـ ثم ضرب بيده إلى رمحه ثم دنا من أصحاب المختار ـ وهو يومئذ متّزر بمنديل[4] ، وأعجلوه عن لبس ثيابه وسلاحه ، فجعل يقاتلهم بالرمح[5] ثم ألقى رمحه ، ثم دخل بيته فأخذ سيفه ، ثم خرج . . .[6] وهو يرتجز ويقول :

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٥٦ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٣ .

(٣) أصدق الأخبار ص١٠٥ ، وكذلك في تاريخ الطبري ج٦ ص٥٣ . وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٤ ، أما على رواية ابن الأعثم في الفتوح ج٦ ص١٥٧ فإن جيش المختار قتل أصحاب شمر عن آخرهم . وقد يكون أن بعض أصحابه هرب والبعض الآخر بقي وهم الذين قتلوا « جميعاً بين الروايتين » .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٥٦ .

(٥) أصدق الأخبار ص١٠٥ .

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٤ .

تيمّموا ليثاً هزبراً باسلا[١] جهماً محيّاه يدقُّ الكاهلا

لم يك يوماً عن عدو ناكلاً إلا كذا مقاتلاً أو قاتلاً

يمنحكم طعناً وموتاً عاجلاً

فقصده عبد الرحمن بن عبيد الهمداني ، وهو يرتجز ويقول :

يا أيها الكلب العوي العامري أبشر بخزي وبموت حاضر

من عصبة لدى الوغى مَساعر شُمُّ الأنوف سادة مغاور

يا قاتلَ الشيخ الكريم الطاهر أعني حسينَ الخير ذي المفاخر

وابنَ النبي الصادق المهاجر وابنَ الذي كان لدى التشاجر

أشجعُ من ليث عرين خادر ذاك عليٌّ ذو النوال الغامر

ثم حنق عليه الهمداني ، فطعنه في نحره طعنة ، فسقط عدو الله قتيلاً[٢] ، ونادى عبد الرحمن : يا لثارات الحسين ، ثم أوطأه الخيل - وبه رمق - حتى مات ، ثم احتز رأسه . . ونبذت جيفته للكلاب[٣] . وباء في الدنيا قبل الآخرة بالذل وسوء العذاب وقتل أصحابه عن آخرهم ، وأخذت أموالهم وأسلحتهم ودوابهم . وأقبل الهمداني برأسه ورؤوس أصحابه إلى المختار حتى وضعها بين يديه ، فلما نظر المختار إلى ذلك خرّ ساجداً لله ، ثم أمر برأس الشمر و[رؤوس] أصحابه فنصبت بالكوفه في وجه

---

(١) في بقية المصادر كتاريخ الطبري وابن عساكر وأنساب الأشراف وبحار الأنوار ورد « نبهتّم ليث . . » ، وتيمّم أو يمّم فلاناً : توخّاه وقصده دون من سواه . المنجد مادة : يمم ص٩٢٦ - ٩٢٧ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٥٦ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٧ ، وفي أصدق الأخبار ص١٠٥ : أن عبد الرحمن ذبح شمراً ذبحاً - كما ذبح الحسين عليه السلام - وأوطأوا الخيل صدر شمر وظهره ثم ألقيت جثته للكلاب . وقد وردت رواية نادرة في كتاب امالي الشيخ الطوسي - قدس سره - في ص٢٤٩ وفي عوالم العلوم « الإمام الحسين عليه السلام » ص٦٦٣ تقول : « وطلب المختار شمر بن ذي جوشن فهرب إلى البادية فسعى به إلى أبي عمره ، فخرج إليه مع نفر من أصحابه فقاتلهم قتالاً شديداً فأثخنته الجراح ، فأخذه أبو عمرة أسيراً وبعث به إلى المختار ، فضرب عنقه وأغلى له دهناً في قدر وقذفه فيها فتفسخ . . . » .

الحدادين حذاء المسجد الجامع[١] ، ثم أمر لهذا الهمداني بعشرة آلاف درهم وولاّه أرض حلوان[٢] .

عمرو بن الحجاج الزبيدي

اختلفت الروايات في مصير عمرو بن الحجاج[٣] ونهايته ، بعد اتفاق الرواة أنه هرب بعد وقعة «جبانة السبيع» .

الرواية الأولى : أنه خرج فركب راحلته ، ثم ذهب عليها وأخذ طريق شراف وواقصه ،[٤] فلم يُرَ حتى الساعة ، ولا يُدرى أرضٌ بَخَسَتْه أم سماءٌ حصبته[٥] .

أما الرواية الثانية : أنه هرب ، فمات بواقصة عطشاً[٦] .

والرواية الثالثة : هرب عمرو بن الحجاج فسقط من العطش ، فلحقه أصحاب المختار ، وبه رمق ، فذبحوه واحتزّوا رأسه[٧] .

والرواية الأخيرة : هرب عمرو بن الحجاج يريد البصرة ، فخاف الشماتة فعدل إلى «شراف» ، فقال له أهل الماء : إرحل عنّا ، فإنا لا نأمن المختار ، فارتحل عنهم ، فتلاوموا وقالوا : قد أسأنا ، فركب جماعة في طلبه ليردّوه ، فلما رآهم من بعيد ظن

---

(١) في بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٤ وأصدق الخبار ص١٠٦ : ونصبت الرؤوس في رحبة الحذّائين حذاء الجامع .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٥٧ .

(٣) عمرو بن الحجاج الزبيدي هذا هو الذي كان على المشرعة يمنع الحسين عليه السلام من الماء (أصدق الأخبار ص٩٦) .

(٤) شراف تقع بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء . . ومن شراف إلى واقصة ميلان . معجم البلدان ج٣ ص٣٣١ . واقصة منزل بطريق مكة بعد القرعاء نحو مكة وقبل العقبة لبني شهاب من طي . المصدر ج٥ ص٣٥٤ .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٢ .

(٦) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٠ .

(٧) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٠ .

أنهم من أصحاب المختار ، فسلك الرمل في مكان يُدعى «البُيَيْضَة»[١] وذلك في أشد ما يكون من حرارة القيظ نصف النهار ، فقتله ومن معه العطش[٢] .

وكيف كان ، فقد كانت نهايته أنْ أهلكه الله عطشاً ﴿ ولعَذابُ الآخرة أخزى . . . ﴾[٣] .

خَوْلي بن يزيد الأصبحي

ومن رؤوس الإجرام خولي بن يزيد الأصبحي[٤] ، وقد بعث إليه المختار معاذ بن هانيء بن عدي الكندي ـ ابن أخي حُجْر ـ وبعث أبا عَمْره ـ صاحب الحرس ـ ومعبد بن سَلَمة الحضرمي ، فساروا حتى أحاطوا بدار خولي ، فاختبأ في مخرجه ، فأمر معاذٌ أبا عمرة أن يطلبه في الدار ، فخرجت امرأته إليهم ، فقال لها ، أبو عمره : لا بأس عليك ، أين زوجك ؟ فقالت : لا أدري ـ وأشارت بيدها إلى المخرج (المرحاض) ـ فدخلوا عليه وإذا هو جالس وعلى رأسه قَوْصَرَّة[٥] ، فأخرجوه . وكان المختار يسير بالكوفة ومعه ابن كامل ، وكان قد أقبل في أثر اصحابه ـ وقد بعث أبو عمرة إليه رسولاً ـ فأخبره الخبر ، فأقبل المختار نحوهم ، فاستُقْبِل به ، وأمر بردّه إلى جنب منزله ، فأمر به المختار فذبح بين يديه ذبحاً ، ثم أمر

---

(١) البُيَيْضَة لم تذكر في المعجم ، والأصح (البيْضَه) كما في (أصدق الأخبار ص٩٥) : ماء بين واقصة إلى العذيب . معجم البلدان ج١ ص٥٣٢ إذاً هي بين العراق والسعودية في البادية ، وليس في بادية حلب ، كما ذكر في حاشية الأخبار الطوال ص٣٠٤ ، ونقل عنه بعض المؤلفين .

(٢) الأخبار الطوال ص٣٠٣ «بتصرف» .

(٣) فصّلت : ١٦ .

(٤) كان قد رمى عثمان بن علي ـ وأمه أم البنين ـ على جبينه فسقط عن فرسه . وجزّ رأسه رجل من بني أبان ابن حازم ـ بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧ . وأيضاً رمى جعفر بن علي فأصاب شقيقته أو عينه . المصدر ص٣٨ .

(٥) وعاء من قصب يجعل فيه التمر ونحوه . المنجد ص٦٦٢ (وتسمى اليوم «خصّاف» أو «حلاّنة») .

به فأحرق، فلم يبرح حتى صار رماداً[١]. وكانت امرأته تسمى العيوف، وكانت حين أتاها برأس الحسين قد نفرت منه فكانت لا تكتحل ولا تتطيّب، وقالت: والله لا يرى منّي سروراً أبداً[٢].

حكيم بن الطفيل

ومن هؤلاء الذين أُدرك بهم الثأر «حكيم بن طفيل الطائي السنبسي»[٣] إذ بعث المختار إليه عبد الله بن كامل، فأخذه ثم أقبل به نحو المختار. فذهب أهله[٤] فاستغاثوا بعدي بن حاتم الطائي، فلحقهم في الطريق، فكلّم عبد الله بن كامل فيه، فقال: ما إليّ من أمره شيء، إنما ذلك إلى الأمير المختار. قال: فأني آتيه، قال: فأته راشداً. فمضى عدي نحو المختار ـ وكان المختار قد شفّعه في نفر من قومه أصابهم يوم جبّانة السبيع، لم يكونوا نطقوا بشيء من أمر الحسين عليه السلام ولا أهل بيته عليهم السلام.

فقالت الشيعة لابن كامل: إنّا نخاف أن يُشفِّع الأميرُ عديَ بن حاتم في هذا الخبيث، وله من الذنب ما قد علمت، فدعْنا نقتله، قال: شأنكم، فنصبوه غرضاً ـ وهو مكتوف ـ ثم قالوا له: سلبت ابن علي ثيابه، والله لنسلبن ثيابك وأنت حي تنظرُ! فنزعوا ثيابه، ثم قالوا له: رميت حسيناً، واتخذته غرضاً لنبلك، وقلت: تعلق سهمي بسرباله ولم يضرّه، وأيم الله لنرمينّك كما رميته بنبال ما تعلق بك منه أجزاك.

فرموه رشقاً واحداً، ووقعت به منهم نبال كثيرة فخرّ ميتاً. ويصفه أحدهم وقد

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٩، الفتوح ج٦ ص١٢٠، أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٦ (بتصرف).

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٧، وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص٦٠.

(٣) كان قد سلب العباس بن علي عليه السلام ثيابه، ورمى الحسين عليه السلام بسهم، فكان يقول: تعلق سهمي بسرباله وما ضرّه. تاريخ الطبري ج٦ ص٦٢. وكان أيضاً قد قطع يد العباس اليسرى، وعاون على قطع يمينه. بحار الأنوار ج٤٥ ص٤٠.

(٤) في بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٥ «فالتجأ نسوته بعدي بن حاتم ليشفع عند المختار».

رآه قتيلاً : كأنه قنفذٌ، لما فيه من كثرة النبال .

وكان عدي بن حاتم قد دخل على المختار ، فأجلسه معه على مجلسه ، فأخبره عديّ عما جاء له ، فقال له المختار : أتستحل يا أبا طريف أن تطلب فيّ قَتَلَة الحسين : قال : إنه مكذوب عليه ـ أصلحك الله ! قال : إذاً ندعه لك .

فلم يكن بأسرع من أن دخل ابن كامل ، فقال له المختار : ما فعل الرجل ؟ قال : قتلته الشيعة ، قال : وما أعجلك إلى قتله قبل أن تأتيني به ـ وهو لا يسرّه أنه لم يقتله ـ وهذا عديّ قد جاء فيه ، وهو أهل أن يُشَفّع ويؤتى ما يسرّه ! قال : غلبتني والله الشيعة ، قال له عدي : كذبت يا عدو الله ، ولكن ظننتَ أنّ من هو خير منك سيشفّعني فيه ، فبادرتني فقتلته ، ولم يكن خطر يدفعك عمّا صنعت[1] . النتيجة هو سقوط هذا المجرم قتيل انتهاكه الحُرُمات[2] .

مرّة بن منقذ العبدي

وبعث المختار عبد الله بن كامل للقبض على مرّة بن منقذ بن النعمان العبدي ـ من عبد القيس ـ[3] ، فأتاه وأحاط بداره ، فخرج مرّة إليهم وبيده الرمح ـ وهو على فرس جواد ، فطعن عبيد الله بن ناجية الشبامي فصرعه ولم يضره ، وضربه ابن كامل بالسيف فاتقاها بيده اليسرى فأسرع فيها السيف ، وجرى فرسه بشدة ، فأفلت ولحق بمصعب ، وشُلّت يده بعد ذلك[4] .

---

(١) وبقية المحاورة هي : فاسْحنفر ـ اتسع ـ إليه ابن كامل بالشتيمة ، فوضع المختار أصبعه على فيه ، يأمر ابن كامل بالسكوت والكف عن عدي . فقام عدي راضياً عن المختار ، ساخطاً على ابن كامل ، يشكوه عند من لقي من قومه . تاريخ الطبري ج٦ ص٦٣ ، أصدق الأخبار ص٩٩ .

(٢) وقد ذكر البلاذري في أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٧ « . . . وبادر به إلى المختار قبل شفاعة ابن حاتم له إلى المختار ، فأمر به المختار ، فعُرّي ورُمي بالسهام حتى مات .

(٣) وهو قاتل علي بن الحسين (الأكبر)

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٤ ، وانظر أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٩ أصدق الأخبار ص١١٨ .

زيد بن رقاد الجَنْبي

بعث المختار عبد الله بن كامل في جماعة إلى زيد بن رُقاد الجنبي[١] فأحاط بداره، فخرج مصلتاً سيفه فقاتل، فقال ابن كامل: لا تضربوه بسيف ولا تطعنوه برمح، ولكن ارمحوه بالنبل وارجموه بالحجار ـ لكي لا يدع له فرصة الإفلات كما حصلت مع مرّة بن منقذ ـ ففعلوا ذلك به حتى سقط، فقال ابن كامل: إن كان به رمق فأخرجوه، فأخرجوه وبه رمق، فدعا بنار فحرّقه بها وبه حياة حتى صار رماداً[٢].

مالك بن النُسير وصاحباه

أخبر المختار عن مخبأ مالك بن النُسير البدّي[٣] وحَمَل بن مالك المحاربي وعبد الله ابن أسيد الجُهَني، فبعث إليهم «أبا نمران» مالك بن عمرو النهدي ـ وهو من رؤوس أصحاب المختار ـ فأتاهم وهم بالقادسية، فأخذهم، فأقبل بهم حتى أدخلهم عليه عشاءاً، فقال لهم المختار: يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله

---

(١) هو قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وكان يقول: رميت فتىً من آل الحسين ويده على جبهته فأثبتها في جبهته، ورماه بسهم آخر فلق قلبه، فكان يقول: نُزع سهمي من قلبه وهو ميت، ولم أزل انضض سهمي الذي رميت به جبهته فيها حتى انتزعته وبقي النصل.
والحسين ﷺ قال عندما أثبت كفه في جبهته: اللهم إنّهم استقلّونا واستذلّونا، اللهم فاقتلهم كما قتلونا، وأذلّهم كما استذلونا.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٤، أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٧، أصدق الأخبار ص١١٩ «بتصرف».
وحادثة إحراقه حيّاً أو سلخه وهو حي كما نقل البلاذري، قد تكون من وضع الوُضّاع لتشويه صورة المختار، وإن كان قد حصل ذلك فعلاً، فليس هناك دليل كون هذا التصرف نتيجة أوامر المختار، وماهي إلا تصرّف الناس الذين يحاولون بكل الصور التكفير عن تقصيرهم تجاه أمامهم الحسين ﷺ وهؤلاء الجناة بحق أهل البيت ﷺ يستحقون أكثر مما نالوه، وما عند الله أشد عذاباً وأشد نكالاً.

(٣) الذي دل المختار على المخبأ هو «عبد الله بن دباس» تاريخ الطبري ج٦ ص٥٧ ومالك بن النسر هو الذي صرب الحسين بن علي ﷺ على رأسه ـ وعليه برنس ـ فامتلأ دماً فألقاه فجاء فأخذه. أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٨.

وآل رسوله ، أين الحسين بن علي ؟ ادّوا إليّ الحسين . . قتلتم من أُمرتم بالصلاة عليه في الصلاة ! ، فقالوا : رحمك الله ، بُعثنا ونحن كارهون ، فامننْ علينا واستبقنا ، قال المختار : فهلاّ مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه ! ثم قال المختار للبدّي : أنت صاحب برنسه ؟ فقال له عبد الله بن كامل : نعم ، هو هو ، فقال المختار : اقطعوا يدي هذا ورجليه ودعوه فليضطرب حتى يموت[1] ـ وكان قد أمر بنار فأُججت في الرحبة عظيمة ـ فقطعت يده وألقيت في تلك النار ، ثم قطعت رجله ، فألقيت فيها وهو ينظر[2] ، وكذلك بقية أطرافه ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات ، وأمر بالآخريْن فقدّما ، فقتل عبدُ الله بن كامل عبدَ الله الجهني ، وقتل سعرْ بن أبي سعر حَمَلَ بن مالك المحاربي[3] .

حُمَيد بن مسلم وجماعة

بعث المختارُ السائبَ بن مالك الأشعري مع عده من الفرسان للقبض على حميد ابن مسلم وابنا صلخب واحد الهمدانيين ، فهرب حميد بن مسلم نحو ـ مضارب عبد القيس ـ وخرج عبد الله وعبد الرحمن ابنا صلخب في أثره ، فتشاغل السائب بن مالك وفرسانه بالقبض على عبد الله وعبد الرحمن ابنا صلخب ، فأخذوهما[4] ، وأفلت حميد بن مسلم من أيديهم ، ثم مضوا بهما حتى مرّوا على منزل عبد الله بن وهب بن عمرو الهمداني ـ ابن عم أعشى همدان ـ فأخذوه ، وانتهوا بهم إلى المختار ، فأمر بهم فقُتلوا في السوق ، فقال حميد بن مسلم :

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٧ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٨ .

(٤) في أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٩ «فأخذ ـ السائب ـ عبد الله وعبد الرحمن ابني وهب الهمداني وهما ابنا عم أعشى همدان . . .

ألـــم ترنـــي علـــى دهـــش نجــوت ولــم أكــد أنجــو
رجـــاءُ الله أنقذنـــي ولــم ألكُ غــيره أرجــو(١)

عثمان بن خالد وبشر بن سوط

بعث المختار عبد الله بن كامل إلى عثمان بن خالد الدهماني من جهينة ، وإلى بشر بن سوط القابضي(٢) ، فأحاط عبد الله بن كامل [بخيله] عند العصر بمسجد بني دُهمان ، ثم قال : عليّ مثل خطايا بني دُهمان منذ يوم خلقوا إلى يوم يبعثون إنْ لم أُوتَ بعثمان بن خالد بن أسير ، إن لم اضرب أعناقكم من عند آخركم(٣)! فقالوا له : امهلنا نطلبه ، فخرجوا مع الخيل في طلبه ، فوجدوهما ـ هو وبشر بن سوط ـ جالسين في الجبانة ـ وكانا يريدان أن يخرجا إلى الجزيرة ـ فأُتي بهما عبدَ الله بن كامل ، فقال : الحمد لله الذي كفى المؤمنين القتال . لو لم يجدوا هذا مع هذا عنّانا . ـ أي اتعبنا بالذهاب ـ إلى منزله ، فالحمد لله الذي حيّنك حتى أمكن منك . فخرج بهما حتى إذا كان في موضع بئر الجعد ضرب أعناقهما ـ ورجع فأخبر المختار خبرهما ، فأمره أن يرجع إليهما فيحرقهما بالنار ، وقال : لا يدفنان حتى يحرقا .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٨ « بتصرف » ولعل المصلحة كانت في بقاء حميد بن مسلم حياً ، لتصل إلينا عبره الكثير من إحداث عاشوراء ، وكان هو الراوي الوحيد لها وقد جاء في بحار الأنوار ج٤٥ ص١٠٧ : ان عمر بن سعد بعث برأس الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء مع خولي بن يزيد الأصبحي وحُميد بن مسلم الأزدي إلى عبيد الله بن زياد إلى الكوفة .

(٢) قد ورد اسمه في أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٩ هكذا «نسر بن شوط القابضي» . وكانا ممن شهدا قتل الحسين عليه السلام وكانا اشتركا في دم عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب وفي سَلَبه .

(٣) ولعل عبد الله بن كامل كان قد بحث عنهما فلم يجدهما ، ولم يرشده قومهما إلى مخابئهم ، فاستعمل معهم هذا التهديد .

بجدل (بحر) بن سليم الكلبي

ثم أُتي برجل يقال له بحر بن سليم الكلبي حتى أُدخل على المختار، فقالوا : أيها الأمير، هذا الذي أخذ خاتم الحسين ﷺ، فقطع أصبعه مع الخاتم! فقال : اقطعوا يديه ورجليه ودعوه يتشحط في دمه، فلم يزل ينزف حتى مات.

عدّة من القَتَلة

دلّ سَعرُ بن أبي سعر المختارَ على رجال من قتلة الحسين ﷺ[١] وهم :

١ـ زياد بن مالك الضبعي ٢ـ عمر (عمران) بن خالد العنزي ٣ـ عبد الرحمن بن أبي خَشكارة البجلي ٤ـ عبد الله بن قيس الخولاني .

فبعث المختار عبد الله بن كامل . يقول أبو سعيد الصيقل : فخرجنا معه، حتى مر ببني ضُبيعة، فأخذ منهم رجلاً يقال له زياد بن مالك، ثم مضى إلى عنزة فأخذ منهم رجلاً يقال له عمران بن خالد . ثم بعثني في رجال معه يقال لهم «الدبّابة» إلى دار في الحمراء[٢] ـ فيها عبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي وعبد الله بن قيس الخولاني، فجئنا بهم حتى أدخلناهم على المختار، فقال لهم : يا قتلة الصالحين، وقتلة سيد شباب أهل الجنة، ألا ترون الله قد أقاد ـ أي اقتص ـ منكم اليوم! لقد جاءكم الوَرْس بيوم نحس . . أخرجوهم إلى السوق فاضربوا رقابهم، ففُعل ذلك بهم[٣] .

عمرو بن صبيح

وطلب المختار رجلاً من صُداء اسمه «عمرو بن صُبيح»[٤] وكان يقول : لقد طعنت بعضهم وجرحت فيهم، وما قتلت منهم أحداً، فأُتي ليلاً وهو على سطح

(١) وهم الذين سرقوا الحُلَل والورس ـ نوع عطر ـ وعُدّة كانوا نهبوها من رحل الحسين ﷺ .

(٢) منطقة سكن الموالي أي غير العرب .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٥٨ ، وانظر أيضاً ، أصدق الأخبار ص١٠٩ .

(٤) يقال أنه رمى عبد الله بن مسلم في جبهته ، وأن زيد بن رقاد فلق قلبه أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٨ .

داره ، وهو لا يشعر ، بعدما هدأت العيون ، وسيفه تحت رأسه ، فأخذوه أخذاً ، وأخذوا سيفه ، فقال : قبّحك الله سيفاً ، ما أقربك وأبعدَك ! فجيء به إلى المختار ، فحبسه معه في القصر ، فلمّا أصبح أذن لأصحابه ، والمنادي ينادي على باب القصر : ليدخل من يشاء أن يدخل ، ودخل الناس ، وجيء به مقيداً ، فقال : أما والله يا معشر الكفرة الفَجَرة أنْ لو بيدي سيفي لعلمتم أني بنصل السيف غير رعيش ولا رعْديد . . . ما يسرّني إذا كانت منيتي قتلاً أنه قتلني من الخلق أحد غيركم . . لقد علمت أنكم شرار خلق الله ، غير أني وددتُ أن بيدي سيفاً أضرب به فيكم ساعة ، ثم رفع يده ـ بعد أن أفلتها من القيد ـ فلطم عين ابن كامل ـ وهو إلى جنبه ـ فضحك ابن كامل ، ثم أخذ بيده وأمسكها ، ثم قال : أنه يزعم أنه قد جرح في آل محمد وطعن ، فمرنا بأمرك فيه ، فأمر به فعُرِّي ، ثم[1] قال المختار : عليّ بالرماح ، فأُتي بها ، فقال : اطعنوه حتى يموت ، فطُعن بالرماح حتى مات ،[2] ثم أُحرق[3] .

قيس بن الأشعث

إن قيس بن الأشعث[4] أنف من أن يأتي البصرة ، فيشمت به أهلها ، فانصرف إلى الكوفة مستجيراً بعبد الله بن كامل ـ وهو من أخص الناس عند المختار ورئيس حرسه .

فأقبل عبد الله هذا إلى المختار ، فقال : أيها الأمير ، إن قيس بن الأشعث قد استجار بي وأجرتُه ، فأنفذ جواري إياه ، فسكت عنه المختار مليّاً ، وشغله بالحديث ، ثم قال : أرني خاتمك ، فناوله إياه ، فجعله في أصبعه طويلاً ، ثم دعا أبا عمرة ،

(١) عن أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٥ ، وراجع أيضاً أصدق الأخبار ص١٢٣ وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٦ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٠٨ .

(٤) كان قد أخذ قطيفة من خزّ للإمام الحسين حين قُتل ، فكان يسمى « قيس قطيفة » . بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٨ ، الأخبار الطوال ص٣٠٢ .

فدفع إليه الخاتم ، وقال له سرآ : انطلق إلى امرأة عبد الله بن كـامل ، فقـل لهـا : هـذا خاتم بعلك علامة ، لتدخليني إلى قيس بن الأشعث ، فـأني أريـد مناضرتـه في بعـض الأمور التي فيها خلاصه من المختار ، فأدخلته إليـه فـانتضى سيفه ، فضرب عنقه ، وأخذ رأسه ، فأتى به المختار ، فألقاه بين يديه ، فقال المختار : هذا بقطيفة الحسين .

فاسترجع عبد الله بن كامل ، وقال للمختار : قتلـتَ جاري وضيفـي وصديقـي في الدهر !

فقـال لـه المختـار : لله أبـوك ، اسـكت . . . اتسـتحل أن تجير قتلـة ابـن بنـت نبيّك ؟ !(١) .

حرملة بن كاهل الأسدي

حرملة بن كاهل هذا كان من عتاة المجرمين يوم عاشوراء ، وكـان قـد هـرب مـن الكوفة(٢) فَرَقاً من سيف المختار الـذي لاشـك سيطاله ، ولكـن ولأسباب مجهولـة وجد بعد فترة في الكوفة ، وأوصلت العيون الخبر إلى المختار .

يقول المنهال بن عمرو : قدمت الكوفة . . . وركبت إلى المختار فلقيته خارجاً من داره ، فقال : يا منهال لم تأتنا في ولايتنـا هـذه ، ولـم تهنّئنـا بهـا ، ولـم تشـاركنا فيهـا ؟ فقلت : إني كنت بمكة وقد جئتك الآن ، وسـايرته ونحـن نتحـدث حتـى أتـى الكنـاس (ـة) ، فوقف وقوفاً كأنه ينتظر شيئاً ـ وقد كـان أخبر بمكـان حرملـة بـن كـاهل فوجّه في طلبه ـ فلم يلبث أن جاء قوم يركضون ويشتدون ، حتى قالوا : أيها الأمير البشـارة . . قد أُخذ حرملة بن كاهل ، فما لبثنا أن جيء به ، فلما نظر إليه المختار قال له : الحمد لله الذي أمكنني منك ، ثم قال : الجـزّار الجزار ، فـأُتي بجـزّار ، فقـال لـه : اقطـع يديـه ،

---

(١) الأخبار الطوال ص٣٠٢ ، أصدق الأخبار ص١٢٤ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٠ .

فقطعتا ، ثم قال له : اقطع رجليه ، فقطعتا ، ثم قال : النار النار ، فأُتي بنار وقصب ، فأُلقي عليه فاشتعل فيه النار .

يقول المنهال : فقلت : سبحان الله ! فقال لي : يامنهال إن التسبيح لحسن ، ففيم سبّحت ؟ فقلت : أيها الأمير ، دخلت في سفرتي هذه [عند] منصرفي من مكة على علي بن الحسين عليه السلام ، فقال لي : يا منهال ، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي ؟ فقلت : تركته حيّاً بالكوفة ، فرفع يديه جميعاً فقال : « اللهم أذقه حرّ الحديد ، اللهم أذقه حرّ الحديد ـ اللهم أذقه حرّ النار » .

فقال لي المختار : أسمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول هذا ؟ فقلت : والله لقد سمعته يقول هذا .

فنزل عن دابته وصلى ركعتين ، فأطال السجود ، ثم قام فركب ـ وقد احترق حرملة ـ وركبت معه ، وسرنا فحاذيت داري ، فقلت : أيها الأمير إن رأيت أن تشرّفني وتكرمني وتنزل عندي وتحرّم بطعامي[١] .

فقال : إن علي بن الحسين عليه السلام دعا بدعوات ، فأجابها الله على يدي ، ثم تدعوني إلى الطعام ؟ هذا يوم صومٍ شكراً لله تعالى ، فقلت : أحسن الله توفيقك[٢] .

سنان بن أنس النَخَعي

وسنان هذا من ألعن خلق الله ، بل ألعنهم ، فهو المتجرئ على رسول الله صلى الله عليه وآله بذبح سبطه سيد شباب أهل الجنة[٣] .

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٢ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٦ ، أمالي الشيخ الطوسي ص٢٤٤ عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٦٤ .

(٣) الروايات تحدد قاتل الحسين عليه السلام بأحد اثنين ، الأول : هو شمر بن ذي الجوشن ، والثاني : سنان بن أنس النخعي .

أما سنان بن أنس : فبعد أن أعيا الحسين عليه السلام وجعل ينوء ويكبو ، طعنه سنان بن أنس في ترقوته ، ثم انتزع الرمح فطعنه في بواني صدره ، ثم رماه بسهم فوقع السهم في نحره ، فسقط عليه السلام (عن الفرس) وجلس قاعداً .

=

وهرب سنان ، فلحق بالبصرة ، فهدم المختارُ داره[١] . وبعد فترة خرج سنان من البصرة نحو القادسية ـ وكان عليه عيون ـ فاخبروا المختار ، فأخذه بين العذيب والقادسية[٢] . ولك أن تتصور ما يمكن أن يفعل المختار بهذا الـ...[٣] .

فكل ما يمكن أن يفعله به فهو قليل ولا يشفي الغليل . . أخذه المختار فقطع أنامله أنملة أنملة ، ثم قطع يديه ورجليه ، وأغلى له قدراً فيها زيت ورماه فيها ـ وهو يضطرب[٤] .

عمر بن سعد بن أبي وقّاص

وهو كان على رأس الجيش الذي حارب الحسين عليه السلام ، وقتَلَه وأهلَ بيته وأنصارَه ، وسبا عياله ، ونهب أمواله[٥] .

وكان عمر قد اختفى حين ظهور أمر المختار ، وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة ـ ابن أخت أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ أكرم الناس على المختار لقرابته من أمير المؤمنين عليه السلام ، فطلب عمر بن سعد من عبد الله بن جعدة أن يأخذ أماناً من المختار ففعل ، وكتب له

=

فقال عمر بن سعد لرجل عن يمينه : انزل ويحك إلى الحسين فأرحه ، فبدر إليه خولي بن يزيد الأصبحي ليجتز رأسه فأُرعد ، فنزل إليه سنان بن أنس النخعي ، فضربه بالسيف في حلقه الشريف ، وهو يقول : والله إني لأجتزُّ رأسك وأعلم أنك ابن رسول الله وخير الناس أماً وأباً . ثم اجتزّ رأسه المقدّس المعظم (صلى الله عليه وسلّم وكرّم) بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٤ ـ ٥٥ .

(١) أنساب الأشراف ج٤٥ ص٤١٠ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٥ .

(٣) لقد عجزت أن أجد كلمة أصفه بها ولو بحثت في كل قواميس الأرض .

(٤) بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٥ . وقد ورد في أنساب الأشراف ما يدل على عدم امساك المختار بسنان بن أنس النخعي ، ففي ج٦ ص٤١٠ جاء : قالوا : فبينا الحجاج يخطب ذات يوم ، إذ قال : لِيَقُمْ كل ذي بلاء وغَناء فيتكلم : فقام سنان فقال : أنا قاتل الحسين بن علي ، فقال الحجاج : بلاء لَعَمْر الله حسن ، واعتُقل لسان سِنان ، ومات بعد خمس عشرة ليلة .

(٥) راجع تفاصيل ذلك في كتب المقاتل كـ «مقتل الحسين عليه السلام» للمقرم والكعبي ، و «فاجعة الطف» للسيد محمد كاظم القزويني ، والمصادر التاريخية كتاريخ الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير وغيره .

المختار أماناً[١] فلما خلا خاطر المختار، وانجلى ناظره، اهتم بعمر بن سعد وابنه حفص[٢].

والذي أهاج المختار على التعجيل في قتل عمر بن سعد، وصول الأخبار على عدم رضا أهل البيت ﷺ بإمهاله أكثر من ذلك، وقد نقل له يزيد بن شراحيل الأنصاري سخط محمد بن الحنفية، فالمختار كان قد أرسله في مهمة وأمره التعريج على محمد بن الحنفية وأوصاه: وأقر عليه مني السلام، وقل له: يقول أبو إسحاق: إني أحبك، وأحب أهل بيتك فأتاه الرسول، فقال له ذلك، فقال ـ ابن الحنفية في غضب ـ: كذبت وكذب أبو إسحاق معك، كيف يحبني ويحب أهل بيتي، وهو يجلس عمر بن سعد بن أبي وقاص على وسائده (وقد قتل الحسين بن علي أخي)؟!

وقدم على المختار الرسول وأخبره بما كان[٣]، وعلى الفور أقدم المختار على خطوتين ليكون عمر بن سعد هو من يقدم على نقض الأمان، وتكون الحجة عليه وليس على المختار شيء في دمه.

الأولى: أقبل يحدّث جلساءه ـ وهو يعلم أن فيهم من سينقل الكلام إلى ابن

---

(١) أصدق الأخبار ص١١٣، وقد أورد نص الأمان كل من تاريخ الطبري ج٦ ص٦٠ والفتوح ج٦ ص١٢٢ وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٨ والنص في المصادر متشابهة. ونص الأمان نقلناه عن تاريخ الطبري.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا أمان من المختار بن أبي عبيد الثقفي لعمر بن سعد بن أبي وقّاص، أنك آمن بأمان الله على نفسك ومالك وأهلك وأهل بيتك وولدك، لا تؤاخذ بحدث كان منك قديماً ما سمعت وأطعت ولزمت رحلك وأهلك ومصرك، فمن لقي عمر بن سعد من شرطة الله وشيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس، فلا يعرض له إلا بخير. شهد السائب بن مالك وأحمر بن شميط وعبد الله بن شداد وعبد الله بن كامل. وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليفين لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان، إلاّ أن يُحدث حدثاً، واشهد الله على نفسه، وكفى بالله شهيداً.

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٧.

(٣) الإمامة والسياسة ج٢ ص٢٤ «بتصرف» وانظر تاريخ الطبري ج٦ ص٦٢.

سعد ـ فقال : « والله ، لأقتلنّ رجلاً عظيم القدمين . . غائر العينين . . مشرف الحاجبين . . يهمر برجله الأرض . . يُرضي قتله أهل السماء والأرض » ، فسمع الهيثم بن الأسود النخعي قوله ـ وكان جالساً عن يساره ـ ووقع في نفسه أنه أراد عمر ابن سعد[١] ، فلما رجع إلى منزله دعا ابنه « العَريان » فقال : إلقَ ابن سعد الليلة فخبّره بكذا وكذا ، وقل له : خذ حذرك فإنه لا يريد غيرك .

فأتاه فاستخلاه ـ طلب الخلوة به ـ ثم حدثه الحديث ، فقال له عمر بن سعد : جزى الله أباك والإخاء خيراً ! كيف يريد هذا بي بعد الذي أعطاني من العهود والمواثيق[٢] ! وأصبح في حيرة من أمره .

الخطوة الثانية : طلب من أبي عمرة وقال له : استأجر لي نوائح يبكين الحسين عليه السلام على باب عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ففعل[٣] .

همّ عمر بن سعد بالخروج عن الكوفة[٤] ، بعد أن لمس الخطر ، فخرج في ليلته تلك حتى أتى حمّامه[٥] ، بعد أن أحضر رجلاً من بني تيم اللات اسمه « مالك » وكان شجاعاً ، وأعطاه أربعمائة دينار ، وقال : هذه معك لحوائجنا . . . فلما كان عند حمّام عمر . . . وقف وقال لصاحبه : أتدري لمَ خرجت ؟ قال : لا ، قال : خفتُ المختار ! فقال : ابن دومة (المختار) اضيق أَستاً من أن يقتلك ، وإن هربت هدم دارك ، وانتهب عيالك ومالك ، وخرّب ضياعك ، وأنت أعز العرب[٦] . .

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٧ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٦٠ .

(٣) الإمامة والسياسة ج٢ ص٢٤

(٤) أنساب الأشراف ج٤٥ ص٤٠٦ « بتصرف » .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٦١ . لم تذكر المصادر حمّاماً باسم « عمر بن سعد » إلا أن يكون إشارة إلى حمّام أعين مولى سعد بن أبي وقاص ، الذي مرّ ذكره سابقاً .

(٦) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٨ ـ وفي نفس الصفحة رواية تقول : أن عمر بن سعد عندما هرب من الكوفة . . . نام على الناقة ، فرجعت وهو لا يدري حتى ردّته إلى الكوفة .

ارجع إلى رحلك . . لا تجعلن للرجل عليك سبيلاً[١]. فاغترّ بكلامه ، فرجعا على الروحاء ، فدخلا الكوفة مع الغداة .

وعندما وصل الخبر إلى المختار ـ عن طريق عيونه ـ بخروج عمر بن سعد ، قال : وفينا له وغدر[٢] . . كلاّ أن في عنقه سلسلة ستردّه ، لو جهد أن ينطلق ما استطاع[٣]. وهكذا كان ، فأرسل عمر عند الصبح ابنه حفصاً إلى المختار ليجدد له الأمان ، فقال له المختار : أين أبوك؟ فقال : في المنزل ، ولم يكن عمر بن سعد وابنه حفص يجتمعا عند المختار ، فإذا حضر أحدهما غاب الآخر خوفاً أن يجتمعا فيقتلهما ، فقال حفص : أبي يقول : أتفي لنا بالأمان ؟ قال : اجلس[٤]، ثم قال : وإن أبي يقول : ما شأن النوائح يبكين الحسين على بابي ؟ فقال له : إنه أهل أن يبكى عليه ، فقال : أصلحك الله ، انهَهُنّ عن ذلك ، قال : نعم[٥]، فدعا المختار « أبا عمرة » فجاء رجل قصير يتخشخش في الحديد ـ أي السلاح ـ فسارّه ، ودعا برجلين فقال : اذهبا معه[٦]، وكان قد قال له : اذهب الساعة في جماعة من أعوانك حتى تهجم على عمر بن سعد فتأتيني به ، فإذا دخلت عليه وسمعتَه يقول : يا غلام ، عليّ بطيلساني ، فاعلم إنما يدعو بالسيف ، فبادر إليه بسيفك فاقتله ، وائتني برأسه !

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٦١ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٦١ . والسلسلة هذه إشارة إلى دعاء الإمام الحسين عليه السلام على عمر بن سعد يوم عاشوراء عندما صاح به : « مالك ؟ قطع الله رحمك ! ولا بارك لك في أمرك ، وسلط عليك من يذبح بعدي على فراشك . . . » بحار الأنوار ج٤٥ ص٤٣ ، وقول الإمام الحسين عليه السلام لعمر بن سعد بعد حوار : . . فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة ، ولكأني برأسك على قصبة قد نُصب بالكوفة يتراماه الصبيان ، ويتخذونه غرضاً بينهم » المصدر ص١٠ .

(٤) أصدق الأخبار ص١١٦ ، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٨ .

(٥) الإمامة والسياسة ج٢ ص٢٤ .

(٦) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٦ .

فلم يشعر عمر بن سعد إلاّ وأبو عمره قد وافاه في أعوانه ، فلما نظر إليه بقى متحيراً ، ثم قال : ما شانكم ؟ فقال : أجب الأمير ! فقال : إن الأمير قد علم بمكاني ، وقد أعطاني الأمان ، فهذا أمانه عندي . . . ثم قال : يا غلام عليّ بالأمان . . فقال له أبو عمره : صدقت يا أبا حفص ، لقد كنّا حضوراً عند الأمير ـ أيده الله ـ حين كتب لك هذا الأمان ، غير أنه يقول : إلا أن يحدث حدثاً ، ولَعمري لقد دخلت المخرج مراراً ، فأحدثت إحداثاً ، وليس مثل المختار من يغلط ، وإنما عنى هذا الأحداث ، وليس يجب أن يغنى عن مثلك ، وقد قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ الحسين بن علي وابن فاطمة ، ولكن أجب الأمير فلعله إنما يدعوك لأمر من الأمور ، قال ابن سعد : فإني أفعل ، يا غلام عليّ بطيلساني ! فقال أبو عمره : يا عدو الله لمثلي يُقال هذا ! وسل سيفه ثم ضربه ضربة على رأسه ، سقط منها على قفاه ، ثم قال لأعوانه : خذوا رأسه ، فأخذوا رأس عمر بن سعد[١] ، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار[٢] وابنه حفص بن عمر بن سعد واقف بين يديه ـ وهو ابن أخت المختار ـ[٣] فقال حفص : إن لله وإنا إليه راجعون ! فقال له : تعرف هذا الرأس ؟ قال : نعم ، ولا خير في العيش بعده ، فقال : إنك لا تعيش بعده[٤] ، فأمر به فقُتل ، فإذا برأسه مع رأس أبيه . ثم أن المختار قال بعد فترة تأمل وأشار بيده : هذا بحسين وهذا بعلي بن الحسين ، ولا سواءه ، والله لو قتلتُ به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنمُلَةً من أنامله[٥] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٢٣ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٦١ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٢٣ .

(٤) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٩ .

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٦١ ، وقد ذكر قتل عمر بن سعد وابنه حفص كل هذه المصادر الآنفة ذكرها .

رسالة السرور

وجه المختار بالرأسين ـ رأس عمر بن سعد وابنه حفص ـ إلى مكة . . إلى محمد بن الحنفية ، ووجه أيضاً مع الرأسين ثلاثين ألف دينار ، وكتب إليه (كتاباً)(١) .

ثم دفع الكتاب والمال والرأسين إلى مسافر بن سعيد الهمداني وظبيان بن عمارة التميمي ، وضمّ إليهما عشرين رجلاً ، ووجه بهم إلى محمدبن الحنفية ـ وهو يومئذ بمكة ـ وهو جالس في نفر من شيعته يحدثهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى المختار بن أبي عبيد يزعم أنه محب لنا ، وأنه من شيعتنا ، وأنه يطلب بدماء أهل البيت ﷺ ، وقتلة الحسين بن علي ﷺ جلوس على الكراسي يحدثهم ويحدثونه . . حتى لقد بلغني عن عمر ابن سعد وابنه حفص أنهما يغدوان إليه ويروحان ـ والله المستعان .

فما خرجت الكلمة من فيه إلا وكتاب المختار قد وافاه مع الرأسين والمال ، فلما وضع ـ الرسول ـ الرأسين بين يديه وقرأ الكتاب حوّل وجهه إلى القبلة وخرّ ساجداً ، ثم

---

(١) ونص الكتاب هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

للمهدي محمد بن علي ، من المختار بن أبي عبيد

سلام عليكم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعثني نعمةً لأوليائكم ونقمة على قاتليكم وأعدائكم ، فهم من بين قتيل وأسير وطريد ، فأحمد الله على ذلك أيها المهدي حمداً نستوجب منه المزيد في العاجلة ، والمغفرة في الآجلة .

وقد وجهت إليك برأس عمر بن سعد ورأس ابنه حفص بن عمر ، وقد قتلت مَن شارك في دم الحسين بن علي ﷺ وأهل بيته ممن قدرت عليه بالكوفة ، ولن يعجز من بقي منهم ، ولست أنام ، ولا يسوغ لي الطعام حتى لا يبقى أحد ممن شارك في دماء أهل بيتك ، وأنا أرجو أن يقتل الله عز وجل عبيد الله بن زياد وأصحابه المحلين ، فأطهّر منه ومن شيعته البلاد ، وقد وجهت إليك أيها المهدي ثلاثين ألف دينار لتفرّقها على مَن أحببت من أهل بيتك ومَن التجأ إليك من شيعتك ، فاكتب إليّ في ذلك برأيك اتّبعه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

رفع رأسه وبسط كفّه وقال : « اللهم لا تنسى هذا اليوم للمختار ! اللهم واجزه عن أهل بيت نبيك محمد ﷺ خير الجزاء ! فوالله ما على المختار بعد هذا من عتب » !

ثم أخذ ذلك المال ففرّق منه بمكة ما فرّق ، ووجه الباقي إلى المدينة ، ففُرق في أهل بيت رسول الله ﷺ ، وغيرهم من أولاد المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين[1] .

لحوم إبل الحسين عليه السلام :

كان شمر بن ذي الجوشن لعنه الله نهب من الإبل التي كانت مع الحسين عليه السلام ، فلما قدم الكوفة نحرها وقسّم لحومها على قوم من أهل الكوفة[2] ، فأمر المختار ، فأحصوا كل دار دخلها ذلك اللحم ، فقتل أهلها وهدمها[3] .

القتل والتشريد

ولم يزل المختار يتبع قتلة الحسين عليه السلام حتى قتل خلقاً كثيراً ، وهزّم الباقين ، فهدم دورهم وأنزلهم من المعاقل والحصون إلى المفاوز والصحون . . .

وقتلت العبيد مواليها ، وجاؤوا إلى المختار فعتقهم[4] وكان العبد يسعى بمولاه فيقتله المختار ، حتى أن العبد يقول لسيده : احملني على عنقك فيحمله ، ويدلي

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٢٣ ، وانظر ايضاً أصدق الأخبار ص١١٧ وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٩ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٦٢ .

(٢) قد تحولت هذه اللحوم إلى نار وعلقم ، ففي أكثر من رواية جاء هذا المعنى ، فعن هارون الواسطي قال : « نُحر إبل الحسين عليه السلام فإذا لحمه يتوقد ناراً » وقال جميل بن مُرّة « لما طبخوها صارت مثل العلقم » . . . فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئاً . وتقول إحداهن : لقد رأيت الورس عاد رماداً ، ولقد رأيت اللحم كأن فيه النيران حين قُتل الحسين عليه السلام . هذه الروايات وأشباهها توجد في « عوالم العلوم ـ الإمام الحسين عليه السلام » ص٦١٦ ، وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٠٢ .

(٣) أصدق الأخبار ص١٢١ . بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٧ .

(٤) لعله كان يشتريهم من بيت المال أو ماله الخاص فيعتقهم .

رجليه على صدره ، إهانةً له ولخوفه من سعايته به إلى المختار[١] .

وقد قتل المختار كل من قدر عليه ممن اشترك في قتل الحسين ﷺ وأهل بيته وأصحابه ، وممن أعان على ذلك ، ولو بتكثيره السواد ، وكان قتلاه يربون على الثلاثة آلاف من هؤلاء[٢]، فجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء وأفضله .

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٧ . أصدق الأخبار ص١٢١ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٣٨ .

هدم الــدور

قد ذكرنا أن المختار أمر أبا عمرة أن يجمع ألف رجل من الفَعَلة بالمعاول، وتتبع دور مَن خرج إلى قتال الحسين بن علي عليهما السلام فيهدمها.

وكان أبو عمرة بذلك عارفاً، فجعل يدور بالكوفة على دورهم، فيهدم الدار في لحظة، فمن خرج إليه منهم قتله، حتى هدم دوراً كثيرة[١].

وكان لا يبلغه عن رجل من أعداء الحسين أنه في دار أو موضع إلا قصده، وهدم الدار بأسرها، وقتل كل من فيها من ذي روح (وهذا لا يخلو من مبالغة)، وكل دار بالكوفة خراب فهي مما هدمها. وأهل الكوفة يضربون بها المثل، فإذا افتقر إنسان قالوا: «دخل أبو عمرة بيته»، حتى قال شاعرهم:

إبليسُ بما فيه ... خيرٌ من أبي عَمْرَه
يُغويك ويُطغيكَ ... ولا يُعطيكَ كَسْرَه[٢]

ومن هؤلاء الذين هُدمت دورهم أسماء بن خارجة الفزاري.. ممن سعى في قتل مسلم بن عقيل «رحمه الله»[٣]، وكان مستخفياً، فقال المختار ذات يوم وعنده أصحابه: «أما ورب الأرض والسماء، والضياء والظلماء، لينزلن من السماء نار دهماء، حمراء، سحماء، فلتحرقنّ دار أسماء»، فأتى الخبر أسماء، فقال: سجع أبو إسحاق بنا، وليس على هذا مُقام. فخرج هارباً حتى أتى البادية، فلم يزل بها، ينزل مرة في بني عَبْس، ومرّة في غيرهم حتى قُتل المختار. وهدم المختار له ثلاثة آدرُ[٤].

(١) الأخبار الطوال ص٢٧٢.

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٥.

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٥.

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٠، و«آدرُ» جمع دار، وفي الفتوح ج٦ ص١٣٧ وبحار الأنوار ج٤٥ =

وطلب المختار عبد الله بن عروة الخثعمي الذي كان يقول :

رميت فيهم ـ يعني في أصحاب الحسين عليه السلام ـ بأثني عشر سهماً ، فهرب ولحق بمصعب بن الزبير فهدم داره .

وطلب عبد الله بن عقبة الغنوي ـ قاتل أبي بكر بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ـ فوجده قد هرب إلى الجزيرة ، فهدم داره[1] .

ودعا المختار برجلٍ من أصحابه يُقال له : حوشب بن يعلى الهمداني ، فقال : ويحك يا حوشب ! أنتَ تعلم أن محمد بن الأشعث من قَتلة الحسين بن علي عليه السلام ، وهو الذي قال له بكربلاء ما قال ، والله ما يهنئني النوم ولا القرار ، ورجل من قَتلة الحسين بن علي يمشي على وجه الأرض ! وقد بلغني أنه في قرية إلى جنب القادسية ، فسر إليه في مائة رجل من أصحابك ، فإنك تجده لاهياً متصيّداً ، أو قائماً متلبّداً ، أو خائفاً متلدّداً ، أو كامناً متردداً ، فاقتله وجئني برأسه .

فخرج حوشب بن يعلى الهمداني في مائة رجل من أصحابه حتى صار إلى قرية محمد بن الأشعث ، وعلم ابن الأشعث بذلك ، فخرج من باب له آخر في جوف الليل هارباً ، ومضى نحو البصرة إلى مصعب بن الزبير .

=

ص٣٧٧ أن المختار أرسل إلى داره ودور بني عمّه فهدمها عن آخرها .

وبعد أن ذكر البلاذري هذه الحادثة ذكر في ص٤١١ : أن عبد الله بن الزبير الأسدي قال في قصيدة له :

تركتم أبا حسّان تُهدم دارهُ ... منبّذة أبوابُها وحديدُها
فلو كان من قحطان أسماءُ شمّرت ... كتائبُ من قحطان صُعرٌ خدودُها

فأجابه أيوب بن سَعنَة النَخعي وقال :

رمى الله عينَ ابن الزبير بلَقْوة ... فخَلْخَلها حتى يطول سُهودُها
بكيتَ على دار لأسماء هُدِّمت ... مساكنُها كانت غُلولاً وشيدُها
ولم تبك بيتَ الله إذ دَلّفت لَهُ ... أُميَّةُ حتى هدّمَتْه جُنودُها

(١) أصدق الخبار ص١٢٧ ، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٠ ، أن جند المختار أدركوا عبد الله بن عقبة الغنوي فقتلوه ، ويقال بل مات عطشاً . « بتصرف » .

وأصبح حوشب بن يعلى ـ هذا ـ وقد علم أن محمد بن الأشعث قد هرب ، فكتب إليه المختار :

« إنك قد ضيعت الحزم ولم تأخذ بالوثيقة ، فإذا قد فاتك الرجل فاهدم قصره ، وأخرب قريته ، وائتني بأمواله » .

فهدمت دار محمد بن الأشعث ، وأمر المختار بنقضها فبنوا به دار حجر بن عدي الكندي «رحمه الله»[1] ، وكان زياد بن سمية قد هدمها[2] .

وبلغ المختار أن شبث بن ربعي في أناس من أشراف الكوفة قد أخذوا طريق البصرة ، فأرسل خيلاً في طلبهم ، فقاتلوهم ، ثم انهزموا[3] .

الهروب الجماعي

وهكذا كان الخوف والرعب قد أخذ الناجين من قتلة الحسين ، حتى وهم في المأمن . وكانت صورة المختار وهو يلاحقهم تحت كل حجر ومدر ـ لا تفارقهم حتى في أحلامهم .

حتى لقد هرب من عظماء أهل الكوفة إلى البصرة مقدار عشرة آلاف رجل ، وفيهم محمد بن الأشعث ، فاجتمعوا ودخلوا على مصعب بن الزبير[4] .

فخاطب مصعب محمد بن الأشعث قائلاً : ما وراءك ؟ فقال : ورائي والله ـ أيها الأمير ـ الترك والديلم ! هذا المختار بن أبي عبيد قد غلب على الأرض ، فهو يقتل

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٣٧ ، وانظر أيضاً بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٦ وأنساب الأشراف ج٦ ص٤١٠ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٦٦ .

(٢) أصدق الأخبار ص١٢٧ تاريخ الطبري ج٦ ص٦٦ وفيه وبنى بلبن داره وطينها دار حجر بن عدي الكندي ، وكان زياد بن سمية قد هدمها .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٣٧ ، وانظر أيضاً بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٦ وأنساب الأشراف ج٦ ص٤١٠ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٦٦ .

(٤) الأخبار الطوال ص٣٠٤ « بتصرف » .

الناس كيف يشاء ، وقد قتل إلى الساعة هذه من يتهم بقتال الحسين بن على أكثر من ثلاثة آلاف ، وقد كان أعطاني الأمان ، ثم إنه بعث إليّ ببعض أصحابه فأراد قتلي فهربت إليك[١] . .

(١) الفتوح ج٦ ص١٣٨ ، وبهامش الأصل : عدا من قتله المختار من قتلة الحسين بن علي « رضي الله عنه » . وقد يكون في هذه الأرقام بعض المبالغة ، فلاحظ .

الفصل الثاني عشر

إدراك الثأر

مع الأمويين من جديد

المختار في الكوفة مُجدٌّ في الاقتصاص من جُناة عاشوراء . . لا يضعف ولا يكلّ ، بل يحاول أن يسابق الزمن ، فلا يعلم أحد ماذا يخبأ له المستقبل . فكان هو من التزم تصفية الداخل ، وإبراهيم بن الأشتر عليه مواجهة القوة العاتية القادمة من الغرب . . من بلاد الشام بما فيها من عدد وعُدّة تربو على عشرة أضعاف جند العراق .

لكن الفرق في المطالب كبير ، فجند الشام لم يكن لهم مطلب سوى إعادة الأرض والشعب الذين خرجوا عن إرادتهم هذه المدة اليسيرة ، أما جند الكوفة فكانت مطالبهم عالية ، فأولاً الحفاظ على الاستقلال الذي طالما ضحّوا من أجله ، وثانياً : النيل من قتلة الحسين المترّسين بعسكر الشام ، وثالثاً : الثأر لأخوانهم الأوائل من التوابين الذين استشهدوا من قبل ، ورابعاً : الحفاظ على كرامتهم وأرواحهم وأعراضهم وأموالهم . ففي الفترة السابقة التي حكم الأمويون بلاد العراق ما يناهز ربع قرن أذاقوا ساكنيه الأمَرّين ، فأراقوا دمائهم ونهبوا أموالهم حتى أفقروهم ، وشتموا أئمتهم (أهل البيت ﷺ) من فوق المنابر ، وأسقطوا شهاداتهم ، ومنعوا عنهم العطاء ، وغيرها من أنواع الذل والإهانة (التي أشرنا إليها سابقاً بالتفصيل) .

الآن وبعد أن عادت إليهم كرامتهم وأمنوا على أرواحهم ودمائهم وأعراضهم ، وعادت إليهم الحرية الدينية في أسمى صورها ، أيعطوها من جديد بيد الأمويين ! ليعيدوا عليهم الكرّة من جديد بل وأقسى ؟ ! كلا وألف كلاّ فهم على استعداد للتضحية بكل غالٍ ونفيس ، ولا يسلمون أنفسهم وأمورهم إلى الحقد الأعمى ، والاضطهاد الديني اللئيم .

وبالفعل كانت نظرتهم صائبة ، فعندما تدهورت الأمور بعد ذلك ، ووقع العراق بيد الأمويين عاثوا فيه الفساد من جديد ، وحكموه بالحديد والنار ، ولم يكن في عهدهم ترغيب وترهيب - كما يقولون - بل كان سوط وسيف ، فهذا الحجاج بن يوسف . . هذا السيف الذي وطّيء لبني مروان سلطانهم عندما دخل العراق حاكماً خاطبهم في أول خطبة له قائلاً : « . . . وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى . . . »[1].

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٢٠٣ .

إبراهيم بن الأشتر قائداً

كان جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد يتقدم نحو العراق ، ولم يكن هناك مجال للتريّث والانتظار ، فدعا المختار بإبراهيم بن الأشتر ؛ فقال له : أبا النعمان . . . فاجمع الآن إليك أصحابك وسر إلى عدوك عبيد الله بن زياد وأصحابه المحلين ، فإن احتجت إلى مدد فاكتب إليّ حتى أمدّك بالخيل والرجال ، حتى تكتفي إن شاء الله ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، فقال ابن الأشتر : أيها الأمير ، إني خارج ـ كما ذكرت وأمرت،ولكني لا أحب أن يخرج معي عبيد الله بن الحر في هذا الجيش ، فإنه رجل معجب بنفسه ، وأخاف أن يغدر بي في وقت حاجتي إليه !

فقال المختار : صدقت أبا النعمان ـ هو كذلك ، ولكن داره وأحسن إليه واملأ عينه من المال ، فإنه ابن عمك ، ولعلي أن أمرته بالتخلف عنك أن يجد في نفسه من ذلك عليك ، ولكن عليك بمداراته مهما استطعت . واعلم أني منتظر لأمرك وما يكون منك في قتال الفاسقين ، وأنا أرجو أن تُلحق الآخرين بالأولين[١] .

فخرج يوم السبت ٢٢/ ذي الحجة / ٦٦ (٢٠ تموز/ ٦٨٦م) وأخرج المختار معه من وجوه أصحابه وفرسانهم وذوي البصائر منهم ممن قد شهد الحرب وجرّبها . وخرج معه قيس بن طَهْفه النهدي على ربع أهل المدينة ، وأمّر عبد الله بن حيّه (بن جندب) الأسدي على ربع مذحج وأسد ، وبعث الأسود بن جراد الكندي على ربع كنده وربيعة ، وبعث حبيب بن منقذ الثوري من همدان على ربع تميم وهمدان[٢] . فخرج إبراهيم من الكوفة ومعه عشرة آلاف فارس[٣] وكان موضع عسكره بموضع

(١) الفتوح ج٦ ص١٥٨ ، وانظر ايضاً بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٩ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٨١ ، وانظر أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٣

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٩ . وهناك اختلاف في عدد الجيش الذين اصطحبهم إبراهيم ، فالبلاذري في =

حمام أعيَن ومنه شحص بعسكره(١) .

خرج المختار في نفر من أصحابه لتشييعه ، فجعل يقول : « اللهم انصر من صبر ، واخذل من كفر ، ومن عصا ومن فجر ، وبايع وغدر ، وعلا وتجبّر ، فصار إلى سقر لا تُبقي ولا تذر ، ليذوق العذاب الأكبر » ، وقد رفع إبراهيم رأسه إلى السماء وهو يقول : اللهم عمّرنا في طاعتك ، ولا تجعلنا من أهل معصيتك . . اللهم اذكرنا ولا تنسنا [ولا تنسانا] ، وانصرنا ولا تخذلنا ، وارفعنا ولا تضعنا ، وأعزّنا ولا تذلنا ، إنك واسع الرحمة . . قريب من المحسنين .

ثم أقبل المختار على ابن الأشتر فقال : يا أبا النعمان ، احفظ عني ثلاث خصال أوصيك بها : خف الله في السر والعلانية ، وعجّل المسير إلى عدوك ، فإذا عاينتهم فناجزهم وحاكمهم إلى الله ، فإنه أحكم الحاكمين ، أفهمت ما أوصيتك ؟ فقال : نعم أيها الأمير قد فهمت ، قال : فسر الآن راشداً ، صحبك الله وسلّمك ، وردّك سالماً .

ثم رجع المختار إلى الكوفة ، ومضى ابن الأشتر في جيشه وهو يرتجز ويقول :

أما وحق المرسَلات عرفا ... وعصفه للعاصفات عصفا

لنعسَفنّ من بغانا عَسْفا ... حتى نَسُومَ القومَ منّا خسفا

زحفاً إليهم لا نملُّ الزحفا ... حتى نلاقي بعد صفٌّ صفّا

وبعدَ ألف قاسطينَ ألفا ... نكشفُهم لَدى الهَياج كشفا(٢)

=

أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٣ يقول : خرج في زهاء تسعة آلاف ، وابن الأعثم في الفتوح ج٦ ص١٥٩ يقول : فخرج في عشرة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل ، ونقل السيد الأمين في أصدق الأخبار ص١٢٩ عن الشيخ الطوسي في « أماليه » أنه خرج في تسعة آلاف ، وقيل في اثني عشر ألفاً ، وعن ابن نما : كان في أقل من عشرين ألفاً والدينوري في الأخبار الطوال ص٢٩٣ ، يقول : خرج في نحو من ثلاثين ألف رجل . ويرى الدكتور عبد الأمير دكسن في كتابه «الخلافة الأموية» ص١٣٠ ، أن الأرقام التي يعطيها الدينوري مبالغ فيها دائماً ، والرقم الذي يذكره البلاذري يبدو أكثر اقناعاً .

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٢ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٥٩ ، وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص٨٢ ، وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٩ . وقد ذكر
=

ثم سار ابن الأشتر في جيشه ذلك حتى صار إلى المدائن ، فنزلها أياماً ثلاثة ، ثم رحل عنها وجدّ السير حتى صار إلى تكريت ، فلما نزلها أمر بجباية خراجها ، فجيء له الخراج في أيام قلائل ، فأخذه وفرّقه على من كان معه من أصحابه ، وبعث إلى عبيد الله بن الحر بخمسة آلاف درهم ، فغضب ابن الحر لذلك ، ثم بعث إلى ابن الأشتر فقال : أيها الأمير : أتبعث إلي بخمسة آلاف درهم وتقبض لنفسك على ما بلغني عشرة آلاف درهم ! والله ما أنا بدونك في هذا العسكر ، ولا كان الحُر بن عمرو بدون أبيك مالك بن الحارث ، فلمَ تأخذ أنت من المال ما [لا] آخذه أنا ؟ ! فبعث إليه ابن الأشتر : والله يا ابن عم ، ما أخذتُ إلا كما أخذتَ . وقد وجهت إليك بالخمسة آلاف درهم التي صارت إليّ ، فأبى ابن الحر أن يقبل من ذلك شيئاً ، وعزم على مخالفة القوم والخروج عليهم[1] .

وخرج على المختار ونقض عهده ، وأغار على سواد الكوفة ، فنهب القرى ، وقتل العمال ، وأخذ الأموال ، ومضى إلى البصرة . . إلى مصعب بن الزبير[2]

وبلغ ذلك المختار ، فكأنه سرّ بمسير عبيد الله بن الحر إلى مصعب بن الزبير ، فكتب المختار إلى إبراهيم الأشتر أن : صرْ إلى أرض الموصل فناجز عدوك ، فقد كفانا الله أمر ابن الحر ، فإن أظفرنا الله بابن زياد وأصحابه المحلين لن نرهَب بعده أحداً من الظالمين ـ والسلام .

=
تاريخ الطبري ثلاثة أشطر من هذه الأبيات ونسبها للمختار .

(١) الفتوح ج٦ ص١٦٠ ، وانظر أيضاً بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٧٩ . وفي الفتوح ج٦ ص١٦٦ : ثم أرسل إلى وجوه أهل العسكر فاختدعهم ، ثم منّاهم وأوعدهم الغنائم ، ثم قال : ما تصنعون بمحاربة عبيد الله بن زياد ، وأنتم لا تدرون ما يكون الأمر غداً ، إتبعوني فإني أغنيكم وأغني عاقبكم من بعدكم فأجابوه إلى ذلك ، فخرج بهم من العسكر في جوف الليل . . الواحد بعد الواحد ، والاثنين بعد الاثنين ، والثلاثة بعد الثلاثة ، حتى اجتمعوا ثلاثمائة رجل ، فسار بهم عبيد الله بن الحر ، فما أصبح إلاّ على عشرين فرسخاً من تكريت . وأصبح ابن الأشتر وقد فقد عبيد الله بن الحر ، فاغتم لذلك ولم يدر أي طريق سلك ، وظن أنه قد مضى مستأمناً إلى عبيد الله بن زياد .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٠ .

فلما ورد الكتاب على إبراهيم بن الأشتر نادى في أصحابه ، ثم سار بهم فجعل يطوي البلاد طياً . .

وعبيد الله يومئذ في الموصل قد أخذ خراجها وفرّقه في أصحابه[١] فلما تجاوز إبراهيم الكحيل من أرض الموصل جعل لا يسير إلا بتعبئة[٢] . وضم أصحابه كلّهم إليه بخيله ورجاله ، فأخذ يسير بهم جميعاً لا يفرّقهم ، إلا أنه يبعث الطفيل بن لقيط ، وكان شجاعاً بئيساً ـ في الطلائع[٣] ، واجتمعا على نهر الخازر إلى جنب قرية تدعى باريتا ، بينها وبين الموصل خمسة فراسخ ، فنزل ونزل عبيد الله بن زياد قريباً منه على شاطىء الخازر[٤] ، في ثلاثة وثمانين ألفاً[٥] .

وعندما علم ابن زياد بأن إبراهيم بن الأشتر على رأس هذا الجيش ، جعل يقول لأصحابه : إني لأعجب من هذا الغلام ـ إبراهيم بن الأشتر ـ ومسيره إليّ بهذا الجيش ، وعهدي به بالأمس بالكوفة ، وقد كان يلعب بالحمام ، ولعل أجله قد اقترب .

وبات الفريقان ليلتهم تلك ، وابن الأشتر لا يغمض [له جفن] لا هو ولا أحد من أصحابه ، لما يريدون أن يقدموا عليه من محاربة ذلك الخلق العظيم[٦] وأرسل عمير بن الحُباب السلمي إلى ابن الأشتر : إني أريد لقاءك الليلة ـ وكانت قيس الجزيرة مضطغنه على بني مروان ، لما كان من مروان إليهم في وقعة مرج راهط[٧] ـ فأتاه ابن

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٧٣ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٤ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٦ .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٤ وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٨٦ ورد اسم القرية « باربيث » ولم نجد الاسمين في معجم البلدان .

(٥) الفتوح ج٦ ص١٧٣ وفي ص١٧٦ : فخيلهم ستون ألفاً ، ورجالتهم اثنان وعشرون ألفاً .

(٦) الفتوح ج٦ ص١٧٥ .

(٧)سبب هذه الوقعة ، أن أهل الشام بايعوا ابن الزبير ، ما خلا أهل الجابية ومن كان من بني أمية ومواليهم =

الحُباب ، فجرى بينهما كلام كثير[١]، وقال : ما أحد أبغض إليَّ ظفراً من آل مروان ، فاعلم إني منهزم بالناس إذا قامت الحرب ، فأراد ابن الأشتر أن يبلو صدق ذلك ، فقال له[٢]: ما رأيك ! أخندق عليَّ واتلوّم يومين أو ثلاثة ؟ قال عمير بن الحُباب : لا تفعل ، إنا لله ! هل يريد القوم إلا هذا ! إن طاولوك وماطلوك فهو خير لهم ، هم كثير أضعافكم ، وليس يطيق القليلُ الكثيرَ في المطاولة ، ولكن ناجز القوم ، فإنهم قد مُلئوا منكم رعباً . . فأتهم ، فإنهم إن شاموا أصحابك وقاتلوهم يوماً بعد يوم . . ومرة بعد مرة ، انسوا بهم ، واجترءوا عليهم .

=

وابن زياد ، وبايعوا مروان بن الحكم في النصف من ذي القعدة سنة ٦٤هـ ، ثم ساروا إلى الضحاك بن قيس فالتقوا بمرج راهط فاقتتلوا عشرين يوماً ، ومع مروان ثلاثة عشر ألفاً ، والضحاك في ستين ألفاً . فقال عبيد الله بن زياد لمروان : أن الضحاك في فرسان قيس ولن تنال منهم ما نريد إلا بمكيدة ، فسلهم الموادعة واكفف عن القتل ، واعدّ الخيل ، فإذا كفّوا فارمهم بها . فمشت بينهم السفراء ، فكف الضحاك عن القتال ، فشد عليهم مروان في الخيل ففزعوا إلى رايتهم من غير تعبئة ، فقُتل الضحاك وقتل من فرسان قيس جماعة وأصيب يومئذ ثلاث بنين لزفر بن الحارث . . . (تاريخ خليفة بن خياط ص١٩٩) .

(١) في الأخبار الطوال ص٢٩٣ : « فاقبل عمير بن الحباب وفرات بن سالم ، حتى أتيا عسكر إبراهيم بن الأشتر . وقد أوقد النيران . وهو قائم يعبي أصحابه ، وعليه قميص هروي ، ومُلاءة مورّده متوشحاً بها . . متقلداً سيفه .

فدنا منه عمير بن الحباب ، فصار خلفه ، وإبراهيم لا يأبه له ، فاحتضنه من ورائه ، فما تحلحل إبراهيم عن موضعه ، غير أنه أمال رأسه ، وقال : من هذا ؟ ، قال : أنا عمير بن الحباب ، فأقبل بوجهه إليه ، وقال : اجلس حتى افرغ لك ، فتنحّى عنه ، وقعدا ممسكين بأعنّة فرسيهما . فقال عمير لصاحبه : هل رأيت رجلاً اربط جأشاً ، وأشد قلباً من هذا ؟ ! تُراه تحلحل من مكانه أو اكترث لي ، وأنا محتضنة من خلف ! فقال له صاحبه : ما رأيت مثله !

فلما فرغ إبراهيم من تعبئة أصحابه أتاهما ، فجلس إليهما ، ثم قال لعُمير : ما أعملك إلي يا أبا الْمُغَلّس ؟ قال عمير : لقد اشتد غمّي مذ دخلت عسكرك ، ذلك إني لم أسمع فيه كلاماً عربياً حتى انتهيت إليك ، وإنما معك هؤلاء الأعاجم ، وقد جاءك صناديد أهل الشام وأبطالهم ، فكيف تلقاهم بمن معك ؟ فقال إبراهيم : والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم بها ، فكيف وما قومٌ أشدّ بصيرة في قتال أهل الشام من هؤلاء الناس الذين تراهم معي ! وإنما هم أولاد إلا ساورة من أهل فارس ، والمرازبة . وأنا ضارب الخيل بالخيل والرجال بالرجال ، والنصر من عند الله . . .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٤ .

قال إبراهيم : الآن علمت أنك لي مناصح . . صدقت ، الرأي ما رأيت ، أما إن صاحبي بهذا أوصاني ، وبهذا الرأي أمرني ، قال عمير : فلا تعدوّن رأيه ، فإن الشيخ قد ضرسته الحروب ، وقاسى منها ما لم تُقاس ، أصبح فناهض الرجل .

ثم إن عميراً انصرف ، وأذكى ابن الأشتر حرسه تلك الليلة . . الليلَ كله ، ولم يدخل عينه غمض . حتى إذا كان السحر الأول ، وعبأ أصحابه ، وكتّب كتائبه ، وأمّر أمراءه ، فبعث سفيان بن يزيد بن المُغَفَّل الأزدي على الميمنة ، وعلي بن مالك الجُشمي على ميسرته ، ويعث عبد الرحمن بن عبد الله ـ وهو أخو إبراهيم بن الأشتر لأمّه على الخيل ، وكانت خيلُه قليلةً فضمها إليه ، وكانت في الميمنة والقلب ، وجعل على رَجّالته الطُّفيل بن لقيط ، وكانت رايته مع مزاحم بن مالك .

فلما انفجر الصبح صلى بهم الغداة بغَلَس ، ثم خرج بهم فصفّهم ، ووضع أمراء الأرباع في مواضعهم ، وألحقَ أمير الميمنة بالميمنة ، وأمير الميسرة بالميسرة ، وأمير الرّجّالة بالرجّالة ، وضم الخيل إليه وعليها أخوه لأمه ـ كما ذكرنا ـ فكان وسطاً بين الناس ، ونزل إبراهيم يمشي ، وقال للناس : ازحفوا ، فزحَف الناس معه على رِسلهم رويداً رويداً ، حتى أشرف على تل عظيم[1] ، فنظر إلى عسكر القوم وتأملهم ، وأهل الشام بعد لم يتحركوا ، ولا ظنوا أن أهل العراق يقدمون عليهم .

فلما نظروا إلى الخيل وقد وافتهم بادروا إلى خيولهم ، وقدّموا الرجّالة بين أيديهم[2] . أرسل إبراهيم أحد فرسانه وهو عبد الله بن زهير السلولي فقال قرّب عليهم حتى تأتيني بخبر هؤلاء فانطلق فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ، فقال : قد خرج القوم على دَهَش وفَشَل[3] فزاد هذا من عزيمة القوم وإصرارهم على تحقيق

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٧ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٧٥

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٧ ، يقول : لقيني رجل منهم فما كان له هجيّري إلا : يا شيعة أبي تراب . . يا شيعة المختار الكذاب ! فقلت : ما بيننا وبينكم أجل من الشتم ، فقال لي : يا عدو الله إلى مَ تدعوننا ؟ =

أهدافهم الشريفة .

عبّأ ابن زياد جيشه ، فجعل على ميمنته « الحصين بن نُمير السكوني » ، وعلى ميسرته « عُمير بن الحُباب السلمي » ، وعلى الخيل « شرحَبيلَ بن ذي الكلاع » ، وهو يمشي في الرجال(١) .

=

أنتم تقاتلون مع غير إمام ، فقلت له : بل يا لثارات الحسين ابن رسول الله ﷺ ! ادفعوا إلينا عُبيد الله بن زياد ، فإنه قتل بن رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة ، حتى نقتله ببعض موالينا الذين قتلوا مع الحسين ، فإنا لا نراه لحسينَ نداً فنرضى أن يكون منه قَوَداً ، وإذا دفعتموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم جعلنا بيننا وبينكم كتاب الله ؛ أو أي صالح من المسلمين شئتم حكماً ، فقال لي : قد جرّبنا كم مرة أخرى في مثل هذا ـ يعني الحكمين ـ فغدرتم ، فقلت له : وما هو ؟ فقال : قد جعلنا بيننا وبينكم حكمين فلم ترضوا بحكمهما ، فقلت له : ما جئت بحجة . . إنما كان صلحنا على أنهما إذا اجتمعا على رجل تبعنا حكمهما ، ورضينا به وبايعناه ، فلم يجتمعا على أحد ، وتفرّقا ، فكلاهما لم يوفّقه الله لخير ، ولم يسدده ، فقال : من أنت ؟ فأخبرته ، فقلت له : من أنت ؟ فقال : عدس ـ لبغلته يزجرها ـ فقلت له : ما أنصفتني ، هذا أول غدرك !

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٩ ، وكذلك في أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٥ ، أما في الفتوح ج٦ ص١٧٦ فيذكر أن ابن زياد جعل على ميمنته « شرحبيل بن ذي الكلاع » وعلى الميسرة « ربيعة المخارق الغنوي » وعلى جناح ميسرته « عبد الله بن حملة الخثعمي ، وفي القلب يومئذ « الحصين بن نمير السكوني » .

المواجهة الحاسمة

ودعا ابن الأشتر بفرس له فركبها ، ثم مرّ بأصحاب الرايات كلها ، فكلما مر على راية وقف عليها ، ثم قال :[1] «يا أنصار الدين . . يا شيعة الحق . . يا شرطة الله ، هذا قاتل الحسين ، فما الذي تبقون له جدكم واجتهادكم بعده ؟ هذا الذي حال بين الحسين وبين ماء الفرات ، ومنعه الذهاب في الأرض العريضة ، حتى قتله وأهل بيته ، فوالله ما كان عمل فرعون ببني إسرائيل إلا دون عمل هذا الفاجر»[2] . وفي تلك اللحظات الحاسمة عادت بهم الذاكرة ست سنوات خلت ، واسترجعوا بشاعة الموقف الحقير الذي وقفه جيش الدولة الأموية الفاجرة تجاه ريحانة رسول الله ﷺ ونساءه وأطفاله وأنصاره ، فازداد اندفاعهم وحماسهم لأخذ الثأر من هؤلاء القتلة المجرمين .

وكان ذلك اليوم هو العاشر من محرم عام ٦٧هـ/ ٦ آب عام ٦٨٦م[3] وهو نفس اليوم الذي حصلت فيه المجزرة الرهيبة ، وكان ضحيتها الإمام الحسين وأهل بيته وصحبه الكرام .

فتزاحفوا ، ونادى أهل العراق : يا لثارات الحسين ، فجال أصحاب ابن الأشتر جولة ، فناداهم : «يا شرطة الله الصبر . . الصبر» ، فتراجعوا : فقال لهم عبد الله بن بشار بن أبي عقب الدئلي : حدّثني خليلي : إنّا نلقى أهل الشام على نهر يقال له «الخازر» فيكشوفنا حتى نقول : هيٍ . . . هيٌ[4] ثم نكرّ عليهم ، فنقتل أميرهم ، فابشروا ، واصبروا ، فإنكم لهم قاهرون[5] .

---

(١) أصدق الأخبار ص١٣٢ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٥ ، وقريباً منه في «أصدق الأخبار»

(٣) الخلافة الأموية ص٩٩

(٤) بالفتح وكسر الياء وتشديدها ، اسم فعل للأمر ، بمعنى أسرع فيما أنت فيه .

(٥) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٤ . عوالم العلوم «الإمام الحسين ﷺ» ص٦٦٠ .

وكان معظم جيش إبراهيم يحملون أعمدة خشبية[1] ومع هذا انقضّ عليهم أهل العراق مستعدين للموت ، وهم يقولون : اللهم إننا ما خرجنا إلى حرب هؤلاء القوم إلا شارين بدمائنا وأموالنا الجنة . . . طالبين بدماء أهل بيت نبيك محمد ﷺ ، فانصرنا عليهم كيف شئت وأنّى شئت ، إنك على كل شيء قدير » .

فوقف الفريقان بعضهم ينظر إلى بعض ، وتقدم رجل من عتاة أهل الشام ومردتهم ، يقال له : عوف بن ضبعان الكلبي ، حتى وقف بين يدي الجمعين على فرس أدهم ، ثم نادى : « ألا يا شيعة أبي تراب ! ألا يا شيعة المختار الكذاب ! ألا يا شيعة ابن الأشتر المرتاب ! من كان منكم يدل بشجاعته وشدّته فليبرز إليّ إن كان صادقاً ، وللقرآن معانقاً ! » ، ثم جعل يجول في ميدان الحربِ وهو يرتجز ويقول :

أنا ابن ضبعان الكريم المفضل ... إنّي أنا الليثُ الكميّ الهذلي

من عصبة يبرون من دين علي ... كذاك كانوا في الزمان الأول

يا رجال !

فما لبث أن خرج إليه الأحوص بن شداد الهمداني ، وهو يرتجز ويقول :

أنا ابن شداد على دين علي ... لست لعثمان ابن أروى بولي

لأصلينّ اليومَ فيمن يصطلي ... بحر نار الحرب حتى تنجلي

فجعل الشامي يشتم الأحوص بن شداد ، فقال له الأحوص : يا هذا لا تشتم إن كنت غريباً ، فإن الذي بيننا أجلّ من الشتيمة . . أنتم تقاتلون عن بني مروان ، ونحن نطالبكم بدم ابن بنت نبي الرحمن ، فادفعوا إلينا هذا الفاسق اللعين « عبيد الله بن زياد » ، الذي قتل ابن بنت نبي رب العالمين محمد ﷺ ، حتى نقتله ببعض موالينا الذين قتلوا مع الحسين بن علي ، فإننا لا نراه للحسين كفؤاً فنقتله به ، فإذا دفعتموه إلينا فقتلناه،جعلنا بيننا وبينكم حكماً من المسلمين .

---

(١) الخلافة الأموية ص١١٣ .

فقال له الشامي : إننا قد جربناكم في يوم صفّين . . عندما حكمنا وحكمتم ، فغدرتم ولم ترضوا بما حكم عليكم .

فقال له الأحوص بن شداد : يا هذا إن الحكمين لم يحكما برضا الجميع ، وأحدهما خدع صاحبه الآخر ، والخلافة لا تعقد بالخديعة ، ولا يجوز في الدين إلا النصيحة ، ولكن ما اسمك أيها الرجل ؟ فقال الشامي : اسمي « منازل الأقران » ! فقال له الأحوص بن شداد : ما أقرب الاسمين بعضهم من بعض . . أنت « منازل الأبطال » وأنا « مقرّب الآجال » ! ثم حمل عليه الأحوص والتقيا بضربتين ، ضربه الأحوص ضربةً سقط الشامي قتيلاً .

فجال الأحوص في ميدان الحرب ، ونادى : يا قتلة الحسين ! هل من مبارز ! فخرج إليه داود بن عروة الدمشقي مقنّعاً في الحديد ، على كُمَيت له ، وهو يقول :

أنا ابنُ من قاتل في صفِّينا	قتالَ قَرْمٍ لم يكنْ غَبينا
بل كان فيها بَطَلاً حرونا	مجرّباً لدى الوَغى مَكينا

فضمّه إليه الأحوص بن شداد الهمداني ، وجعل يقول :

يا ابنَ الذي قاتَلَ في صفِّينا	ولم يكن في دينه غبينا
كذبْتَ قد كان بها مغبونا	مُذَبْذَباً في أمره مَفْتُونا
لا يعرفُ الحَقَّ ولا اليقينا	بُؤْساً له لقد مضى ملعونا

ثم التقيا ، فضربه الأحوصُ ضربة ألحقه بصاحبه ، ثم رجع إلى صفّه[1] .

وعلى الفور تقدم ابن الأشتر يحاول أن يلهب النفوس أكثر ، مستفيداً من هذا الانتصار ، ووقف بين الجمعين ، ثم نادى بصوت جهوري : « ألا يا شرطة الله ! . . يا شيعة الحق ! ألا يا أنصار الدين ! قاتلوا المحلين ، وأولاد القاسطين ، وأعوان الظالمين ، وجنود ابن مرجانة اللعين . أيها الناس ! لا تطلبوا أثراً بعد

(١) الفتوح ج٦ ص١٧٦ ، أصدق الأخبار ص١٣٣ .

عين ، هذا عبيد الله بن زياد . . قاتل الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ . . هذا الذي حال بين الحسين [وبناته ونسائه] وبين ماء الفرات أن يشربوه وهم ينظرون إليه . . هذا الذي بعث إلى الحسين بن علي أن لا أمان لك عندي أو تنزل على حكمي ، ثم عدا عليه فقتله وقتل أهل بيته ، وساق حرمَ رسول الله (ص) كسبايا الروم والترك والديلم . . من بلد إلى بلد ، حتى أُدخلوا على يزيد . إنه ما فعل فرعون ببني إسرائيل ما فعل هذا الملعون بأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وهاهو قد جاءه اللهُ بكم وجاءكم به ، ولا أنتم في بلدكم ولا هو في بلده ، والله إني لأرجو أن يكون الله تعالى لم يجمع بينكم وبينه في هذا الموضع إلا لهلاكه وهلاك من معه من هؤلاء لمحلين » .

بعد ذلك الخطاب الحماسي ، تقدم إبراهيم بن الأشتر قُدّام أصحابه ، فجعل يضرب بسيفه قُدُماً قُدُماً ، وهو يقول[1] .

قد علمَت مذحجُ علماً لا خطلْ ... إنّي إذا القَرْنُ لقيني لا وكلْ

ولا جَزُوع عندها ولا نَكلْ ... أَرُوع مقداماً إذا النكْسُ فَشلْ

أضربُ في القوم إذا جاء الأجَلْ ... وأعتلي رأسَ الطِّرمّاح البَطَلْ

بالذكَرِ البَتّارِ حتى يَنْجَدلْ[2]

ثم حمل وحمل معه أهل العراق جميعاً ، ثم اختلط القوم فاصطفقوا بالسيوف ، وتطاعنوا بالرماح ، وتراموا بالسهام[3] .

وحمل الحُصين بن نمير في ميمنة أهل الشام على ميسرة أهل الكوفة ، وعليها « علي بن مالك الجُشمي » فثبت له هو بنفسه فقُتل ، ثم أخذ رايته « قُرَّةُ بن علي » ،

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٧٩ .

(٢) أصدق الأخبار ص١٣٦

(٣) الفتوح ج٦ ص١٧٩ .

فقُتل أيضاً في رجال من أهل الحفاظ قُتلوا ، وانهزمت الميسرة .

فأخذ الراية « عبدُ الله بن ورقاء بن جُنادة السلولي »[١] ، فاستقبل أهل الميسرة حين انهزموا ، فقال : إليّ يا شرطة الله . . فأقبل إليه جُلهم ، فقال : هذا أميركم يقاتل سيروا بنا إليه ، فأقبل حتى أتاه ، وإذا هو كاشف عن رأسه ينادي : يا شرطة الله ، إليّ . . أنا ابن الأشتر : إنّ خير فرّاركم كُرّاركم . . ليس مسيئاً من أعتب ، فثاب إليه أصحابه[٢] .

وأرسل ابن الأشتر إلى صاحب الميمنة : احمل على ميسرتهم ـ وهو يرجو أن ينهزم لهم « عُمير بن الحباب كما زعم ـ فحمل عليهم صاحب الميمنة » وهو سفيان بن يزيد ابن المغفل »[٣] .

فقال عمير بن الحباب لصاحبه : هذا وأبيك الحزم ، لم يثق بقولنا وخاف مكرنا[٤] .

ولكن عميراً أنف من الفرار فقاتل قتالاً شديداً ، فلما رأى ابن الأشتر ذلك ، قال لأصحابه : أمُّوا السواد الأعظم فإن فضضتموه لم يكن للقوم ثبات بعده ، ففعلوا ذلك ، وتضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالرماح . فإبراهيم يشد بسيفه فلا يضرب أحداً إلا صرعه والقوم يهربون بين يديه كأنهم الغنم[٥] ، وكان يقول لصاحب رايته : انغمس برايتك فيهم ، فيقول له : إنه ـ جعلت فداك ـ ليس لي مُتَقَدَّم ، فيقول : بلى ، فإن أصحابك يقاتلون[٦] . . تقدم ـ فداك أبي وأمي ـ ولا تجزع ! فوالله ما أُشبِّهُ

---

(١) وهو ابن أخي حبشي بن جنادة صاحب رسول الله ﷺ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٩ وكذلك في أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٥ وفي هذين الكتابين يظهر أن الحصين ابن نمير هو أول من هجم ، ولكن بما أن جيش الشام خرج « على دهش وفشل » كما ذكرنا ، فمن المستبعد أن يبدأ هو بالهجوم ، ولم يكونوا قد استعدوا بعد لذلك . ورواية ابن الأعثم تكون هي الأرجح كما يظهر

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٩ ، وقريباً منه في أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٥ .

(٤) الأخبار الطوال ص٢٩٥ ، وبعد هذا جاء « وصاح عُمير بن الحُباب في قيس : يا لثارات مرج راهط ، فنكسوا أعلامهم ، وانهزموا ، فانكسر أهل الشام . . . . » .

(٥) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٥ ، تاريخ الطبري ج٦ ص٨٩ .

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٩ .

هذا اليوم إلا بيوم الخميس وليلة الهرير بصفين ، فجعل صاحب راية ابن الأشتر يتقدم وأهل العراق يقاتلون ويتبعون الراية .

في هذه الأثناء برز الحصين بن نمير السكوني ، وهو يقول :

يا قادةَ الكوفة أهلَ المنكَر وشيعةَ المختار وابْن الأشْتر

هلْ فيكُم قَرْمٌ كريمُ العُنصُر مُهَذَّبٌ في قومه بمفخَر

يبرزُ نحوي قاصداً لا يَمتَري؟

فخرج إليه « شريك بن جدير التغلبي » وهو يقول :

يا قاتلَ الشيخ الكريم الأزهر بكربَلا يومَ التقاء العَسْكَر

أعْني حُسَيناً ذا الثَّنا والمفْخَر وابنَ النبيِّ الطاهر المطهّر

وابنَ علي البَطل المظفَّر هذا فخُذْها منْ هزَبْر قَسْوَر

ضَربةَ قَرْمٍ رَبَعيٍّ مُضَري

فالتقيا بضربتين وجندله التغلبي صريعا[1] ، فدخل على قتلة الحسين عليه السلام من أهل العراق مدخل عظيم[2] وحان وقت الصلاتين جميعاً الظهر والعصر ، فما صلى القوم إلا بالإيماء والتكبير.

قتل ابن زياد وانتصار إبراهيم

حتى إذا كان وقت اصفرار الشمس ، انهزم أهل الشام نحو مدينة الموصل ، وأخذهم السيف والقوم ينهزمون ، والسيف في أقفيتهم ، واختلط الظلام . ونظر إبراهيم بن الأشتر إلى رجل من القوم وعليه بزّة حسنة ، ودرع سابغة ، وعمامة خزٍّ

(١) أصدق الأخبار ص١٣٨

(٢) الفتوح ج٦ ص١٨٧ ، وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٩٠ وأصدق الأخبار ص١٣٨ ، وحمل شريك بن جدير التغلبي على الحصين بن نمير السكوني وهو يحسبه عبيد الله بن زياد فاعتنق كل واحد منهما صاحبه ، ونادى التغلبي : اقتلوني وابن الزانية ، فقُتل ابن نمير

دكناء، وديباجة خضراء من فوق الدرع، وقد أخرج يده من الديباجة وفيها صفيحة له مذهّبة[١].

وكان هذا الخبيث «عبيد الله بن زياد» قاتل الحسين عليه السلام، فحمل إبراهيم عليه ـ وهو لا يعرفه ـ فضربه إبراهيم ضربة قدّه بها نصفين، وذهبت رجلاه في المشرق ويداه في المغرب، وعجّل الله بروحه إلى النار[٢]، وقُتل قاتل هاني بن عروة، وهو مولى لعبيد الله بن زياد يقال له رشيد[٣]، وقتل «شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري»[٤] ـ من رؤساء أهل الشام. ولما انهزم أصحاب ابن زياد تبعهم أصحاب إبراهيم، فكان من غرق منهم أكثر ممن قتل[٥].

ولم يبصر الناس بعضهم بعضاً من شدة الظلمة، فتراجع أهل العراق إلى عسكرهم، والخيل لا تطأ إلاّ على القتلى. وأصبح الناس، وقد فُقد من أهل العراق ثلاثمائة وسبعون رجلاً، وأهل الشام قد كانوا في اثنين وثمانين ألفاً، فانفلت عشرة آلاف وثمانية رجال ـ عامتهم جرحى[٦]، ولم يقتل من أهل الشام بعد «صفين» مثلما قتل في هذه الوقعة[٧]. واحتوى إبراهيم بن الأشتر على عسكر الشام، فغنم ما

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٠.

(٢) أصدق الأخبار ص١٣٧.

(٣) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٧٩ ـ الكامل في التاريخ ج٤ ص٣٦، وفي تاريخ الطبري فبصر بـ «رشيد مولى عبيد الله بن زياد» عبدُ الرحمن بن الحصين المرادي بخازر ـ وهو مع عبيد الله بن زياد ـ فقال الناس: هذا قاتل هانيء بن عروة، فقال ابن الحصين: قتلني الله إن لم أقتله أو أُقتل دونه! فحمل عليه بالرمح فطعنه فقتله.

(٤) ادعى قتله ثلاثة: سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدي، وورقاء بن عازب الأسدي وعبيد الله بن زهير السُلمي، عن تاريخ الطبري ج٦ ص٩١، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٦ بدل الأخير «عبد الله بن زهير السلولي».

(٥) أصدق الأخبار ص١٣٩ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٦ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص٩١.

(٦) الفتوح ج٦ ص١٨١ وفي أصدق الأخبار ص١٣٩: قال ابن نما «رحمه الله»: وجعلوا يعدّون القتلى بالقصب ... يضعون عند كل قتيل قصبة، فكانوا سبعين ألفاً.

(٧) أصدق الأخبار ص١٣٩.

كان فيه[١]، وقال: إني قتلت رجلاً تحت راية منفردة على شاطىء نهر الخازر فالتمسوه، فإني شممت منه رائحة المسك.. شرقت يداه وغربت رجلاه، فطلبوه، فإذا هو ابن زياد قتيلاً بضربة إبراهيم، فقد قدّته نصفين[٢] وهو معكوس في بطن الوادي[٣] وكانوا قد احتفظوا بجسده طوال الليل، فلما أصبحوا عرفه مهران مولى زياد، فلما رآه إبراهيم[٤] كبّر وخرّ ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي أجرى قتله على يدي، فأمر برأسه فأُخذ، وأحرقت جثته بالنار[٥].

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٩٥، تاريخ الطبري ج٦ ص٩١.

(٢) أصدق الأخبار ص١٣٧، وفي بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٥، فنظر إليه مهران مولى زياد وكان يحبّه حبّاً شديداً، فحلف أن لا يأكل شحماً أبداً. فتأمل!!

(٣) (العقد الفريد ج٤ ص٤٠٤).

(٤) الفتوح ج٦ ص١٨٢ وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٩٠ يذكر رواية فيها، أن قاتل عبيد الله بن زياد هو شريك ابن جدير التغلبي، وفي تفاصيلها: كان شريك بن جدير التغلبي مع عليّ ﷺ، أُصيبت عينه معه، فلما انقضت حرب عليّ ﷺ لحق ببيت المقدس، فكان به، فلما جاءه قتل الحسين ﷺ، قال: أعاهد الله إن قدرت على كذا. يطلب بدم الحسين ﷺ. لأقتلن ابن مرجان أو لأموتن دونه، فلما بلغه أن المختار خرج يطلب بدم الحسين ﷺ أقبل إليه، فكان وجهه مع إبراهيم بن الأشتر، وجُعل على خيل ربيعة، فقال لأصحابه: إني عاهدت الله على كذا وكذا، فبايعه ثلاثمائة على الموت، فلما التقوا حَمَل فجعل يهتكها صفاً صفاً، مع أصحابه حتى وصلوا إليه، وثار الرَّهَج فلا يُسمع إلا وقع الحديد والسيوف، فانفرجت عن الناس وهما قتيلان ليس بينهما أحدٌ التغلبي وعبيد الله بن زياد.

والتغلبي هو الذي يقول:

كُلُّ عيشٍ قد أراهُ قذراً غيرَ رَكْزِ الرمحِ في ظلِّ الفَرَس

(٥) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٦، وقريباً منه في تاريخ الطبري ج٦ ص٩٠ الفتوح ج٦ ص١٨٠ ـ الأخبار الطوال ص٢٩٥، وذكر المجلسي في بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٥ عن أبي عمر البزّار: «أن إبراهيم صلب عبيد الله بن زياد منكّساً، فكأني أنظر إلى خصييه كأنهما جُعلان». وعلى هذا يكون قد حرق جثته بعد أن صلبه.

الموقف النبيل

بينما إبراهيم بن الأشتر بين قواده وجيشه ، يشكرون الله على ما أنعم عليهم من الظفر بقتلَة الحسين ﷺ العُتات ، والتمكن من قتلهم ، أتته هند ابنة أسماء بن خارجة الفزاري ، امرأة عبيد الله بن زياد ـ وكانت معه في المعركة ـ فأخبرته بانتهاب ما كان معها من مالها ، فقال لها :

كم ذهب لك ؟ قالت : قيمة خمسين ألف درهم ، فأمر لها بمائة ألف درهم .

ووجه معها مائة فارس ، وكان معها أخاها « عُيينَة بن أسماء » حتى أتوا بها أباها البصرة ، وكان أخوها يرتجز ويقول :

إنْ تصرمي حبالَنا فربما ... أرديت في الهيجا الكمِيَّ المُعلما

وهذا من المواقف النبيلة التي قلّما وجدت في تلك الأيام وغيرها عند خصوم أهل البيت ﷺ وشيعتهم ، وسنرى كيف تصرف مصعب بن الزبير المنتصر مع الموالين للمختار ومع زوجته بالخصوص !

وينطبق عليه قول الشاعر العلوي :

ملكنا فكان العفوُ منا سجيةً ... فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحللتُمُ قتلَ الأسارى وطالما ... غدونا عن الأسرا نعُفُّ ونصفَحُ
فحسبُكُمُ هذا التفاوُتُ بيننا ... وكلُّ إناء بالذي فيه ينضَحُ[2]

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٩٦ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص٩٠ « بتصرف » .

(٢) انظر « الغدير » ج١ ص٢٥٥ .

موكب الرؤوس

ثم أمر إبراهيم بن الأشتر برأس عبيد الله بن زياد ، ورأس الحصين بن نمير السكوني ، وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري ، وربيعة ابن المخارق الغنوي ومن أشبههم من رؤساء أهل الشام ، فجمعت ثم قوّرت ونفضت ، وكتبت الرقاع وعلقت في آذانهم بأسمائهم ، ثم جمعتْ أيضاً رؤوس القوم عن آخرها ، وبعث بها إلى المختار ، وكتب إليه ابنُ الأشتر يعلمه بالوقعة ، وكيف أهلك الله القوم ، وأباد خضراءهم ، وبدد شملهم .

فوردت الرؤوس يومئذ على أهل الكوفة زيادة على سبعين ألف رأس ، وفي أوائلها رأس عبيد الله بن زياد .

فقوم من شيعة بني أمية اشتد عليهم ذلك ، وأما شيعة آل محمد ﷺ فجعلوا يكبّرون ويقولون : الحمد لله الذي قتل المحلّين ، وشفا غليل المؤمنين[١] .

وحمل رؤوس المقتولين من قبل المنتصرين لم يكن حالة سلبية أو شنيئة في تلك الأيام ، بل هو دليل على الانتصار الذي حققه المنتصر على عدوه .

وقد أوجد هذه الظاهرة الدولةُ الأموية ، فكانوا يطوفون برؤوس أعدائهم في المدن والأزقة لاظهار القوة ، وإخافة الأعداء .

وكان أول رأس حمل من بلد إلى بلد رأس عمرو بن الحَمِق الخزاعي[٢] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٢ وفي شذرات الذهب ج١ ص٧٤ « . . . ثم بعث به ـ برأس عبيد الله بن زياد ـ المختار إلى المدينة في نحو سبعين ألف رأس ، وشاهدهم نساء أهل البيت الكرام . . . » . ومن البعيد أن يبعث المختار برؤوس المقتولين جميعهم ، ولعله قد حصل سهو عند المؤلف .

(٢) الأوائل (لابن قتيبة) ص٤١ ، وذكر في هامشه : أول رأس حمل في الإسلام رأس عمرو بن الحَمق قالوا : لما قتل علي « عليه السلام » بعث معاوية في طلب عمرو بن الحمق ففاته ، فأخذ امرأته فحبسها ، ثم ظفر عبد الرحمن بن الحكم ـ عامل معاوية على الموصل ـ بعمرو فقتله وبعث برأسه إلى معاوية ، فكان أول رأس حمل في الإسلام .

وتوالت الظاهرة بعد ذلك ، وكان من جملتها حمل رؤوس أهل البيت ﷺ، وفي مقدمتها رأس الإمام الحسين بن علي ﷺ . . ابن بنت رسول الله ﷺ .

فما فعله إبراهيم بن الأشتر لم يكن في أسوأ الحالات سوى رد فعل تجاه تصرفات بني أمية الشنعاء مع أهل البيت ﷺ ، وليس في ذلك ضير ، بل فيه المرغوبية ، وفيه شفاء غليل المؤمنين ، كما قال شيعة آل محمد من الكوفيين ، عند رؤيتهم لرؤوس أعداء أهل البيت ﷺ.

فرحة الانتصار

عم الفرح في صفوف جيش ابن الأشتر ، فالانتصار عظيم . جيش ضعيف العُدّة وقليل العدد ، ليس وراءه ظهر يسنده يوقع الهزيمة النكراء ، بل الإبادة في جيش يفوقه عدداً وعُدّة . . أضعافاً مضاعفة ، ويحصل على ما يريد ، فيقضي على أعتى العتات الذين انتهكوا مقدسات الإسلام ، وسفكوا دم ابن رسول الله ﷺ وهتكوا حرمة نساءه . . .

دخل عبيد الله بن عمرو الساعدي ، على إبراهيم الأشتر ، فأنشده :

اللهُ أعطاكَ المهابَة والتُّقى ... وأحلَّ بيتَك في العديد الأكثر
وأقرَّ عينَك يومَ وقعة خازر ... والخيلُ تعثرُ بالقنا المتكسِّر
من ظالمينَ كفتهُم آثامُهم ... تُركوا لعافية وطير حُسَّر
ما كان أجرأهَمُ ـ جزاهُم ربهم ... شرَّ الجزاء ـ على ارتكاب المنكر[1]

وقام ابن مرداس البارقي يمدح إبراهيم بن الأشتر وأصحابه في قتل عبيد الله بن زياد ، فقال :

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٩٦ وفي بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٣ يروي الأبيات عن : عبد الله بن الزبير الأسدي .

أتاكم غلامٌ من عرانين مذحجٍ جَريٌّ على الأعداء غيرُ نَكُول
فيا بْنَ زياد بُؤْ بأعظم مالك وذُق حدّ ماضي الشفرتين صقيل
ضربناك بالعَضْب الحُسام بحدّة إذا ما أبأنا قاتلاً بقتيل
جزى الله خيراً «شرطةَ الله» إنهم شفوا من عبيد الله أمس غليلي[(١)]

وقال عمير بن الحُباب حين قتل ابن زياد :

ما كان جيش يجمعُ الخمر والزنا مُحلاً إذا لاقى العدو لينُصرا

وقال يزيد بن المفرّغ حين قتل ابن زياد :

إن المنايا إذا مازُرْنَ طاغيةً هتكْنَ أستارَ حُجّاب وأبواب
أقول : بُعْداً وسُحقاً عند مصرعه لابن الخبيثة وابن الكَوْدن[(٢)] الكابي
لا تقبلُ الأرضُ موتاهُم إذا قُبروا وكيف تَقبَلُ رجساً بين أثواب
إن الذي عاشَ غدّاراً بذمّته ومات هَزلاً قتيلَ الله بالزَّاب
ما شُقَّ جيبٌ ولا ناحتْكَ نائحَةٌ ولا بكتْكَ جيادٌ عند أسلاب[(٣)]

وقال بعض الشعراء مادحاً إبراهيم بن مالك الأشتر والمختار بن أبي عبيد :

فجزى إبراهيم ثم أبا اسـ حاقَ عنّا الالهُ خيرَ الجزاء
وجزى الله شُرطة الله خيراً عن بَني هاشم بحسُن البَلاء
إذ تعشّوْا منهمْ بسبعينَ ألفاً أو يزيدون قبْلَ وقت العَشَاء
قتلوا الفاسقَ اللعينَ جهاراً في فريق من سائر الأحياء
وشفَوا منهُمُ غليلَ صُدور وعلى ربّنا تمامُ الشِّفاء[(٤)]

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٢ .

(٢) الكودن : الفرس الهجي .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٧ أصدق الأخبار ص١٤٢ .

(٤) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٣٣ .

الأرجاف والإشاعات

بدأت الإشاعات تنتشر بالكوفة . . يقوم بنشرها المغرضون وضعفاء الإيمان ، مفادها : أن جيش إبراهيم لم يصمد أمام جيش الشام الضخم ، وإن إبراهيم بن الأشتر قد قُتل[١] .

وتأزم الوضع في الكوفة ، نتيجة هذه الشائعات المغرضة ، لم ير المختار بدآ من الخروج نحو المدائن لتلقي الأخبار عن قرب ، فخرج واستخلف على الكوفة السائب بن مالك الأشعري . وخرج بالناس ونزل ساباط[٢] ، وكأنه وهو في ساباط زادت الشائعات حدّة ، فلما خرج منها قال لمن معه : أبشروا فإن شرطة الله قد حسّوهم بالسيوف يوماً إلى الليل . . .

ودخلوا المدائن ، فصعد المختار المنبر ، فبينا هو يخطب في الناس ، ويأمرهم بالجد وحسن الرأي والاجتهاد والثبات على الطاعة ، والطلب بدماء أهل البيت ﷺ ، إذ جاءته البُشرى تترى . . يتبع بعضها بعضاً بقتل عبيد الله بن زياد وهزيمة أصحابه ، وأخذ عسكره ، وقتل أشراف أهل الشام[٣] ، فكاد يطير فرحاً ، ورجع إلى الكوفة في الحال مسروراً بالظفر[٤] .

---

(١) ورد في أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٦ « . . . وأرجف الناس بالكوفة بقتل ابن الأشتر ، فخرج المختار إلى المدائن ، فلما صار بها تلقته البشارات بقتل عبيد الله بن زياد وفضّ عسكره .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٩١ « بتصرف » .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٩١ . وناقل الخبر هو « عامر الشعبي » الذي يحاول دائماً وصم المختار بأنه يتصرف تصرفات توحي بأنه يعلم الغيب أو ينزل عليه الوحي . وسيأتي الكلام حوله ، وأنه لا يعتمد على كلامه في خصوص المختار .

(٤) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٤ .

وهكذا تبدّدت الشائعات ، وعمت الفرحة قلوب محبـي أهـل البيـت ﷺ ، ونكّس الآخرون أصحاب الشائعات رؤوسهم ، وعادوا بخفي حنين .

وتحققت أمنيات المختار وشيعة أهل البيت ﷺ بالقضاء على قتلة الإمام الحسين ﷺ وأهل بيت رسول الله ﷺ ، وتم الأخذ ببعض الثأر لهم « ﷺ » ، وليس في الإمكان أكثر مما كان .

موكب الرؤوس في الكوفة

عاد المختار من فوره إلى الكوفة ، تغمره الفرحة الكبرى ، وعم السرور أرجاء الكوفة بهذا النصر المؤزّر .

دخل موكب الرؤوس الكوفة ، وخرج الناس لاستقبالها وهم يذرفون دموع الفرح ، ويشكرون الله على هذا التوفيق في أخذ الثأر لأهل بيت النبيّ الأطهار .

أدخلوا رؤوس كبار جيش الشام على المختار في القصر وهو يتغذى ، فحمد الله على الظفر ، فلما فرغ من الغداء قام فوطئ وجه ابن زياد بنعله ، ثم رمى بها إلى غلامه ، وقال : اغسلها فإني وضعتها على وجه نجس كافر[1] . وبرّ بذلك بقسمه الذي أقسمه أن يوطئ برجله وجه ابن زياد .

وألقيت الرؤوس في القصر بين يديه ، فألقاها في المكان الذي وضع فيه رأس الحسين ﷺ ورؤوس أصحابه . ونصب المختار رأس ابن زياد في المكان الذي صلب فيه رأس الحسين ﷺ ، ثم ألقاه في اليوم الثاني في الرحبة مع الرؤوس ولما وضع رأس ابن زياد أمام المختار جاءت حية دقيقة فتخلّلت الرؤوس ، حتى دخلت في فم عبيد الله ابن زياد ، ثم خرجت من منخره ، ودخلت في منخره ، وخرجت من فمه ، فعلت هذا مراراً ، والمختار يقول : دعوها . . دعوها[2] .

---

(١) أصدق الأخبار ص١٤٣ .

(٢) أصدق الأخبار ص١٤٣ ـ بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٥ .

ونصبت الرؤوس في الرحبة أمام الملأ ، وتكررت الحالة ، فتدخل الحية في منافذ رأسه مراراً[١] .

وقد نقل شاهد عيان قال : فبينما أنا واقف عند الرؤوس بالكناس ، إذ قال الناس : قد جاءت . . قد جاءت ، فإذا حيّة عظيمة تتخلل الرؤوس ، حتى دخلت في منخرَي ابن زياد وخرجت ، فغابت ساعة ثم عادت ، ففعلت كذلك . . . وفعلت ذلك ثلاثة أيام[٢] .

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٥ .

(٢) تذكرة الخواص ص٢٥٧ .

الرؤوس إلى الحجاز

بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد ، والحصين بن نمير وشرحبيل ومن أشبههم إلى محمد بن الحنفية ، وأما باقي هذه الرؤوس ـ وهي أكثر من سبعين ألفاً ـ فصُلبت حول الكوفة[١] .

وجه الرؤوس إلى علي بن الحسين . . إلى المدينة مع رجل من قومه[٢]، وقال له :

قف بباب علي بن الحسين ﷺ ، فإذا رأيت أبوابه قد فُتحت ودخل الناس ، فذاك الوقت الذي يوضع فيه طعامه ، فادخل إليه .

فجاء الرسول إلى باب علي ابن الحسين ﷺ ، فلما فتحت أبوابه ، ودخل الناس للطعام ، نادى بأعلى صوته : «يا أهل بيت النبوّة ، ومعدن الرسالة ، ومهبط الملائكة ، ومنزل الوحي ! أنا رسول المختار بن أبي عبيد . . معي رأس عبيد الله بن زياد ، فلم تبق في شيء من دور بني هاشم امرأة إلا صرخت ، ودخل الرسول ، فأخرج الرأس ، فلما رآه علي بن الحسين قال : أبعده الله إلى النار»[٣] .

فسجد شاكراً لله ، وقال : الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من عدوي ، وجزى الله المختار خيراً . . أدخلتُ على عبيد الله بن زياد ، وهو يتغذى ورأس أبي بين يديه ، فقلت : اللهم لا تمتني حتى تريني رأس ابن زياد[٤] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٣ .

(٢) ورد في بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٥ : أن المختار بعث رؤوس القوّاد ، مع عبد الرحمن ابن عمير الثقفي ، وعبد الرحمن بن شداد الجشمي ، وأنس بن مالك الأشعري ، وقيل السائب بن مالك .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٥٩ ، واليعقوبي يذكر وجود علي بن الحسين ﷺ في المدينة ، أما المجلسي في بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٦ فيذكر أن الرؤوس بعثت إلى مكة ، وعلي بن الحسين ﷺ يومئذ بمكة .

(٤) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٦ ، أصدق الأخبار ص١٤٥ ، العقد الفريد ج٤ ص٤٠٤ .

وروي : أن علي بن الحسين ﷺ لم يُر ضاحكاً يوماً قط منذ قتل أبوه ، إلا في ذلك اليوم .

وأنه كان له إبل تحمل الفاكهة من الشام ، فلما أُتي برأس « عبيد الله بن زياد » أمر بتلك الفاكهة ، ففرّقت في أهل المدينة(١) .

وعن جعفر بن محمد الصادق ﷺ أنه قال : ما اكتحلت هاشميه ولا اختضبت ، ولا رئي في دار هاشمي دخان ـ كناية عن الطبخ ـ خمس حجج ، حتى قتل عبيد الله ابن زياد .

وقالت فاطمة بنت علي أمير المؤمنين ﷺ : ما تحنّأت امرأة منّا ولا أجالت في عينها مروداً ـ أي الاكتحال ـ ولا امتشطت ـ أي تسريح الشعر وتصفيفه ـ حتى بعث المختار رأس عبيد الله بن زياد(٢) .

بعد ذلك توجه موكب الرؤوس إلى مكة . . إلى محمد بن الحنفية ، والرُسُل يحملون له « ثلاثين ألف دينار » ، وكتب المختار معهم : « إني بعثت أنصاركم وشيعتكم إلى عدوكم ، فخرجوا محتسبين آسفين ، فقتلوهم ، فالحمد لله الذي أدرك لكم الثأر ، وأهلكهم في كل فج عميق ، وغرّقهم في كل بحر ، وشفى الله صدور قوم مؤمنين »(٣) .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٥٩ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٦ ، أصدق الأخبار ص١٤٥ ، وانظر أيضاً تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٥٩ .

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٥ ، وقد ذكر ابن الأعثم في الفتوح ج٦ ص١٨٣ الكتاب بصيغة أخرى ، وهي بسم الله الرحمن الرحيم . للمهدي محمد بن علي ، من المختار بن أبي عبيد سلام عليكم ! أما بعد : فالحمد لله الذي طلب لك بالأوتار ، وأخذ لك بالثأر من الأشرار وأبناء الفُجّار ، فقتلهم في كل فج عميق بقهر ، وغرّقهم في كل بحر ونهر ، فشفى بذلك قلوب المؤمنين ، وأقرّ به عيون المسلمين ، وأهلك المحلّين الفاسقين ، وأولاد الفاسقين ، فأبادهم ربُ العالمين أجمعين . فنزل بهم منازل بثمود وعاد ، وغرّقهم تغريق فرعون ذي الأوتاد ، الذي طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد . قد قتلوا أشرّ قتله ، ومُثل بأشرافهم أقبح مثله ، فاحمد الله ـ أيها المهدي ـ على ما آتاك ، واشكره على ما أعطاك ، وأنعم عليك وأولاك ، وقد وجهت إليك بثلاثين ألف دينار لتصرفها في أهل بيتك وقرابتك ومن لجأ إليك من شيعتك ـ

فلما ورد كتابه على محمد بن الحنفية ، وقرأه على أهل بيته وشيعته ، خرّ القوم سُجّداً[١] ، ودعا محمد بن الحنفية للمختار ، وقال : جزاه الله خير الجزاء ، فقد أدرك لنا ثأرنا ، ووجب حقه على كل من وَلَدَه عبد المطلب بن هاشم . اللهم واحفظ لإبراهيم الأشتر وانصره على الأعداء ، ووفقه لما تحب وترضى ، واغفر له في الآخرة والأولى .

وقسم محمد المال في أهله وشيعته بمكة والمدينة على أولاد المهاجرين والأنصار[٢] .

وأما عبد الله بن العباس ، فإنه قال : « جزاه الله عنّا ، وعن رسول الله ﷺ خير جزاء المحسنين . . لقد أخذ بثأرنا وأدرك وترنا »[٣] .

ثم أمر محمد بن الحنفية بالرؤوس أن تنصب خارج الجسر ـ بمكة ـ فمنعه ابن الزبير من ذلك[٤] ، فحمل إلى ابن الزبير ـ رأس ابن زياد ـ فوضعه على قصبة فحركتها الريح فسقط ، فخرجت حيّة من تحت الستار ، فأخذت بأنفه ، فاعادوا القصبة فحركتها الريح فسقط ، فخرجت الحية فأزمت بأنفه ففعل ذلك ثلاث مرات ، فأمر ابن الزبير ، فألقي في بعض شعاب مكة[٥] ، وقيل : الحمد لله رب العالمين .

إدراك الثأر

وتمّ لشيعة آل محمد ﷺ إدراك ثأرهم ، بالانتقام من قَتَلة الحسين ﷺ وآل بيت رسول الله ﷺ .

والسلام عليك أيها المهدي ورحمة الله وبركاته .

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٣ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٥ .

(٣) مع المختار الثقفي ص١٦٩ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٨٤ .

(٥) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٦ .

وأهم عامل ساعدهم على تحقيق أهدافهم ـ على قلّة عددهم وضعف إمكانـاتهم ـ على عدوٍ يفوقهم أضعاف المرات عدداً وعُـدّة ـ هـو أنهـم أصحاب قضيـة ، وأنهـم على الحق ، وأنهم تمسّكوا بحقهم ، ولم يُلههم عنه شهوات الدنيا وزخرفها .

وثانياً : الشعور بالذنب تجاه أهل البيت ﷺ ، وأنـه لـولا تماهلهم واستكانتهم لما حلّ بأهل بيـت رسـول الله ﷺ ما حـلّ . فدافـع التكفير عـن الذنـب الهبهـم حماساً واندفاعاً لتحقيق ما يبغون . . لا يثنيهم عن ذلك شيء .

وثالثاً : كفاءة القيادة الشيعية ، المتمثّلة بالمختار بن أبي عبيـد وإبراهيـم بـن الأشتر وآخرين ، ناهيك عن جرأتهم واقتحامهم الأهوال ، للوصول إلى غاياتهم النبيلة .

ورابعاً : الحمـاس الديني الـذي يذكيـه في قلـوب النـاس الخطـب الناريـة للقـادة ، بالخصوص خطب إبراهيم في جيشه عند وقعة خازر .

وقد روي : أن المختار قتل ثمانية عشر ألفاً ممن شرك في قتل الحسين ﷺ أيـام ولايته[1]، غير القتلى من الجيـش الأمـوي الـذي يربـو علـى السبعين ألفـاً ـ كمـا ذكرنا ـ .

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٦.

الفصل الثالث عشر

مماكـــــرة

بين المختار وابن الزبير

نجح جيش المختار في صدّ الجيش الأموي الزاحف نحو الشرق ، وتشتيته وإبادته ، وقتل قياداته ـ الذين كانوا أعمدة القوة في الدولة الأموية ـ في موقعة خازر .

وقد ظل عبد الله بن الزبير في مكة ينظر إلى قتال المختار عبيدَ الله بن زياد بعين ملؤها السرور . فهذه الحرب الضروس ستؤدي حتماً إلى ضعف الفريقين على السواء .

وقرّت عين ابن الزبير حينما علم بمصرع ابن زياد ، فقد كان أعظم القوّاد الأمويين ، وأصبح اصطدام المختار وابن الزبير أمراً محتوماً ، فلم تعد بلاد العراق تتسع لهاتين الحركتين الكبيرتين[١] . بالخصوص بعد انهاك قوى المختار في الحروب مع أشراف الكوفة ، ومع الجيش الأموي . مما شجع ابن الزبير في التخطيط للقضاء على حركة المختار .

ورغم هذه الانتصارات الواسعة التي قام بها المختار ، وبرغم تفوقه الواضح على ابن الزبير ، فقد رأى بذكائه ودهائه أنه في حاجة إلى مهادنة ابن الزبير ، رغم ما بينهما من بغضاء وكراهية ، بعد أن حارب في ميدانين ـ حارب العرب الأشراف بالكوفة أولاً ، ثم حارب الجيش الأموي بقيادة ابن زياد . وشعر بعدهما أنه في حاجة إلى فترة هدوء وسلام ، يجمع فيها شمل صفوفه ، وينال جنده فيها قسطاً من الراحة ، فلا يملوا طول القتال ، ولاسيما أن العرب الأشراف بالكوفة لا يزالون يمثلون حزب المعارضة ، ويترقبون الفرصة للوثوب على المختار ، والأخذ بالثأر منه[٢] . وكان

(١) المختار الثقفي (مرآة العصر الأموي) ص٢٩٤ .

(٢) المختار الثقفي (مرآة العصر الأموي) ص٢٩٥ .

المختار قد كتب إلى ابن الزبير قبل ذلك ، ووضعه أمام الأمر الواقع ، فإن رضى ابن الزبير بذلك ، وأقرّه على ذلك ، ودعمه بمليون درهم ، تصدى المختار بجنده لجيش الشام الزاحف نحو الحجاز ، فكان جواب ابن الزبير : إلى متى أماكر كذّاب ثقيف ويماكرني ؟ ثم تمثّل :

عاري الجواعر من ثمود أصلُه عبدٌ ، ويزعُمُ أنهَ مَن يَقْدمُ

وكتب إليه : والله ولا درهم .

ولا أمتَري عَبْدَ الهوَان بِبَدْرتي وإنّي لآتي الحتفَ ما دُمتُ أسْمَعُ[1]

ولم يتوصلا إلى حل وسط ، فالاتفاق بينهما غير ممكن ، لاختلاف الأهداف المرجوة لكل منهما . فابن الزبير يهدف إلى خلافة زبيرية في بلاد الحجاز . قائلة بالامتيازات للعرب ، بينما المختار يطمح إلى خلافة علوية في بلاد العراق ، يتزعمها آل بيت رسول الله ﷺ ، وتتكافأ الفرص فيها بين العرب والموالي ، وبلا طبقيّات ، وبلا امتيازات لطائفة دون أخرى . وهذان مسيران لا يلتقيان أبداً .

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤٧ ، وكان كتاب المختار إلى ابن الزبير كما يلي : إني اتخذت الكوفة داراً ، فإن سوغتني ذلك ، وأمرت لي بـ « ألف ألف درهم » سرتُ إلى الشام ، فكفيتك ابن مروان .

مماكـــرة

ولكن المختار ظل يحاول جذب ودّ ابن الزبير، ليأمن بذلك شره، ويتفرغ لبناء دولته الفتيّة، ويعمّق جذورها في الأرض.

وظل يستغل الفرص كلما واتت ليكسب ود ابن الزبير ويلين جانبه. وأخيراً عندما بعث عبد الملك بن مروان جيشاً بقيادة «عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن العاص» إلى وادي القرى ـ شمال الحجاز ـ لغرض محاربة ابن الزبير، استغل المختار الفرصة، فكتب إلى ابن الزبير:

«أما بعد، فقد بلغني أن عبد الملك بن مروان قد بعث إليك جيشاً، فإن أحببت أن أمدّك بمدد امددتك». فكتب إليه عبدّ الله بن الزبير:

«أما بعد، فإن كنت على طاعتي، فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي، وتبايع لي الناس قبَلَك، فإذا أتتني بيعتك، صدّقت مقالتك، وكففت جنودي عن بلادك، وعجّل عليّ بتسريح الجيش الذي أنت باعثه، ومُرهم فليسيروا إلى من بوادي القرى من جند ابن مروان، فليقاتلوهم، والسلام».

فدعا المختار شُرَحْبيل بن وَرْس من همْدان، فسرحه في ثلاثة آلاف أكثرهم الموالي، ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة رجل، وقال له: «سرْ حتى تدخل المدينة، فإذا دخلتها فاكتب إلي بذلك حتى يأتيك أمري».

يرى أبو مخنف راوي الحدث، أن المختار كان يريد بذلك إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميراً من قبله، ويأمر ابن ورس أن يمضي إلى مكة حتى يحاصر ابن الزبير ويقاتله بمكة.

تحرك جيش الكوفة بقيادة شرحبيل بن ورس تجاه المدينة[١] .

وقع في نفس ابن الزبير ما دبّر المختار وظـن بـه مكيدتـه[٢] ، فبعـث مـن مكـة إلـى المدينة عباس بن سهل بن سعد في ألفين ، وأمره أن يستنفر الأعراب ، وقال لـه : إن رأيت القوم في طاعتي فاقبل منهم وإلا فكايدهم ، حتى تهلكهم .

وأقبل عباس بن سهل حتى لقى ابن ورس بـ (الرقيـم)[٣] ، وقـد عبّأ ابـن ورس أصحابه ، فجعل على ميمنته سلمان ابن حمير الثوري من همدان ، وعلـى ميسرته عياش بن جَعدة الجُدلي ، وكانت خيله كلها في الميمنة والميسرة ، ونزل هـو يمشـي في الرّجّالة .

وجاء عباس في أصحابه وهم منقطعون على غـير تعبئة ، فيجـد ابـن ورس علـى الماء قد عبأ أصحابه تعبئة القتال ، فدنا منهم فسلّم عليهـم ، ثـم قـال : أُخـل معـي هـا هنا ، فخلا به ، فقال له : رحمك الله ألست في طاعة ابن الزبير ! فقال له ابن ورس : بلى ، قال : فسرْ بنا إلى عدوه هذا الذي بوادي القرى . فإن ابن الزبـير حدّثني أنّه إنما أشخصكم صاحبكم إليهم ، قال ابن ورس : ما أمـرت بطـاعتك ، إنمـا أمـرت أن أسير إلى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيي .

قال له عباس بن سهل : فإن كنـت في طاعـة ابـن الزبير ، فقـد أمرنـي أن أسير بـك وبأصحابك إلى عدونا ، الذي بوادي القرى ! فقال له ابن ورس : ما أمرتُ بطاعتك ، وما أنا بمتّبعك دون أن أدخل المدينـة ، ثـم أكتـب إلى صـاحبي ، فيأمرني بـأمره . فلمـا رأى عباس بن سهل لجاجته عرف خلافـه ، فكـره أن يعلمـه أنـه قـد فطـن لـه ، فقـال : فرأيك أفضل ، إعمل بما بدا لك ، فأما أنا فأني سائر إلى وادي القرى[٤] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٢ ـ ابن الأثير ج٤ ص٢٤٧ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٩ .

(٣) موضع شرق الحناكية . . قرية من قرى المدينة على طريق البصرة .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٣ ـ الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤٨ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٠ .

وهذا يظهر أن ابن ورس كان يجهل تماماً خطة المختار ، أو أنه لم يكن من الذكاء بحيث يمكنه أن يخدع ابن سهل عند مقابلته إياه . على أية حال فإن المختار يجب أن يُلام في كلتا الحالتين لاختياره مثل هذا القائد .

هذا وقد كان جواب ابن ورس كافياً لعباس بن سهل لفهم استراتيجية المختار ، ولذلك باغت جيشَ ابن ورس ، فقتل معظمه ، بضمنهم القائد[1] .

فقد جاء عباس بن سهل فنزل بالماء ، وبعث إلى ابن ورس بجزائر كانت معه ، فأهداها له ، وبعث إليه بدقيق وغنم مسلّخة ـ وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعاً ـ فبعث عباس بن سهل إلى كل عشرة منهم شاة ، فذبحوها ، واشتغلوا بها ، واختلطوا على الماء .

وترك القوم تعبئتهم ، وأمن بعضهم بعضاً ، فلما رأى عباس بن سهل ما هم فيه من الشغل ، جمَعَ من أصحابه نحواً من ألف رجل من ذوي البأس والنجدة ، ثم أقبل نحو فسطاط شرحبيل بن ورس ، فلما رآهم ابن ورس مقبلين إليه نادى في أصحابه ، فلم يتواف إليه مائة رجل حتى انتهى إليه عباس بن سهل ، وابن ورس يقول : يا شرطة الله ، إليّ إليّ . . قاتلوا المحلّين . . أولياء الشيطان الرجيم . . فإنكم على الحق المبين ، وقد غدر القوم وفجروا .

وانتهى إليهم العباس ، وهو يقول :

أنا ابنُ سهْل فارسٌ غيرُ وكَلْ	أرْوَعُ مقدَام إذا الكبشُ نَكَلْ
وأعْتلي رأسَ الطِّرمّاح البطلْ	بالسيف يومَ الرَّوْع حتى يَنْخَزلْ

فلم يطل القتال بينهم حتى قتل ابن ورس في سبعين من أهل الحفاظ .

ورفع عباس بن سهل راية أمان لأصحاب ابن ورس ، فأتوها إلاّ نحواً من ثلثمائة رجل ، انصرفوا مع سليمان بن حمير الهمداني وعياش بن جعدة الجدلي ،

(١) الخلافة الأموية ص ٩٠ .

فلما وقعوا في يد عباس بن سهل أمر بهم فقُتلوا إلا نحواً من مائتي رجل ، كره ناس من الناس ممن دفعوا إليهم قتلهم ، فخلّوا سبيلهم ، فرجعوا ، فمات أكثرهم في الطريق[١] .

فلما بلغ المختار خبر شرحبيل بن ورْس وأصحابه ، قام خطيباً ، فقال :

« ألا إن الفجار الأشرار قتلوا الأخيار الأبرار . . . ألا وإن الفاسق النجس . . القذر الرجس ، قتل ابن ورس ، وكان أمراً مأتياً ، وقضاءاً مقضياً »[٢] .

وهكذا انقلب الأمر على المختار ، ولكن المختار لم يفوّت هذه الفرصة ، فكتب إلى ابن الحنفية ، وذكر له : إن غرضه من إنفاذ ذلك الجيش المهزوم ، هو مساعدة ابن الحنفية ضد اضطهاد ابن الزبير له ، وعرض عليه أن يعيد الكرّة ، ولكن ابن الحنفية كان كعادته يميل إلى السلام فرفض عرض المختار[٣] ، ومما يؤيد هذا أن ابن الحنفية كان دائماً ضد العنف[٤] ، وانتهت القضية بهدوء .

وقفـــة

ولكن السؤال هو : متى حصلت هذه الحادثة ؟ إن كانت قد حصلت بالفعل ! وهل كان خطر الحجاز سيندفع عن المختار بهذه الخطوة ؟ وهل كان حقاً ينوي استخلاص المدينة من ابن الزبير ، وبعد ذلك مكة عاصمته ؟ إلى غيرها من التساؤلات التي نحاول الإجابة عنها.

لم يشر رواة هذه الحادثة إلى تاريخ وقوعها ، ولو على نحو الإجمال .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٤ ـ الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤٨ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٠ ، وفي الأنساب : فظفر ابن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم ، وأفلت الباقون .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٧٤ ـ الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤٨ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٠ ، وفي الأنساب : فظفر ابن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم ، وأفلت الباقون .

(٣) المختار الثقفي (مرآة العصر الأموي) ص٢٩٩ .

(٤) الخلافة الأموية ص٩٢ .

ولكن « ماجد لحّام » أورد في كتابه « عبد الله بن الزبير » ، أنه وبعد وفاة مروان بن الحكم في رمضان سنة ٦٥هـ ، وتولّي ابنه « عبد الملك بن مروان » الحُكم في بلاد الشام ، أرسل عبد الله بن الزبير « ناتل بن قيس الجُذامي » على رأس حملة عسكرية إلى فلسطين ، ليستولي على بلاد الشام ، فلما علم عبد الملك بقدوم ناتل خرج بنفسه على رأس حملة ، والتقى بجيش الحجاز عند أجنادين في فلسطين ، وجرى قتال عنيف أودى بحياة ناتل والحق الهزيمة بجيش ابن الزبير ، وعاد عبد الملك إلى دمشق فائزاً منصوراً وفي العام التالي أرسل عبد الملك جيشاً إلى الحجاز بقيادة ابن عمه « عبد الملك بن الحارث ابن الحكم » ، فوصل إلى وادي القرى في شمال الحجاز .

ثم عاد دون أن يخوض معركة مع جند الحجاز ، وربما كان الهدف من هذه الحملة العسكرية الارهاب واظهار القوة ، حتى لا يعود ابن الزبير لغزو بلاد الشام ثانية(١) .

يظهر من هذا ، أن جيش الشام دخل وادي القرى في الربع الأخير من سنة ٦٦هـ .

أي في نفس الوقت الذي كان جيش عبيد الله بن زياد يخطو نحو العراق ، وفي نفس الوقت الذي كان الوضع في داخل الكوفة على وشك الانفجار ، وقيام ثورة الأشراف .

---

(١) عبد الله بن الزبير « العائذ ببيت الله الحرام » ص١٣٤ . يظهر من رواية المسعودي في مروج الذهب ج٣ ص١٠٥ أن «ناتل بن قيس» هذا دخل فلسطين من قبل ابن الزبير فوراً بعد قتل ابن زياد (أي في شهر محرم عام ٦٧) ، وعلى الفور قام عبد الملك بمهادنة ملك الروم ، وسار إلى فلسطين ، فالتقوا بـ «أجنادين» فقُتل «ناتل» وعامة أصحابه وانهزم الباقون من جيش ابن الزبير ، فقال شاعر المروانية :

قتلنا بـ (أجنادين) سعداً وناتلاً … قصاصاً بما لاقى «حُبيشٌ» و «منذرُ»

إشارة إلى انهزام جيش الشام المبعوث إلى الحجاز في عام (٦٦هـ) وإبادته على يد «العباس بن سهل» قائد جيش ابن الزبير

(راجع الكامل في التاريخ ج٤ ص١٩٠) .

فهل يعقل أن يفرّط المختار بثلاثة آلاف مقاتل ليصد جيش الشام المتوجه نحو الحجاز ؟ أو أن يبعث هذا العدد ليضم إليه أراضٍ جديدة ، وهو على وشك أن يفقد عاصمته «الكوفة» ؟

وإن كان ينوي السيطرة على الحجاز ، فهل فاته وجود البصرة بيد ابن الزبير ؟ وهي معسكر الحجاز ومركز تموينه ، وهي رئة الحجاز ـ كما يقولون !

فإن كانت كل هذه الأمور تحوط بالمختار ، ومع ذلك يقدم على هذه الخطوة ، وهو المعروف بذهنه الوقاد وحنكته السياسيّة ، فيكون ما أقدم عليه غلطة وانتكاسة كبرى ، أضاعت منه ثلاثة آلاف مقاتل هو في أمس الحاجة إليهم ، في ظرفه الصعب !

وأيضاً يظهر من هذه الواقعة تكرر صور الغدر بعد الأمان عند دولة ابن الزبير . فعباس بن سهل بعد أن يطمئن جيش ابن ورس يهجم على جيشه ويبيده ، ويرفع راية أمان ، وبعد ذلك يقتل من التجأ إليها ـ كما ذكرنا ـ

وابن سهل هذا أيضاً ، وبعد أن ينزل الهاربين من جيش الشام ـ المرسل إلى المدينة أوائل عام ٦٥ هـ ـ على حكمه ، وهم خمسمائة يقتلهم[١] .

وكذلك موقف مصعب بن الزبير مع المستسلمين من بقايا جيش المختار ، وهم أكثر من ستة آلاف ، فقتلهم ـ كما سنرى ـ

وإن فرضنا أن جيش ابن وَرْس توجه نحو المدينة بعد عودة جيش ابن الأشتر المنتصر من الجزيرة ، فهو أيضاً خطأ فادح ، فالمختار كان مهدداً من قبل مصعب بن الزبير الجاثم له في البصرة ، ومعه أكثر من عشرة آلاف من أشراف الكوفة ، والكل يعدّون العدة للهجوم على الكوفة واستخلاصها من يد المختار .

ويغلب الظن عند المتتبّع ، أن هذه القصة مصطنعة ، اصطنعها أعداء المختار ليلوّثوا سمعته ، وأنه كان لا يهمه سوى الاطماع الدنيوية ، ويحاول أن يلصق نفسه

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص١٩١ .

وأعماله بأهل البيت ﷺ ، رضوا بذلك أو أبوا ، أو أنهم أجروا عليها بعض التعديل والاضافات والحذف حتى أخرجوها بهذه الصورة المشينة !

ويظهر ذلك في المراسلات التي تمت بين المختار وبين ابن الحنفية ، بعد قتل ابن وَرْس وأصحابه وأن صيغة كتاب المختار لإبن الحنفية لم تتقدمها عبارة «إلى محمد ابن علي من المختار بن أبي عبيد» التي تتصدر كل مراسلاته إلى ابن الحنفية ، فلاحظ !(١) .

---

(١) فقد ذكر الطبري ج٦ ص٧٥ ، وكذلك أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٠ ، والكامل في التاريخ ج٤ ص٢٤٩ نص المراسلات باختلاف يسير ونحن ننقل النص من الطبري : كتب المختار إلى ابن الحنفية مع صالح بن مسعود الخثعمي : «بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإني كنت بعثت إليك جنداً ليذلّوا لك الأعداء ، وليحوزوا لك البلاد ، فساروا إليك حتى إذا أظلّوا على طيبة ، لقيهم جند الملحد ، فخدعوهم بالله ، وغروهم بعهد الله ، فلما اطمأنّوا إليهم ، ووثقوا بذلك منهم ، وثبوا عليهم فقتلوهم .
فإن رأيت أن أبعث إلى أهل المدينة من قبلي جيشاً كثيفاً ، وتبعث إليهم من قبلك رُسُلاً ، حتى يعلم أهل المدينة أني في طاعتك ، وإنما بعثت الجند إليهم عن أمرك ، فافعل . فإنك ستجدهم بحقكم أعرف ، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير . الظلمة الملحدين ، والسلام عليك .
فكتب إليه ابن الحنفية : أما بعد ، فإن كتابك لما بلغني قرأته ، وفهمت تعظيمك لحقّي ، وما تنوي به من سروري ، وإن أحب الأمور كلّها إليّ ما أطيع الله فيه ، فاطع الله ما استطعت ، فيما أعلنت وأسررت ، واعلم أني لو أردت لوجدت الناس إليّ سراعاً ، والأعوان لي كثيراً ، ولكني اعتزلهم ، واصبر ، حتى يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين .
فأقبل صالح بن مسعود إلى ابن الحنفية فودّعه وسلّم عليه ، وأعطاه الكتاب ، وقال له : قل للمختار فليتق الله ، وليكفف عن الدماء ، قال صالح : فقلت له : أصلحك الله ! أوَلم تكتب بهذا إليه ! قال له ابن الحنفية : قد أمرته بطاعة الله ، وطاعةُ الله تجمع الخير كلّه ، وتنهى عن الشر كلّه .
فلما قدم كتابه على المختار ، أظهر للناس : أني قد أُمرت بأمر يجمع البرَّ واليُسر ، ويَضْرح الكفر والغدر .

الفصل الرابع عشر

المختار وأهل البيت عليهم السلام

المختار وأهل البيت عليهم السلام

كان المختار عريق التشيّع والولاء لأهل البيت عليهم السلام ، وكان قد أوقف حياته لخدمتهم، والدفاع عنهم، والحفاظ على حرمتهم .

فالمختار كما يصفه أحدهم : « كان سيف بني علي بن أبي طالب ، ورجل الشيعة ، فقد دعا للحسين بن علي عليهما السلام ، حتى إذا قُتل دعا لابنه علي بن الحسين»[١] .

تشييد قبر الحسين عليه السلام :

ولم يغض الطرف عن مأساة كربلاء، فانتقم من منفذيها والمشاركين فيها، في حدود امكاناته، فتصيدهم واحداً واحدا، ولم يصفح عن أحد.

وأيضاً هو أول من تصدى لبناء مرقد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء .

فقد بنى مرقد الحسين عليه السلام في كربلاء وشيّد له قبة من الآجر والجص ، وهي أول قبّة شيدت في الإسلام[٢] ، وهو أول من بنى عليه بناءاً أيام إمرته ، وكانت على القبر سقيفة ومسجد ، ولهذا المسجد بابان أحدهما نحو الجنوب والآخر نحو الشرق[٣] .

واتخذ المختار قرية حول القبر[٤] ، وعمرت المنطقة .

وبقيت تلك السقيفة والمسجد طيلة فترة العهد الأموي ، وسقوط دولتهم سنة ١٣٢هـ ، وقيام دولة بني العباس[٥] حتى عصر الرشيد . .

(١) المختار الثقفي « مرآة العصر الأموي » ص٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الحسينية (تاريخ المراقد) الجزء الأول ص٢٥٣ « بتصرف » .

(٣) تاريخ مرقد الحسين والعباس ص٧١ .

(٤) تاريخ كربلاء «عبد الجواد الكليدار» ص١٦٠ .

(٥) تاريخ مرقد الحسين والعباس ص٧٣ ، وفي ص٧٤ : وفي عصر الرشيد ، صدر الأمر عنه ـ لعنه الله ـ بهدم =

إسعافهم اقتصادياً :

قد مرّ معنا أنه ومع كل رسالة إلى أهل البيت ﷺ أو حدوث أمر لهم ، كان يبعث لهم المال بسخاء ، وفي خصوص الإمام زين العابدين ـ علي بن الحسين ﷺ ـ فقد أرسل له المختار عشرين ألف دينار ، فقبلها الإمام ﷺ وبنى بها دار عقيل بن أبي طالب ودارهم التي هدمت[١] .

وعن الإمام الباقر ﷺ : وزوّج ـ المختار ـ أراملنا ، وقسّم فينا المال على العُسرة[٢] .

وأيضاً يقول الإمام الباقر ﷺ : سبحان الله ، أخبرني أبي أن مهر أمّي مما بعث به المختار إليه[٣] . . أولم يبن دورنا[٤] !

واستمر المختار في بعث الأموال إلى أهل البيت ﷺ بالخصوص إلى ابن الحنفية والإمام السجاد ﷺ ، ويظهر أنه وقبل قتله ، بعث إلى علي بن الحسين بمائة ألف درهم فكَرِه أن يقبلها ـ كما تقول الرواية ـ وخاف أن يردها ، فأخذها فاحتبسها عنده ، فلما قتل المختار كتب علي بن الحسين إلى عبد الملك بن مروان : إن المختار بعث إلي بمائة ألف درهم ، فكرهت أن أردّها ، وكرهت أن آخذها ، فهي عندي ، فابعث إلي من يقبضها ، فكتب إليه عبد الملك : يا ابن عم ، خذها ، فقد طيّبتها لك ، فقبلها[٥] .

ما حول المرقد ، وأرسل أناساً . . فقدموا إلى المرقد الحسيني لتهديم منار الهدى ونبراس النجاة للأمة ، فهدموا المسجد في حرم الحسين ﷺ والمسجد المقام على قبر أخيه العباس ﷺ ، كما دمّروا وخرّبوا كُل ما فيها من الأبنية والمعالم الأثرية وأمرهم الرشيد بقطع شجرة السدرة التي كانت نابتة عند القبر ، وكرب موضع القبر . . .

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ث٣٥٢ ـ مجمع الرجال للقهپائي ج٦ ص٧٨ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥١ .

(٣) وهذا كان قبل توليه الإمارة ، وهو دليل ولائه لأهل البيت ﷺ قبل توليه الإمارة .

(٤) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥١

(٥) الطبقات الكبرى ج٥ ص٢١٣ .

ويظهر أن مكاتبه الإمام مع عبد الملك حصلت بعد توحّد البلاد ، تحت راية عبد الملك بن مروان .

«حوراء» هدية إلى زين العابدين عليه السلام

مليئة كتب التاريخ بصلات المختار لأهل البيت عليهم السلام، وقد مرت الإشارة إلى بعضها . وقد ذكر المؤرخون أن من ضمن الصِّلات كانت جارية نفيسه اسمها حوراء .

يقول عمر الجعفري : كنت أُدمن الحج ، فأمر على علي بن الحسين عليهما السلام فأسلّم عليه . وفي بعض حججي غدا علينا عليّ بن الحسين عليهما السلام ، ووجهه مشرق ، فقال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وآله في ليلتي هذه (في الرؤيا) حتى أخذ بيدي وأدخلني الجنة وزوّجني حوراء ، فواقعتها ، فعلقت ؛ فصاح بي رسول الله صلى الله عليه وآله : يا علي بن الحسين ، سمّ المولود منها زيداً !

فما قمنا من مجلس علي بن الحسين عليه السلام ذلك اليوم ـ وعلي يقصّ الرؤيا ـ حتى أرسل المختار بن أبي عبيد بأمّ زيد ، هديةً إلى علي بن الحسين عليهما السلام . اشتراها بثلاثين ألفاً (أي ثلاثين ألف درهم) فلما رأينا إشفاقه بها تفرّقنا من المجلس . . .[1]

والإمام زين العابدين عليه السلام يروي الحدث لأبي حمزة الثمالي فيقول له : . . . صليت صلاة الفجر ، فدق الباب رجل ، فخرجت إليه ، فإذا معه جارية ملفوف كُمّها على يده . . مخمّرة بخمار ، قلت : حاجتك ؟ قال : أريد علي بن الحسين عليهما السلام ، قلت : أنا هو ، قال : أنا رسول المختار بن أبي عبيد الثقفي ، يقرؤك السلام ، ويقول : وقعت هذه الجارية في ناحيتنا ، فاشتريتها بستمائة دينار ، وهذه ستمائة دينار ، فاستعن

---

(١) زيد الشهيد (المقرم) ص٦ ، وبقية الرواية : . . . ولما كان من قابل ـ أي بعد سنة ـ حججت ومررت على علي بن الحسين عليهما السلام لأسلّم عليه ، فأخرج زيداً على كتفه الأيسر وله ثلاثة أشهر ، وهو يتلو هذه الآية ، ويومىء بيده إلى زيد : ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ يوسف : ١٠٠ .

بها على دهرك ، ودفع إليّ كتاباً كتبت جوابه ، وقلت : ما اسمك ؟ قالت : حوراء ، فهيّئوها لي وبتُّ بها عروساً . . .[١] .

المختار . . السّنَد

وهكذا كان المختار دائم التواصل والاتصال مع آل بيت رسول الله ﷺ ، وكانوا دائماً يقبلون هداياه حتى أخريات حياته . . وكان سنداً لهم يدفع عنهم شرّ ابن الزبير وغير ابن الزبير ، كما مرت معنا بعض مواقفه وتضحياته لهم « عليهم السلام » ، ناهيك عن الفرحة التي غمرت قلوب أهل البيت ﷺ، عندما بعث برؤوس أعدائهم وأعداء الدين ، ودعائهم المتواصل له بالخير. حتى أنه بعد قتل المختار تجرأ عليهم ابن الزبير وضايقهم بشتى الأساليب ، وأخرجهم من البلد الحرام ـ مكة ـ إلى الطائف ! ! وعند احتجاج عبد الله بن عباس على عبد الله بن الزبير ، على سوء معاملته لبني هاشم ، قال له ابن الزبير : قد قُتل المختار بن أبي عبيد الثقفي . . الذي كنتم تمدّون أعينكم إليه يا بني هاشم ! ![٢] وكأنه يريد أن يُشعِرَهم أن لاسند يسندهم بعد ذهاب المختار ، وهكذا كان ! !

فلما قُتِل المختار تضعضع بنو هاشم واحتاجو بعد أن عزّوا به وامتنعوا[٣]. وهذه العبارة على قصرها تحمل معنى ثقيلاً ، ينوء التاريخ بحمله .

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥١ زيد الشهيد ص٧ ، وأول الحديث : . . . بينا أنا ليلة ساجد وراكع ذهب بي النوم فرأيت كأني في الجنة ، وكأن رسول الله ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ قد زوّجوني حوراء من الحور العين فواقعتها واغتسلت عند سدرة المنتهى ، ووليت . . هتف بي هاتف : ليهنئك زيد ليهنئك زيد فاستيقظت ونطهّرت ، و . . .

(٢) مسالك الابصار في ممالك الأمصار (للصنعاني) ص١٣٩ .

(٣) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٥١ « بتصرف » .

الفصل الخامس عشر

المساواة والانحدار

المساواة والانحدار

التزم المختار نهج المساواة ، فلم يرضخ للضغوط التي أقامها الأشراف المتضررون ضده .

وقد تبين أن ثورة الأشراف ما كانت لتقوم لو أنه عدل عن مبدأ المساوات الذي التزمه ، فهؤلاء الأشراف الذين تعوّدوا كثرة العطاء كل هذه المدة الطويلة ، لم يكونوا ليرضخوا لحكم لم يألفوه من قبل . . يعطي المولى الحقير ـ في تصوّرهم ـ كما يعطي السيد الجليل ، بلا فرق ولا تمييز .

ويمكن القول : أن تقريب الموالي كان محاولة أولى نحو إقامة المجتمع الإسلامي القائم على الإيمان . . لا على رابطة الدم وشرف المحتد . ولا شك أنه كانت هناك علاقة بين إنصاف الموالي وثورة الأشراف ، حيث يتضح من وصف أحدهم لسياسة المختار ازاء الموالي ـ وهو وصف مشبع بالحقد والمرارة ـ : « . . . فحملهم على الدواب واعطاهم وأطعمهم فيئنا . . . » ويتضح من هذا ، أنه لم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من جعله للموالي من الفيء نصيباً[١] .

فهم قد ألفوا كثرة العطاء[٢] ، وأبوا أن يتنازلوا عن مصالحهم الدنيوية والخاصة لأجل تطبيق تعاليم الإسلام الصحيحة ، بل يعتبرون إشراك الموالي معهم في الفيء خلاف الدين[٣] .

---

(١) تاريخ العرب والإسلام (سهيل زكار) ص١٥١ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج٧ ص٤٣ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٤٦ ، وقد مرّ معنا في ص٣٠٠ أن شبث بن ربعي عندما نقل للمختار شكوى الأشراف من إشراك الموالي بالفيء قال له « . . ولا يحل لك أيها الأمير هذا في دينك . . » .

وكان أكثر الذين هربوا إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير يشكون هذه المساوات التي طبقها المختار ، وقد عُرف عن مصعب حسّه العنصري ، وتفضيله العرب على من سواهم ، فهو الذي كان يمنع زواج المولى من المرأة العربية ، وكان قد طلّق عربية من زوجها .

ولم يكن الداعي لذلك سوى كون زوجها من غير العرب ، وبالنتيجة هو غير كفئ لها ـ كما تقول نظريتهم ـ[١] . وهذه النقطة بالذات ـ وبعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً ـ هي التي وقفت دون انصاف المختار من قبل الكثير من المؤرخين العرب .

فالمؤرخ الألماني (فلهاوزن) يعلل عدم انصاف المؤرخين العرب للمختار ، بأنه وقف إلى جانب الموالي وعمل على تحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية مما أغضب بعض العرب عليه[٢] ، وقد اتهموه بأنه قدم الموالي على العرب ، وهو من هذه التهمة براء ، فهو عمل دوماً على الموازنة بين العرب والموالي ـ كما فصلنا في بحث المساواة ، فراجع .

والخلاصة ، أن المختار راح ضحية مبادئه وجهوده من أجل القضاء على كل مظاهر التفرقة العنصرية .

ويقول المؤرخ (فلهاوزن) : لم يشأ العرب الحد من امتيازاتهم عن طيب خاطر ، ومن هنا اضطر المختار إلى خوض الكفاح ضدهم ، ولكن هذا النضال انتهى إلى القضاء عليه . .[٣]

---

(١) راجع بحث « المساواة » ص٢٥١ .

(٢) عشر ثورات في الإسلام ص١٢٦ نقلاً عن (فلهاوزن) (تاريخ الدولة العربية) .

(٣) عشر ثورات في الإسلام ص١٣٤ .

البصـرة ..
بؤرة المعارضة السياسية والعسكرية

لم يتحمل بعض أشراف الكوفيين وأتباعهم التوازن والعدل الذي سار عليه المختار . وعندما ثارت ثائرتهم ضده وتمكن منهم وكَبح جماحهم ، واستمر في سياسة الانصاف وعامل الكوفيين ـ الأحرار والموالي ـ على قدم المساواة ، وتوالي انتصاراته على جيش الشام العظيم ، لم يروا بُداً من النزوح عن الكوفة إلى البصرة . . إلى مصعب بن الزبير الذي يقدم العرب على غيرهم ، ويعطي الأشراف الموالين الكثير ، ولا يصل منه إلى الموالي والضعفاء سوى الضئيل ، وفي بعض الأحيان .

واستمر تسلل الأفراد والجماعات هاربين إلى مصعب بن الزبير في البصرة ، وهو قد فتح أمامهم باب اللجوء السياسي بدون تحقيق ولا تدقيق ، حتى وافاها منهم مقدار عشرة آلاف رجل[1] .

وكانت أفضل الفرص لنزوح هؤلاء عن الكوفة ، هو أثناء خروج المختار إلى المدائن لسماع أخبار الانتصارات التي أحرزها إبراهيم بن الأشتر على جيش الشام ، وكان في ضمن من استغلوا هذه الفرصة شبث بن ربعي[2] .

فقد قدم شبث على مصعب بن الزبير البصرة ، وتحته بغلة له ، قد قطع ذنبها ، وقطع طرفي أُذنيها وشقّ قباءه ، وهو ينادي : يا غوثاه . . يا غوثاه ! فأتى مصعباً ، فقيل له : إن بالباب رجلاً ينادي : يا غوثاه . . يا غوثاه ! . . مشقوق القباء . . من صفته كذا وكذا ، فقال لهم : نعم ، هذا شبث بن ربعي . . لم يكن ليفعل هذا

---

(١) الأخبار الطوال ص٣٠٤ .

(٢) البداية والنهاية ج٨ ص٣٠٤ـ٣٠٩ « بتصرف » .

غيره ، فأدخلوه ، فأُدخِل عليه[١] .

ويدخل عليه محمد بن الأشعث ملتجأ ، فقال له مصعب : ما وراءك ؟ فقال : ورائي ـ والله أيها الأمير ـ الترك والديلم ! هذا المختار بن أبي عبيد قد غلب على الأرض ، فهو يقتل الناس كيف يشاء[٢] . . . واغوثاه ! تركنا السيوف تنطف ، وقُلَفُ العبيد في الأحراح[٣] .

وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة ، فدخلوا عليه ، فأخبروه بما اجتمعوا له ، وبما أصيبوا به ، ووثوب عبيدهم ومواليهم عليه ، وشكوا إليه ، وسألوه النصر لهم ، والمسير إلى المختار معهم[٤] ، والتعويض عما لحقهم من ضرر[٥] . ثم وثب رجل من كندة ممن قدم مع محمد بن الأشعث ، حتى وقف بين يدي مصعب بن الزبير ، فأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

إن قوماً من كندةَ الأخيار بينَ قيس وبينَ آل المَذار

فقال له مصعب ـ موجهاً الكلام إلى الجميع : يا أخا كندة ، إني قد فهمت كلامك ، وإني أعمل برأي أمير المؤمنين ، وهو الذي ولاني البصرة ، وأمرني بحرب الأزارقة ، وهذا المهلب بن أبي صفرة في وجوههم يحاربهم ، فلا تعجلوا ، فإن المختار له مدّة هو بالغها[٦] .

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٤ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٧ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٣٨ .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٥٢ وهي كناية عن اقدام العبيد والموالي على الزواج من النساء العربيات ! فابن الأشعث جاء يستغيث من هذه الحالة التي تعتبر مرفوضة جملة وتفصيلاً ، متجاوزاً كل الاعتبارات الدينية ، ومقدماً قول عمر بن الخطاب الذي قال : « لا منعن فروجهن إلاّ من الاكفاء » (ويقصد بالأكفاء . . العرب) على كتاب الله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقول رسول الله ﷺ : «المؤمنون بعضهم أكفاء بعض» عندما سُئل عن الكفأ لبناتهم «بحار الأنوار» ج١٠٠ ص٣٧١ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٤ .

(٥) الكوفة « نشأة المدينة العربية الإسلامية » ص٢٥٠ .

(٦) الفتوح ج٦ ص١٣٨ .

كان مصعب معروف بالشدة والغلظة ، فقد التفت إلى أهل البصرة في أول خطاب له قائلاً : يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم ، وقد سميت نفسي « الجزّار »[١]. واستغل شدته وقسوته الهاربون من الكوفة ، فالتفّوا حوله . . يستغيثون به ، ويطلبون منه أن يخرج بهم لقتال المختار[٢] .

وقد لعب هؤلاء الأشراف دوراً بارزاً في تحريض مصعب ضد المختار ، وحثّه على ضرورة وضع حد لنشاطه في الكوفة . . . وكانوا عاملاً مهماً ساعد على تعجيل موته[٣].

إستنصار الأشراف بالمهلب

بات أشراف الكوفة بعد أن لجؤوا إلى البصرة يترقبون الفرص للانتقام من المختار[٤] .

ورأى مصعب أن الفرصة قد واتت للقضاء على المختار ، بالخصوص بهذا التجمع الكوفي العظيم . فالعشرة آلاف رجل كوفي كلهم مقاتلون ، وبحماس ، وكلهم أعلنوا رغبتهم الشديدة بالانتقام من المختار الذي وترهم . ودخلوا مرة على مصعب بن الزبير ، فتكلم محمد بن الأشعث ، وقال : أيها الأمير ، ما يمنعك من المسير لمحاربة هذا الكذاب . . الذي قتل خيارنا ، وهدم دورنا ، وفرّق جماعتنا ، وحمل أبناء العجم على رقابنا ، وأباحهم أموالنا ؟ سرْ إليه ، فإنّا جميعاً معك ، وكذلك من خلفنا بالكوفة من العرب هم أعوانك ! .

قال مصعب : يا ابن الأشعث ، أنا عارف بكل ما ارتكبْتم به ، وليس يمنعني من المسير إليه إلا غيبة فرسان أهل البصرة وأشرافهم ، فإنهم مع ابن عمك المهلب بن أبي

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٣ .

(٢) الانتفاضات الشيعية ص٤٦٩ .

(٣) الخلافة الأموية ص٩٨-١٠٤ .

(٤) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٣٠١ .

صُفْرة في وجوه الأزارقة بناحية كرمان(١) .

ولما قَتَل إبراهيمُ بن الأشتر عبيد الله بن زياد واستولى على أرض الجزيرة ، أقام هناك ، وأعرض عن المختار ، فكان المختار يكاتبه فلا يجيبه . فلما نظر مصعب بن الزبير إلى أن المختار قد بقي في شرذمة قليلة من أهل الكوفة ، وأن إبراهيم بن الأشتر معرِض عنه . . لا يجيب كلامه ، ولا يسمع له ، اغتنم الفرصة في ذلك ، وكتب إلى المهلب بن أبي صفرة(٢) .

كتب مصعب إلى المهلب ـ وهو عامله على فارس ـ : « ان أقبل إلينا لتشهد أمرنا ، فإنّا نريد المسير إلى الكوفة » . فأبطأ عليه المهلب وأصحابه ، واعتلّ بشيء من الخراج ، لكراهة الخروج(٣) .

ولعل السبب هو خوفهم من المختار وجيشه ، الذي تمكن من دحر جيش الشام القوي بقوّته الصغيرة . وهذا ما بث الخوف في نفوس المهلب وأصحابه ومنعه من الاقدام على المشاركة في الزحف على الكوفة ، الذي يعتبره عملاً انتحارياً .

وعندما تباطأ المهلب عن المجيء إلى البصرة ، قال محمد بن الأشعث لمصعب : وجهني إليه آتك به(٤) ، فكتب مصعب كتاباً آخر يستحثه فيه إلى الاسراع في المجيء(٥) ، ثم دفع الكتاب إلى محمد بن الأشعث الكندي ، فقال له : سرْ إلى

---

(١) الأخبار الطوال ص٣٠٤ .

(٢) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٢ ، وفي البداية والنهاية ج٨ ص٣٠٩ جاء : . . إن ابن الأشتر حين قتل ابن زياد واستقل بتلك النواحي ، فأحرز بلاداً وأقاليم ورساتيق (قرى) لنفسه ، واستهان بالمختار ، فطمع مصعب فيه . . .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٤ .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٨ .

(٥) نص الكتاب هو : أما بعد فإنا قد عزمنا على المسير إلى الكوفة . . إلى محاربة المختار الكذاب ، غير أني قد أحببت أن تشهد أمرنا ، فإذا ورد كتابي هذا عليك فولِّ بعض أولادك حرب الأزارقة ، واقبل إلينا راشداً إن شاء الله والسلام .

المهلب ، فليس له أحد سواك ، فإنه إذا نظر إليك رسولاً علم أن الأمر جدّ فلا يتخلف ، وانظر لا تفارقه وأشْخصه معك انشاء الله .

أخذ ابن الأشعث الكتاب ، وسار إلى المهلّب ـ والمهلب يومئذ بسابور من أرض فارس ، يحارب الأزارقة ـ فلما قرأ الكتاب قال : يا سبحان الله ! أما وجد الأمير بريداً سواك ؟[1] فقال : يا أبا سعيد ، والله ما أنا إلا بريد نسائنا وأبنائنا[2] . . . والله ما أنا ببريد لأحد ، غير أن نساءنا وأبناءنا وأموالنا وعقارنا ومنازلنا في يد المختار ، وقد غلبنا على ذلك ، وأجلانا عن بلادنا . وهذا إبراهيم بن الأشتر قد غلب على بلاد الجزيرة وخالف على المختار . . . والمختار اليوم ليس معه جيش ، وإنما هو في شرذمة قليلة ، وإني لأرجو أن يظفرنا الله به ، فنرجع إلى نعمتنا التي لم تزل لنا ولآبائنا من قبلنا[3] ، ونحن نرجو أن تعود إلينا بعونك[4] .

عند ذلك اقتنع المهلب بالمسير إلى المختار ، مستغلاً حالة الانقسام والتشتت التي حلّت بذلك الجيش الذي لا يقهر ، ولا فرصة أحلى من هذه .

فدعا المهلب بأصحابه ، وقال : إن الأزارقة لا يريدون إلا ما في أيديهم ، والمختار يريد ما في أيديكم . . فذاك أولى بالدفع والنفع .

ثم ولّى عليهم ابنه المغيرة ، وقال لهم : فاستمعوا له وأطيعوا أمره ! فوالله ما رأيت صواباً قط إلا سبقني إليه . وقد تعلمون أنه ليث عبوس . . للأقران فَروس ، وهو خليفتي

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٥

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٨ ـ وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٩٤ : قال محمد : إني والله ما أنا ببريد أحد ، غير أن نساءنا وأبناءنا وحَرَمَنا غلبنا عليهم عبدانا وموالينا .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٨٥ .

(٤) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٣ .

عليكم إلى حين رجوعي إليكم ، إنشاء الله ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(١) .

فكتب المهلب إلى « قَطري » - وكان رئيس الأزارقة يومئذ - يسأله الموادعة إلى أجل سماه ، ويكتُب بينهما كتاباً في ذلك ويضعان الحرب إلى ذلك الأجل . فأجابه « قطريّ » إلى ذلك ، وكتبا بينهما كتاباً ، وجعلا الأجل ثمانية عشر شهراً .

ثم ودّع المهلب أولاده وأهل عسكره ، وسار في ألف رجل من فرسان عسكره حتى قدم البصرة(٢) . وأقبل بجموع كثيرة ، وأموال عظيمة معه . . في جموع وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة .

ولما دخل المهلب البصرة أتى باب مصعب ليدخل عليه وقد أذن للناس ، فحجبه الحاجب - وهو لا يعرفه ، فرفع المهلب يده فكسر أنفه ، فدخل إلى مصعب وأنفه يسيل دماً ، فقال له : مالك ؟ فقال : ضربني رجل ما أعرفه ، ودخل المهلب ، فلما رآه الحاجب قال : هو ذا ! فقال له مصعب : عُد إلى مكانك(٣) .

واستقبله مصعب ، فقرّبه وأدناه ، وأجلسه معه على سريره ، وأمر له بخلعة وجائزة ، ثم أمره بالتأهب إلى محاربة المختار ، فقال له المهلب : أيها الأمير ، أنا متأهب لك فاعزم إذا شئت !(٤)

وعمت الفرحة بين أهل الكوفة الفارين ، فأمير البصرة أصدر الأوامر إلى الناس وعسكره وأصحابه أن يعسكروا عند الجسر الأعظم(٥) .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٦ - مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٣ وأيضاً ورد استخدام ابنه « المغيرة » في أنساب الأشراف ج٢ ص٤٢٩ .

(٢) الأخبار الطوال ص٣٠٥ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٥ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٨٦ .

(٥) الفتوح ج٦ ص١٨٦ . تاريخ الطبري ج٦ ص٩٥ .

الطابور الخامس[1]

وتم التخطيط لزعزعة الوضع الداخلي في الكوفة ، ببث الإشاعات المعادية للمختار ، وتكوين فرقة عسكرية من داخل الكوفة ، تعمل لاسقاط المختار ، ودعم مصعب بن الزبير وجيشه القادم .

فطلب مصعبٌ عبدَ الرحمن بن مخنف ـ زعيم الأزد ـ وطلب منه التصدي لهذه المهمة ، فقال له : إئت الكوفة مستخفياً ، حتى تخرج إليّ من استطعت إخراجه ، وادْعُهم إلى بيعتي سرّاً ، وخذّل الناس عن المختار ، فمضى حتى نزل منزله سرّاً فلم يظهر[2]. وبذلك تتم إحكام السيطرة على المختار ، بالهجوم عليه من الخارج ، وتفجير الوضع من الداخل . وأكثر جيشه مع إبراهيم بن الأشتر في الموصل والجزيرة .

وبذلك تتشتت قواه الضئيلة على هاتين الجبهتين ! ونجح ابن مخنف في مهمته ، فاستطاع أن يثير القلاقل في الكوفة ، ويحيد ضعاف الإيمان من أنصار المختار عن الإخلاص له . كما أن البقية الباقية من أشراف الكوفة أصبحوا شوكة في جنب الحركة المختارية ، فانصرف المختار إلى مشاكله الداخلية وانشغل بها عن الجيش الزاحف[3].

---

(١) « الطابور الخامس » تعبير سياسي يرمز إلى الخونة والمخرّبين من داخل المجتمع لصالح عدو خارجي في حالة عداء أو حرب مع الوطن والقيادة السياسية فيه ، ويعود التعبير إلى « فرانسيسكو فرانكو » الذي أعلن إبّان الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٥ـ١٩٣٩) أنه يهاجم مدريد بأربعة طوابير من الخارج ، ويساعده أنصاره من داخل مدريد في طابور خامس . « الموسوعة السياسية ج٣ حرف (ط) ص٧٥١ » .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٩ ، وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص٩٥ .

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٣٠٣ .

عبيد الله بن الحُر الجعفي

كثيراً ما ابتليت البلاد والعباد بأناس متذبذبين . . لا يعرف لهم مبدأ أو منهاج ، ولا تهمهم سوى مصالحهم ورغباتهم ، بالخصوص إذا حازوا على مقدار من الطاقة والقوة تمكنهم من إسناد رغباتهم ومطامعهم .

ومن أمثال هؤلاء الذين انتهكوا البلاد والعباد ، كان « عبيد الله بن الحر بن عمرو الجعفي » من مذحج .

وقصته طويلة بحاجة إلى كتاب مستقل ، ولكن هنا نحن نعرض لها باختصار ، لنرى دوره في زعزعة الأمن الداخلي في عهد المختار وإن كان قد أشرنا إلى بعض مواقفه في طيات البحث .

يصفه ابن كثير بقوله : « إنه كان رجلاً شجاعاً . . تتقلب به الأحوال والأيام والآراء . . . . »[١] .

وكان شجاعاً فاتكاً . . . لا يعطي الأمراء طاعة[٢] .

وأن عبيد الله بن الحر كان رجلاً من خيار قومه ، صلاحاً وفضلاً وصلاة واجتهاداً[٣] .

وكان من سادات أهل الكوفة ، وبها ولد وبها نشأ . .

وكان مقيماً بها في خلافة عثمان بن عفان .

---

(١) البداية والنهاية ج٨ ص٣١٦ .

(٢) أنساب الأشراف ج٧ ص٢٩ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١٢٨ .

فلما قتل عثمان، وكان من أمر الجمل ما كان[١] ، قال : أما إن الله ليعلم أني أحب عثمان ، ولأنصرنّه ميتاً . فخرج إلى الشام ، فكان مع معاوية ، وشهد معه صفين[٢] .

وانتهت صفين بما كان من أمر الحكمين[٣] ، فبلغ معاوية أنه يجتمع إلى ابن الحر جموع من أصحابه، فسأله عنهم ، فقال : بطانتي وأصحابي واخواني . . أتقي بهم إن نابني أمر أو خفت ظلامة من أمير جائر ! فقال له معاوية :

لعل نفسك قد تطلعت إلى علي بن أبي طالب ؟

فقال : إن علياً لعلى الحق ، وأنت بذلك عالم ، فقال عمرو بن العاص : كذبت يابن الحر ، فقال : أنت وأبوك أكذب مني ، ثم خرج من عند معاوية مغضباً يريد الكوفة، في خمسين فارس ممن كان ينتابه . وسأل معاوية عنه فقيل : قد خرج وسار ابن الحر يومه حتى مسى،فمنعه بعض مسالح معاوية من المسير ، فشد وأصحابه عليهم، فقتلوا منهم نفراً ، وهرب الباقون ، وأخذوا من دارهم ما احتاجوا إليه ، وأخذوا سلاحاً من سلاحهم ، ومضى عبيد الله لا يمر على قرية من قرى الشام إلا أغار عليها ، حتى قدم الكوفة ، وبلغ معاوية خبره ، فقال لعمرو : هذا ما هجت علينا من ابن الحر، وكانت لابن الحر في الكوفة امرأة يقال لها « الدرداء » . . . فلما فقده أهلها زوجوها من عكرمة بن الخنبص ، فقاضاهم إلى علي بن أبي طالب[٤]، فقال له بعض بني عمه : أتخاصم إلى رجل كنت بالأمس عليه مع معاوية ؟ فقال ابن الحر : والله ما كنت عليه ساعة قط ، ولو كنت عليه ما خفت أن يجور عليّ في الحكم[٥] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٦١ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١٢٨ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٦٢ « بتصرف » .

(٤) أنساب الأشراف ج٧ ص٢٩

(٥) الفتوح ج٦ ص١٦٤ .

فلما قاضاهم إلى علي ﷺ قضى له بامرأته ، وأقام عبيد الله منقبضاً عن كل أمر من أمور أمير المؤمنين علي ﷺ وغيره ، حتى توفى علي ﷺ، وولي معاوية ويزيد ابنه ، وكان من أمر الحسين ﷺ ما كان[١] .

وعندما أقبل الإمام الحسين ﷺ إلى الكوفة ومرّ في طريقه بقصر بني مقاتل ـ وكان ابن الحر نازل فيه ـ استنصره الحسين ، فلم يفعل حبّاً بالحياة . وقال له : «أنشدك الله أن تحملني على هذه الخطّه ، فإن نفسي لا تسمح بالموت... »[٢] ، وكان ابن الحر رجلاً لا يقاتل لديانة[٣] .

ولما كان من فتنة بني أمية وابن الزبير ما كان ، قال : ما أرى قريشاً تُنصف . . أين أبناء الحرائر ! فأتاه خليع كل قبيلة ، فكان معه سبعمائة فارس ، فقالوا : مُرنا بأمرك ! فأغار على المدائن ، فلم يدع مالاً قُدِّم للسلطان إلا أخذه . . ثم كتب لصاحب المال براءة بما قبض من المال . ثم جعل يتقصّى الكُورَ (الأقضية والنواحي) على مثل ذلك[٤] .

وعندما عزم المختار على الثورة وبايعه الناس والأشراف على ذلك، وبقي عبيد الله ابن الحر وإبراهيم بن الأشتر لما يبايعا ، وأحب عبيد الله بن الحر أن يسبق إلى بيعته ، فجاء إليه وبايع[٥] .

(١) أنساب الأشراف ج٧ ص٣٠ . وفي تاريخ الطبري ج٦ ص١٢٨ : فلما قتل علي قدم ـ عبيد الله بن الحر ـ الكوفة ، فأتى أخوانه ، ومن خف في الفتنة ، فقال لهم : يا هؤلاء ، ما أرى أحداً ينفعه اعتزاله ـ كنّا بالشام ، فكان من أمر معاوية كيت وكيت ، فقال له القوم : وكان من أمر عليّ كيت وكيت ، فقال يا هؤلاء ، إن تُمكننا الأشياء فاخلعوا عذركم . . واملكوا أمركم ، قالوا : سنلتقي ؛ فكانوا يلتقون على ذلك .

(٢) سيد الشهداء الإمام أبو عبد الله ص٦١ .

(٣) أنساب الأشراف ج٧ ص٣١ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص١٢٨

(٥) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٠٦ ، وفي أنساب الأشراف ج٧ ص٣٢ ، فلما خرج المختار بالكوفة أبى ابن الحر أن يبايعه ، وبعث المختار في طلبه ، أتاه بعد فبايعه تعذيراً . والذي يغلب الظن أن قول الخوارزمي هو الأقرب للواقع ، فابن الحر كان محباً دائماً أن يكون ضمن المعارضة وفي أولهم ، وبعد أن تنتصر المعارضة وتتحول إلى السلطة يخرج عليها ابن الحر، وهكذا دواليك ! كما سنرى .

وقد أشرنا إلى دوره الفعال إلى جانب المختار ، واشتراكه بجيش إبراهيم بن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد ، ولكنه اختلق حجة للخلاف ، وخرج من الجيش حتى التحق بمصعب في البصرة .

وقبل أن يتوجه إلى البصرة أغار على الأنبار ـ ومعه ثلاثمائة ـ فأخذ ما كان في بيت مالها ، فقسمه بين أصحابه . .

ثم أغار على كَسْكَر[1] فأخذ ما كان في بيت مال عاملها ، وقتله... ولما بلغ المختار غارته على الأنبار بعث عبد الله بن كامل الشاكري ، فهدم داره ، وأخذ امرأته « أمِّ سَلَمة » فحبسها في السجن ، فبلغ ابن الحرُ ذلك[2] .

فأقبل في فتيانه حتى دخل الكوفة ليلاً ، فكسر باب السجن ، وأخرج امرأته وكل امرأة ورجل كان فيه ، فبعث إليه المختار من يقاتله ، فقاتلهم حتى خرج من المصْر ، وأغار وانتهب مالاً كثيراً... ولم يدع مالاً لهمداني إلا أخذه[3] .

واستمر ابن الحر على هذا المنوال ، حتى قال :

سائلْ بيَ المختارَ كم قد ذعرْتُهُ ... وشَرّدتُ اطرافاً له وجُموعاً
وقاتلتُه والناسُ قد أذعنوا له ... وقد اقشَعَ الأحياءُ عنه جميعاً[4]

وجعل عبيد الله بن الحر يغير على سواد الكوفة ، ويقتل نوّاب المختار ، ويمثل بهم ، ويكبس المدن والقرى ، ويأخذ الأموال ، حتى إذا علم أنه قد استقل بالأموال

---

(١) كسكر : منطقة واس ، بين الكوفة والبصرة ، وقصبتها واسط (معجم البلدان ج٤ ص٤٦١).

(٢) أنساب الأشراف ج٧ ص٣٢ . عندما بلغ ابن الحر ذلك قال :

أَشُدَّ حَيازِمي لكُل كريهة ... وإنِّي على ما نابني لجَلْيدُ
هُمُ هَدَمُوا داري وساقوا حليلتي ... إلى سجْنهمْ والمسلمونَ شُهُودُ
فلستُ إذاً للحُرِّ إن لم أرعكُمُ ... بخيل عليها الدارعُون قُعُودُ

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١٢٩ « باختصار ».

(٤) أنساب الأشراف ج٧ ص٣٤.

واكتفى من الرجال والآلة والسلاح سار إلى البصرة[١] .

فكان حقاً كما وُصِف « متمرداً وباغياً على الشريعة المقدسة بقطعه الطرق على الناس ، وتجريد السلاح عليهم ، ونهبه أموالهم ، وما إلى ذلك »[٢] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٧٢ ، وفيه بحث مفصل عن حركات ابن الحر واستهتاره بأموال الناس وأنفسهم .

(٢) سيد الشهداء . . الإمام أبو عبيد الله ص٦٢ .

الفصل السادس عشر

الأرستقراطية العربية
نحو الكوفة

الأرستقراطية العربية نحو الكوفة

بعد أن اجتمعت عند مصعب أسباب القوة، وبان الضعف في قوة المختار الميدانية. . عندها أمر مصعب عسكره وأصحابه أن يعسكروا عند الجسر الأعظم، وقد وضع مصعب لأهل البصرة العطاء، وتهيأ للمسير[١]، مما زاد الحماس في النفوس، وأقبلوا للقتال. ثم خرج وخرج الناس معه من البصرة، وجعل على كل قبيلة من قبائل العرب رئيساً يقتدون به وبرأيه وينتهون إلى أمره. فعلى قريش وأحلافها «عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي»، وعلى تميم كلها «الأحنف بن قيس التميمي»، وعلى قيس عيلان «قيس بن الهيثم السلمي»، وعلى بني بكر بن وائل «مالك بن مسمع الجحدري»، وعلى قبائل عبد القيس «مالك بن المنذر بن الجارود العبدي»، وعلى قبائل كندة «محمد بن الأشعث بن قيس الكندي»، وعلى قبائل مذحج «عبيد الله بن الحُر الجعفي»، وعلى قبائل الأزد يومئذ «المهلب بن أبي صُفرة»[٢].

وخرج مصعب، فقدّم أمامه «عبّاد بن الحصين الحبطي» من بني تميم على مقدمته، وبعث «عمر بن عبيد الله بن معمر على ميمنته، وبعث «المهلب بن أبي صُفرة» على ميسرته[٣]. تحركت جيوش البصرة، ومن اتبعهم من أهل الكوفة (الحانقين على المختار)، فركبوا في البحر والبر، قاصدين الكوفة[٤].

(١) الأخبار الطوال ص٣٠٥ .

(٢) الفتوح لابن الأعثم ج٦ ص١٨٦، والملاحظ في هذا التقسيم أنه نفس التقسيم القديم القائم على أساس قبلي بحَتْ، «فقد جرت العادة على تقسيم الجيش، أقساماً قبلية، فكان كل فرقة تضم أبناء القبيلة الواحدة، ولكن المختار قسّم جنده تبعاً لأسلحتهم، ولم يفرّق بين جنسية الجند، وساوى بين الجند العرب والجند الموالي». انظر عشر ثورات في الإسلام ص١٢٧، ولكن لنا تحفّظ في قبول رأي الدكتور الخربوطلي فالمختار أيضاً كان يستخدم التقسيم القَبَلي كما نرى في معاركه، فلاحظ.

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٥ .

(٤) البداية والنهاية ج٨ ص٣٠٩ .

بين المطرقة والسندان

بينما المختار مشغول باصلاح الوضع الداخلي، ويعاني من الخلأ الذي أحدثه غياب مشاركة إبراهيم بن الأشتر في الإسناد . . في هذه الأثناء جاءته الأخبار بزحف جيش البصرة الضخم، الذي يضم الكثير من الحاقدين على سياسة المختار الذي أزال بها التمييز العنصري، واقتص من المتجنّين على أهل بيت رسول الله ﷺ. وأدرك أنهم ما كانوا ليجترؤون عليه لولا خذلان إبراهيم بن الأشتر إياه.

عندما بلغ المختار ذلك، جمع الناس، وقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد[1]، يا أهل الكوفة . . يا أهل الدين، وأعوان الحق، وأنصار الضعيف، وشيعة الرسول، وآل الرسول، وشرطة الله . . إن هؤلاء الذين هربوا من أسيافكم، وقتلوا ابن بنت نبيكم . . الحسين بن علي عليه السلام، قد كانوا لجأوا إلى أمثالهم من الفاسقين، فاستعانوا بهم عليكم، لما علموا أن ابن الأشتر خذلني وقعد عن نصرتي، وقد بلغني أنهم خرجوا من البصرة، في جيش لَجب إلى قِبَلكم؛ وإنما يريدون قتلي ليضمحل الحق، وينتعش الباطل، ويُقتل أولياء الله. والله لو تهلكون ما عُبد الله في الأرض إلاّ بالفرْي على الله، واللعن لأهل بيت نبيّه.

ألا فانتدبوا ـ رحمكم الله ـ مع الأحمر بن شميط البجلي، فإني أرجو أن يهلكهم الله على أيديكم . . هلاك عاد وثمود، وما ذلك على الله بعزيز فأجابه الناس إلى ذلك من كل جانب، وقالوا: سمعنا وأطعنا![2]

خرج الأحمر بن شميط، فعسكرَ في حمام أعين، وخرج إليه أمراء الأجناد، فعسكروا معه في قريب من ثلاثة آلاف فارس[3].

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٧ «بتصرف».

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٥ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٢٩ ـ الفتوح ج٦ ص١٨٧ . مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٣.

(٣) الفتوح ج٦ ص١٨٨.

أما رؤوس الأرباع الذي كانوا مع ابن الأشتر في وقعة خازر، لما رأوه كالمتهاون بأمر المختار، فارقوه وانضموا إلى المختار، فبعثهم مع أحمر بن شميط، كما كانوا مع ابن الأشتر في مواقعهم العسكرية[١].

فخرج ابن شميط، فبعث على مقدمته ابن كامل الشاكري، وسار حتى ورد المذار[٢]، وأقبل إليه مصعب بن الزبير حتى نزل قريباً منه في سبعة آلاف ما بين فارس وراجل[٣].

وعبأ كل واحد منهما جنده، فجعل ابنُ شميط «ابنَ كامل» على ميمنته، و«عبدَ الله بن أنس بن وهب بن فضلة الجُشمي» على ميسرته، وجعل على الخيل «رُزين ابن عبد الله السلولي»، وعلى الرجال «كُثَيّر بن اسماعيل بن كثير الكندي»، وجعل «أبا عمرة» على الموالي.

أما مصعب، فقد أقرّ «المهلب» على ميسرته، و«عمر بن عبيد الله بن معمر» على ميمنته، وجعل على الرجال «مقاتل بن مسمع»، وعلى الخيل «عبّاد بن الحصين»[٤].

وكانت المواجهة هنا هي صراع بين القوميين العرب المتطرفين من جهة ـ مصعب والأشراف ـ والجهة الأخرى كانت لا تقول بالامتيازات للعرب لمجرد أنهم عرب، فالقاعدة عندهم «الناس سواسية كأسنان المشط».

فكانت المعركة مواجهة بين الدين والقوميّة المتطرفة، بكل ما تحمل هاتين الكلمتين من معنى. ولكن المتطرفين اتفقوا على باطلهم والإسلاميين تفرّقوا عن حقهم!

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٥ «بتصرف».

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٦.

(٣) الفتوح ج٦ ص١٨٨.

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٠.

المشـورة القاتلـة

تقدم قائد الميسرة « عبد الله بـن وهـب الجُشَـمي » إلـى القـائد العـام «ابن شـميط» باقتراح جاء فيه : « إن الموالي والعبيد آلُ خَوَر عند المصدوقة ، وإن معهم رجـالاً كُثراً على الخيل ، وأنـت تمشي ! فمرهـم فليـنزلوا معـك ، فإن لهـم بك أسـوة . . . فـأني أتخوّف إن طوردوا ساعة ، وطوعنوا وضوربوا أن يطـيروا على متونهـا ويسلموك ، وإنك إن أرجلتهم لم يجدوا من الصبر بُدّاً » .

يقول أبو مخنف : وإنما كان هذا منه غشـاً للموالـي والعبيـد ، لما كـانوا لقـوا منهـم بالكوفة ، فأحبّ إن كانت عليهم الدبّرة أن يكونـوا رجـالاً راجلـين لا ينجـو منهـم أحد ، ولم يتهمه ابن شميط ، وظن أنه إنما أراد بذلـك نُصحَه ليصبروا ويقـاتلوا ، فقال : يا معشر الموالي ، انزلوا معي فقاتلوا ، فنزلوا معه ، ثم مشـوا بـين يديـه وبـين يدي رايته[1] .

ولعل ابن وهب لم يقصد الخيانة كما ذهب أبو مخنف ، فلم يَردْ أن أحداً اعترض على هذه المشورة ، ولكنها كانت حقاً مشورة قاتلة أودت بحياة الموالي ـ كما سـنرى ، وكانت المنعطف العسكري الخطير الذي أودى بدولة الحق فيما بعد .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٦ .

المواجهة الأولى

في صبيحة أحد الأيام من جمادى الأولى، وبعد أن عبأ كل واحد أصحابه، واستعدوا جميعاً للقتال، تقدم «عباد بن الحصين الحبطي» ـ قائد خيل مصعب حتى وقف بين الجمعين، ثم نادى بأعلى صوته: ألا يا شيعة المختار! إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه محمد ﷺ، وإلى بيعة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير..

تقدم «عبد الله بن كامل الهمداني» ـ قائد ميمنة المختار ـ فقال: «ونحن أيضاً ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وإلى بيعة المختار بن أبي عبيد، وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول ﷺ، فمن زعم أنه أحق بهذا الأمر منهم برئنا منه في الدنيا وفي الآخرة، وجاهدناه حق الجهاد»[١]. وهذا الحوار قبل الموت ليدل على أن أصحاب المختار من الملتزمين بصدق بنهج أهل بيت رسول الله ﷺ، ولم تكن لهم غايات دنيوية مرصودة، ولم يتوسلوا بالحيل والأباطيل للوصول إلى أهدافهم النبيلة.

لما سمع مصعب بن الزبير كلام ابن كامل، غضب، فقال: احملوا عليهم![٢] ولم يكن له جواباً آخر غير السيف، فبالمنطق لا يمكن أن يربح المعركة، فيبقى السيف هو آخر الخيارات وأولّها. فالقوة قد تذبح المنطق الحق، لكن منطق الباطل لا ينتصر على منطق الحق أبداً.

أصدر مصعب الأمر بالهجوم على جيش المختار، فحمل «عباد بن الحصين» قائد الفرسان ـ في قبيلة عظيمة على ابن شميط وأصحابه ـ وهو في المشاة ـ فلم يَزُل

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٨٨ وفي مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٤ «برئنا منه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الخاسرين، وجاهدناه حق الجهاد عن الدين».

(٢) الفتوح ج٦ ص١٨٩.

منهم أحد عن موقفه، ثم انصرف بفرسانه إلى موقفه[١].

وحمل المهلب (الميسرة) على ابن كامل (الميمنة) ، فجال أصحاب ابن كامل بعضهم في بعض، فنزل ابن كامل، ثم انصرف عنه المهلب ، فعاد إلى مكانه ، فوقفوا ساعة .

ثم قال المهلب لأصحابه: كرّوا كرّة صادقة، فإن القوم قد أطمعوكم، وذلك بجولتهم التي جالوا؛ فحمل عليهم حملة منكرة، فصبر ابن كامل في رجالٍ من همدان، وتراجعت بقية ميمنة ابن كامل[٢] .

ثم حمل محمد بن الأشعث، فلم يزل أحد من موقعه، فصاح ابن الأشعث : « يا أهل العراق إلى متى ، وحتى متى نحن أذلاّء . . مشردون عن بلادنا . . مطردون عن أهلنا وأولادنا، فكرّوا عليهم كرة صادقة »[٣] .

وحمل « عمر بن عبيد الله بن معمر » (ميمنة مصعب) على « عبد الله بن أنس » (ميسرة ابن شميط)[٤] .

ثم حمل أهل البصرة جميعاً على ابن شميط حملة واحدة، فقاتل حتى قتل[٥] (رضوان الله عليه)، وتنادى أهل الكوفة : يا معشر بجيلة وخثعم . . الصبر الصبر! فناداهم المهلب : الفرار الفرار! اليوم أنجى لكم . . علام تقتلون أنفسكم مع هذه « العبدان »؟! أضل الله سعيكم .

ثم نظر إلى أصحابه، فقال: والله ما أرى استحرار القتل اليوم إلا في قومي[٦] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٦ . الفتوح ج٦ ص١٨٩ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٦ «بتصرف» .

(٣) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٤ وفي الفتوح ج٦ ص١٨٩ «فإنهم مغلوبون إنشاء الله» .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٧ .

(٥) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٠ .

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٧.

ثم مالت الخيل على رجّالة ابن شميط فاصطلموا ، وقتل عبد الله بن كامل[١] ، فافترقت الرجّالة وانهزمت ، وأخذت الصحراء .

فبعث مصعب «عبّادَ بن الحصين» على الخيل ، فقال له : أيما أسير أخذته فاضرب عنقه ![٢]

وسرّح مصعبٌ «محمدَ بن الأشعث» في خيل عظيمة من أهل الكوفة ، ممن هرب من المختار ، ومَن بعث به عبدُ الرحمن بن مخنف ، وقال : دونكم الطلب بثأركم ! فكانوا أشد عليهم من أهل البصرة[٣] . لا يدركون منهزماً إلا قتلوه . . ولا يأخذون أسيراً فيعفون عنه !

فلم ينج من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل ، وأمّا رجّالتهم فأبيدوا إلا قليلاً[٤] . فدخل أقلُّهم إلى الكوفة بأشرّ حالة تكون ، حتى صاروا إلى المختار ، فأخبروه بذلك[٥] .

وقتل « عبيد الله بن علي » ، وكان في جيش مصعب[٦] .

القاضي الحقود

كان « معاوية بن قُرّة المُزني » قاضياً في البصرة ، وكان قد اشترك في هذه المعركة مع مصعب ، يقول مفتخراً : انتهيت إلى رجل منهم ، فأدخلت سنان الرمح في عينه ،

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٠ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٧ . وهذا خلاف تعاليم الإسلام ، وليس هنا محل بحثه . فراجع الكتب المعنية بذلك .

(٣) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٠ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٧ .

(٥) الفتوح ج٦ ص١٨٩ .

(٦) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٩ ، وسنأتي على ذكر التفاصيل المهمة عن حادث قتله في الفصل الخاص بـ«عبيد الله بن علي» .

فأخذت أُخضخضُ عينَه بسنان رمحي! فقال له «ابن عيّاش المنتوف»: أو فعلت هذا؟ قال: نعم ـ والله ـ إنهم كانوا أحلّ عندنا دماءاً من الترك والديلم.

وقال أعشى همّدان، عندما ارتوى حقده وسكنت نفسه بسفك تلك الدماء:

أمـا نبُئْـتَ والأنبـاءُ تُنمـى	لمـا لاقـت بجيلَـةُ بـالمذار
أُتيـح لهـم بهـا ضـربٌ طلَحْـفٌ	وطعـنُ صـائبٌ وجـهَ النهـار
كـأن سـحابةً صعَقَـتْ عليهـم	فعمّتهُـمْ هنـالك بالدَّمـار
فبشِّـرْ شـيعةَ المختـار إمّـا	مـررتَ علـى الكُويفـة بالصَّغـار
أقـرّ العـين صرعـاهم وفَـلٌّ	لهـم جَـمٌّ يُقَتَّـلُ بالصحـاري
ومـا إن سَـرّني إهـلاكُ قومـي	وإن كـانوا وجَـدُّكَ في خَسـار
ولكنّـي أُسَـرُّ بمـا يلاقـي	أبو اسحاقَ من خـزْيٍ وعـار[١]

التصميم على الشهادة

ونزل بالمختار أمر عظيم من قتل أصحابه، وأيقن بالهلكة، ولم يجد بُداً من التشجع[٢].

يقول عبد الرحمن بن أبي عمير الثقفي: والله إني لجالس عند المختار حين أتاه هزيمة القوم ومالقوا، فقال: قُتلت ـ والله ـ العبيد قتلة ما سمعت بمثلها قط! ثم قال: وقتل ابن شميط وابن كامل وفلان وفلان (فسمى رجالاً من العرب أصيبوا) كان الرجل منهم في الحرب خيراً من فئام (جماعة) من الناس. فقلت له: فهذه والله مصيبة، فقال لي: ما من الموت بُد، وما ميتة أموتها أحبّ إلي من مثل ميتة ابن

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٧ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣١ مع بعض الاختلاف في النصين وزيادة أبيات في تاريخ الطبري.

(٢) الفتوح ج٦ ص١٨٩.

شميط . . حبذا مصارع الكرام ! فعلمت أن الرجل قد حدّث نفسه : إن لم يُصِب حاجته أن يقاتل حتى يموت[١] .

الاستنجاد بالأشتر ثانية

على الفور بادر المختار بمكاتبة إبراهيم بن الأشتر يستنجد به ، وكتب إليه كتاباً بعد كتاب يسأله المسير إليه ، فلم يفعل[٢] .

ولكن المختار لم ييأس ، وجدّد تنظيم جنده[٣] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٨ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٨٩ .

(٣) عبد الله بن الزبير ص١٥٥ .

الزحف نحو الكوفة

كان انتصار قوات مصعب على جيش المختار قد زاد من معنويات المهاجمين. فتحركوا من المذار وأقبلوا نحو واسط القصب (منطقة الكوت)، وفي منطقة «كَسْكَر» حمل الرجال وأثقالهم وضعفاء الناس في السفن، فسارت سفنهم في نهر «خُرْشاذ»، ثم دخلوا نهر «قوسان»، وبعدها إلى نهر الفرات[١]. أما مصعب فقد سار في خيله على الظهر (أي على الأرض)[٢].

وحاول المختار المستحيل مع من تبقى من الرجال ـ وكانوا بضعة آلاف ـ لقطع طريق الكوفة على مصعب، فتحصّن في «السيلحين» جنوب شرق الكوفة[٣].

وخطرت له فكرة أن يقطع ماء الفرات ليعيق سفنهم القادمة إليه من نهر الفرات. ونظر إلى مجتمع الأنهار.. نهر الحيرة، ونهر السيلحين ونهر القادسية، ونهر يوسف، فسكر (أي سدّ) الفرات على مجتمع الأنهار، فذهب ماء الفرات كله في هذه الأنهار، وبقيت سفن أهل البصرة في الطين[٤]؟

فكان أهل البصرة يخرجون فيجرّون سُفُنَهُمْ، ويقولون:

عوّدنا المصعبُ جَرّ القَلْس ... والزَّنْبَرِيّات الطِّوال القُعْس[٥]

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٨ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٦ ـ الفتوح ج٦ ص١٨٩ «بتصرف».

(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٠.

(٣) الكوفة نشأة المدينة العربية ص٢٥١.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٩ يقول هشام جعيط في «الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية» ص٢٥٣ عن مجمع الأنهار هذا: فهل يعني ذلك شبكة من القنوات الخالية المهملة المهجورة التي لم يبق منها سوى أثر مجوّف على الأرض، وقد أعادتها إلى سالف نشاطها ظروف عسكرية استثنائية، أو أنها كانت قنوات مستعملة ملأها فجأة هذا التفريع؟! أو كانت تروي جنوب الكوفة عادة؟

(٥) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٨ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٦.

وبقيت سفن البصريين تُجر على الطين، فلما رأوا ذلك وجهوا خيلاً إلى السكْر (أي السد) فكسروه[١].

ولم ينفع هذا الاجراء في إعاقة جيش البصرة من التقدم إلا قليلاً.

وكانت همم الموالي قد فترت عندما سمعوا بانتصار مصعب في المذار، وإبادة جيش المختار الذي كان أغلبه من الموالي، واعتبروا أن المختار هو السبب، فقد وعدهم النصر في المذار على أعدائهم [٢]، ولكن الهزيمة كانت من نصيب جيشه، فكانوا يقولون بالفارسية «إينْ بارْ دُرُوغْ كُفْتْ»، أي: هذه المرة كذب[٣].

أيقن المختار أن لا مفر من المواجهة غير المتكافئة، فبادر إلى تحصين القصر والمسجد، وأدخل في قصره عُدّة الحصار، واستناب على الكوفة «عبدَ الله بن شداد الجُشَمي». وجاء هو وبقية جيشه حتى نزل حروراء [٤]، وهي مركز متقدم للكوفة على طريق البصرة [٥].

حروراء

وفي حروراء عبأ المختار جيشه: فجعل على ميمنته «مُسيلم (سليمان) بن يزيد الكنْدي»، وجعل على ميسرته «سعيد بن منقذ الهمداني»، وكان على شرطته يومئذ «عبد الله بن قُراد الخثعمي»، وبعث على الخيل «عمر بن عبد الله النَّهْدي»، وعلى الرجال «مالك بن عمرو النهدي».

أما مصعب، فكان على ميمنته «المهلب بن أبي صُفره»، وعلى ميسرته

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٦ - تاريخ الطبري ج٦ ص٩٩.

(٢) في قوله لهم «.. فإني أرجوا أن يهلكهم الله على أيديكم هلاك عاد وثمود..» راجع ص ٤٢٦.

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٨.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٩ - أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٦ «بتصرف».

(٥) الكوفة «نشأة المدينة العربية الإسلامية» ص٢٥١. وفي تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٩١ «حروراء بينها وبين الكوفة نصف فرسخ» (ثلاثة كيلو مترات).

« عمر بن عبيد الله بن معمر التّيمي » ، وعلى الخيل « عبّاد بن الحصين الحَبَطي » ، وعلى الرجال « مقاتل بن مسمع البكري » ، وعلى أهل الكوفة « محمد بن الأشعث بن قيس» ، وعلى بكر بن وائل « مالك بن مسمَع » ، ونزل هو يمشي متنكّباً قوساً له[١].

واصطف الجيشان للقتال ، فلما نظر المختار إلى الموقف ، تنهد تنهيدة من أعماق قلبه ، وقال متحسّراً : يا له من يوم لو حضرني فيه ابن الأشتر ! ولكنه قعد عنّي وخذلني . . والله ما من الموت بُدٌّ ! [٢]

وعندما رأى المختار أن جيش البصرة مقسّماً إلى خمسة أخماس تقسيماً قبليّاً ، بعث إلى كل خمس من أخماسهم رجلاً من أصحابه . فبعث إلى بكر بن وائل «سعيد بن منقذ» صاحب ميسرته ، وبعث إلى عبد القيس ـ وعليهم مالك بن المنذر ـ «عبد الرحمن بن شريح الشبامي» ـ وكان على بيت ماله ـ ، وبعث إلى أهل العالية ـ وعليهم قيس بن الهيثم السُّلَمي ـ «عبدَ الله بن جَعْدة المخزومي القرشي» ، وبعث إلى الأزد ـ وعليهم زياد بن عمرو العتكي ـ «مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي» ، وبعث إلى بني تميم ـ وعليهم الأحنف بن قيس ـ «سُليم بن يزيد الكندي» صاحب ميمنته ، وبعث إلى محمد بن الأشعث «السائب بن مالك الأشعري» ، ووقف المختار في بقية أصحابه ، وتزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، واشتبكوا .

حمل « سعيدُ بن منقذ » و« عبدُ الرحمن بن شريح » على « بكر بن وائل » و« عبد القيس » ـ وهم في الميسرة ـ لكنهم قاتلوا قتالاً شديداً وصبروا لهم . وأخذ « سعيد بن منقذ » و« عبد الرحمن بن شريح » لا يقلعان . . إذا حمل واحد فانصرف حمل الآخر ، وربما حملا جميعاً ، فبعث مصعب إلى « المهلّب » : ما تنتظر أن تحمل على مَن بازائك ! ألا ترى ما يلقى هذان الخُمْسان منذ اليوم ! إحمل بأصحابك . فقال

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٩ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٧ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٠ ـ مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٤ .

المهلب: أي لعمري، ما كنت لأجزُرَ الأزد وتميماً خشبيّةَ أهل الكوفة حتى أرى فرصتي.

وبعث المختار إلى عبد الله بن جعدة: أن احمل على من بأزائك، فحمل على أهل العالية، وكانوا في القلب ـ فكشفهم حتى ألحقهم بمصعب، عندها جثا مصعب على ركبتيه ـ ولم يكن فرّاراً ـ فرمى بأسهمه، فرمى الناس سهامهم، ونزل الناس عنده فقاتلوا ساعة، ثم تحاجزوا.

عندها كرر مصعب الطلب من المهلب الهجوم وبعث إليه: لا أبا لك! ما تنتظر أن تحمل على القوم! فتريثَ قليلاً، ثم قال لأصحابه:

« قد قاتل الناس منذ اليوم وأنتم وقوف، وقد أحسنوا، وقد بقي ما عليكم. . احملوا واستعينوا بالله واصبروا »، فحمل على من يليه حملة منكرة، فحطموا أصحاب المختار حَطْمَةً منكرة، فكشفوهم[1].

فصاح المختار بأصحابه: لابأس عليكم. . أنا أبو اسحاق. . أنا جزّار القاسطين، أين أصحاب الصبر واليقين؟ إليّ إليّ رحمكم الله!

فثاب إليه زهاء خمسمائة رجل، ليس فيهم رجلٌ إلاّ وهو يعدّ برجال، فجعلوا يقاتلون قتالاً لم يسمع الناس بمثله[2].

هذا والمختار يحرّض الباقين من أصحابه على القتال، وهو يقول: بأبي وأمي أنتم. . كرّوا على الحرب. . كرّوا. . كرّوا على الثعالب الروّاغة!

فجعل أصحاب المختار يقاتلون بين يديه أشد قتال يكون، ومالت الكفّة لصالح المختار.

فصاح مصعب بأصحابه وقال: سوءة لكم يا معشر العرب! أما ترون ما نحن فيه

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٩٩.

(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٠.

من أصحاب هذا الكذاب، أما فيكم من يحامي على دين أو حسب!

فعندها اجتمع أصحاب أبطال العرب.. مثل عبيد الله بن الحر وشبث بن ربعي وغيرهم من سادات أهل الكوفة، ثم حملوا على أصحاب المختار، فهزمهم[١]. ولكن لا يمكن لهذا الانتصار أن يستمر، وأن يصمد بهذه الثُلّة القليلة أمام الجحافل الجرّارة.

وعند المساء أتى مالك بن عمرو النهدي ـ وهو على الرجّالة ـ بفرسه فركبه، وكان أصحاب المختار قد انقصفوا انقصافة شديدة، كأنّهم أجَمَةَ فيها حريق، فقال مالك حين ركب: ما أصنع بالركوب! والله لأن أُقتل ها هنا أحب إليَّ من أن أقتل في بيتي.. أين أهل البصائر؟ أين أهل الصبر؟ فثاب إليه نحو من خمسين رجلاً، فكرَّ على أصحاب محمد بن الأشعث...[٢]

وكان فيهم عبد الله بن عمرو النهدي ـ وكان من أصحاب صفين ـ فقال: اللهم إني على ما كنت عليه ليلة الخميس بصفّين.. اللهم إني أبرأ إليك من فعل هؤلاء (لأصحابه حين انهزموا)، وأبرأ إليك من أنفس هؤلاء (يعني أصحاب مصعب)[٣]، ثم قال: ويحكم أروني الموضع الذي فيه «محمد بن الأشعث»، فإنه ممن قاتل الحسين بن علي، وشارك في دمه! فقالوا له: ألا ترى! هو في الكتيبة الحمراء على الفرس الأدهم؟ فقال: بلى قد رأيته، فدعوني وإياه.

ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إنني على ما كنت عليه بصفين.. اللهم وإني أبرأ إليك ممن قتل أهل البيت.. بيت نبيك محمد ﷺ أو شارك في دمائهم، ثم حمل حتى خالط أصحاب مصعب بن الزبير، فجعل يضرب فيهم ضرباً منكراً، وهو في ذلك يلاحظ محمد بن الأشعث، حتى إذا أمكنته الفرصة وحمل عليه،

(١) الفتوح ج٦ ص١٩١

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠١ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٨.

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٠.

ضربه ضربة على رأسه جدّله صريعاً. واختلط الناس من أصحاب ابن الزبير بعبد الله بن عمرو هذا فقتلوه[١].

وانكشف أصحاب سعيد بن منقذ، فقاتل في عصابة من قومه نحو من سبعين رجلاً، فقتلوا. وقاتل سليم بن يزيد الكندي في تسعين رجلاً من قومه وغيرهم، ضارب حتى قُتل.

وقاتل المختار على فم سكّة شبث، ونزل وهو يريد ألاّ يبرح، فقاتل عامة ليلته حتى انصرف عنه القوم، وقتل معه ليلتئذ رجال من أصحابه من أهل الحفاظ، منهم «عاصم بن عبد الله الأزدي»، و«عياش بن خازم الهمداني الثوري» و«أحمر بن هديج الهمداني الفايشي»[٢].

وصار أصحاب مصعب بن الزبير إلى حيطان الكوفة[٣]وكانت همدان حول المختار وهم يتنادون ليلتئذ: يا معشر همْدان، سيْفوهم فقاتلوهم أشدّ القتال[٤]، فلم يزالوا يقاتلون من وقت المغرب إلى الصباح[٥]، فلما أن تفرّقوا عن المختار، قال له أصحابه: أيها الأمير، قد ذهب القوم فانصرف إلى منزلك. إلى القصر، فقال المختار: أما والله ما نزلت وأنا أريد أن آتي القصر، فأما إذا انصرفوا، فاركبوا بنا على اسم الله، فجاء حتى دخل القصر[٦].

(١) الفتوح ج٦ ص١٩١

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠١.

(٣) الفتوح ج٦ ص١٩٢.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠١.

(٥) الفتوح ج٦ ص١٩٢.

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠١.

الحصار وحرب الشوارع

في الصباح أقبل مصعب يسير بمن معه من أهل البصرة ، ومن خرج إليه من أهل الكوفة ، فأخذ بهم نحو السبخة ، وقد عبأهم تعبئة الحرب ، فمرّ بالمهلب ، فقال له المهلب : يا له فتحاً ما أهنأه لو لم يكن محمد بن الأشعث قُتل ! فقال : صدقت ، فرحم الله محمداً[١] .

ثم قال المهلب : . . قد قُتل عبيد الله بن علي بن أبي طالب أيضاً ، قال مصعب : فإننا ما قتلناه ، وإنما قتله من كان من شيعته وشيعة أبيه .

ودخل أصحاب المختار إلى منازلهم ، ودخل قوم منهم إلى قصر الإمارة ، فصاروا مع المختار . . عازمين على الموت[٢] .

وبدأ مصعب الحصار على الكوفة ، وعلى مركزها بالذات ، مشدداً الحصار على المختار وأنصاره . . الذين تمركزوا في القصر فنزل هو في السبخة ، فقطع عنهم الماء والماده ، وبعث عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ فنزل الكُناسة ، وبعث عبد الرحمن بن مخنف بن سليم إلى جبانة السبيع ، وبعث عباد بن الحصين إلى جبانة كندة ، وبعث زحر بن قيس إلى جبانة مراد ، وبعث عبيد الله بن الحُر إلى جبّانة الصائديين . فكل هؤلاء كان يقطع عن المختار وأصحابه الماء والمادة ، وهم في قصر الأمارة[٣] .

وهكذا تم إحكام الحصار على المختار وأصحابه من كل الجهات .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٤ ـ الفتوح ج٦ ص١٩٣ «بتصرف» .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٣

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٤ «بتصرف» .

وكانت خيل عبيد الله بن الحر تأخذ السقّائين وتضربهم ، لأنهم كانوا يأتون بالماء إلى المختار وأصحابه ، فإنهم كانوا يعطون بالراوية الدينار والدينارين لما أصابهم من الجهد .

كانت معايشهم أفضلها من نسائهم ، فكانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام واللَّطَف والماء . . قد التحفت عليه ، فتخرج كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة ، وكأنها تأتي أهلها وتزور ذات قرابة لها ، فإذا دنت من القصر فتح لها ، فدخلت على زوجها وحميمها بطعامه وشرابه ولَطَفه .

وعندما بلغ ذلك مصعباً وأصحابه ، قال له المهلب : اجعل عليهم درويا حتى تمنع من يأتيهم من أهليهم وأبنائهم ، وتدعهم في حصنهم حتى يموتوا فيه .

وكان القوم إذا اشتد عليهم العطش في قصرهم استقوا من ماء البئر ، ثم أمر لهم المختار بعسل فصُبّ فيه ليغير طعمه فيشربون منه ، فكان ذلك أيضاً مما يروي أكثرهم[1] .

كان المختار ربما خرج هو وأصحابه فقاتلوا قتالاً ضعيفاً ، ولا نكاية لهم ، وكانت لا تخرج له خيل إلاّ رميت بالحجارة من فوق البيوت ، ويصب عليهم الماء القذر ، واجترأ عليهم الناس .

وابتدر السوق أناس من شباب أهل الكوفة وأهل البصرة ، أغمار . . ليس لهم علم بالحرب ، فأخذوا يصيحون . . . وليس لهم أمير ـ : يا ابن دومة . . يا ابن دومة ![2] كيف ترى ما أنت فيه من الحصار؟ هذا جزاء من خالف على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ، وطلب الأمر لغيره !

فأشرف عليهم المختار من أعالي القصر ، ثم قال : يا جند المرأة ! . . يا أعوان البهيمة ! . . يا بقايا السيف ! أتعيّرونني بأمي دومة ! . . حسناء الحومة . . التي لا

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٥ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٦ .

تُسمع فيها للائمِ لومة[١] ، ثم قال : إن الذي تعيّرونه ابن رجل من القريتين عظيم [٢] ولكن إن كنتم رجالاً فاثبتوا لي قليلاً ، فوالله لأقاتلنكم قتال مستقتل . . قد آيس من الحياة [٣]. وقد بصر بهم وبتفرّقهم وهيئتهم وانتشارهم ، فطمع فيهم [٤] .

نزل المختار عن حائط القصر ، ولبس سلاحه واستوى على فرسه [٥] : وقال لطائفة من أصحابه : اخرجوا معي ، فخرج معه منهم نحو من مائتي رجل ، فشدخ نحواً من مائة ، وهزمهم ، فركب بعضهم بعضاً .

ونظر إليه رجل من أصحاب البصرة يقال له «يحيى بن ضمضم» من بني ضبّة ، وكان إذا ركب خطت رجلاه في الأرض لطوله ، ولم يكن في أصحاب مصعب أفْرَس منه ، وكان أقتل شيء للرجال وأهيبه عندهم إذا رأوه ، فأخذ يحمل على أصحاب المختار فلا يثبت له رجل . . وبصر به المختار ، فحمل عليه فضربه ضربة على جبهته ، فأطار جبهته وقحف رأسه ، فخرّ ميتاً .

وحملت الكتائب على المختار وأصحابه من كل جانب ، فجعل يحاربهم ويرجع إلى ورائه ، حتى دخل القصر[٦] .

واستمر الحصار أربعة أشهر ، يخرج إليهم المختار في كل يوم فيقاتلهم في سوق الكوفة من وجه واحد [٧] ، وهو ما نُسميه اليوم بـ «حرب العصابات» [٨] ، ومع هذا كان المختار شديد العلة من بَطَن به[٩] .

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٩٤ .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٩ ، عظيم إحدى القريتين هو «مسعود بن عمرو» جدّه .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٩٤ .

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٦ .

(٥) الفتوح ج٦ ص١٩٤ .

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٦ . الفتوح ج٦ ص١٩٥ . أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٩ .

(٧) تاريخ الطبري ج٦ ص١١٥ . الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٧٧ . تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٣ .

(٨) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٤٣ .

(٩) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٣ ، والبَطَن : داء البطن أي أصيب بوجع في بطنه (المنجد) ص٤٢ .

واشتد عليهم الحصار، فقال لهم المختار: ويحكم! إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً، انزلوا بنا فلنقاتل حتى نُقتل كراماً إن نحن قُتلنا، والله ما أنا بآيس أن صدقتموهم أن ينصركم الله، فضعفوا وعجزوا. فقال لهم المختار: أما أنا، فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكّمهم في نفسي.

ولما رأى عبد الله بن جَعدة بن هبيرة ما يريد المختار، تدلّى من القصر بحبل، فلحق بأناس من إخوانه، فاختبأ عندهم[1]، ثم جعل أصحابه يتسللون منه، حتى بقي في نفر يسير[2]، وجعل السائب بن مالك الأشعري يتمثل بقول عبد الله بن حذّاق حيث يقول أبياتاً مطلعها:

هل للفتى من نياب الدهر من واقي　　　أم هل له من حمام الموت من راقي؟!

إلى آخرها[3]. فسمع المختار الأبيات فقال: لله درّ عبد الله بن حذّاق ما أجود معناه في هذا القول! أما والله لولا ما نحن فيه لأحببت أن أحفظ هذه الأبيات. ووالله يا سائب! لو كان لي عشرة من مثلك لقهرت مصعباً وأصحابه[4].

ثم إن المختار صمم على الخروج حين رأى من أصحابه الضعف، ورأى ما

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٧ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٣.

(٣) وبقية الأبيات:

كأنني قد رماني الدهرُ عن عَرَضٍ　　　بنافذات بلا ريش وأفواق
وغمّضوني ولم يألوا بنعيهمُ　　　وقال قائلهُم: أودى ابنُ حذّاق
وقد دعوا ليَ أقواماً وقد غسلوا　　　بالماء والسّدْر جُثماني وأعلاقي
ورجّلوني وما رُجّلتُ من شَعَث　　　والبسوني ثياباً غيرَ أخلاق
ورفعوني وقالوا: أيما رجل　　　حامي الحقيقة قد وافى بميثاق
وأرسلوا فتيةً من خيرهم نَسَباً　　　ليدُخلوني ضريحاً بين أطباق

(٤) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٤٧ ـ وراجع أيضاً الفتوح ج٦ ص١٩٥.

بأصحابه من الفشل، فأرسل إلى امرأته أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاري، فأرسلت إليه بطيب كثير وحنوط، فاغتسل وتحنط، ثم وضع ذلك الطيب على رأسه ولحيته[١] ووثب أصحابه يفعلون كذلك.

فقال له رجلٌ منهم: أبا اسحاق! أما بُدّ من الموت!

قال: قد رأيت والله عبد الله بن الزبير على الحجاز، وبني أمية على الشام، ومصعباً على العراق، ولم أكن بدون واحد منهم، وإنما خرجت أطلب بدماء أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وقد والله أشفيت نفسي من أعدائهم وممن شارك في دمائهم، ولست أبالي بعد هذا، كيف أتاني الموت!

ثم استوى على فرسه[٢] وجعل يتمثل بقول غيلان بن سلمة الثقفي:

ولو يَراني أبو غَيْلانَ إذ حَسَرتْ ... عَنّي الهُمومُ بأمر مالَهُ طبَقُ

لقال: رُهْباً ورُعباً يجمعان معاً ... غُنْمُ الحياة وهَوْلُ النفس والشَفَق

والموتُ أحمَدُ شيء بالكريم إذا ... ما قالَهُ الدهرُ والآجالُ تختَرقُ[٣]

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٧ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٠ الفتوح ج٦ ص١٩٦ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٦ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٩٥ .

قتل المختار

وللمرة الأخيرة حاول مع أصحابه الذين أبوا أن يتابعوه على الخروج معه ، فقال لهم :

إذا أنا خرجت إليهم فقتلت لم تزدادوا إلا ضعفاً وذُلاً ، فإن نزلتم على حكمهم وثب أعداؤكم الذين وترتموهم ، فقال كل رجل منهم لبعضكم : هذا عنده ثأري فيُقتل ، وبعضكم ينظر إلى مصارع بعض ، فتقولون : يا ليتنا أطعنا المختار وعملنا برأيه ! ولو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتم الظَفَر متّم كراماً ، وإن هرب منكم هارب فدخل في عشيرته اشتملت عليه عشيرتُه... أنتم غداً هذه الساعة أذلّ من على ظهر الأرض .

فخرج في تسعة عشر رجلاً ، فقال لهم : أتؤمّنوني وأخرج إليكم ؟ فقالوا : لا . . إلاّ على الحكم ، فقال : لا أحكمكم في نفسي أبداً [١] .

فقاتل وهو يقول :

إن يقتلوني يجدوا لي جَزَراً ... محمّداً قتلْتُهُ وعُمَراً

والأبرصَ الجاهل لما أدبرا

فقُتل السائب بن مالك [٢] وبقية أصحابه ، وبقي المختار وحده ، فجعل يقاتل والسهام تأخذه ، فصاح مصعب بأصحابه : أن احدقوا به ، فقد قتلت أنصاره ، فأحاطت به الخيل من كل جانب ، فجعل يكر عليهم ويكرّون عليه حتى بلغوا به إلى الموضع الذي فيه حوانيت الزياتين فأحاطوا به هنالك والجؤوه إلى جدار هناك ،

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٧ ، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٠ ثم خرج في تسعة وعشرين رجلاً .

(٢) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤١ .

وقصده رجلان من بني حنيفة أخوان «طَرَفَة» و«طرّافاً» إبنا «عبد الله بن دجاجة الحنفي»، وضرباه جميعاً بأسيافهما، فسقط المختار إلى الأرض، فنزلا إليه فذبحاه، واحتزّا رأسه، واقبلا به إلى مصعب بن الزبير[١] . فأعطاهما ثلاثين ألف درهم[٢].

وتنادى أعداءه بقتله، فقطّعه أهلُ الكوفة وأصحابُ مصعبَ أعضاءً[٣].

فأمر مصعب بقطع يده اليمنى فقطعت وسُمّرت على باب القصر، ثم أمر برأسه فنُصب في رحبة الحدادين[٤] وكان قتله ـ رضوان الله عليه ـ في ١٤ رمضان عام ٦٧ هـ/ ٣ نيسان عام ٦٨٧م ، وكان له من العمر سبع وستون سنة[٥] .

وانتهت حياة هذا المجاهد العظيم مبيضّ الوجه، وقد نصر أهل بيت رسول الله ﷺ نصراً مؤزّراً، ولم يحد عن تعاليم الإسلام، وأعطى الأمل لضعفاء الناس بأنهم قادرون على العيش الكريم والتنعم بحقوقهم، لو أرادوا وصمموا على ذلك، ولا يمكن لقوة بشرية أن تقف في وجه أرادتهم، فأما العيش بكرامة وإلاّ فالموت بكرامة.

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٩٧ ـ وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٨ ، والأخبار الطوال ص٣٠٨ .

(٢) الأخبار الطوال ص٣٠٨ .

(٣) مروج الذهب ج٣ ص١٠٦ .

(٤) الفتوح ج٦ ص١٩٨ ، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٤ وتاريخ الطبري ج٦ ص١١٠ أنه سمّرها على حائط المسجد.

(٥) الخلافة الأموية ص ١٠٩ ، تاريخ الطبري ج٦ ص١١٦ .

المجزرة الرهيبة

ظهرت آثار النصر على وجوه جيش مصعب ، وتاقت نفوس أهل الكوفة المتمصرين إلى إدراك الثأر من الثلّة الباقية من جماعة المختار ، وبرز إلى العَلَن الحقد الدفين .

فقال سويد بن أبي كاهل في قتل المختار :

يا ليت شعري متى تغدوا مُخَيَّسَةٌ   منّا فتُبْلغُ أهلَ الموسم الخبرا
إنّا جزرنا عن الكذّاب هامتَهُ   من بعد طعْن وضرْب يكشف الخُمُرا

وكان الباقون من أصحاب المختار قد لمسوا ذلك في وجوه أعدائهم .

ففي صباح اليوم التالي لقتل المختار ، وعندما صمم أنصاره على الاستسلام بدون قيد أو شرط ، تقدم منهم «بجير بن عبد الله المُسْلِيّ» وقال لهم : يا قوم ، قد كان صاحبكم أمس أشار عليكم بالرأي لو أطعتموه . . يا قوم ، إنكم إن نزلتم على حكم القوم ذُبحتم كما تذبح الغنم . . اخرجوا بأسيافكم فقاتلوا حتى تموتوا كراماً ! فعصوه ، وقالوا : لقد أمرنا بهذا من كان أطوع عندنا وأنصح لنا منك ، فعصيناه ، أفنحن نطيعك[1] ؟ ! فأمكن القوم من أنفسهم ، ونزلوا على الحكم[2] .

وفي رواية الفتوح : فأقبل مصعب وأصحابه حتى أحدقوا بالقصر ، فجعلوا

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٨ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤١ . وفي الأخبار الطوال ص٣٠٩ ، ولم تنزل الستة آلاف الذين دخلوا القصر متحصنين فيه شهرين ، حتى نفد جميع ما كان المختار أعدّه فيه من الطعام ، فسألوا الأمان ، فأبى مصعب أن يعطيهم الأمان إلا على حكمه ، فأرسلوا إليه : إننا ننزل على حكمك ، فنزلوا عندما بلغ إليهم الجوع .

ينادون لمن في القصر ويقولون: أخرجوا ولكم الأمان! فقد قتل الله صاحبكم[١]، وأعطاهم مصعب الأمان، وكتب لهم كتاباً بأغلظ العهود، وأشد المواثيق[٢].

ففتحوا باب القصر وخرجوا[٣]، فبعث إليهم مصعب «عبّاد بن الحصين الحَبَطي»، فكان يخرجهم مكتفين[٤]، وعندها أدركوا سوء رأيهم، وهم يرون الذّل يترصّدهم والسيف من وراء ذلك.

فبعد أن أخرجوا «عبد الله بن قراد الخثعمي» مكتوفاً، وأخذوا سيفه أدركته الندامة، فجعل يطلب عصاً أو حديدة أو شيئاً يقاتل به، فلم يجد فجعل يقول:

ما كُنْتُ أخشَى أنْ أُرى أسيراً ولا أرى مُدَمّراً تَدْميراً[٥]

إن الذينَ خالفوا الأميرا قدْ رُغِمُوا وتُبِّروا تَتْبيرا

فسمعه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال: عليّ بذا... قدّموه إليّ اضرب عنقه، فقال له ابن قراد: أما إني على دين جدّك الذي آمن ثم كفر إن لمْ أكن ضربت أباك بسيفي حتى فاضت نفسه. فنزل عبد الرحمن ثم قال: أدنوه مني، فأدنوه منه، فقتله، فغضب عباد، فقال: قتلته ولم تؤمر بقتله![٦]

أخذوا الأسرى، فقدموهم بين يدي مصعب بن الزبير[٧]، وخيم الرعب على القلوب، فكلمة واحدة من مصعب تطيح بالرؤوس وتُسيح الدماء أو تطلق سراح هؤلاء البؤساء!

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٩٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٣.

(٣) الفتوح ج٦ ص١٩٨.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٨.

(٥) هذا المصرع من الفتوح ج٦ ص١٩٨.

(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٨، أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤١ «بتصرف».

(٧) الفتوح ج٦ ص١٩٨.

في هذه الأثناء يتقدم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ثانية فيطلب من «عبّاد» أن يحبس «عبد الله بن شدّاد الجُشَمي - وكان شريفاً - حتى يكلم فيه الأمير، فأتى مصعباً، فقال: إني أحب أن تدفع إليّ «عبد الله بن شدّاد» فاقتله، فإنه من الثأر! فأمر له به، فلما جاءه أخذه فضرب عنقه[1].

بعد هذا رفع مصعب رأسه إليهم، فقال:

الحمد لله الذي أمكن منكم يا شيعة الدجّال!

فتقدم إليه «بحير بن عبد الله المُسْلي» فتكلم وقال: لا والله، ما نحن بشيعة الدجّال، ولكنّا شيعة آل محمد ﷺ، وما خرجنا بأسيافنا إلا طلباً بدمائهم. وقد ابتلانا الله بالأسر وابتلاك بالعفو - أيها الأمير - والصفح والعفاف، وهما منزلتان[2]، إحداهما رضا الله والأخرى سخطه. . من عفى عفا الله عنه، وزاده عزاً، ومن عاقب لم يأمن القصاص. ياابن الزبير ... نحن أهل قبلتكم، وعلى ملتكم، ولسنا تُركاً ولا ديلماً، فإن خالفنا أخواننا من أهل مصرنا، فإما أن نكون أصبنا وأخطأوا، وإما أن نكون أخطأنا وأصابوا، فاقتتلنا كما اقتتل أهل الشام بينهم، فقد اختلفوا واقتتلوا ثم اجتمعوا، وكما اقتتل أهل البصرة بينهم، فقد اختلفوا ثم اصطلحوا واجتمعوا، وقد ملكتم فأسجحوا، وقد قدرتم فاعفوا ...

فما زال بهذا القول ونحوه حتى رقّ لهم الناس، ورقّ لهم مصعب، وأراد أن يخلّي سبيلهم، فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال: أتخلّي سبيلهم؟! اخترنا يا ابن الزبير أو اخترهم. ووثب محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمْداني فقال: قُتل أبي وخمسمائة من همدان وأشراف العشيرة والمصر، ثم تخلي

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٨، فكان عباد يقول: أما والله لو علمت أنك إنما تريد قتله لدفعته إلى غيرك فقتله، ولكني حسبت أنك تكلمه فيه فتخلّي سبيله.

(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٨.

سبيلهم، ودماؤنا ترقرق في أجوافهم! اخترنا أو اخترهم[١] .

ووثب أشراف العرب فقالوا أيها الأمير !إن هؤلاء هم الذين قتلوا أبنائنا واخواننا وبني أعمامنا، وفي اطلاقهم فساد عليك في سلطانك، وعلينا في أحسابنا[٢]

تردد مصعب ، وقبل أن يتخذا القرار النهائي شاور الأحنف بن قيس فيهم ، فقال : أرى أن تعفوا عنهم «فإن العفو أقرب للتقوى»[٣]، فقال أشراف أهل الكوفة: اقتلهم، وضجّوا[٤].

عند ذلك ارتأى مصعب أن يقتل الموالي، فقال: اقتلوا الموالي واعفوا عمّن كان صلبية (أي خالص النسب) مع المختار.فقام ابن الأصبهاني وابن الاسكاف ـ من البصرة ـ فقالا : ما هذا بحكم الإسلام![٥] فلما رأى مصعب بن الزبير ذلك أمر بقتلهم، فنادوه بأجمعهم: يا ابن الزبير، لا تقتلنا . . اجعلنا مقدّمتك إلى أهل الشام غداً، فوالله ما بك ولا بأصحابك عنّا غداً غنىً إذا لقيتم عدوكم، فإن قُتلنا لم نُقتل حتى نرقّهم لكم وإن ظفرنا بهم كان ذلك لك ولمن معك. فأبى عليهم وتبع رضا العامّة.

توجه مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي لمصعب بن الزبير وقال: يا ابن الزبير، ما تقول لله إذا قدمت عليه وقد قتلت أُمة من المسلمين صبراً! حكّموك في دمائهم، فكان الحق في دمائهم أن لا تَقْتُلَ نفساً مسلمة بغير نفس مسلمة ! فإن كنّا قتلنا عدّة رجال منكم فاقتلوا عدّة من قتلنا منكم ، وخلّوا سبيل بقيتنا ، وفينا الآن رجال كثير

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٩ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤١ .

(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٩

(٣) راجع سورة البقرة الآية : ٢٣٧ .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٢ .

(٥) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٣ . وفي تاريخ الطبري ج٦ ص١١٦ : فقالوا: أي دين هذا؟ كيف نرجوا النصر وأنت تقتل العجم وتترك العرب ودينهم واحد.

لم يشهدوا موطناً من حربنا وحربكم يوماً واحداً . . كانوا في الجبال والسواد يجبون الخَراج ويؤمِّنون السبيل! فلم يستمع له .

فقال مسافر: قبح الله قوماً أمرتُهم أن يخرجوا ليلاً على حرس سكّة من هذه السكك فنطردهم، ثم نلحق بعشائرنا، فعصوني حتى حملوني على أن أعطيت التي هي أنقص وأدنى وأوضع، وأبوا أن يموتوا إلاّ ميتة العبيد! فأنا أسألك أن لا تخلط دمي بدمائهم، فَقُدِّم فقُتل ناحية[١]، وأتي بابن عبد الله بن شداد، واسمه «شدّاد»، وهو رجل محتلم فقال «عبّاد»: اكشفوا عنه هل أدرك؟ فقالوا: لا، إنما هو غلام، فخلّوا سبيله.

وكان الأسود بن سعيد قد طلب إلى مصعب أن يعرض على أخيه قيس بن سعيد الأمان، فإن نزل تركه له، فأتاه فعرض عليه الأمان، فأبى أن ينزل، وقال: أموت مع أصحابي أحبّ إليّ من حياة معكم، فأخرج فقُتل فيمن قتل[٢] .

يصف أحدهم المجزرة الرهيبة التي حلّت بأنصار المختار بقوله: . . فاتكوا عليهم بالسيوف، فقتلوهم صبراً ـ رحمة الله عليهم[٣] وكانوا نحواً من ستة آلاف[٤].

وقَتل مصعب أيضاً عبدَ الرحمن وعبدَ الرب ابني حُجْر بن عدي وعمران بن حذيفة بن اليمان، قتلهم صبراً بعد قتل المختار وبعد قتل أصحابه[٥]

وبعد نهاية المجزرة المرعبة، قال الأحنف بن قيس مخاطباً الكوفيين: ما أدركتم

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١١٠، وانظر أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٢ .

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٩ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٩٩ .

(٤) قد اختلف الرواة في عدد من قتل في تلك المجزرة، ففي أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٢ ذكر «ستة آلاف»، وفي تاريخ الطبري ج٦ ص١١٣ ذكر «سبعة آلاف» عن لسان عبد الله بن عمر، وكذلك في تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٣ .

(٥) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٨٠ .

بقتلهم ثأراً، فليته لا يكون في الآخرة وبالاً ![1] فكانت كما يقول اليعقوبي: إحدى الغدرات المذكورة المشهورة في الإسلام[2].

وقال عُقبة الأسدي:

قتلتُم ستةَ الآلاف صَبراً	مع العهد الموثَّق مكتفينا
جعلتُم ذمَّةَ الحَبَطيِّ جسراً	ذَلُولاً ظهرُهُ للواطئينا
وما كانوا غَداةَ دُعُوا فَغُرُّوا	بعهدهمُ بأوَّل حائنينا[3]
وكنْتُ أمرتُهُمْ لَوْ طاوَعوني	بضرب في الأزقّة مُصْلَتينا[4]

وسنرى كيف أن هذه الفعلة الشنيعة كانت أهم العقبات التي ارتطم بها الحكم الزبيري في العراق، وكانت السبب في انهيار جيش مصعب بن الزبير في الساعات الأولى من المواجهة مع جيش عبد الملك بن مروان، فكان سقوط دولة آل الزبير، وإلى الأبد...

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٤.

(٣) الحائنة: المصيبة، والحين: الهلاك «المنجد» ص١٦٥.

(٤) تاريخ الطبري ج٦ ص١١٦.

الفصل السابع عشر

مصعب حاكم العراق

مصعب حاكم العراق

وأقبل مصعب حتى دخل قصر الإمارة ، فجلس على سرير المختار[١] ولم ينتهي الإجرام الزبيري عند هذا الحد ، فقد تتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها !

زوجات المختار وحدّ السيف

وأتى بحُرَم المختار ، فدعاهن إلى البراءة منه ، ففعلن إلاّ زوجتين له ، إحداهما بنت سَمُرَة بن جندب الفزاري (أم ثابت) ، والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري (عَمْرَة) ، فقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربيّ الله ؟ كان صائماً نهاره . . قائماً ليله . . قد بذل دمه لله ولرسوله ، في طلب قَتَلَة ابن بنت رسول الله ﷺ وأهله وشيعته ، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس ![٢] فسجنهما مصعب[٣] .

فكتب إلى أخيه عبد الله بخبرهما وما قالتاه ، فكتب إليه « عبد الله بن الزبير » : إن هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه وإلا فاقتلهما . فعرضهما مصعب على السيف ، فرجعت بنت سَمُرة ولعنته وتبرأت منه ، وقالت : لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرت[٤] . . نقول فيه كما تقولون فيه ، فقال مصعب : أحسنت ، اذهبي فلا سبيل عليك ، فقالت الأنصارية :

ولكني أقول كان عبداً مؤمناً . . محبّاً لله ورسوله وأهل بيت رسوله محمد ﷺ[٥]

---

(١) الفتوح ج٦ ص١٩٩ .

(٢) مروج الذهب ج٣ ص١٠٧ .

(٣) قد ورد في تاريخ الطبري ج٦ ص١١٢ بسجن بنت النعمان بن بشير ، وإن ابنة سمرة بن جندب تبرآت .

(٤) مروج الذهب ج٣ ص١٠٧ ، وفي تاريخ الطبري ج٦ ص١١٢ وأنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٣ إن مصعباً أرسل إلى عبد الله بن الزبير ـ أنها (أي عمرة) تزعم أنه نبي ، فأجابه أن : أُقْتُلها ! !

(٥) الفتوح ج٦ ص١٩٩ ـ مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٥٠ .

. . . كان تقياً . . نقياً . . صواماً[١] ، فأنكم إن قتلتموه لم تبقوا بعده إلا قليـلاً ، فغضب مصعب بن الزبير[٢] وقال لها : يا عدوة الله أنت ممن يزكيّه ! فأمر بقتلها[٣] فقالت : شهادة أرزُقها فأتركها ؟ كلا ! إنها موتة ثم الجنة ، والقدوم علـى الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السـلام . والله لا يكـون آتـي مـع ابـن هنـد فأتبعه ، وأتـرك ابـن أبـي طالب ! اللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته[٤] .

فأخرجها مصعب إلى ما بين الحيرة والكوفة ـ بعد العشاء الأخير ـ فـأمر بهـا رجـلاً من الشُرَط اسمه « مطر » ، فضربها بالسيف ثلاث ضربات ، وهي تقول : يا أبتـاه . . يا أهلاه . . يا عشيرتاه[٥] !

سمع استغاثتها بعض الأنصار وهو « أبـان بـن النعمـان بـن بشير » فأتـاه فلطمـه ، وقال لـه : يـا ابـن الزانيـة ، قطعـت نَفَسَـها قطـع اللهُ يمينك[٦] ثـم تشـحّطت ومـاتت (رضوان الله عليها)[٧] ، فلزمه مطـر ورفـع أمـره إلـى مصعـب ، فقـال : خلّـوا سـبيل الفتى ، فإنه رأى أمراً فظيعاً[٨] .

فكانت عمرة بنت النعمان أول امرأة ضُرب عنقها صبراً[٩] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٤ .
(٢) الفتوح ج٦ ص١٩٩ ـ مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٥٠ .
(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٤ «بتصرف» .
(٤) مروج الذهب ج٣ ص١٠٧ .
(٥) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٣ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص١١٢ .
(٦) تاريخ الطبري ج٦ ص١١٢ ، ويظهر أنه أخ لعمرة بنت النعمان بن بشير .
(٧) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٣ .
(٨) تاريخ الطبري ج٦ ص١١٢ .
(٩) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٤ .

التنديد

وهكذا بدأ مصعب حكومته بإراقة الدم الحرام ، بالخصوص قتل النساء وترويعهن ، التي لم يقر بقتلها شرع ولا قانون ، ولم يكن حتى في تاريخ (يزيد وابن زياد) الأسود ، أن قتلت امرأة صبراً !!

وقد ثارت ثائرة الناس على هذا التصرف الشنيع ، ولم يرضَ به حتى المقرّبين من السلطة .

وهذا «عمر بن أبي ربيعة المخزومي» الشاعر[1] يندد بفعل مصعب الشنيع ، وقد قال :

إنّ من أعجب العجائب عندي ... قتلَ بيضاءَ حُرّة عُطْبُول[2]

قتلوها بغير جُرْم أتته ... إنّ لله درّها من قتيل

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا ... وعلى الغانيات جرُّ الذيُّول[3]

واستفظع هذا الفعل «الأحوص» الشاعر ، فقال :

ألم تعجب الأقوام من قتل حُرَّة ... من الجامعات العقل والدين والحسب

من العاقلات المؤمنات بريَّة ... من الشك والبهتان والإثم والرِّيب

كأنَّهم إذْ أبرزوها فقُطِّعت ... بأسيافهمْ فازوا بمملكة العرب !![4]

---

(١) تولّى أخوه «الحارث بن أبي ربيعة» على الكوفة من قبل مصعب . انظر تاريخ تاريخ الطبري ج٦ ص١١٩ .

(٢) المرأة العطبول : هي الفتيّة الجميلة الممتلئة الطويلة العنق .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٤ ، وانظر أيضاً تاريخ تاريخ الطبري ج٦ ص١١٢ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٣ ـ الفتوح ج٦ ص٢٠٠ ـ مروج الذهب ج٣ ص١٠٧ ـ الأخبار الطوال ص٣١٠ .

(٤) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٤ ، وقد أورد تاريخ الطبري ج٦ ص١١٣ قصيدة لـ «سعيد بن عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت» تتضمن هذه الأبيات المنسوبة للأحوص ، وهي :

=

يقول المحقق هاشم معروف الحسني:

لقد قتل ابن الزبير سبعة آلاف في غداة يوم واحد من شيعة علي ، بالإضافة إلى ألوف القتلى الذين صرعهم في ضواحي الكوفة وشوارعها ، لأنهم سحرة كفرة ـ كما جاء في جوابه لعبد الله بن عمر حينما لامه على إسرافه في إراقة الدماء ـ فبأي شيء يعتذر عن قتله لامرأة أشهدت الله ورسله على نفسها ـ والسيف مسلط على رأسها ـ إنها على دين محمد بن عبد الله ومتبعة له ولأهل بيته ، ومع ذلك لم يحترم الإسلام الذي نهى عن ترويع النساء وإن شتمن أعراض القادة وسببن الأمراء ، كما كان النبي ﷺ يؤكد على قادة جيوشه بذلك .

لقد كان المختار ومن معه من الشيعة سحرة كفرة بنظر ابن أخت عائشة ، لأنهم كانوا موالين لأهل البيت ، وقتلوا قتلة الحسين وبنيه وأخوته وأنصاره . وكذلك زوجة المختار لأنها كانت تحمل هذه الروح البريئة الطيبة ، فهي ساحرة وكافرة تستحق القتل والتعذيب .

=

أتى راكب بالأمر ذي النبأ العجب ... بقتل ابنة النعمان ذي الدين والحسب

بقتل فتاة ذات دَلٍّ ستيرة ... مهذبة الأخلاق والخيم والنسب

مطهّرة من نسل قوم أكارم ... من المؤثرين الخير من سالف الحقب

خليلُ النبيُّ المصطفى ونصيرُهُ ... وصاحبه في الحرب والنَّكب والكُرَبْ

أتاني بأن الملحدين توافقوا ... على قتلها ، لا جُنِّبوا القتل والسَّلَبْ

فلا هنأت آل الزبير معيشةٌ ... وذاقوا لباس الذُّل والخوف والحرَبَ

كأنهم إذ أبرزوها وقُطِّعتْ ... بأسيافهم فازوا بمملكة العرب!

أَلَمْ تعجب الأقوام من قتل حُرَّة ... من المحصنات الدين .. محمودة الأدَبُ!

من الغافلات المؤمنات ، بريئة ... من الذم والبهتان والشك والكذب

علينا كتاب القتل ، والبأس واجبٌ ... وهنّ العفافُ في الحجال وفي الحُجُب

على دين أجداد لها وأبُوّة ... كرام مضت .. لم تُخز أهلاً ولم تُرب

من الخفرات ، لا خَروجٌ بذيّة ... ملائمة تبغي على جارها الجُنب

ولا الجار ذي القربى . ولم تدر ما الخنا ... ولم تزدلف يوماً بسوء ولم تحب

عجبتُ لها إذ كُفِّنت وهي حيّة ... ألا إن هذا الخطب من أعجب العجب!!

إن ابن هند وابن ميسون وجلاديهم كزياد ابن أبيه وعبيد الله وأمثالهما لم يصنعا مع الشيعة أكثر مما صنعه الجزارون الزبيريون ، ولو كان الحسين في الكوفة حينما دخلها ابن الزبير لكان ساحراً كافراً بنظره . . مستحقاً للقتل وأسوأ أنواع التمثيل والتعذيب .

ولا فرق بين ابن الزبير والأمويين ، إلا أن ابن الزبير كان يصدر الأوامر لجلاديه بقتل الصلحاء من الرجال والنساء وإبادة الشيعة من إحدى زوايا الكعبة ، وهو متقمص لباس العُبّاد والزاهدين ، وأولئك يصدرون الأوامر لجلاديهم بالقتل والظلم والجور من على موائد الخمر وندوات القمار ومن بين أحضان البغايا والراقصات[1]! .

(١) الانتفاضات الشيعية ص ٤٧٢ .

رأس المختار وعبد الله بن الزبير

قام مصعب بإرسال رأس المختار ورؤوس وجوه أصحابه إلى عبد الله بن الزبير بمكة[١] مع « عبد الله بن عبد الرحمن » .

يقول « عبد الله بن عبد الرحمن » : فوافيت مكة بعد العشاء الآخرة ، فأتيت المسجد ، وعبد الله بن الزبير يصلّي ، فجلست أنتظره ، فلم يزل يصلّي إلى وقت السحَر ، ثم انفتل من صلاته ، فدنوت منه ، فناولته كتاب الفتح ، فقرأه ، وناوله غلامه ، وقال : أمسكْه معك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا الرأس معي ، فقال : ما تريد ؟ فقلت : جائزتي ، قال : خذ الرأس الذي جئت به بجائزتك ! فتركته وانصرفت[٢] .

فأمر عبد الله بن الزبير برأس المختار ، فنُصب بالأبطح ـ وكان قبل ذلك أبى أن ينصب محمدُ بن الحنفية رأسَ ابن زياد خارج الحرم !

ثم أرسل إلى ابن عبّاس ـ متشمتاً ـ فقال : يا ابن عبّاس إن الله قد قتل الكذاب ! فقال ابن عبّاس : رحم الله المختار ! فقال : كأنك لا تحب أن يقال « الكذّاب » ؟ فقال : فإنه كان محبّاً لنا . . عارفاً بحقنا ، وإنما خرج بسيفه طالباً بدمائنا ، وليس جزاءه منّا أن نشتمه ونسميّه كذّاباً[٣] !

والتقى عروة بن الزبير بابن عبّاس ، فأخبره شامتاً : قد قُتل الكذّابُ المختارُ ، وهذا رأسه ، فقال ابن عبّاس : قد بقيت لكم عقبة كؤود ـ يعني عبد الملك بن مروان ـ

---

(١) أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٤ «بتصرف» ـ وانظر أيضاً الفتوح ج٦ ص٢٠٠ .

(٢) الأخبار الطوال ص٣٠٨ .

(٣) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٥٠ ـ وانظر أيضاً الفتوح ج٦ ص٢٠٠ ـ أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٥ .

فإن صعدتموها فأنتم أنتم ، وإلاّ فلا[١]. وعروة هذا جاء إلى محمد بن الحنفية رسولاً من عبد الله بن الزبير وتصرف معه كما تصرف مع ابن عبّاس ، فقال :

« وقد قتل الله الكذّاب الذي كنت تدعي نصرته !... فأجابه ابن الحنفية : (. . والله ما بعثت المختار داعياً ولا ناصراً ، ولَلْمختار كان إليه أشدّ انقطاعاً منه إلينا ، فإن كان كذّاباً فطالما قرّبه على كذبه ، وإن كان على غير ذلك فهو أعلم به . .)[٢]. ويستنتج الدكتور « عبد الأمير دكسن » على جواب ابن الحنفية أن المختار كان قد استغل اسم ابن الحنفية لغاياته الخاصة ، ولهذا لم يقرّ الأخير نشاطاته[٣] .

وبعد التأمل يظهر أن هذا الاستنتاج بعيد عن الصواب ، بالخصوص أن ابن الحنفية كان دائماً يحاول عدم التظاهر بأي ارتباط بالمختار ، وفي هذا الجواب أراد ابن الحنفية ربط المختار بابن الزبير ، فإن صحت اتهاماته له ، فابن الزبير أولى بها ، وليس هناك أي إشارة في هذا الجواب إلى استغلال المختار لاسم ابن الحنفية من قريب ولا من بعيد ، فلاحظ !

الخلاصة أن آل الزبير راقهم قتل المختار ، وأخذوا يظهرون الشماتة بقتله ، وزادوا من الاستخفاف بمكانة قُربى رسول الله ﷺ بالخصوص محمد بن الحنفية وابن عباس ، واعتبروا قتل المختار هدم لأقوى سند يتحصّن به هؤلاء ضد أعدائهم وأصبحوا الآن بلا سند !

وبالفعل بدأت ضغوطات ابن الزبير تشتد من جديد على محمد بن الحنفية وابن عبّاس وأتباعهم . فعبد الله بن الزبير يهدد ابن الحنفية على لسان أخيه عروة بقوله : ... فبايعْ لي وإلا فهي الحرب بيني وبينك إن امتنعت[٤] !

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٧٨ ، وانظر أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٤٤٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٦ .

(٣) الخلافة الأموية ص١١٠ .

(٤) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٦ .

إبراهيم بن الأشتر والوضع الراهن

عجيب أمر إبراهيم بن الأشتر ! فهو يحمل عدّة مزايا

الأولى : أنه من شيعة أهل البيت عليهم السلام .

الثانية : أنه شجاع ، مهاب الجانب .

الثالثة : مطاعٌ في عشيرته وغيرها .

الرابعة : إنه شريك المختار في الثورة ، وواليه على الجزيرة .

الخامسة : إنه قائد جيوش المختار ، ومحقق الانتصارات الكبرى .

ولكن الذي لا يُفْهم من التاريخ هو : لماذا لم يقم بالانضمام إلى المختار ، وينجده في ساعة العسرة ، عند تعرّضه للحصار في قصر الإمارة (قلب الكوفة) من قبل جيش مصعب وأشرار الكوفة وممن شارك في دم الحسين عليه السلام ؟!

أما الحرب في المذار ، فإنه قد نتسامح ونقول : إن حركة جيش البصرة تجاه الكوفة كانت خاطفة وسريعة بحيث لم يمكنه الإسناد في هذا الوقت الضيّق ـ وإن كان واقع الأمر خلاف ذلك ـ وإن المختار كان يملك جيشاً فيه الكفاية ! ! ولكن ما باله لم يقم بفعل شيء لفك الحصار عن المختار ـ وقد كان معه تحت الحصار أكثر من ستة آلاف مقاتل ـ وقد ظل تحت الحصار أربعة أشهر أو أربعين يوماً على قول الدينوري[1]!

في هذه الفترة الحرجة والطويلة لم يذكر التاريخ أن ابن الأشتر خطى خطوة واحدة أو نطق بكلمة واحدة انتصاراً للمختار ، مع أنه من شيعة أهل البيت عليهم السلام ، بينما آل الزبير وآل مروان من أعدائهم !

---

(١) الأخبار الطوال ص٣٠٧ .

إذاً ، لماذا هذا النكوص ؟! هل هو حب الدنيا والركون إلى العافية ؟ أو الحسد على الرئاسة ؟ أو شيئ آخر كان وراء إهمال ابن الأشتر لأمر إنقاذ المختار وجيشه من الحصار ؟ هل إن إبراهيم بن الأشتر كان همه الأساسي الحصول على السلطة ـ كما يرى بعض المحققين ـ وقد أشبع طموحه الآن بأن أصبح والياً على الموصل والجزيرة ، فماذا يعنيه بعد هذا من أمر المختار[1] !!

والأعجب من هذا هو انضمام إبراهيم بن الأشتر إلى مصعب بعد إستيلاء الأخير على الكوفة ، وقد تناقلت إليه الأخبار بالمجزرة الرهيبة التي حلّت بأهل الكوفة بأمر من مصعب ، فأريقت دماء أكثر من ستة آلاف رجل صبراً بعد أن أعطاهم الأمان ، وبذلك دخلت الفجيعة كل دار في الكوفة ومن ضمنهم « النَخَع » .

وكيف ينضم إلى مصعب لقتال أهل الشام ـ كما سنرى لاحقاً ـ وهي معركة قد كسبها أهل الشام قبل البدء بها ، وكانوا قد أعطوه الأمان ، وهم أقدر على الوفاء به من ابن الزبير الغادر الحاقد !

فهو يقاتل عدوه إلى جانب عدو آخر وحتى الموت ، ولا يخطو خطوة واحدة لمساعدة شريكه في الإمارة ، ومن هو معه على نفس الرأي ويخطوان نحو نفس الأهداف !

وقد استنجد به المختار مراراً ، ولم يغمطه حقه مطلقاً ، ولم ينظر إليه إلاّ بعين الإكبار والإجلال قبل استلام السلطة وبعدها !!

وبقراءة ما بأيدينا من التاريخ لا نعطي الحق مطلقاً لإبراهيم في تهاونه بأمر المختار ، فهو ليس تهاوناً بأمر شخص ، بل بسبب هذا التهاون تم سحق آمال كبيرة وعريضة كانت قد استيقظت في نفوس الضعفاء والمسحوقين من الطبقات المغموطة حقّها ، بعد طول المدة وشدّة المحنة ، والدماء النقيّة التي أريقت في سبيل إقامة هذه الدولة العادلة .

---

(١) الخلافة الأموية ص١٠٧ .

لا يمكن أن نغفر لإبراهيم هذا الخطأ الجسيم الذي ارتكبه في حق الإنسانية . فانتصار دولة المختار على آل الزبير ـ ومن قبل على آل مروان ـ كان سيغيّر المعادلة السياسية في البلاد الإسلامية لصالح دولة الحق والعدل ، بل يغيّر مسير التاريخ ، ولكان الوضع على غير ما هو عليه الآن !

ولو كان قد وقف موقفاً معادياً من دولة آل الزبير أو محايداً ، لكنا سكتنا عنه ولو كنا نجهل سبب خذلانه للمختار ـ ولكن أن يخذل المختار العادل وينصر آل الزبير الجائرين . . المغموسة أيديهم بالدماء البريئة ـ حتى آخر قطرة دم في عروقه ! هذا ما لا يمكن أن نُغضي عنه الطرْف أبداً . . أبداً ! !

إبراهيم بين خيارين

بعد أن استقر مصعب في الكوفة وسيطر على الوضع الداخلي ، كتب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته ، ويقول في كتابه له :

من مصعب بن الزبير ، إلى إبراهيم بن الأشتر؛ سلام عليك ! أما بعد ، فقد قتل الله المختار وشيعته الذين دانوا بالكفر ، وكادوا بالسحر ، وإننا ندعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ، وإلى بيعة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ، فإن أجبت إلى ذلك فأقبل إلينا آمناً مطمئناً . فإن لك أرض الجزيرة وما غلبت عليه بسيفك من أرض المغرب ما بقيت وبقي سلطان آل الزبير ، ولك بذلك عهد الله وميثاقه ، وأشد ما أخذ على أنبيائه من عهد وعقد ـ والسلام .

قال : وعلم عبد الملك بن مروان أن المختار قتل ، فكتب إلى إبراهيم بن الأشتر : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، إلى إبراهيم ابن مالك الأشتر ، سلام عليك ! أما بعد ، فقد علمت ما كان من آل الزبير أنهم تشغبوا على أئمة الهدى ، ونازعوا أهل الحق ، وألحدوا في بيت الله الحرام ، والله ممكن منهم وخاذلهم ، وجاعل دائرة السوء عليهم عن قريب إن شاء الله ، وأنا أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ، فإن قبلت وأجبت فلك بذلك سلطان العراق وما غلبت عليه من أرض المشرق أبداً ما بقيت وبقي سلطان آل مروان ، ولك بذلك عهد الله وميثاقه ـ والسلام .

قال : فدعا إبراهيم بخاصة أصحابه فاستشارهم في ذلك ، فقال له قوم : أيها الأمير الرأي عندنا أن تدخل في طاعة عبد الملك بن مروان ، فقال لهم ابن الأشتر : ويحكم إنه ليس بالشام قبيلة إلا وقد وترتها وقتلت رجالها في يوم عبيد الله ، وما كنت بالذي أختار على مصري مصراً ولا على عشيرتي عشيرة ، واللحاق بالعراق أحب إليّ وأعود عليّ .

قال : ثم نادى في أصحابه وارتحل نحو الكوفة إلى مصعب بن الزبير ، فلما دخل على مصعب قربه وأدناه ، وأجلسه معه على سريره ، ثم خلع عليه وأمر له بجائزة سنية ، وصرفه إلى منزله ، ثم كتب إلى أخيه عبد الله بن الزبير ، فأخبره بأمر ابن الأشتر وأنه قد دخل إلى الكوفة ، فسر عبد الله بن الزبير بذلك سروراً شديداً ، ثم ولى مصعب بن الزبير المهلب بن أبي صفرة أرض الموصل وعزله عن حرب الأزارقة[1] .

وكان بالفعل نصراً كبيراً قدمه إبراهيم بن الأشتر لآل الزبير ، وبالمجّان ، ولكن مع ذلك غدَرَ مصعب بإبراهيم ، فلم يف له بما وعده من استمراره والياً على أرض الجزيرة وما يقع غربها من الأراضي !.

---

(١) الفتوح ج٦ ص٢٠٠ وقد نقل المكاتبة أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص١١١ مع اختلاف في بعض الألفاظ وفي تاريخ الطبري ج٦ ص١١٦ : فلما فرغ مصعب من أمر المختار وأصحابه ، وصار إليه إبراهيم بن الأشتر ، وجّه المهلّب بن أبي صُفرة على المَوْصِل والجزيرة وآذَرْبيجان وأرْمينيَةَ وأقام بالكوفة .

عبيد الله بن علي عليه السلام

كثر الكلام في شخصية « عبيد الله بن علي عليه السلام » ، وهل أنه وقف مع المختار أو ضده ، أم على الحياد . . واللغز أخيراً : من قتل « عبيد الله بن علي » ؟

في البدء نمرّ على نسبه ، فهو من جهة الأب غني عن التعريف ، فهو ابن عليّ بن أبي طالب . . أول القوم إسلاماً ، وأول المتفانين دفاعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّه ـ ولم يقله في آخر : « علي مع الحق والحق مع علي . . والحق يدور حيثما دار علي »[1] ، وعندما برز علي عليه السلام يوم الخندق لقتل « عمرو بن عبد ود العامري » ـ حيث أحجم الأبطال ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « برز الإيمانُ كلُّه إلى الشرك كلِّه »[2] .

حيث اعتبر رسول الله صلى الله عليه وآله الإيمان متجسّداً في علي عليه السلام ولو أردنا ذكر مناقبه لما وسعتنا المجلّدات !

أما أُمه فهي « ليلى بنت مسعود » بن عمير بن عاصم المُقْري ، وهي تُعرف بـ « النهشلية » نسبة إلى بني نهشل ، ونهشل من بني تميم[3] وكانت محبة للإمام عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، فلما تزوّجها قالت : ما زلت أحبّ أن يكون بيني وبينه سبب منذ رأيتُه قام مقاماً من رسول الله صلى الله عليه وآله[4] .

وقد اختلفوا في اسمه فسماه البعض « عبد الله بن علي » ، مع العلم أن كونه « عبيد الله » لا « عبد الله » مما هو متداول بين المؤرخين والنسّابين والرجاليين على حدّ

---

(١) بحار الأنوار ج٣٨ ص٢٩ ، وانظر أيضاً كنز العمال ج١١ ص٦٢١ ح ٣٣٠٨٨ ، ينابيع المودة ج١ ص١٧٣ .

(٢) ينابيع المودة ج٣ ص٢٨٢ .

(٣) أولاد الإمام علي عليه السلام . ص٩٤ «بتصرف» .

(٤) الغارات (للثقفي) ص٩٥ .

سواء ، منهم المحب الطبري في « الرياض النضرة » وابن قتيبة في كتابه « المعارف » والشيخ أبو جعفر في كتابه « الحائريات » والعلامة ابن إدريس في « السرائر » والداوودي في كتابه « العمدة »[١] .

ويقال أنه عندما جمع أمير المؤمنين علي عليه السلام أولاده ، وبعد حديث معهم قال : ... وأنا أوصي إلى الحسن والحسين ، فاسمعوا لهما وأطيعوا ، فقال له عبد الله ابنه (يقصد عبيد الله) : دون محمد بن علي (أي ابن الحنفية) ؟ فقال له : أَجُرأةً عليَّ في حياتي ؟ كأني بك في فسطاطك لا يُدرى من قتلك[٢] .

اعتبر البعض هذا من أمير المؤمنين دعاءاً على ولده ، وقد صحّت في يوم المذار[٣]. والذي يظهر للمدقق أنه ليس في جواب أمير المؤمنين عليه السلام حالة الدعاء على ولده ، بل هو إخبار عن كيفية موته لا غير . هذا بغض النظر عن دلالة الرواية المضطربة ، فهي تذكر أن قتل « عبيد الله بن علي » حصل في حروراء ، بينما قبره معروف في المذار قرب منطقة شرق دجلة تعرف بـ « قلعة صالح » تبعد عدة كيلو مترات عن مدينة «العمارة» تجاه البصرة ! وفي الرواية أنه قال لمصعب : ولّني قتال أهل الكوفة ، فكان على مقدمة مصعب ، وقد ذكرنا قيادات جيش مصعب وليس فيهم « عبيد الله بن علي » ! كل

---

(١) أولاد الإمام علي عليه السلام ص٩٣ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٢ ص٨٧ . كامل الرواية هي : عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال : جمع أمير المؤمنين عليه السلام بنيه ، وهم اثنا عشر ذكراً ، فقال لهم : إن الله أحب أن يجعل فيَّ سُنّة من يعقوب : إذ جمع بنيه ـ وهم اثنا عشر ذكراً ـ فقال لهم : إنّي أُوصي إلى يوسف فاسمعوا له وأطيعوا . وأنا أُوصي إلى الحسن والحسين فاسمعوا لهم وأطيعوا ، فقال له عبد الله (أي عبيد الله) ابنه : دون محمد بن علي ؟ ـ يعني محمد بن الحنفية ـ فقال له : أجرأةً عليَّ في حياتي ؟ ! كأني بك قد وجدت مذبوحاً في فسطاطك . . لا يُدرى من قتلك فلما كان في زمان المختار أتاه ، فقال : لست هناك ، فغضب ، فذهب إلى مصعب بن الزبير ـ وهو بالبصرة ـ فقال ولّني قتال أهل الكوفة ، فكان على مقدّمة مصعب ، فالتقوا بـ «حروراء» ، فلما حجز الليل بينهم أصبحوا وقد وجدوه مذبوحاً في فسطاطه ، لا يُدرى من قتله .

(٣) أولاد الإمام علي عليه السلام ص٩٣ .

هذا الاضطراب في المتن يجعلنا نشك في صحة الرواية ! أما الراوي ، وهو « أبو الجارود » فقد حدث فيه الكثير من الاختلاف بين علماء الرجال بين مكفّرٍ له ومكذّب « الكشي » وبين موثق له « البرقي » ، ولكنهم اتفقوا على أنه ممن خرج من الأيمان وصاراً من رؤوس الزبيرية ، وإن كانوا يشككون في بقاءه كذلك[1] .

فالاضطراب في الرواية كما هو في المتن كذلك في السند ، والأولى عدم الاعتماد عليها . فلاحظ !

وعندما قدم « عبيد الله بن علي » على المختار ولم يجد عنده ما يريد[2]، توجه نحو البصرة ، ونزل عند خاله « نُعيم بن مسعود التميمي » النهشلي ، وأمر له مصعب بمائة ألف درهم . فلما سار مصعب تخلّف « عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب » في أخواله ، وسار خالُه « نُعيم بن مسعود » مع مصعب . فلمّا فصل مصعب من البصرة جاءت بنو سعد بن زيد مناة بن تميم إلى عبيد الله بن عليّ فقالوا : نحن أيضاً أخوالك ولنا فيك نصيب فتحوّلْ إلينا ، فإنّا نحبّ كرامتك ! قال : نعم ، فتحوّل إليهم ، فأنزلوه وسطهم وبايعوا له بالخلافة وهو كاره . . يقول : يا قوم لا تعجلوا ولا تفعلوا هذا الأمر ، فأبوا . فبلغ ذلك مصعباً ، فكتب إلى واليه عبيد الله بن عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر يعجزه ويخبره غفلته عن عبيد الله بن عليّ وعمّا أحدثوا من البيعة له ، ثمّ دعا مصعب خاله نُعيم بن مسعود فقال : لقد كنت مكرماً لك . . محسناً فيما بيني وبينك ، فما حملك على ما فعلت في ابن أختك ، وتخلّفه بالبصرة . . يؤلب الناسَ ويخدعهم ؟ ! فحلف بالله ما فعل ، وما علم من قصّته هذه بحرف واحد . فقبل منه مصعب وصدّقه ، وقال مصعب : قد كتبتُ إلى عبيد الله

---

(١) راجع بالتفصيل عنه في «معجم رجال الحديث» ج٧ ص٣٢١ و «جامع الرواة» ج١ ص٣٣٩ .

(٢) ذكر العلامة المجلسي في بحار الأنوار ج٤٢ ص٨٨ أتى عبيدُ الله بن عمر المختارَ ليبايع المختار له بالإمامة ، فقال له : لستَ هناك ، أي لا تستحق الإمامة.وفي الأخبار الطوال ص٣٠٦ والطبقات الكبرى ج٥ ص١١٧ ، جاءه فسأله ، فقال له المختار : معك كتاب من محمد بن الحنفية؟ فقال لا ، فلم يعطه وطرده بعد أن حبسه لفترة وجيزة «بتصرف».

ألومه في غفلته عن هذا . فقال نُعيم ابن مسعود : فلا يهيّجه أحد . . أنا أكفيك أمره وأقدم به عليك . فسار نُعيم حتى أتى البصرة فاجتمعت بنو حنظلة وبنو عمرو بن تميم فسار بهم حتى أتى بني سعد فقال : والله ما كان لكم في هذا الأمر الذي صنعتم خير ، وما أردتم إلاّ هلاك تميم كلّها ، فادّفعوا إليّ ابن أختي ! فتلاوموا ساعة ثمّ دفعوه إليه ، فخرج حتى قدم به على مصعب ، فقال : يا أخي ما حملك على الذي صنعت ؟ فحلف عبيد الله بالله ما أراد ذلك ولا كان له به علم حتى فعلوه ، ولقد كرهتُ ذلك وأبيتُه . فصدّقه مصعب وقبل منه .

وأمر مصعب ابن الزبير صاحب مقدّمته عبّاداً الحَبَطي أن يسير إلى جمع المختار فسار ، فتقدّم وتقدّم معه عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب فنزلوا المَذار ، وتقدّم جيش المختار فنزلوا بإزائهم فبيّتهم أصحاب مصعب بن الزبير فقتلوا ذلك الجيش فلم يفلت منهم إلاّ الشريد . وقُتل عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب تلك الليلة[1] .

فوجدوه مقتولاً في خيمته ، لا يُدرى من قتله[2] ...

والمتأمل لهذه الحادثة يشمّ رائحة المؤامرة على حياة « عبيد الله بن علي » ! فبعد أن خاف مصعب من تألّق نجم « عبيد الله » ، وقد بايعه أخواله بالخلافة ـ وهو أولى بها من كثير ممن تسمّوا بالخلفاء بما يحمل من صفات ومزايا ـ فجاء به معه ليكون تحت رقابته ، ووضعه في مقدمة الجيش[3] ، وفجأة وجدوه مقتولاً ، لا يُدرى من قتله !

فـ « عبيد الله » الذي برز ـ أو أبرزوه ـ كخليفة منافس للخليفتين الأموي والزبيري ، وهو من البيت الهاشمي وأخواله من تميم ـ وهي عشيرة ضخمة ـ لها تواجد قوي في البصرة والكوفة والحجاز وغيرها من البلاد ـ فبسببه قد تنقلب الموازين ويعود الأمر والخلافة إلى بني هاشم ، وقد بذلت قريش الغالي والنفيس لأجل

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص١١٧ .

(٢) أولاد الإمام علي عليه السلام ص٩٢ عن كتاب «الخرائج» للقطب الراوندي ص٢٩ .

(٣) تاريخ الطبري ج٦ ص١١٥ .

إخراجها عنهم ، وهذا ما لا يرضونه أبداً .

وخير فرصة للتخلص من هذا الخطر الجاثم . « عبيد الله » المطلوب للخلافة ـ هو القضاء عليه وسط ضوضاء الحرب وصليل السيوف ، ويضيع دمه بين الدماء ، وبالفعل انتهوا من أمره بهدوء ، بل استفادوا من دمه ـ الذي أراقوه ـ إعلامياً ضد المختار .

فهذا مصعب يخاطب المهلَّب قائلاً : هل علمت أن « عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب » قد قُتِل !

قال : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ، قال مصعب : أما إنّه كان ممن أحب أن يرى هذا الفتح . . . أتدري من قتله ؟

قال : لا ، قال : إنما قتله من يزعم أنّه لأبيه شيعة . . أما إنهم قتلوه وهم يعرفونه[1] .

وكان مصعب قبل ذلك يستغلّه إعلامياً في أيام حياته ، فكان يقول : أيها الناس ، المختار كذّاب ، وإنما يغركم بأنه يطلب بدم آل محمد ، وهذا ولي الثأر ـ يعني عبيد الله بن علي ـ يزعم أنه مبطل فيما يقول[2] !

أما ما ذكره ابن الأعثم من أن رجلاً من أصحاب المختار لحق بـ « عبيد الله بن علي » ـ وهو لم يعرفه ـ فضربه من وراءه ضربة على حبل عاتقه ، جدّله قتيلاً ، وكانت الحادثة في حروراء على أعتاب الكوفة[3]. وقد ذكرنا أن هذا القول يتنافى مع مكان قبره في المذار. وهذا وأشباهه من وضع أعداء المختار لتأليب الرأي العام عليه حتى بعد قتله وانتهاء دولته ـ رضوان الله عليه .

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص١٠٤ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٣ ، وانظر أيضاً أنساب الأشراف ج٦ ص٤٣٩ .

(٣) الفتوح ج٦ ص١٩٢ ، وبقية المصادر لم تذكر صورة واضحة عن كيفية قتله . . بل لم تذكر سوى أنه قتل مع مصعب يوم المذار . . انظر أنساب الأشراف ج٦ ص٤٥٢ شذرات الذهب ج١ ص٧٥ والطبقات الكبرى ج٥ ص١١٨ و ج٣ ص١٩ . وقد نقل تاريخ الطبري في ج٥ ص١٥٤ صورة أخرى في قتله ، وهو أنه قُتل في الطف مع الإمام الحسين ﷺ ، فلم يكن موجوداً زمن دولة المختار أصلاً .

فيكون خلاصة القول : إن « عبيد الله بن علي » لم يخرج مع جيش مصعب إلاّ بالإكراه ، وقُتل في أول ليلة بشكل غامض . . يثير الشك . ومصعب هو المتهم الأول في قتل « عبيد الله بن علي » ، فآل الزبير هم المستفيد الأول والأخير من هذه الجناية . وقد استغلوا اسمه حياً وميّتاً !

أما قبره فيقع بين قبائل تقطع الطريق وتخيف الناس ومنها قبيلة النوافل المعروفة والشدّة والبوغنام وبيت نخش . فكان قبر عبيد الله هذا محفوظاً بينهم للكرامات التي تظهر عنده ، فلا يجسر أحد منهم على مدّ اليد إلى ما لقبره من وقوفات وأموال ونذورات .

وقبره كان ولا يزال تظهر عنده كرامات كبعض قبور الأولياء ، وما ذلك إلا كرامة من الله سبحانه لأبيه ﷺ .

ويقع قبره على ضفّة نهر دجلة من جهة الشرق ، بين مدينة قلعة صالح وقرية العزير ، ويعرف عند سواد الناس هناك بقبر « عبد الله بن علي ﷺ» ، في حين أنه قبر « عبيد الله بن علي » كما ذكر صاحب معجم البلدان وغيره ، إذ قال : المذار في ميسان بين واسط والبصرة . . . وبها مشهد عامر كبير جليل عظيم قد أنفق على عمارته الأموال الجليلة وعليه الوُقوف وتساق إليه النذور ، وهو قبر عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب ـ ﷺ[1] .

---

(١) أولاد الإمام علي ﷺ ص٩٣ ولعل ما ذكره المؤلف عن القبائل التي تقطع الطريق كان في الزمان الغابر ، قبل العشرات من السنين ، وعند مراجعتنا معجم البلاد في النسخة الموجودة عندنا ، وجدنا الاسم «عبد الله بن علي» ولعل الأمر لا يعدو كونه غلطة مطبعية سقطت بها الياء .

الفصل الثامن عشر

في قفص الاتهام

في قفص الاتهام

الحقيقة البشرية هي أن الإنسان العادي في المجتمع يكون متروكاً، فالناس لا يذكرون مساوئه ويهملون فضائله ولا يلتفتون إليه أصلاً.

ولكن بمجرد أن يلمع نجمه ويعلو شأنه تتحول فضيلته العادية إلى منبع للفضائل - إن كان مقبولاً عندهم - وتتحول سيئته الصغيرة إلى كبيرة لا تغفر - إن كان مرفوضاً عندهم، بل تنقلب فضائله إلى رذائل.

وهكذا هو حال المختار الثقفي، فلأن فترة حكمه لم ترق الحكم الأموي والزبيري، تحولت فضائله إلى رذائل، وحاول كتّاب ذلك العصر وصمه بكل ما يشين، وتسقيطه من أعين المسلمين وشيعة أهل البيت ﷺ.

وقد نجحوا إلى حدّ ما في مسعاهم هذا، فقد تمكنوا من زعزعة بعض آراء الكُتّاب والمفكرين المسلمين والشيعة حول هذه الشخصية العظيمة، بل حتى وصل الأمر ببضع الباحثين والعلماء إلى لعنه والتّبرأ منه، أما المتحرّجين منهم فقد وقفوا منه موقف الحياد.. لا يذمّوه ولا يمدحوه.

وبين هذا الكم من الباحثين والعلماء وقف البعض منهم موقفاً ايجابياً تجاه المختار، ودافعوا عنه بكل ما أُوتوا من قوة.

وكان من ضمن تلك الاتهامات الكثيرة، اتهامه في دينه وتقلبه من مذهب إلى مذهب، وكونه كذّاباً، ومؤسساً لمذهب جديد اسمه «الكيسانية»، وادعاءه النبوة ونزول الوحي عليه، واقتراحه تسليم الحسن بن علي ﷺ لمعاوية، وغيرها وغيرها من التقولات والأفك.

وقد تصدى البعض من العلماء والباحثين لهذه الأقاويل وردّوها رداً حسناً، منهم العلامة «عبد الرزاق المقرّم» في كتاب «تنزيه المختار». والعلامة السيد «محمد تقي المدرسي» والسيد «محمد علي الحسيني» وآخرون من المنصفين.

وهنا سنسعى بقدر المستطاع طلباً للحقيقة واظهاراً للواقع إلى إماطة الشبهات عن هذه الشخصية الفذّة في تاريخنا الإسلامي.

المتقلّب المصلحي

كثيراً ما اتُهم المختار الثقفي في دينه وفي ولائه، واعتبره بعض المؤرخين الأوائل أنه متقلّب لا يوقف له على مذهب. فالمبرد يقول عنه: «وكان المختار لا يوقف له على مذهب: كان خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار رافضياً في ظاهره[١]».

ويأتي الشهرستاني بعد ذلك ويردد نفس كلام المبرد، فيقول: «كان خارجياً، ثم صار زبيرّياً ثم صار شيعياً وكيسانياً»[٢]، وكرر هذا القول بعض المؤرخين المتأخرين[٣].

أما ما نقل عنه أنه كان عثمانياً ثم صار ترابياً، فهو كلام عمارة بن الوليد عندما وشا بالمختار عند عبيد الله بن زياد، وأوقع به في السجن، فقد قال لابن زياد عن المختار: «.. وقد كان فيما مضى عثمانياً واليوم فقد صار ترابياً»[٤].

والأعجب من هذه التهم كلها قول الحافظ بن كثير عنه: «فأنه كان أولاً ناصبيّاً يبغض علياً بغضاً شديداً...» ودليله على ذلك هو اقتراح المختار على عمه حاكم المدائن تسليم الحسن عليه السلام إلى معاوية[٥].

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٩٤.

(٢) الملل والنحل ج١ ص١٤٧.

(٣) منهم على سبيل المثال: العميد عبد الرزاق الأسود في كتابه «مدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب» ج٣ ص٥١. وقريباً منه الزركلي في «الأعلام» ج٨ ص٧٠ ويقول د. حسن إبراهيم حسن في ج١ ص٤٠٢ من كتابه «تاريخ الإسلام»: «فقد كان المختار أموياً ثم زبيرياً».

(٤) الفتوح ج٥ ص٢٦٧ والخوارزمي في مقتله ج٢ ص١٧٧ ردّد نفس الكلام. وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٦ «كان المختار عند الشيعة عثمانياً».

(٥) البداية والنهاية ج٨ ص٣١١.

أما من المصادر الشيعية فقد وردت روايتان مفادهما: أن المختار من أهل النار، ولكنه يخرج منها بشفاعة الحسين عليه السلام بعد أن يطلب منه رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك [١].

هذا مجمل ما قد وصم به المختار من الانحراف في العقيدة، وعدم الالتزام بنهج أهل البيت عليهم السلام أو بغضهم.

وهذه الروايات والأقاويل لا تسلم من الطعن متناً وسنداً، ونحاول في هذه العجالة تمحيصها وغربلتها.

أما كلام المبرّد فلم يستند إلى أدلة تاريخية، فلم يظهر على المختار طوال حياته أنه تصرّف تصرّف الخوارج، ولا نقُل عنه التزاماً برأي من آرائهم أو مصاحبة لرجالاتهم، فكيف يكون خارجياً!!

---

(١) الرواية الأولى هي: عن أبان بن تغلب قال: حدثني جعفر بن إبراهيم بن ناجيه الحضرمي قال: حدثني زرعة بن محمد الحضرمي عن سماعة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا كان يوم القيامة مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بشفير النار، وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، فيصيح صائح من النار: يا رسول الله يا رسول الله يا رسول الله أغثني، قال: فلا يجيبه، قال: فينادي: يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين «ثلاثاً» أغثني فلا يجيبه، قال: فينادي يا حسن يا حسن يا حسن أغثني قال: فلا يجيبه، قال: فينادي: يا حسين أغثني.. أنا قاتل أعدائك، قال: فيقول له رسول الله: قد احتجّ عليك، قال: فينقضّ عليه كأن عقاب كاسر قال: فيخرجه من النار. قال: فقتلت لأبي عبد الله عليه السلام: ومن هذا ـ جعلت فداك؟ قال عليه السلام: المختار، فقلت له: فلمَ عذب بالنار وقد فعل ما فعل؟ قال عليه السلام: إنه كان في قلبه منهما شيء. والذي بعث محمداً بالحق لو أنّ جبرئيل وميكائيل كان في قلبيهما شيء لأكبّهما الله في النار على وجوههما». كتاب «السرائر» لابن ادريس الحلّي ـ فصل «المستطرفات» ص٤٧٥، ونقلها العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٩.

أما الرواية الثانية: فعن محمد بن علي بن محبوب بن أحمد بن أبي قتادة عن أحمد بن هلال بن أمية بن علي القيسي عن بعض من رواه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: «يجوز النبي صلى الله عليه وآله الصراط يتلوه علي، ويتلو علياً الحسن، ويتلو الحسن الحسين عليهم السلام، فإذا توسّطوه نادى المختارُ الحسينَ عليه السلام: يا أبا عبد الله، إني طلبت بثأرك فيقول النبي صلى الله عليه وآله للحسين عليه السلام: أجبه، فينقض الحسين عليه السلام في النار كأنه عقاب كاسر فيخرج المختار حُمَمَةً (الرماد والفحمة)، ولو تشقُّ عن قلبه لوجد حبهما في قلبه». تهذيب الأحكام ج١ ص٤٦٦ الحديث ١٥٢٨.

وكيف نحكم عليه بعد ذلك بميله إلى الزبيرية، وقد عرفنا مواقفه مع عبد الله بن الزبير وحالة الحذر بينهما، ووصف ابن الزبير له بقوله: «لهو احذر من ذئب قد أطافت به السباع»[١]، وعندما تيقن أن ابن الزبير لا يوليه عملاً ترك مكة المكرمة واتجه نحو الكوفة، فأين زبيريته!!

والمعروف عنه انقطاعه إلى بني هاشم ـ كما ذكرنا ـ هذا ناهيك عن كون المبرد معروف بميله للخوارج، وهذا ما حدى به إلى اتخاذ موقف معاد من المختار [٢].

أما عن كونه عثمانياً، فليس في الكلام دقه، ولا أدري على أي أساس اتهم بكونه عثمانياً!

فالبلاذري يذكر الاتهام بعد إيراد اقتراح المختار على عمه تسليم الحسن لمعاوية ـ الذي سنناقشه فيما بعد ـ ولم نجد في أنساب الأشراف أي سند لهذه الرواية.

وعلى فرض صحة هذا القول جدلاً، فلم تكن العثمانية تطلق إلا على كل من غضب لمقتل عثمان، وهو قبل قيام الدولة الأموية[٣].

أما قول ابن كثير عنه بأنه ناصبياً يبغض علياً بغضاً شديداً، فليت شعري، هل شوهد منه سوى المودة والحب لعلي وآل علي ﷺ!

فابن كثير مع كونه متفرّداً في نقل هذا القول لم يورد أي سند لروايته الغريبة هذه!

أما ما ورد عنه في كونه من أهل النار، ويخرج بشفاعة الحسين ﷺ، فيرد عليه:

أما من حيث السند، فيقول السيد الخوئي «رضوان الله عليه»: فالروايتان ضعيفتان، أما رواية التهذيب فبالارسال أولاً، وبأمية بن علي القيسي ثانياً. أما ما رواه في السرائر، فلأن جعفر بن إبراهيم الحضرمي لم تثبت وثاقته، على أن رواية

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٧٧.

(٢) الخلافة الأموية ص٥٦ «بتصرف».

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٢٢ «بتصرف».

أبان عنه، وروايته عن زرعة عجيبه! فإن جعفر بن إبراهيم: إن كان هو الذي عده الشيخ من أصحاب الرضا عليه السلام، فلا يمكن رواية أبان عنه، وإن كان هو الذي عدّه البرقي من أصحاب الباقر عليه السلام فروايته عن زرعة عجيبة، وقد أشرنا في ترجمة محمد بن إدريس، إلى أن كتاب ابن ادريس (السرائر) فيه تخليط[1].

أما من حديث المتن، فهو يعتبر من روايات الآحاد المعارض بفيض من الروايات المادحة وترحّم الأئمة الأطهار عليه[2].

وبعد هذا لا يمكننا قبول أي خدشة تمس المختار في دينه وولائه الخالص لأهل البيت عليهم السلام، واستماتته في محبتهم وسعيه إلى طاعتهم[3].

وما ورد من طعن عليه في ذلك لا يمكن الاعتماد عليه، فكثير من الأقلام التي كتبت التاريخ الإسلامي أموية.. عباسية، لا يضيرها أن تُسخط الخالق وتُغمط الحق إذا كان في ذلك رضا السلطان!

---

(١) معجم رجال الحديث ج١٨ ص١٠٠.

(٢) راجع ص ٥٦٧.

(٣) راجع حادثة استجابة دعاء زين العابدين بقتل حرملة على يدي المختار في ص٣٤٦.

الكـــذّاب

قد وردت العديد من الروايات التي تتهم المختـار بـاحتراف الكـذب، وكأنـه أحـد صفاته الملازمة له التي لا تنفكّ عنه طوال حياته.

والروايات والأخبار قد وردت في مصادر المسلمين سواء السنة أو الشيعة.

منها ماروته أسماء بنت أبي بكر عن رسول الله ﷺ ، فقد قالت مخاطبـة الحجاج بن يوسـف الثقفي: أمـا إنّي سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «إن في بنـي ثقيـف مبيراً وكذّاباً» فأما المبير فأنت، وأما الكذاب فالمختار بن أبي عبيد.. [1]

وقـد ذكـرت هـذه الروايـة الكثـير مـن المصـادر التاريخيـة، ونقـل عنهـا بعـد ذلـك الكتّاب والمؤرخون[2].

ولشدة تأثير هذه الرواية حتى أن البعض لا يذكر اسم «المختـار» إلا ويضيـف إلـى جانبها «الكذّاب»[3].

ولكن ومع قليل من التأمل يظهر لنا جلياً أن أسماء بنت أبي بكـر هـي التـي أوّلـت «الكذّاب» بـ«المختار»، فلم يرد في النص عـن لسـان رسـول الله ﷺ اسـم المختـار ولا غير المختار.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٧.

(٢) فقد أورد مضمون هذه المقولة مع اختلاف يسير في الألفاظ مروج الذهب ج٣ ص١١٢، الأنساب للسمعاني ج١ ص٥٠٩، الكامل في التاريخ ج٤ ص٣٦١، أنساب الأشراف ج٧ ص١٣٠، العقد الفريد ج٤ ص٤١٩، المحن ص١٩٣، تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة ٦١هـ إلى ٨٠هـ ص٢٢٦، لسان الميزان ج٦ ص٧، الفتـوح ج٦ ص٢٨٠، مسـالك الأبصـار ص٩٠، البدايـة والنهايـة ج٨ ص٣١٤، وغيرها من مصادر التاريخ والحديث.

(٣) مثل الذهبي في كتابه «تاريخ الإسلام» مجلد حوادث ٦١هـ إلى ٨٠هـ ص٢٢٦.

وقد أشار إلى هذا الإمام السمعاني، فبعد أن ذكر حديث الرسول ﷺ «يخرج من ثقيف كذاب ومبير»، قال: وأوّلت أسماء بنت أبي بكر الصديق أن الكذّاب مختار بن أبي عبيد الثقفي، والمبير حجاج بن يوسف، هكذا قالت أسماء...[1]

ونقل البلاذري قولها بعد ذكرها حديث رسول الله ﷺ: «أما الكذّاب فقد رأيناه...»[2] ولم تذكر اسم المختار. أما ابن الأعثم فذكر تأويلها للكذّاب «الافّاك» بـ «عبد الملك بن مروان»[3]

ومن هذا يظهر أن نسبة تأويل أسماء بنت أبي بكر، أمّا هو مجرد فهم خاص بها للرواية، أو هي نسبة كاذبة نُسبت إليها بهتاناً وزوراً من قبل كُتّاب البلاط، الذين من مصلحتهم تشويه صورة المختار، بالخصوص إذا كان ذلك على لسان رسول الله ﷺ.

وعلى كل حال سواء صدر التأويل حقيقة من أسماء أو كان نسبة كاذبة لها، فهو كلام خارج عن الموضوعية، وساقط الحجية من حيث الاستدلال العلمي.

أما وصمه بالكذب على لسان أئمة أهل البيت عليهم السلام، ففيه عدّة روايات ذكرتها المصادر الشيعية، وهي:

١ ـ حبيب الخثعمي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: كان المختار يكذب على علي ابن الحسين عليه السلام[4].

٢ ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: كتب المختار بن أبي عبيد إلى «علي بن الحسين»، وبعث إليه بهدايا من العراق فلما وقفوا على باب علي عليه السلام دخل الآذن ليستأذن لهم، فخرج إليه رسوله، فقال: أميطوا عن بابي، فإني لا أقبل هدايا الكذّابين ولا أقرأ كتبهم...

---

(١) الأنساب للسمعاني ج١ ص٥٠٩.

(٢) أنساب الأشراف ج٧ ص١٣٠.

(٣) الفتوح ج٦ ص٢٨٠.

(٤) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٦، التحرير الطاووسي ص٢٧٤ مجمع الرجال ج٦ ص٧٦، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١، اختيار معرفة الرجال ج٢ ص٣٤٠.

فقال أبو جعفر عليه السلام : والله لقد كتب إليه بكتاب ما أعطاه فيه شيئاً ، إنما كتبت إليه «يا ابن خير من طنأ ومشى»[١] .

فقال أبو بصير : فقلت لأبي جعفر عليه السلام : أما المشي فأنا أعرفه ، فأي شيء الطّناء؟ فقال أبو جعفر عليه السلام : الحياة[٢] .

٣ ـ عن عمر بن علي عليه السلام : أن المختار أرسل إلى علي بن الحسين صلوات الله عليهما بعشرين ألف دينار ، فقبلها وبنى بها دار عقيل بن أبي طالب ودارهم التي هُدمت . ثم إنه بعث إليه بأربعين ألف دينار بعد ما أظهر الكلام الذي أظهره فردّها ولم يقبلها[٣] .

٤ ـ قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : إنّا أهل البيت صادقون ، لا نخلوا من كذّاب يكذب علينا ، فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس . . إلى أن قال عليه السلام : وكان أبو عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام قد ابتلي بالمختار[٤] .

وهذا ما ذكرته المصادر الشيعية من اتهام للمختار بالكذب على لسان أهل البيت عليهم السلام .

وقد انتقدها علمائنا الأبرار وأشكلوا عليها متناً وسنداً ، أما عن سند الروايات الثلاث الأولى فيقول السيد الخوئي «رضوان الله عليه» : وهذه الروايات ضعيفة الاسناد جداً[٥] .

ففي الرواية الأولى «حبيب الخثعمي» ولم يتضح المراد منه أهو الأحول المجهول اوالمعلل المقبول ، وما ذكر للتمييز بينما لا يوجد ههنا[٦] .

---

(١) الطّنء : بقي الروح ، وقد ذكرت بعض المصادر بدلها «يا ابن خير من طشى ومشى» ولعله تصحيف ، فالطشي لا معنى له في اللغة .

(٢) مجمع الرجال ج٦ ص٧٧ وانظر اختيار معرفة الرجال ج٢ ص٣٤١ ، معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٦ .

(٣) مجمع الرجال ج٦ ص٧٨ ، معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٦ ، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١ ـ اختيار معرفة الرجال ج٢ ص٣٤٤ .

(٤) جامع الرواة ج٢ ص٢٢١ ، معجم رجال الحديث ج١٤ ص٢٥٢ .

(٥) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٧ .

(٦) تنزيه المختار ص٢١ .

وفي سند الرواية الثانية «العبيدي» وهو ضعيف عند ابن طاووس والمرمي بالغلو في حكاية الشيخ الطوسي، والمستثنى من كتاب نوادر الحكمة لابن بابويه[١] .

وعن الرواية الثانية يقول السيد الخوئي: فيها تهافت وتناقض[٢] .

يقول العلامة المقرّم: لو لم نناقش السند.. لأمكننا معرفة السر في امتناع الإمام من قراءة الكتب وقبول الهدايا، فإنه لم يمنعه إلا الخوف من السلطان، ويشهد له قبوله الهدية قبل إظهار الدعوة وإتمام الأمر، لأنه لم يكن في هذا الحال خوف ولا تقيّة. ولو لم يحمل على هذا لزم التناقض في فعل الإمام، وحوشي مثله ارتكاب هذه التناقضات[٣] .

يقول ابن داود الحلي: «وهذا الانفاذ (للمال) يستلزم الاعتقاد، أما ردّ الثانية فلعلّه لعلة عارضة اقتضت ذلك، وهو لا ينافي صحة عقيدة المختار. أما تعليل ردّه بقوله «لا يقبل هدايا الكذابين» فبعيد، إذ هذه العلة موجودة في الأولى، وحاشا الإمام ﷺ من هذا القول بعد قبول الأولى»[٤] .

أما الرواية الرابعة التي في طريق سندها محمد بن خالد الطيالسي، وهو معدود من الضعفاء عند النجاشي[٥] .

والسيد الخوئي الذي يقول بصحة سندها يقول: ولكن هذه الرواية لعل فيها تحريفاً، فإن المختار بن أبي عبيد كان في الكوفة، والحسين بن علي ﷺ كان بالمدينة، ولم ينقل ولا خبر ضعيف كذب من المختار بالنسبة إلى الحسين ﷺ، وغير بعيد أن المختار الذي كان يكذب على الحسين ﷺ أن يكون رجلاً آخر غير المختار بن أبي عبيد.

---

(١) تنزيه المختار ص٢١ .

(٢) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٧ .

(٣) تنزيه المختار ص٢١ ـ ٢٢ .

(٤) رجال ابن داود الحلي ص٢٧٨ .

(٥) تنزيه المختار ص٢١ .

ويقول أيضاً: ولو صحت (هـذه الروايات) فهي لا تزيد على الروايات الذامة الواردة في حق زُرارة ومحمد بن مسلم وبريد وأضرابهم[١].

ونقل ابن داود الحلي عن الكشي رأيه في هذا الانتقاص قوله: نسبته إلى وضع العامّة أشبه[٢].

أما ما ورد من وصمه بالكذب على لسان بعض أهل الكوفة من المغرضين والذين في قلوبهم مرض، أمثال «الشّعبي» واضرابه[٣]، فبغض النظر عن مصالحهم التي تقوّضت بسبب عدالة المختار وتطبيقه قانون المساوات، فقد ذكرنا سابقاً رأي علماء الرجال في عدم قبول اتهامات الشّعبي للمختار لما كان بينهما من الإحَن[٤].

إذا عرفت هـذا، فإن الرجحان في جانب الشكر والمدحة ولو لم تكن تُهمة، فكيف ومثله موضع أن يُتهَم فيه الرواة ويُستَغَشّ فيما يقول عنه المحدّثون[٥].

هذا ناهيك عن سيرته الذاتية التي كانت نقية من الكذب والبهتان.

فالذي يسبر أغوار هذه الشخصية لا يرى فيها سوى الاخلاص للدين الحنيف، والولاء الممحّض لأهل البيت ﷺ وبذل الغالي والنفيس دفاعاً عن مقدساتهم التي هي مقدّسات الإسلام. فإنه وكما قال الإمام الصادق ﷺ للحكم ولَده: ... رحم الله أباك ما ترك لنا حقاً عند أحد إلاّ طلبه[٦].

---

(١) معجم رجال الحديث ج٨، ص٩٧. وزرارة ومحمد بن مسلم وبُريد من اجلاء أصحاب الإمامين الباقر والصادق ﷺ و من الحواريين، ومع ذلك وروت روايات تذمّهم. راجع تراجمهم في (تحرير الطاووسي). وغيرها من كتب الرجال.

(٢) رجال ابن داود الحلي ص٢٧٧.

(٣) وقد أشرنا سابقاً إلى اتهامه للمختار في تزوير كتاب لابن الأشتر عن لسان محمد بن الحنفية.

(٤) راجع «أسد الغابة» ج٤ ص٣٣٦ و «الاستيعاب» القسم الرابع ص١٤٦٥.

(٥) تحرير الطاووس ص٢٧٦.

(٦) جامع الرواة ج٢ ص٢٢١.

الحَمام والملائكة

ذكر المبرّد أن المختار عندما وجّه إبراهيم بن الأشتر لقتال جيش الشام، خرج معه فشيّعه فرسخين، ودفع إلى قوم من خاصّته حماماً بيضاً ضخاماً، وقال: إن رأيتم الأمر لنا فدعوها، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها. وقال للناس: إن استقمتم فبنصر الله، وإن حصتُم حَيْصَةً فأني أجد في محكم الكتاب وفي اليقين والصواب أن الله مؤيّدكم بملائكة غضاب.. تأتي في صورة الحمام.. دوين السَّحاب...

فلما التقوا (جيش العراق وجيش الشام) كانت على أصحاب إبراهيم في أول النهار، فأرسل أصحابُ المختار الطيرَ، فتصايح الناسُ: الملائكة، فتراجعوا[1]، وتمّ النصر على جند الشام.

والناظر لهذه القصة لا يراها سوى لوحة أسطورية من أساطير القرون الأولى، وهي ـ كما أشار ولهاوزن ـ تبدو وكأنها خُرافة مستقاة من قصة سراقة بن مرداس البارقي[2].

يقول الدكتور عبد الأمير دكسن: وبما أن القصة ليس لها ما يؤيّدُها في مصادرنا التاريخية ـ وأنها ترد بدون أي سند في المبرَّد فقط، الذي عرف بميله للخوارج ـ يكفي لأن يجعلنا نشكك في صحتها[3].

يقول محمد جواد مغنية: «.. ونحن نستبعد هذه النِّسَب.. نظنها من وضع الأمويين والزبيريين.. الذين جرت بينهم وبين المختار حروب طاحنة»[4].

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) الخلافة الأموية ص١٠١.

(٣) الخلافة الأموية ص١٠١.

(٤) الشيعة والتشيع ص١٠٤.

الكرسي المقدّس

لقد تهجّم مؤلفوا التاريخ على المختار، وانتقصوا من شأنه بكل ما أوتوا من قوة، وكان من ضمن الأمور التي تناولوه بسببها بالنقد والتجريح هو «الكرسي» الذي افتتن به أهل الكوفة ـ كما يزعمون ـ حتى تعاطوا الكفر.

وقد وردت عن هذا الكرسي روايتان: الأولى ينقلها عن أبي مخنف كل من الطبري والبلاذري[1]، ويظهر منها أن المختار هو من أوجد فكرة الكرسي. والثانية عن طفيل بن جعدة بن هبيرة الذي كان صاحب فكرة إيجاد الكرسي، ولم يكن للمختار سوى دور الموافقة على إيجاد مثل هذه الفكرة، وهذه الرواية ينقلها الطبري[2].

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٤، أنساب الأشراف ج٦ ص٤١٣.

ففي الطبري: أن المختار قال لآل جعدة بن هُبيرة بن أبي وهب المخزومي ـ وكانت أمّ جعدة أمّ هانىء بنت أبي طالب أخت عليّ بن أبي طالب ﷺ لأبينه وأمّه: ائتوني بكرسيّ علي بن أبي طالب؛ فقالوا: لا والله ما هو عندنا، وما ندري منْ أين نجيء به! قال: لا تكونُنّ حَمقى، اذهبوا فأتوني به، قال: فظنّ القوم عند ذلك أنّهم لا يأتون بكرسي، فيقولون: هو هذا إلا قَبله منهم، فجاءوا بكرسيّ فقالوا: هو هذا، فقبله، قال: فخرجت شبامٌ وشاكر ورؤوس أصحاب المختار وقد عَصّبوه بالحرير والدّيباج.

(٢) تاريخ الطبري ج٦ ص٨٢.

وقد جاء فيه: قال طُفيل بن جعدة بن هُبيرة: أعدمت مرة من الورق، فإني لكذلك إذ خرجت يوماً فإذا زيّات جارٌ لي، له كرسي قد ركبه وسخٌ شديد، فخطر على بالي أن لو قلت للمختار في هذا! فرجعتُ فأرسلت إلى الزيات: أرسل إلي بالكرسي، فأرسل إلي به، فأتيت المختار، فقلت: إني كنت أكتمك شيئاً لم أستحل ذلك، فقد بدا لي أن أذكره لك، قال: وما هو؟ قلت: كرسي كان جعدة بن هُبيرة يجلس عليه كأنّه يرى أن فيه أثرة من علم، قال: سبحان الله! فأخّرت هذا إلى اليوم! ابعث إليه، ابعث إليه، قال: وقد غسل وخرج عُود نُضار، وقد تشرب الزيت، فخرج يَبصّ، فجيء به وقد غُشي، فأمر لي باثنى عشر ألفاً، ثم دعا: الصلاة جامعة.

فحدثني معبد بن خالد الجُدلي قال: انطلق بي وبإسماعيل بن طلحة بن عبيد الله وشبث بن ربعي والناس =

نظر إلى هذه القضية بعض المؤلفين من زاوية خاصة واعتبرها من المؤاخذات السلبية على المختار. فقد قال الدكتور نبيه عاقل: ولعل قضية الكرسي. . . خير دليل على لجوء المختار إلى أساليب ملتوية، في سبيل تثبيت إيمان جماعته به، ولو كان هذا على حساب حقيقة المبادىء الإسلامية[١] .

أما الدكتور فاروق عمر فقد ذهب بعيداً، وضخم الكرسي وحوّله إلى عرش نبوي، فقد قال: وادّعى المختار الثقفي أنه نبي يوحى إليه، وما أظهره من بدعة العرش الذي كان على شكل كرسي فخم يحمل على الأعناق[٢] .

ولا أعرف كيف تحول هذا الكرسي العادي الذي قد اشتُرِي بدرهمين من نجّار[٣] . إلى كرسي فخم، ثم إلى عرش! وكيف كان يحمل على الأعناق، وقد أشارت الرواية إلى أنه كان يحمل على بغل لا غير؟![٤]

وسند هذه القضية لا يخلو من أشكال، أما الرواية الأولى،فقد رواها البلاذري بلا اسناد، ورواها الطبري عن «هشام بن محمد»، وهذا الراوي قد تركه «الدارقطني»، وقال عنه ابن عساكر: «ليس بثقة»[٥] .

يجرون إلى المسجد، فقال المختار: إنَّه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقيَّة مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت. اكشفوا عنه؛ فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية فرفعوا أيديهم، وكبروا ثلاثاً، فقام شبث بن ربعي وقال: يا معشر مضر، لا تكفرُن، فنحوه فذبّوه وصدّوه وأخرجوه. ثم لم يلبث أن قيل: هذا عبيد الله بن زياد قد نزل بأهل الشام با جُمَيْرا، فخرج بالكرسي على بغل وقد غُشّي، يُمسكه عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة، فقتل أهل الشام مقتلة لم يقتلوا مثلها، فزادهم ذلك فتنة، فارتفعوا فيه حتى تعاطوا الكفر.

(١) تاريخ خلافة بني أمية ص١٤٦ .

(٢) طبيعة الدعوة العباسية ص١٠٨ .

(٣) الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٩٨ ، مدخل إلى دراسة الأديان ج٣ ص٥١ .

(٤) لا أدري كيف يحصل هذا وأمثاله على الدكتوراه على دراساتهم التي فيها الكثير من الافتراء على التاريخ ورجاله؟!

(٥) الضعفاء الكبير ج٤ ص٣٣٩.

وفي الرواية الثانية المنقولة عن طُفيل بن جَعدة بن هُبيرة يوجد «إسحاق بن يحيى ابن طلحة» ، وهو لا يعتمد على حديثه . . هذا ما ذهب إليه مشاهير علماء السُّنة ، وقد ضعّفه «النسائي» و «يحيى بن معين» ، فقد قال عنه «أحمد» و «النسائي» ، بأنه متروك ، وقال «ابن معين» : ليس بشيء[1] .

وقال : ضعيف . . لا يكتب حديثه ، ضعّفه أيضاً العجلي ، والدارقطني ، والساجي ، وأبو داود[2] .

هذا من ناحية السند ، أما من حيث المتن فهناك اختلاف واضح بين مفردات الروايتين والروايات الأخرى[3] ، ممّا يجعلنا على يقين من تلاعب الأيدي غير الأمينة في هذه النصوص وتحريفها وتزويقها . يقول سليم عبد الله : إن هذه الرواية كغيرها من الروايات التسقيطية لشخصيّة المختار ، ولكن على ما يبدو بأن الوضّاعين أرادوا ابراز «شبث بن ربعي» كشخصية مدافعة عن الإسلام ، وهو المعروف بجاهليته وبتاريخه الأسود مع أهل البيت ﷺ[4] .

ولكن قد تكون أصل القضية ، وهي وضع اعتبار خاص لكرسيٍّ ما موجودة على كل حال ، وهذه القضية البسيطة تحولت على أيدي الرُّوات إلى أسطورة يقام لها ولا يُقعد .

---

(١) مع المختار الثقفي ص١٧٣ .

(٢) الضعفاء الكبير ج١ ص١٠٤ .

(٣) ففي انساب الأشراف ج٦ ص٤١٣ : كان أصحاب المختار يعكفون عليه ويقولون : هو بمنزلة تابوت موسى . . فيه السكينة ، ويستسقون به ويستنصرون ، ويقدمونه أمامهم إذا أرادوا أمراً . أما في تاريخ الطبري ج٦ ص٨٣ يذكر أن المختار هو من شبّه الكرسي بتابوت بني إسرائيل . وفي نفس الصفحة : أن طُفيل بن جعدة قال للمختار : كان أبي يجلس عليه كأنه يرى أن فيه أثرة من علم . . وفي الصفحة ٨٥ عن موسى بن عامر : إنه إنما كان يصنع ذلك لهم عبد الله بن نوف ، ويقول : المَختار أمرني به ، ويتبرأ المختار منه ، وهكذا .

(٤) مع المختار الثقفي ص١٧٣ .

ولكن ما المانع من أن يستخدم المختار أو بعض أصحابه هذا الكرسي وحمله كشعار في الحرب[١] لتقوية معنويات جيشه وعامّة الناس، خصوصاً في حربه غير المتكافئة مع جيش الشام!

بل يمكن اعتبار هذا العمل (على فرض وجوده) واحد من أهم وسائل المختار وابتكاراته العسكرية لمواجهة خصومه الأقوياء ـ (الدولة الأموية).

يقول العلامة المقرّم:

حديث الكرسي ـ أيها القارىء النبيه ـ الذي ملأ سمعك لغط المتهوّسين به للتنديد بمقام شيخ الثار. الذي لم يقترف ذنباً غير تطهير الأرض من أولئك الأرجاس.. قَتَلَةَ أولاد النبيين، وأي نقص يلحق المختار من ذلك بعد أن كان بصدد الغلبة على جمعيّة السوء والضلال! ولا يمنع العقل ولا الشرع أن يتّخذ الرجل الوسائل والتابير اللازمة للغلبة على أعدائه، وتقوية عزيمة أصحابه، ليكونوا متكاتفين كالجبال الشُّم أمام العدو. فينال بذلك غرضه المقصود له، خصوصاً في مثل هذا الوقت الذي حصل به استئصال شأفة أولئك الطغاة، وبه ارتفع الحداد عن مخدّرات الرسالة[٢].

---

(١) في الخلافة الأموية ص١٠٣ ذكر: أن بين جميع القبائل العربية اليمنية تقريباً كانت عادة حمل علاماتهم القبلية معهم عندما يذهبون للحرب السائدة، لأنهم كانوا يعتقدون بأن هذه العلامات أو الشعارات تجلب لهم النصر، وهكذا فهي تزيد من حماس المقاتلين.. ولهذا فإن الكرسي عمل هنا عمل الشعار القبلي في منح النصر وزيادة حماس المحاربين ـ انتهى.

(٢) تنزيه المختار ص٣٢.

المختار والكيسانية

قد ورد عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: رأيت المختار على فخذ أمير المؤمنين (علي) عليه السلام ـ وهو يمسح رأسه ويقول: يا كيّس .. يا كيّس»[١] . فثني كلمة «كيس» وقيل «كيسان»[٢] . ومن ثم لُقّب المختار بـ «كيسان» ، أو لقب بـ «كيسان» لصاحب شُرَطه «كيسان أبا عمره» أو بـ «كيسان» مولى علي بن أبي طالب عليه السلام[٣] .

الخلاصة ، أن أنصار المختار سُمّوا بـ «المختارية» و «الكيسانية» ، ولم يكن هذا بدعاً فأنصار علي بن أبي طالب سُمّوا بالعلوية وأنصار عثمان بالعثمانية ، وهكذا .

ولكن يظهر أن ما حصل هو أن بعض هؤلاء الذين هم من أنصار المختار ، وبعد مرور زمن ليس بالقصير ، التزموا القول بأمامة محمد بن الحنفية بعد الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام .

وانحرفوا بذلك عن النهج الأمامي القائل بإمامة زين العابدين بعد أبيه الحسين عليه السلام .

ولم يكن محمد بن الحنفية قد ادعى الإمامة لنفسه ، ليقوم المختار بالدعوة له !

يقول السيد الخوئي (رضوان الله عليه): ... وهذا القول باطل جزماً ، فإن محمد ابن الحنفية لم يدّعِ الإمامة لنفسه حتى يدعو المختار الناس إليه ! وقد قُتل

---

(١) جامع الرواة ج٢ ص٢٢١ ـ اختيار معرفة الرجال ج٢ ص٣٤١ .

(٢) معجم رجال الحديث ج١٨ ص١٠٢ ومعنى «كيْس» : العقل والضرف والفطنة .

(٣) اختيار معرفة الرجال ج٢ ص٣٤٢ ، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١ والذي يظهران مولى علي بن أبي طالب هو نفسه أبو عمرة ، والأسمان لشخص واحده ، ففي بقية الرواية : .. وهو الذي حمله على الطلب بدم الحسين عليه السلام ، ودلّه على القتلة وكان صاحب سرّه والغالب على أمره . وكان لا يبلغه عن رجل من أعداء الحسين عليه السلام أنه في دار أو في موضع إلاّ قصده ، فهدم الدار بأسرها ..» .

المختار ومحمد بن الحنفية حَيٌّ، وإنما حدثت الكيسانية بعد وفاة محمد بن الحنفية[١].

وبعض المحققين في التأريخ أخذوا كلام رواته على عواهنه، ولم يحققوا فيه، بل واطنبوا فيه ، وأسسوا على هذه المقدمة الفاسدة نظرية طويلة عريضة مفادها أن المختار دعى لإمامة محمد بن الحنفية وأن الروح الإلهي تجسد فيه، وبعده في ذريته، إلى غيرها من الخزعبلات والترّهات[٢] .

فليس للمختار أي ربط بنشوء مذهب الكيسانية، كل ما في الأمر أنه كان يلقّب بـ «كيسان» ، وأن وزيره الأول اسمه «كيسان» ، أو هذين الاسمين معاً ، وبسببهما أطلق على فترة حكم المختار بالكيسانية . يقول د. عبد الأمير دكس: «وربما كان الأمر أنه في السنوات التالية عندما ذكرت نشاطات كيسان هذا ضد غير الشيعة ـ بعد أن نُسي الشخص نفسه ـ استعملت كلمة كيسانية لوصف جميع نشاطات فترة حكم المختار القصيرة. . »[٣].

وأخيراً، يقول العلاّمة آغا بزرك الطهراني عن المختار: «وإليه تُنسب الكيسانية، وإن كان هو بريئاً من خرافاتهم»[٤].

الخلاصة : أن ساحة المختار بريئة مما ينسب إليها من ابتداع أو ترويج لمذهب الكيسانية، هذا إن ثبت وجوده أصلاً.

وقد أرجأنا البحث عن حقيقة هذا المذهب ، ومدى ارتباطه بابن الحنفية إلى الفصل الخاص بمحمد بن الحنفية[٥].

---

(١) معجم رجال الحديث ج١٨ ص١٠١ .

(٢) راجع : طبيعة الدعوة العباسية ص١٠٨ ، تاريخ الإسلام ج١ ص٤٠٤ وما بعدها، المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٣٣٣.

(٣) الخلافة الأموية ص١١٢ .

(٤) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج١ ص٣٤٨.

(٥) راجع ص ٥٢٧ .

نـزول الوحـي عليه

من التهم الثقيلة التي أُلصقت بالمختار كونه قد ادعى نزول الوحي عليه ، أو أنه أظهر ما يوحي إلى من بحضرته أنه مرتبط بالوحي.

وهذه من التهم الرخيصة التي وصم بها ؛ ولو رجعنا إلى منشأ هذه التهمة وأساسها لوجدنا أن لمؤرخي تلك الفترة الزمنية اليد الطولى في اختراع هذه الأسطورة ، والتي لم تسنح لهم الظروف في صياغتها وفبركتها بكيفية تبعد عنها وعنهم الوضع وتزوير الحقائق.

وأحد المناشيء لهذه الأسطورة هو اتهام المختار المباشر بأنه ادعى النبوة لنفسه في حديثه ، واعتبر نفسه نبياً مرسلاً .. لا يقل رتبة عن الأنبياء السابقين ، وأول من جاء على لسانه هذا الاتهام كان « عامر الشعبي».

فقد اعتمد أرباب التأريخ على ما نُقل عن عامر الشعبي ، أنه رأى صحيفة صفراء موقعة بإسم المختار ، مرسلة إلى الأحنف بن قيس (زعيم تميم) بعد حوار تفاخر دار بين الشعبي وأحد البصريين[1] وقد جاء في هذه الصحيفة المزعومة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ، أما بعد ، فويل أمٍّ ربيعة ومضر ؛ فإن الأحنف مورد قومه سقر ، حيث لا يقدرون على الصَّدَر ،

---

[1] يقول الشعبي : جلست يوماً إلى الأحنف ، فقال رجل من جلسائه : ياكوفي .. استنقذناكم من عبيدكم - يوم قتل المختار - قلت : قد عفونا عنكم يوم الجمل فلم تشكروا ، وأنشدته شعر أعشى همدان :

أفخرتـم أن قتلتم أعبدا ... وكفرتم نعمـة الله الأجل

نحن سقناكم إليهم عنوة ... وجمعنا أمركم بعد الفشل

فإذا فاخرتـمونا فاذكروا ... ما فعلنا بـكم يوم الجمل

فقال : يا كوفي ، أنتم أصحاب أنبياء؟! فأجبته بجواب كرهه الأحنف ، وقلت : تكذبون علينا في أشياء ، فقام (أي الأحنف) فجاء بصحيفة صفراء ، فقال : إقرأ آنفاً ، فإذا فيها : « من المختار...» فقال الأحنف : ياشعبي ، أكوفي هذا أم بصري؟

أنساب الأشراف ج٦ ص ٤١٨.

وقد بلغني أنكم تُكَذّبوني، وإن كُذّبت فقد كُذّب رسل من قبلي، ولست أنا خيراً منهم».[1]

وقد ذكرنا آنفاً وسنذكر لاحقاً: أن الشعبي لا يعتمد على كلامه الذي فيه طعنٌ بالمختار، لا من قريب ولا من بعيد، وإن تنازلنا وقلنا: إن الشعبي لم يتلاعب في نقل نص هذه الصحيفة - إن وجدت - فليس في مضمونها ما يدل على التصريح أو التلميح بأنه مرسل.

بالإضافة إلى اختلاف النص زيادة ونقصاناً من مصدر لآخر، مما يظهر جلياً تلاعب أيدي الرواة لتجيير الموضوع لما يخدم أهدافهم في اسقاط هذه الشخصية من أعين محبيه - مع العلم أن بعض المصادر لم تقارن بين المختار وبين الأنبياء السابقين في تكذيب الناس لهم - في هذه الرسالة، فتأمل.

والمنشأ الثاني: هو اتهامه بأنه كان يدعي مجالسة الأمين جبرائيل ﷺ.

فقد روى البلاذري: إن النعمان بن صهبان الراسبي من البصرة - وكان يرى رأي الشيعة - فخرج حتى دخل الكوفة، فدخل على المختار ذات يوم، فقال له المختار: هنا مجلس جبرائيل قام عنه آنفاً، فخرج النعمان وأصحابه، فقاتلوه، فقتلوا أجمعين.[2]

---

[1] تأريخ الطبري ج٦ ص٦٩، وقد ورد في نفس المصدر نص آخر للرسالة جاء فيها: «... وقد بلغني أنكم تسموني كذاباً، وقد كُذب الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم». وجاء في أنساب الأشراف ج٦ ص ٤١٨: «وقد كُذبت الأنبياء مثلي، ولست بخير من كثير». وفي ص٤١٧ من المصدر نفسه: «... لقد كُذب من كان من قبلي وما أنا بخيرهم». ونقل سعيد الأفغاني في كتابه «عائشة والسياسة» ص٣٠٦ عن تأريخ ابن عساكر نص آخر للرسالة جاء فيه: «وقد بلغني أنكم تُكذبون رسلي، ولئن فعلتم لقد كُذبت الرسل من قبلي ولست بخير منهم، والسلام». وقد ذكر الذهبي في كتابه «تأريخ الاسلام» حوادث سنة ٦١هـ في ص٢٢٧ عن الشعبي، وقال: أقرأني الأحنف كتاب المختار إليه يزعم فيه أنه نبي.

[2] أنساب الأشراف ص٤٥٤.

وذكر الإمام أحمد عن السَدي عن رفاعة الفتْياني أنه قال: دخلت على المختار، فألقى لي وسادة، وقال: لولا أن أخي جبريل قام عن هذه ـ وأشار إلى الأخرى ـ لألقيتها لك. قال: فأردت أن أضرب عنقه، فذكرت حديثاً حدثنيه أخي عمرو بن الحَمق، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّما مؤمن أمَّن مؤمناً على دمه فقتله، فأنا من القاتل بريء»[١].

وعلى غرار ذلك ذكر ابن قتيبة عن المختار: وكان يزعم أن جبرائيل يأتيه..[٢].

أما البلاذري فلم يذكر اسماً لراوي الحادثة، وروايته مبتورة السند وهي ساقطة الاعتبار. وما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل، فمطعون فيه سنداً ومتناً. أما من حيث السند، فيكفيه طعناً وجود «السدي»، الذي قد حكم عليه بالكذب والتفسير بالرأي والضعف بالحديث جماعة كثيرة من علماء الرجال والحديث، كابن معين والعُقيلي وأبي حاتم والطبري والشعبي.

على أن الحديث مضطرب الأول والآخر، فإن الصدر يفيدنا كون المختار شريكاً لـ «مسيلمة» و «سجاح» لادعائه النبوة، بدعوى نزول الأمين جبرئيل ؑ، ذلك الذي لا يهبط إلا على نبي مُرسل، أما الذيل فيثبت له الإيمان. فالحديث يحتاج أن يعمل السُّدِّي فيه آراءه الفاسدة ويخلطه بمنكراته ليتفق صدره وذيله، وإلا فكيف يثبت الإيمان لرجل يدّعي النبوة!

ومما يزيد في كذب هذا الحديث، أن رفاعة بن شداد الفتياني قاتل مع المختار حتى قُتل... فإنه لو لم ير المختار صادقاً في دعواه لما وطّن نفسه على الموت دونه[٣].

على أن المرزباني في كتاب «الشعراء»، قال: كان له (للمختار) غلام اسمه

---

(١) المسند الإمام أحمد بن حنبل ج٥ ص٢٢٣، البداية والنهاية ج٨ ص٣١٣ تاريخ الإسلام (للذهبي) مجلد حوادث منه ٦١ ـ ٨٠هـ ص٢٢٦.

(٢) المعارف ص١٧٦، مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٧٣.

(٣) تنزيه المختار ص٢٨.

جبرئيل، وكان يقول: قال لي جبرئيل، وقلت لجبرئيل، فيتوهّم الأعراب وأهل البوادي أنه جبرئيل عليه السلام، فاستحوذ عليهم بذلك حتى انتظمت له الأمور، وقام باعزاز الدين ونصره، وكسر الباطل وقصره[1].

والمنشأ الثالث لهذه الأسطورة، هو بعض التنبؤات التي ظهرت على لسان المختار، وتحققت على يديه أو يدي أعوانه.

فهو قد تنبأ بقتل ابن زياد على يديه ـ قبل تولية الإمارة[2]. وتنبأ بفشل التوابين[3]، وبوصوله إلى إمارة الكوفة[4]. وانتصار ابن الأشتر على جيش الشام[5]، وغيرها من الأمور التي حصلت بالفعل بعد ذلك.

وكان لتحقق هذه النبوءات أثرها في المجتمع، فمنهم من ربطه بالوحي المباشر، ومنهم من اعتبرها من الكهانة والارتباط بالشياطين والأباطيل[6]، وبقيت الحقيقة

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٣، عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٨٢.

(٢) راجع حديثه مع ابن عرق ص١٠١.

(٣) وقد كان قبل قدومهم (التوابين) أخبر الناس بهلاكهم، راجع «البداية والنهاية» ج٨ ص٢٧٥.

(٤) راجع بقية حديثه مع ابن عرق الذي يحدّث فيه عن ظهوره وأخذه بثأر الحسين عليه السلام، ويرى في نفسه الأمير المؤمور، قاتل الجبارين والمفسدين، «البداية والنهاية» ج٨ ص٢٧٥.

(٥) فقد قال لأصحابه (وإبراهيم في أطراف الموصل): يأتيكم الفتح أحد اليومين انشاء الله، من قبل إبراهيم ابن الأشتر وأصحابه، قد هزموا أصحاب عبيدالله بن مرجانة تاريخ الطبري ج٦ ص٩١.

(٦) وفي تاريخ الطبري ج٦ ص٩٢ بعد أن ينقل تنبأ المختار بانتصار إبراهيم، وهو على منبر المدائن تأتيه التباشير بالانتصار، فيقول: يا شرطة الله، ألم أبشّركم بهذا قبل أن يكون! قالوا: بلى، والله لقد قلت ذلك. قال الشعبي (ناقل هذا الحدث): فيقول لي رجل من بعض جيراننا من الهَمْدانيِّين (سليمان ابن حمير): أتؤمن الآن يا شعبي؟ قلت: بأي شيء أومن؟ أوُمن بأنّ المختار يعلم الغيب! لا أؤمن بذلك أبداً. قال أوَلم يقل لنا: إنهم قد هُزموا! فقلت له: إنما زعم لنا أنهم هُزموا بنصيبين من أرض الجزيرة، وإنما هو بخازر من أرض الموصل، فقال: والله لا تؤمن يا شعبي حتى ترى العذاب الأليم. انتهى.
والشعبي هذا مُتّهم في كل ما يتّهم به المختار ـ كما ذكرنا ـ فلاحظ!

ويقول عنه ابن كثير، عند ذكره لهلاك التوابين قبل قدومهم: وقد كان قبل قدومهم أخبر الناس بهلاكهم =

خافية على الكثيرين .

بالإضافة إلى هذا ، عندما خاف البعض من سيفه أحدثوا أخباراً كاذبة ، مفادها إعانة الملائكة لجند المختار[١] أو سيطرته على الشام[٢] ، وما شابه .

حتى اتهموه بالدجل والكذب على الله ورسوله ، وخداع العامّة بهذه الترّهات والخزعبلات[٣] .

عن ربّه . . الذي كان يأتي إليه من الشياطين ، فإنه قد كان يأتي إليه شيطان فيوحي إليه قريباً مما كان يوحي شيطان مُسَيْلَمة إليه . البداية والنهاية ج٨ ص٢٧٥ .

(١) راجع ص ٣٢٤ ، قصة سراقة التي اعتبرها البعض أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة .

(٢) عن شعيب ، قال : حدثني أبو جعفر ، أن علي بن درّاج حد ثه : «أن المختار استعمله على بعض عمله ، وأن المختار أخذه فحبسه وطلب منه مالاً ، حتى إذا كان يوماً من الأيام دعاه هو وبشر بن غالب فهدّدها بالقتل ، فقال له بشر بن غالب ـ وكان رجلاً متنكراً : والله ما تقدر على قتلنا ، قال : ولمَ ، ومِمَّ ذلك ـ ثكلتك أمُّك ـ وأنتما أسيران في يدي؟ قال : لأنه جاءنا في الحديث أنك إنما تقتلنا حين تظهر على دمشق ، فتقتلنا على درجها ، قال له المختار : صدقت ، قد جاء هذا . قال : فلما قُتل المختار خرجا من محبسهما» بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٣٨ ـ عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٥٤ .

وقد ذكر الدينوري في «الأخبار الطوال» ص٢٩٨ : أُتي بعبد الرحمان بن إبزي الخزاعي ـ وكان ممن حضر قتال الحسين ـ فقال له (المختار) : يا عدو الله ، أكنت ممن قاتل الحسين؟ قال : لا ، بل كنت ممن حضر ، ولم يقاتل . قال : كذبت . . اضربوا عنقه . فقال عبد الرحمان : ما يمكنك قتلي اليوم ، حتى تُعطى الظفرَ على بني أمية ، ويصفو لك الشام ، وتهدم مدينة دمشق حجراً حجراً ، فتأخذني عند ذلك ، فتصلبني على شجرة بشاطيء نهر . . كأني أنظر إليها الساعة .

فالتفت المختار إلى أصحابه ، وقال : أما إن هذا الرجل عالم بالملاحم! ثم أمر به إلى السجن . فلما جنّ عليه الليل بعث إليه من أتاه به ، فقال له : يا أخا خزاعة ، أضَرْفاً عند الموت؟ فقال عبد الرحمان بن إبزي : أنشدك الله أيها الأمير أن أموت ههنا ضَيْعةً! قال : فما جاء بك من الشام؟ قال : بأربعة آلاف درهم لي على رجل من أهل الكوفة . . أتيتهُ متقاضياً . فأمر له المختار بأربعة آلاف درهم ، وقال له : أن أصبحت بالكوفة قتلتك .

فخرج من ليلته حتى لحق بالشام .

(٣) راجع جمهرة أنساب العرب ج١ ص٢٦٨ ، الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٩٤ ، شذرات الذهب ج١ ص٧٤ ، تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ٦١هـ ـ ٨٠هـ) ص٢٢٦ ، دول الإسلام ص٤٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٧١ ، تاريخ ابن خلدون ج١ ص٢٤٨ ـ ج٢ ص٣٧٠ ، مروج الذهب ج٣

وهو من كل هذه التهم بريء، وإن كان له ذنب فهو انتقامه من قتلة الحسين وأهل بيته ﷺ، وتطبيقه الشريعة الإسلامية ـ بلا امتيازات وطبقيّات.

يقول باقر شريف القرشي: وقد إتُّهم هذا العملاق العظيم باتّهامات رخيصة، كاتهامه بادّعاء النبوة، وغيرها من النِّسب الباطلة، التي هي بعيدة عنه وهو بريء منها، وإنما اتهموه بذلك لأنه طلب بثأر الإمام العظيم، وزعزع كيان الدولة الأموية، وأسقط هيبة حكمها، وساوى بين العرب والموالي.. فلم يميّز أحداً على أحد، وقد رام السير في أيام حكمه على ضوء منهاج سياسة أمير المؤمنين ﷺ، والاقتداء بسلوكه في سياسته الاقتصادية والاجتماعية. وكان على جانب كبير من التقوى والحريجة في الدين[١].

وكذلك يصفه الدكتور عبد الأمير دكسن، فعندما ينقل وصف المؤرخين له، بأنه كان نبياً كاذباً، يقول: ولكننا نرى أن المختار كان شيعياً مخلصاً[٢].

أما الزركلي فبعد أن ينقل إشاعة ادّعائه النبوّة، يقول: ونقلوا عنه أسْجاعاً، قيل: كان يزعم أنها من الإلهام، منها: «أما والذي شرع الأديان، وحبب الإيمان، وكره العصيان، لأقتلن أزد عمان، وجُل قيس عيلان، وتميماً أولياء الشيطان، حاشا النجيب ابن ظبيان!» وقد يكون هذا من اختراع أصحاب القصص[٣].

وكذلك يقول محمد فريد وجدي: «.. أن زعيماً كالمختار، استهوى أفئدة الناس إليه، وجمع الأمصار عليه، لا يمكن أن ينزل إلى هذا السجع الفارغ، فهو ولاشك من تقولات الناس عليه»[٤].

وقد أجاد «سليم عبد الله» عندما قال: «لو كان المختار مدّعياً للنبوة ـ كما

ص٨٤، لسان الميزان ج٦ ص٦، جلاء العيون ج٢ ص٣٢٥، ينابيع المودة ص٣٩٠ وغيرها.

(١) حياة الإمام الحسين ج٣ ص٤٥٤.

(٢) الخلافة الأموية ص١١١.

(٣) الأعلام ج٨ ص٧٠.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين ج٨ ص٢٤٨.

يزعمون ـ فهل كان قضاؤه حينما يقضي، بكتاب الله وسُنّة الرسول ﷺ، أو بشيء يخص نبوته المزعومة؟ فإذا قال قائل إنه كان يحكم بكتاب الله، وسُنة النبي ﷺ، هنا نقول له: ألزمتْكَ الحُجة بإيمان الرجل، وإن قال قائل إنه كان يحكم بحكم يخصُّه بزعمه أنه نبي، فهنا نقول له: إعطنا مسألة حكم فيها؟ ومن السائل؟ وما هو حكمه فيها؟ وما هي مصادر الرواية؟ وما هو سندها؟ فإذا أحجم القائل عن الإجابة، هنا نقول له: قد ألزمتك الحجة بإيمان الرجل»[1].

خلاصة القول: إن إيمان المختار برسالة رسول الله محمد ﷺ، والتزامه بنهج الإسلام، مما لا غبار عليه، ولاشك فيه.

وما وصمه به أرباب التاريخ من نزول الوحي عليه، أو ادعائه النبوة، أو قوله بألوهية محمد بن الحنفية[2]، ما هذه الأقاويل إلا أساطير ضربوا على وترها، للحطّ من مكانة هذا المصلح العظيم، ولكي تضمحل إنجازاته الضخمة وسط ضوضائهم الكاذبة.

فالذين ينسبون أهل البيت إلى القول بالنبوة ـ وهم مَن قد شاع تقواهم والتزامهم نهج جدّهم رسول الله ﷺ لا يصعب عليهم الصاق هذه التهمة بأحد اتباعهم.. الذي أذاقهم الموت الزؤام!

فهذا الزهري الذي كان عاملاً لبني أمية، عندما تركهم ولزم علي بن الحسين عليه السلام، قال له بعض بني مروان: يا زهري ما فعل نبيك؟ يعني علي بن الحسين عليه السلام![3]

---

(١) مع المختار الثقفي ص١١٧.

(٢) حول قول المختار بألوهية محمد بن الحنفية، راجع تاريخ ابن خلدون ج١ ص٢٤٨. وقد أورد ابن خلدون اتهامه هذا بدون أن يسنده إلى أي دليل أو سند تاريخي، وقد تفرّد هو بهذا القول ـ حسب اطلاعي ـ.

(٣) مستدرك الوسائل ج١٨ ص٢٢٢ حديث رقم «٢٢٥٦٣».

إقتراح تسليم الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية

من التُّهم اللاذعة التي وُجِّهت للمختار، هي إشارته على عمّه «والي المدائن» بتسليم الإمام الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان، ليسجنه أو يقتله أو يفعل به ما يشاء.

فقد أورد هذه التهمة بعض أباب التاريخ وبعض المحدِّثين، حتى سلَّم بصحتها بعض المحققين، من دون مراجعة وتحقيق وتدقيق.

وأصل الحادثة هو أنه في زمن خلافة الإمام الحسن بن علي عليه السلام، وبعد أن بايعه المسلمون بالخلافة، بعد شهادة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

وكانت قصة معاوية وتطاوله على دولة الخلافة الراشدة لم تحسم بعد، ولم يكن قد تنازل لإرادة خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله بتنحيّه عن إمارة ولاية الشام. بل كان يقوم بالغارات المتواصلة على بلاد المسلمين، ويسلبهم راحتهم وأموالهم ويسفك دمائهم، بدون حق شرعي أو عرفي[1].

وكان من حرب صفّين ما كان، وتحكيم الحكمين.

وعند تولي الإمام الحسن عليه السلام للخلافة الإسلامية، جهّز الجيوش لتقوم بدورها،

---

(١) أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى تخاذل أهل العراق، وعدم وقوفهم بوجه الغارات التي يقوم بها جيش معاوية بقوله: . . . فتخاذلتم حتى شُنَّتْ عليكم الغارات، ومُلِكت عليكم الأوطان. وهذا أخو غامد قد وردت خيلُه الأنبار، وقد قَتَلَ حسّانَ بن حسّان البكري، وأزالَ خيلكم عن مسالحها. ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهَدَة فينتزع حجلها وقُلُبَها وقلائدها ورُعُثَها. . ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجُلاً منهم كَلْمٌ، ولا أُريق لهم دم. . . ». «نهج البلاغة» خطبة ٢٧ ص٦٩ وانظر الخطبة رقم ٢٩ ص٧٢ عن غارة قيس بن الضّحاك صاحب معاوية على الحاج.

بإيقاف معاوية وأتباعه عند حدّهم ، ثم تنحيته عن إمارة ولاية الشام ، وإعادتها إلى حاضرة الخلافة الإسلامية .

ولكن جند الكوفة ، الذين دخلوا ثلاث حروب متواصلة ، خلال الخمس سنوات الماضية ، كانوا قد جزعوا من الحروب ، ومالوا إلى الدعة والاستسلام لرغبات معاوية . . المنتزي على الخلافة وعلى شرعيتها .

وعندها رأى الإمام الحسن عليه السلام نفسه وجهاً لوجه مع معاوية ، الذي يملك جيشاً قوياً كثيفاً مطيعاً ، ولم يكن مع الإمام سوى شرذمة من القوى المهزومة نفسياً . . العاصية له ! حتى جالت فكرة تسليم الإمام الحسن عليه السلام حياً لمعاوية أو ميتاً ـ لا فرق ـ في خواطر بعض النفوس المريضة ، ليسلموا من المواجهة ، ويأخذوا قسطهم من الراحة .

وصار الإمام عليه السلام أمام خيارين لا ثالث لهما : إما القتال ، وبعده الانهزام الحتمي ، والقتل والذُّل له وللصفوة من شيعته أو التنازل عن الحكم ، وصون الأرواح والنفوس عن القتل . وبالإبقاء على هذه الصفوة إبقاء على حياة الرسالة المحمدية من الضياع والاندثار ، فاختار الأمر الثاني ، وتجرّعه على مرارته .

في وسط هذه الخطوب المهولة ، جلس أحدهم للإمام الحسن عليه السلام في (مُظلم ساباط) ، وطعنه بمغول كان معه ، أصاب فخذه ، فشقّه حتى وصل إلى العظم ، وانتُزع من يده ، وحُمل عليه السلام إلى المدائن ، وعليها سعيد أو (سعد) بن مسعود عم المختار . وكان أمير المؤمنين عليه السلام ولاّه إياها . فأُدخل منزله .

فأشار المختار على عمه أن يوثّقه ويسير به إلى معاوية ، على أن يُطعمه خراج «جوخي» سنة ، فأبى عليه ، وقال للمختار : قبّح الله رأيك . . أنا عامل أبيه ، وقد ائتمنني وشرّفني ، وهبني نسيت بلاء أبيه ، أأنسى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا أحفظه في ابن بنته وحبيبه [(١)] !

---

(١) تنزيه الأنبياء ص٢٢٢ ، وانظر : بحار الأنوار ج٤٤ ص٢٧

وفي رواية الطبري: . . فقال له (لسعد بن مسعود) المختار، وهو غلام شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تُوثِق الحسن، وتستأمن به إلى معاوية، فقال له سعد: عليك لعنة الله. . أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ، فأُوثِقه! بئس الرجل أنت!(١)

واعتبر البعض هذا الموقف بداية نكسة المختار، وانحطاط مكانته بين الشيعة، فقال: «كانت الشيعة تشتُم المختار وتعيبه لما كان منه في أمر الحسن بن علي يوم طُعِن في مُظْلِم ساباط. . . »(٢).

واختلفت تعليقات المحققين على هذا الموقف، فالخربوطلي يرى في موقف المختار الانتهازية، فيعلّق بقوله: «وربما شعر المختار أن الأحداث تمضي لصالح معاوية، وأنه سيفوز بالنصر على الحسن حتماً، فرأى أن يسبق الأحداث، فنصح عمه بالتخلّي عن الحسن، وتسليمه لمعاوية، ولكن سعداً أعرض عن رأي المختار»(٣).

أما الدكتور نبيه عاقل فيرى في الموقف ميولاً أموية، فيقول: «وكان المختار مع عمه بالمدائن حين جرح الحسن بن علي، وأظهر ميلاً للأمويين»(٤).

ويرى فؤاد رضا، إبتناء موقف المختار هذا على بغضه لعلي بن أبي طالب،

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص١٥٩، تاريخ ابن الأثير ج٣ ص٤٠٤، تاريخ الإسلام (حسن إبراهيم حسن) ج١ ص٣٩٦، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٧٦ البداية والنهاية ج٨ ص١٧، تذكرة الخواص ص١٧٩.
وقد نقل كل من بحار الأنوار ج٤٤ ص٢٨ وتذكرة الخواص ص١٧٩ عن ابن سعد في طبقاته: أن المختار قال لعمه سعد: هل لك في أمر تسود به العرب؟ قال: وما هو؟ قال: تدعني أضرب عنق هذا ـ يعني الحسن ـ واذهب به إلى معاوية، فقال له: قبّحك الله. . ما هذا بلاهُم عندنا أهل البيت!

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٥٦٩، وانظر أيضاً تاريخ ابن الأثير ج٤ ص١٦٨، البداية والنهاية ج٨ ص٢٦٨ وص٣١٢، مقتل الحسين ص٢٦٨.

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٢٠ وكذلك كان للمستشرق (فارق Fariq) نفس الرأي، عندما رأى: أن المختار كان إنتهازياً (حاول إستغلال هذا الموقف الخطر). الخلافة الأموية ص٥٩.

(٤) تاريخ خلافة بني أمية ص١٤٣.

فيقول: «كان المختار ابن أبي عبيد الثقفي يبغض علياً . .»[١].

أما هاشم معروف الحسني فيشكك في صحة الرواية، ويقول: « . . فلو صح عنه ذلك يكون كغيره من زعماء الشيعة الذين استبد بهم الغضب، وجرّهم إلى الإسراف في اللوم والعتاب المرّ . . الذي لا يصدر إلا من المحب في الغالب»[٢].

وتبعه في هذا الرأي سليم عبد الله، يقول: «فإنْ صحت الرواية، يكون موقف المختار مثل موقف الكثير من الصحابة، الذين اعترضوا على صلح الحسن ﷺ، بسَوْرة غضب، وكان دافعهم هو أن لا تخرج الخلافة عن أهل بيت النبوة وموضع الرسالة»[٣].

أما المحققون من العلماء، فيرون بطلان كل هذه الاستنتاجات، لبطلان المقدمة، فالرواية حسب نقل السيد المرتضى، مرسلة، بلاسند وينقلها ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» عن الشعبي، وهو من قد عرفت.

يقول السيد الخوئي: «وهذه الرواية لإرسالها غير قابلة للاعتماد عليها، على أن لو صحت لأمكن أن يقال: أن طلب المختار هذا لم يكن طلباً جدّياً، وإنما أراد بذلك أن يستكشف رأي عمّه، فإن علم أن عمه يريد ذلك لقام باستخلاص الحسن ﷺ، فكان قوله هذا شفقة منه على الحسن ﷺ»[٤].

---

(١) غصن الرسول ص٢٤٥.

(٢) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ ص٤٤٦.

(٣) مع المختار الثقفي ص٢٦.

(٤) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٧ ويؤيد تشكيك المختار بولاء عمه لأهل البيت ﷺ، رواية ذكرها ابن الأعثم في «الفتوح» ج٥ ص٢٦٧ مفادها أن سعد بن مسعود يحمل ميولاً قرشية في نفسه، ربما كانت هذه الميول هي السبب في الخوف الذي ساور المختار، فتقدم بهذا الاقتراح ليرى ردود الفعل. والرواية هي: «أن المختار وعُمارة بن عُقْبة بن أبي معيط قعدا ذات يوم بمسجد الرسول ﷺ، فتذاكرا قريشاً وفضلها وشرفها، وما قد خصّها الله بها من الكرامة، فقال المختار: إن الله قد أعطى قريشاً فضلاً غير مستنكر، وإنما أعطاها ذلك بمحمد ﷺ، وأما في الجاهلية فنحن أولي

ويؤيد هذا ما ذكره العلاّمة المقرّم ، فقد قال : «ولو سلّمنا صحة النقل ، فلماذا لا يحتمل فيه أنه أراد اختبار عمه في نفسيته بذلك القول ، وخشي أن يجره الهوى ، ويغويه حب المال ، حينما سادت الأهواء والمطامع ، وخارت العزائم عن نصر الهدى . . فلقي شريك الأعور ، وكان من كبار الشيعة . . له رأي وسداد ، فقصّ عليه الرأي ، وسأله وجه الحيلة إنْ بدرت من عمه بادرة ، فأشار عليه شريك بأن يسرّ إلى عمّه ما يوافق تلك الهاجسة من الغدر بالحسن عليه السلام ، طلباً لمرضات معاوية فإن وافق على ذلك عملوا عندها التدابير وأخرجوا الإمام إلى جهة من الجهات . فلما أسرّ المختار ذلك إلى عمه ، شاهد منه ما تقادم فيه من الولاء الخالص لآل محمد عليهم السلام ، فحصلت بذلك أمنيته ، واطمأن قلبه بسلامة عمه من هذا الداء»[1] ، على أن المحقق الجليل السيد محسن الأمين ذكر تتمّة للموقف مهمة ، لم تذكره بقية المصادر ،

=

بالفضل من قريش ، ووالله لقد جاء الله تبارك وتعالى بالإسلام ، وهل دار من دورنا إلا وفيها امرأة من قريش ، وما في دور قريش من نسائنا إلا ثلاث أو أربع ! قال : فغضب عمارة بن عقبة ؛ ثم وثب فصار إلى عم المختار سعد بن مسعود الثقفي ـ وعنده جماعة من جلسائه ـ فجلس إليه عمارة بن عقبة وشكى إليه المختار ، وذكر ما كان من كلامه ، فقال سعد بن مسعود : أما إنني سأعرفه صاحب سفه وطيش أحياناً ولوددت أني أكلبه ، وأيم الله لأسأته إن شاء الله تعالى . قال : وأقبل المختار إلى عمه ، قال : فلما رآه عمارة بن عقبة نهض ، فقال : فقد شكاني إليك؟ فقال عمه : أجل لقد شكاك إليّ وخبرني بما كان من استطالتك عليه ، وإنك لظالم متعدٍّ ، ويلى خبّرني عنك . . أعلى قريش تستطيل وتفتخر ، وإياها تنتقص ومنها رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال المختار : يا عم ! والله لقد كان المستطيل عليّ في الكلام ، ويجب عليك أن تسمع مني كما سمعت منه ! فقال له عمه : لست بسامع منك ولا قابل عنك عذراً حتى تنطلق إليه فتعتذر مما كان . . قاتلك الله أنت الظالم ! قال ، فقال المختار : والله يا عم ! لقد كان هو الظالم وأنا مطيعك في لقائه والاعتذار إليه . قال : فوثب المختار فنهض إلى عمارة بن عقبة فاعتذر إليه وذكر حقه وقرابته ، قال : فقبل عمارة عذره في وقته ذلك وقلبه فيه ما فيه» . انتهى

(١) تنزيه المختار ص٣٤، نقلاً عن العلامة ميرزا محمد علي الاردبادي في رسالة «سبيك النضار ، أو شرح حال شيخ الثار» عن «مجالس المؤمنين» عن الشيخ عبد الرزاق الرازي في كتاب «نقض الفضائح» .

فقد ذكر: «. . . فلما امتنع سعد من ذلك، قال له المختار: أردتُ أنْ أجرّبك»![1]

فالحادثة لا يمكن القبول بصحتها إلا مع هذه التتمّات التي ذكرها العلامة المقرّم والسيد الأمين.

فالمبتور من الحادثة التي نقلها المؤرّخون تعني حدوث ميول نحو الأمويين ووجودها من السابق عند المختار، ولكن الواقع أن المختار لم تظهر منه أيّة ميول أموية. . لا قبل الحادث ولا بعده، إلى استشهاده (رضوان الله عليه).

يقول الدكتور عبد الأمير دكسن: «. . . لو كان المختار قد قرر في إسدائه تلك النصيحة لعمّه أن ينحاز إلى جانب معاوية بن أبي سفيان، لكانت الفرصة متوفّرة له بعد ذلك حالاً، إذ لابد وأن خبر هذه الحادثة قد وصل إلى معاوية، وأنه بلا شك كان سيرحب بحليف كالمختار، ولكن الأخير لم ينضم إلى معاوية. . .»[2]. يضاف إلى ذلك مواقفه المستمرة في مناصرة أهل البيت ﷺ، كل هذا يبعد عنه هذه الشبهات، التي دسّها عليه أعداء هذا البيت العَلَوي، لما قد عرفتَ من مواقفه السامية النبيلة معهم، حتى آخر نفس لفَظَه. . وآخر قطرة دم تحركت في وجوده.

ذمه عند آل الرسول

قد وردت الأحاديث التسقيطية لشخص المختار عن لسان أهل بيت الرسول ﷺ، وقد ظهر لك خلال البحث أن جلّها من وضع الوُضّاع، وأن القليل منها الصحيح من حيث السند لم يصدر عن الأئمة عليهم السلام إلاّ تقيّة من فراعنة عصورهم من الأمويين والزبيريين[3].

---

(١) أعيان الشيعة ج٧ ص٢٣٠.

(٢) الخلافة الأموية ص٥٩.

(٣) راجع ص ٤٨٤.

يقول هاشم معروف الحسني: أما ما جاء عن زين العابدين ﷺ في حقه، فلا مصدر له ـ إن صح ـ سوى التحاشي من شر الأمويين والزبيريين. . الذين كانوا يلاحقون الشيعة وأئمتهم، ويسومونهم

يقول هاشم معروف الحسني : «ولأنه (أي المختار) كان علوياً ومطبوعاً على الولاء لهذا البيت ، فقد حيكت حوله مجموعة من الأساطير والأكاذيب ، واشترك في وضعها وصياغتها ونسبتها إليه أعداء العلويين من الأمويين والزبيريين . . فكانت مصانع الحديث العاملة لمصلحة الحاكمين تنتج لهم ما يشاؤون ويشتهون . . . »[١].

ذمه عند المؤلفين

وعلى هذا النهج من التسقيط سار رواة التاريخ ، والمؤلفون ، فكالوا له ما في استطاعتهم من التهم والزور والفحش من القول .

فاتهموه بأنه ضال ومُضل[٢] . وإن أول ما قريء خلف امام كان زمن المختار لأنهم اتهموه[٣]، واعتبروا مواقفه من قَتَلَة الحسين بقتلهم وهدم بيوتهم لمجرد استغلال حالة الهياج لدى المسلمين[٤] ، ولمجرد الدعاية والإعلام[٥] ، واعتبروا موقفه البطولي دفاعاً عن كرامته وكرامة الدين الحنيف حتى استُشهد (رضوان الله عليه) اقبال في هوى نفسه[٦]. إلى غير ذلك من الافك والأباطيل . وقد أعرضنا عن ذكرها لما قد تبين لك من صدقه واخلاصه لآل البيت ﷺ ، الذين هم عماد الإسلام .

سوء العذاب «الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ» ص٤٦٤ .

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ ص٤٤٥ .

(٢) راجع «شرح علل الترمذي» ج١ ص٥٣ .

(٣) راجع أنساب الأشراف ج٦ ص٤٥٣ .

(٤) راجع تاريخ خلافة بني أمية ص١٤٤ و ص١٤٦ .

(٥) راجع «الشيعة في الميزان» فصل «الشيعة والتشيع» لمحمد جواد مغنية ص١٠٥ ويقول في نفس الصفحة : « . . راجعت سيرة المختار فيما لدي من المصادر ، وبقيت معه ثلاثة أيام بلياليها ، وانتهى بي البحث إلى الميل إلى أن الرجل كان من طلاب الحكم ، وعشاق الإمارة» . ولكنه بعد ذلك يقول : «وكفاه شفيعاً قول الإمام السجاد حين رأى رأس ابن سعد : «الحمد لله الذي أدرك لي ثاري من أعدائي وجزى الله المختار خيراً» . فتأمل!

(٦) راجع «تاريخ الإسلام للذهبي ج٦١هـ - ٨٠هـ ص٢٢٧ .

« فالذين يضعون عشرات الأحاديث في فضل معاوية ، ويروون عن النبي ﷺ أنه كان يقول : إن الله يدني معاوية منه يوم القيامة ، ويُجلسه إلى جانبه . . . لأنه حارب علي بن أبي طالب ليس بغريب ولا ببعيد أن ينسبوا للمختار الكفر والسحر وادعاء النبوة والربوبية ، لأنه حارب أنصار معاوية . . . وأعداء علي وآل علي ، وقَتَل قتلة الحسين ، وحارب ابن الزبير . . الذي لم يختلف عن معاوية والأمويين في شيء ، وبخاصة فيما يعود إلى العلويين . . . »[١] .

ويقول الأهواني : «إن كثيراً مما نسب إلى المختار موضوع للتشنيع عليه»[٢] .

وأخيراً ، يقول المستشرق الألماني فلهوزن : «لما مني المختار بالهزيمة أدبرت عنه الدنيا ، وراحت الروايات تطلق سهامها على ذكراه بعد مقتله . في البدء كانت تذمه دون أن تشوه صورته ، ولكنها راحت بعد ذلك في مرحلة متأخرة تنعته بنعوت أملاها الحقد . وهذه النعوت نفسها هي تَسُود الصورة التي كونتها عنه الأجيال التالية»[٣] .

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ ص٤٤٥ .

(٢) «في عالم الفلسفة» ص٧٨ نقلها عنه مغنية في كتاب «الشيعة والتشيع» ص١٠٤ .

(٣) «الخوارج والشيعة» ص٢٣٤ نقلها عنه مغنيه في كتاب «الشيعة والتشيع» ص١٠٤ .

إنتقام المختار والشرع الإسلامي

قد شكك البعض بشرعية ما سفكه المختار ، أو شرعية أسلوبه في القتل ، الذي قد تجاوز في بعض أشكاله الأسلوب الطبيعي ـ من القتل بالسيف بقطع العنق .

فقد قطع أيدي وأرجل البعض وبعدها قتلهم بالسيف ، وأمر بقتل البعض عن طريق الطعن بالرماح ، وأحرق جثث البعض من قتلة الحسين وأهل بيته ﷺ وقتلة أصحابه البررة الكرام وقطع رؤوس البعض وأرسلها إلى محمد بن الحنفية والإمام زين العابدين .

التساؤل هو : هل يجوز شرعاً ارتكاب هذه الأساليب مع هؤلاء المجرمين ، أو تعتبر هذه من المخالفات الشرعية التي حرّم الإسلام ارتكابها ، ولم يجز التعامل مع هؤلاء إلا بقتلهم بالطريقة العادية وكفى ؟

هذا كله إن صح استخدام المختار لهذا الأسلوب مع أعداء أهل البيت ﷺ، وإلا فالإمام الشيرازي يرى أنها من وضع الوُضّاع ، يقول :

« أما ما نُسب إلى المختار من القسوة ، فلا أساس لها صحيح ، بل الظاهر أنه من مجعولات بني أمية ، لإسقاطه عن قلوب المسلمين »[1] ـ وقد وردت الكثير من هذه المجعولات في التاريخ ـ أو أنها تعبير عن رغبة الموالين لأهل البيت في نوع القسوة المنشود استعمالها مع الجناة القَتَلَة ، لا غير !

ولكن لو تنزّلنا وسلمنا استعمال المختار للقسوة مع أعداء أهل البيت ﷺ ، فنقول : لا إشكال في أن هؤلاء يستحقون القتل ، والأسلوب الخشن الذي ارتكبه معهم المختار لم يخرج عن إطار الشرع الإسلامي الحنيف ، ولا يخالف مقولة

---

(١) الفقه ج٨٠ ص٣٤ .

رسول الله ﷺ المشهور «إياكم والمُثلة ولو بالكلب العقور»[1] .

ولإثبات شرعية أسلوب المختار الخشن في قتل أولئك الجناة لابد من بحث المسألة فقهياً ، والوصول إلى الأدلة في القرآن والسنَّة المطهَّرة .

وقبل طرق هذا الموضوع لابد من التنويه إلى الأسلوب الذي مارسه هؤلاء الجناة مع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم . ففي مجزرة كربلاء ارتكب هؤلاء أبشع أنواع القتل والمُثلة مع الحسين وأهل بيته وأنصاره .

فقد قطّعوا علي ابن الحسين «الأكبر» بسيوفهم إرباً إرباً وهو بعد لم تفارق روحه الحياة[2] ورضّوا جسد الحسين عليه السلام بحوافر الخيول ، حتى ـ كما يقول أحدهم ـ (. . طحنّا جناجن صدره . .)[3] .

ويقول الآخر :

(نحن رضضنا الصدرَ بعد الظهرِ بكـل يَعْبُوب شديد الأَسرِ)[4]

حتى أنه عندما أرادوا دفن العباس عليه السلام ، أرادوا حمله . . كلما حملوا جانباً منه سقط الآخر ، لكثرة ضرب السيوف وطعن الرماح ورشق السهام[5] ، وسحبوا جثة مسلم بن عقيل وهاني بن عروة في طرقات الكوفة وأسواقها[6] . وغيرها وغيرها من صور التمثيل والانتقام التي مارسوها ضد أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم وشيعتهم . وما ذكرناه هو بعض تلك الصور ، والتاريخ يعجّ بكثرتها وأنواعها . فهل يجيز لنا الشرع الحنيف الانتقام من هؤلاء والإقتصاص بنفس أسلوبهم أم ماذا ؟

---

(١) بحار الأنوار ج٤٢ ص٢٤٦ .

(٢) مقتل الحسين «المقرّم» ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٩ .

(٤) مقتل الحسين «المقرم» ص٣٠٣ .

(٥) مقتل الحسين «بحر العلوم» ص٤٦٩ .

(٦) مقتل الحسين «المقرّم» ص١٦٣ .

فقد ورد الحكم بذلك «الجواز إذا كان التمثيل من باب المقابلة بالمثل في نفس شخص المعتدي»[١] والحكم لا يختص بشخص المعتدي بل يتعدّاه إلى نوعه، فالإمام الشيرازي يقول: «الظاهر أن القصاص في بعض الحرمات نوعي لا شخصي . . . فحيث أن نوع الكافر يعتدي بالتمثيل يجوز لنا أن نعتدي عليه بمثله»[٢] ومع هؤلاء «مقتضى القاعدة جوازه ـ أي التمثيل ـ مطلقاً قبل الموت وبعده . . في حال الحرب وبعدها . . .)[٣].

وإذا اعتبرنا أنهم خارجون عن الدين كانت المسألة أسهل . ولا شك أنهم كذلك، فهذا زهير بن القين في صبيحة عاشوراء يخاطب جيش الكوفة بقوله «... ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أُمّة وأنتم أمّة... »[٤] ولم يعترض عليه الإمام الحسين عليه السلام، ومن المعلوم أن قول المعصوم وفعله وتقريره حجّة[٥]. ناهيك عن الروايات المتعددة الواردة في هذا الباب منها قول رسول الله صلى الله عليه وآله في إحدى خطبه «أيها الناس... وقتال المؤمن كفر . . » ونفس الكلام في وصيته لأبي ذر[٦]، وقوله صلى الله عليه وآله: من سلّ علينا السيف فليس منّا، وقوله صلى الله عليه وآله: من حمل علينا السلاح فليس منّا[٧].

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «من أعان على مؤمن فقد برىء من الإسلام»[٨] إلى غيرها من الأحاديث الكثيرة التي تدل على خروج قاتل

(١) الفقه ج٤٧ ص٢١٥ .

(٢) الفقه ج٤٧ ص٢١٤ .

(٣) الفقه ج٤٧ ص٢١٥ .

(٤) مقتل الحسين «المقرّم» ص٢٣١ .

(٥) مبادىء أصول الفقه ص٢٣ .

(٦) مستدرك الوسائل ج١٨ ص٢١٥ .

(٧) كنز العمال ج١٥ ص٢١ ح ٣٩٨٩١ .ح ٣٩٨٩٢ ، ص٣٢ ح ٣٩٩٤٢ .

(٨) مستدرك الوسائل ج١٨ ص٢١٤ .

المؤمن والمعين عليه من الإسلام، وكونهم من الكفرة بقتلهم ابن سيد المرسلين وأنصاره المدافعين عن الحق.

وهذا أمير المؤمنين علي ﷺ يوصي قبل شهادته في كيفية قتل ابن ملجم ـ قاتله لعنه الله ـ يقول:

«... وإن هلكتُ فاصنعوا به ما يُصنع بقاتل النبي.. اقتلوه ثم حرّقوه بالنار...»[١] وهو يدلّ على أن قاتل النبي والوصي يقتل ثم تُحرق جثته بالنار. والإمام الحسين بن علي ﷺ وصي رسول الله الثالث، وقاتله له نفس الحكم.

وبخروج هؤلاء الجناة عن الإسلام تسقط حرمتهم، لأن الكافر لا حرمة له «فيجوز حمل رأسه من بلد إلى بلد. والإمام السجاد لم ينكر حمل رأس ابن زياد إليه.. كما أن سحب الجسم على الأرض، وصلبه بعد الموت أو نقل أجزاء الجسم، أو سحقه بالخيل، وإحراقه، وما أشبه ذلك، حالها حال نقل الرأس، لأن الكافر لا حرمة له»[٢].

ناهيك عن وجود بعض الأحكام بالإحراق حيّاً في الشريعة الإسلامية فراجعها[٣]، فينتفي التشنيع على المختار في إحراق زيد بن رقاد[٤]، هذا إن كان هناك قصد لإحراقه حيّاً، ولا أظن ذلك فلا معنى للقول «هل يرضى ابن الحنفية بهذه الجريمة!»[٥]. وأما الروايات المتضمنة النهي عن المثلة ولو بالكلب العقور ـ ويكون النهي عن المُثلة بالإنسان من باب الأولوية ـ يرى الإمام الشيرازي أن النهي في هذه الروايات محمول على التنزيه[٦] لا التحريم. وبعد كل هذا لم يصدر عن

(١) الإرشاد (للمفيد) ج١ ص٢١. بحار الأنوار ج٤٢ ص٢٣١.

(٢) الفقه ج٤٧ ص٢١٦ وفيه تفصيل مهم.

(٣) مستدرك الوسائل ج١٨ ص٧٩.

(٤) مرّ في ص ٣٤٠.

(٥) غصن الرسول ص٢٥٢.

(٦) الفقه ج٤٧ ص٢١٤.

الإمام زين العابدين عليه السلام أو محمد بن الحنفية أي انتقاد لأسلوب المختار في الانتقام ، بل أن أحدهما يظهر جوازها من دعاء زين العابدين عليه السلام في حادثة قطع يدي ورجلي حرملة بن كاهل وإحراقه بالنار بعد قتله .

ولم يكن زين العابدين عليه السلام محكوماً بالتقية من قريب أو بعيد ، فالدولة الزبيرية والأموية كانتا بأمس الحاجة لأي تجريح يتناول شخصية المختار من قبل أهل البيت عليهم السلام للتشهير به وتسقيطه ، وتقرير الإمام حجة ـ كما ذكرنا ـ وسكوته دليل على رضاه.

وبعد كل هذه الأدلة النقلية ، لا يمكن أن نأخذ أي مأخذ على المختار في أسلوبه الخشن والقاسي ، كقطع الأيدي والأرجل وحرق بعض الجثث بعد القتل وما شابه ، مع هؤلاء الكفرة الجناة !

أما مانُقل عن الشهيد السيد « محمد باقر الصدر » من قوله : « إن المختار تجاوز في تطبيق العقوبات »[1] ، فلا نرى له محلاً من الناحية التشريعية ، ولعله محمل خطأً في النقل أو في فهم المقصود.

---

(١) مع المختار ص١٢٨ .

الفصل التاسع عشر

الشخصيات

الشخصيات

نهضة المختار مليئة بالأحداث والشخصيّات، وكان لبعض هذه الشخصيات محاور بارزة، بل أساسية.

وتتميماً للبحث حاولنا هنا أن ندرس حياتهم بشيء من الاقتضاب والاختصار، لنحيط القاريء ببعض جوانب الجو الاجتماعي الذي عاشته النهضة.

ونفهم كيف تمكن المختار أن يقود تلك النهضة الكبرى في وسط ذلك النظام المعقّد، وغير المتجانس!

الإمام علي بن الحسين عليهما السلام

الملقب بـ «زين العابدين»، وهو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، جدته فاطمة الزهراء عليها السلام بنت محمد المصطفى رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمه شاه زنان بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس الساسانيين قبل الفتح الإسلامي.

وكانت ولادته يوم الخميس. . الخامس من شعبان، عام ثمان وثلاثين هجرية.

وحضر مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام واقعة كربلاء، وأنجته من تلك المجزرة يد الغيب. فكان الوصي الرابع لرسول الله صلى الله عليه وآله، بعد جده الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وعمه الإمام الحسن عليه السلام، وأبيه الإمام الحسين عليه السلام.

فقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله، بعد أن سأله نعثل اليهودي: «. . فأخبرني عن وصيك مَن هو؟ فما من نبي إلاّ وله وصي، وإن نبينا موسى بن عمران عليه السلام أوصى إلى يوشع بن نون، فقال صلى الله عليه وآله: إن وصييَّ علي بن أبي طالب، وبعده سبطاه الحسن والحسين، تتلوه تسعة أئمة من صُلب الحسين، قال: يا محمد، فسمِّهم لي، فقال صلى الله عليه وآله: إذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه الحسن، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة محمد المهدي، فهؤلاء إثنا عشر»[1].

وكان عليه السلام مع نساء أهل البيت عليهم السلام السبايا. . . يدورون بهم من بلد إلى بلد، حتى استقر به المطاف في المدينة المنورة.

---

(١) ينابيع المودة ج٢ ص٥٢٩ نقلاً عن «فرائد السمطين»، وفي ص٥٣٠ نقلاً عن «المناقب»، حديث أوسع.

وكانت له الأفضلية والتفوق المطلق على أهل عصره علماً وعملاً وخُلُقاً، بشهادة التاريخ، واعتراف الأعداء والأولياء، واذعان العلماء كافة بتفوقه وبروزه وسبقه في العلم والعبادة والسخاء، وكافة الفضائل ومكارم الأخلاق.

وهذه الخصال جعلته محبّباً إلى الجميع، فعن سعيد بن المسيّب أنه قال: لما توفي علي بن الحسين عليه السلام حضر جنازته البَرّ والفاجر، وحزن عليه الصالح والطالح، ومشى الناس كلهم خلف جنازته، حتى لم يبق أحد يحضر الصلاة في المسجد ذلك اليوم[1].

في فترة إمامة الإمام زين العابدين عليه السلام ـ بعد مجزرة كربلاء، كان الجو السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي شديد الاضطراب.. هذا الجو المشحون بالثورات والانتفاضات دفعت بني أمية وآل الزبير إلى إحكام الرقابة الصارمة على تحركات الإمام السجاد عليه السلام، وفرض الرقابة الجبرية عليه، وكانت تفسر كل حركة تصدر منه بادرة ثورة جديدة، تستهدف بالضرورة حكمهم المنحرف[2].

ومن خلال هذا الوسط القلق المضطرب، كان على الإمام السجاد عليه السلام، أن يجد طريقاً وأسلوباً جديداً يواجه به مثل هذه الظروف القاسية، وفي نفس الوقت كان عليه أن ينظر ـ بحذر المسؤول والحامي للشريعة ـ خطط الحكام المنحرفين ومراقبتهم الشديدة.. المشوبة بالخوف والتحفز.

ولهذا السبب استعمل الإمام عليه السلام أسلوب الأدعية وأكثر منها، وقد جاءت أدعيته معاناة تعبّر عن أحداث عصره، ومليئة بمعاني الدعوة وبناء الأمة، بعد أن رأى أن يجرد كلماته وآراءه من ثوب العنف والثورة، وإن كانت في واقعها أشد من العنف والثورة[3].

---

(١) راجع في ذلك «أعيان الشيعة» ج١ ص٦٢٩، «في رحاب محمد وأهل بيته» ص١٢٣ فما بعد.

(٢) خرج علي بن الحسين في بعض الأيام، فانتهى إلى حائط فاتكأ عليه، فإذا برجل يرى فيه علائم الكآبة والحزن، فيقول له: يا علي بن الحسين ما لي أراك كئيباً حزيناً؟... فقال: أتخوف من فتنة ابن الزبير!.. «التوحيد للصدوق ص٣٧٤».

(٣) الأئمة الاثنا عشر ص١٤٤.

ولهذا لم يتخذ الإمام زين العابدين عليه السلام أي موقف علني مضاد من سلطات زمانه، سواء كانت أموية أو زبيرية، وبالنتيجة لم تتمكن السلطات من الحصول على أي مستمسك تُدينه به. لكنه لم يتخلّ عن دعم النشاط السياسي الرافض لكل أنواع الظلم والاضطهاد.

«ومن هنا كانت مبادرة الإمام السجاد عليه السلام في إعلانه العام وثنائه الحار الذي خاطب به كل مسلم.. يحثه على تحمّل مسؤوليته الثورية ضد بني أمية، لكي تتحصّن الأمة ضد التنازل عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين»[1].

ولكن الحكام لم يفتهم دور الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في إعادة الروح من جديد في جسد الأمة، مما أحدث الثورات تلو الثورات والانتفاضات تلو الانتفاضات. فبعث الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي من دسّ السُّم للإمام زين العابدين عليه السلام، فمات مسموماً بالمدينة سنة ٩٥ هجرية[2]. يوم الخامس والعشرين من محرم، ودفن بالبقيع مع عمه الحسن بن علي عليهما السلام[3].

وحياته عليه السلام كانت مليئة بالأحداث الجسام، والمواقف السامية، التي يطول الكلام فيها، ولا ينتهي الحديث عنها، ومن أراد الاستزادة منها فليراجعها في مظانها.

---

(١) الأئمة الاثنا عشر ص١٤٩.

(٢) في رحاب محمد وأهل بيته ص١٢٥.

(٣) أعيان الشيعة ج١ ص٦٢٩.

محمد بن الحنفية

وهو محمد بن علي بن أبي طالب ﷺ ، وعرف بابن الحنفية نسبة إلى أمه «خولة» بنت جعفر بن قيس بن مسلمة[١] بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الرُّؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل[٢].

والعجيب أنه ومع إجماع المصادر على سلسلة نسب أم محمد بن الحنفية ، فإن أحد المؤلفين ينسبه إلى أم فارسية ، يقول : «محمد بن الحنفية ، ذي الأم الفارسية»[٣]. نعم لقد ذكر ابن خلّكان قولاً ضعيفاً نسبة إلى الـ «قيل» مفاده : إن أم محمد بن الحنفية سندية سوداء ، وكانت أَمَة لبني حنيفة ولم تكن منهم[٤]. وهذا القول الضعيف لا يقف أمام النسب الواضح الذي اتفق عليه أرباب النسب والتاريخ . وعلى فرض صحته ، فالسِّنْد غير فارس ـ كما هو واضح ، فابن أبي الحديد أنهى نسبها إلى بكر ابن وائل ، وأورد فقط الاختلاف في أمرها ، وحصره في ثلاثة أقوال :

الأول : إنها من سبايا الردّة ، قوتل أهلها على يد خالد بن الوليد في أيام أبي بكر . . .

الثاني : بعث رسول الله ﷺ علياً إلى اليمن ، فأصاب خولة في بني زبيد وقد ارتدوا مع عمرو بن معدي كرب ، وكانت زبيد سبتها من بني حنيفة في غارة لهم عليهم .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص٣٧ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٢ ص٩٩ ، شرح نهج البلاغة ج١ ص٢٤٤ الطبقات الكبرى ج٥ ص٩١ وانظر أيضاً وفيات الأعيان ج٤ ص١٦٩ ، تاريخ الطبري ج٥ ص١٥٤ .

(٣) عوامل النصر والهزيمة ص٩٠ .

(٤) وفيات الأعيان ج٤ ص١٦٩ ، فهو بعد أن يذكر نسبها الذي أشرنا إليه ، يقول : وقيل بل كانت سندية سوداء . وانظر أيضاً البداية والنهاية ج٩ ص٤٢ ، الطبقات الكبرى ج٥ ص٩١ . ولعله قد حصل خلط ، فأم محمد بن محمد بن الحنفية أمّ ولَد سندية «بطل العلقمي» ج٣ ص٤٩١ ، فنسب البعض محمد بن الحنفية إلى هذه الأمة السندية ، فلاحظ !

الثالث: قال قوم، وهم المحققون، وقولهم الأظهر: أن بني أسد أغارت على بني حنيفة في خلافة أبي بكر الصديق، فسبوا خولة بنت جعفر، وقدموا بها المدينة، فباعوها من علي ﷺ، وبلغ قومها خبرُها، فقدموا المدينة على علي ﷺ، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم، فاعتقها وأمهرها وتزوجها[١].

أما على القول الأول، والذي يسنده العلامة المجلسي برواية طويلة، عن الإمام الرضا ﷺ، فإن أبا بكر قال لعلي ﷺ: خذها يا أبا الحسن.. بارك الله لك فيها... فبعث عليٌّ خولةَ إلى بيت أسماء بنت عميس، قال لها: خذي هذه المرأة وأكرمي مثواها، فلم تزل خولة عند أسماء بنت عميس، إلى أن قدم أخوها، فتزوّجها علي بن أبي طالب..[٢]. فولدت له «محمد بن علي» الذي يدعى «محمد بن الحنفية»[٣]، وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عمر[٤].

وكان يكنّى «أبا القاسم»، وقد كان رسول الله ﷺ، قال لعلي ﷺ: إنه سيولد لك بعدي غلام، فقد نحلته اسمي وكنيتي، ولا تحلّ لأحد من أمتي بعده[٥]. والبعض يرى أن هذه الكنية لابن الحنفية غير مُسَلَّم بها، ولعله هو الصواب[٦].

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١ ص٢٤٤.

(٢) بحار الأنوار ج٤٢ ص٨٤. والرواية طويلة، ومن ضمنها احتجاجها على المسلمين: «.. وقد أدخلت الحنفية فيمن أدخل فلما نظرت إلى جميع الناس، عدلت إلى تربة رسول الله ﷺ، فرنّت وزفرت زفرة، وأعلنت بالبكاء والنحيب، ثم نادت: السلام عليك يا رسول الله ﷺ وعلى أهل بيتك من بعدك.. هؤلاء أمتك سبَتْنا سبْي النوب والديلم، والله ما كان لنا إليهم من ذنب إلا الميل إلى أهل بيتك، فجُعلت الحسنةُ سيئةً والسيئةُ حسنةً، فسُبينا. ثم انعطفت إلى الناس، وقالت: لم سبيتمونا وقد أقررنا بشهادة أن «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» ﷺ؟ قالوا: منعتمونا الزكاة، قالت: هب الرجال منعوكم، فما بال النسوان؟ فسكت المتكلم كأنما أُلقم حجراً...»!

(٣) وفيات الأعيان ج٤ ص١٧٠.

(٤) وفيات الأعيان ج٤ ص١٧٢.

(٥) الطبقات الكبرى ج٥ ص٩٢، وفيات الأعيان ج٤ ص١٧٠.

(٦) ذكر العلامة المامقاني (قدّس سره) في «تنقيح المقال» ج٣ ص١١٢، ردّاً على من قال أن مراد رسول

وكان «رضوان الله عليه»، كما يقول عبد الواحد بن أيمن: «مخضوباً بالحنّاء، ورأيته مكحول العينين، ورأيت عليه عمامة سوداء»(١)، وكان ابن الحنفية كثير العلم والورع(٢). وكان أيضاً شديد القوة الجسمانية، فهو وقبل بلوغه العشرين عاماً حمل راية أبيه أمير المؤمنين ﷺ يوم معركة الجمل، وطعن بها في أصحاب الجمل طعناً منكراً، وعليٌّ ﷺ ينظر، فأعجبه ما رأى من فعاله...(٣). وكان يحمل رايته أيضاً يوم صفين(٤).

وكان من قوة جسمه: أن أباه علياً ﷺ استطال درعاً كانت له، فقال: لِيُنقص منها كذا وكذا حلقه، فقبض محمد بإحدى يديه على ذيلها، وبالأخرى على فضلها، ثم جذبها، فقطع من الموضع الذي حدّه أبوه(٥).

وكان أيِّداً، بحيث عندما أرسل ملكُ الروم إلى معاوية أقوى رجل في مملكته، استعان معاوية بمحمد بن الحنفية، فتغلب على الرسول، فانصرف مغلوباً(٦).

= الله ﷺ هو محمد بن الحنفية: «أقول، هذا التطبيق من ابن خلكان اشتباه، وإنما المراد بالذَّكَر الذي يولد لعليٍّ ﷺ، ولا يحل لغيره الجمع بين اسمه وكنيته هو «الحُجّة المنتظر» أرواحنا فداه، دون محمد بن الحنفية. وكون كنية محمد بن الحنفية «أبا القاسم» غير مُسَلّم به، وإنما ذكره بعض العامّة غفلة عن المراد بالولد المذكور في [الحديث] النبوي».

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص١١٥.

(٢) الطبقات الكبرى ج٥ ص٩٢، وفيات الأعيان ج٤ ص١٧٠.

(٣) الفتوح ج٢ ص٣١٧، وانظر أيضاً بحار الأنوار ج٤٢ ص٩٨.

(٤) الطبقات الكبرى ج٥ ص٩٣.

(٥) وفيات الأعيان ج٤ ص١٧٠، الكامل في اللغة والأدب ج٢ ص١٩٥، يقول ابن خلكان والمبرد: «وكان عبد الله بن الزبير إذا حُدِّث بهذا الحديث غضب واعتراه إفكل (وهو الرعدة)، لأنه كان يحسده على قوته».

(٦) وفيات الأعيان ج٤ ص١٧١، الكامل في اللغة والأدب ج١ ص٣٠٨، وفي المصدرين: ... ثم وجه معاوية إلى محمد بن الحنفية، فحضر، فخبر بما دُعيَ إليه، فقال: قولوا له إن شاء فليجلس وليُعطني يده حتى أُقيمه أو يُقعدني، وإن شاء فليكن القائم وأنا القاعد، فاختار الرومي الجلوس، فأقامه محمد، وعجز الرومي عن اقعاده، ثم اختار أن يكون محمد هو القاعد، فجذبه محمد فاقعده، وعجز الرومي =

وكان يُكِنُّ كامل الاحترام لأخويه الحسن والحسين ﷺ ، ويبذل لهما الطاعة .

فعندما تهيأ الحسين ﷺ للخروج من المدينة ، أقبل إليه أخوه محمد بن الحنفية ، وقال : «يا أخي ، أنت أحب الخلق إليّ وأعزّهم عليّ ، ولست والله ادّخر النصيحة لأحد من الخلق ، وليس أحد أحق بها منك ، لأنك مزاج مائي ونفسي وروحي وبصَري وكبير أهل بيتي ، ومن وجبت طاعته في عنقي ، لأن الله قد شرفك عليّ ، وجعلك من سادات أهل الجنة . . » ، وبعد حوار بينهما ، قال له الحسين ﷺ : « . . . يا أخي جزاك الله خيراً ، لقد نصحت وأشرت بالصواب ، وأنا عازم على الخروج إلى مكة ، وقد تهيأت لذلك . . أنا وأخوتي وبنو أخي وشيعتي ، وأمرهم أمري ، ورأيهم رأيي . أما أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة ، فتكون لي عيناً عليهم ، فلا تخفي عنّي شيئاً من أمورهم»[1] .

بقي محمد بن الحنفية في المدينة ، حتى كان من استشهاد الحسين ﷺ وأهل بيته وشيعته ، وسبي نساءهم وأطفالهم ما كان .

وأقام هناك ، حتى سمع بدنو جيش « مُسرِف بن عُقبة » وأيام الحَرّة ، فرحل إلى مكة ، فأقام مع ابن عباس[2] .

وبعد استشهاد أخيه قال ابن الحنفية بإمامة ابن أخيه علي بن الحسين ﷺ ، وأدى له فروض الطاعة والولاء[3] . ولم يكن كما قال البعض أنه نازع زين العابدين ﷺ

=

عن إقامته ، فانصرف مغلوباً .

(١) عوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص١٧٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٠ .

(٣) راجع عوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٦٦٦ ، معجم رجال الحديث ج١٦ ص٥٠ ، وفي أصول الكافي ج١ ص٣٤٨ رواية صحيحة السند ، عن زرارة ، عن أبي جعفر (الباقر) ﷺ ، قال : لمّا قتل الحسين ﷺ أرسل محمد بن الحنفية إلى علي بن الحسين (ع) فخلا به فقال له : يا ابن أخي قد علمت أن رسول الله ﷺ دفع الوصية والإمامة من بعده إلى أمير المؤمنين ﷺ ثم إلى الحسن ﷺ ، ثم إلى الحسين ﷺ ، وقد قتل أبوك رضي الله عنه وصلي على روحه ولم يوص ، وأنا عمك وصنو أبيك وولادتي =

على الإمامة(١).

ولقد أجاد العلامة الشيخ عبد الواحد المظفر، حيث قال: «.. فالتحقيق إذاً أنه نصب نفسه لا ليصبح إماماً وخليفة، بل ليقي مهجة ابن أخيه الإمام زين العابدين عليه السلام من فتك فراعنة عصره، فإنهم ولا شك يقتلون كل متظاهر بالأمر من ولد الحسين عليه السلام، لما عرفوه من سلسلة النص فيهم دون غيرهم من ولد امير المؤمنين علي عليه السلام». وقال أيضاً: «.. فابن الحنفية يدري أن الشيعة ستراسل علي بن الحسين، لعدم استغنائهم عن إمام معصوم، يبين لهم ما يحتاجون إليه، فيما يتجدد من الوقائع والأحكام... فنصب محمد نفسه لهم ليكون مرجعاً عاماً في ظاهر الأمر، والإمام زين العابدين هو المرجع الحقيقي في واقع الأمر، وبهذا الاختفاء والتكتم،

=

من علي عليه السلام في سنّي وقديمي أحق بها منك في حداثتك، فلا تنازعني في الوصية والإمامة ولا تحاجّني، فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: يا عم اتق الله ولا تدَّع ما ليس لك بحق إني أعظك أن تكون من الجاهلين، إن أبي يا عم صلوات الله عليه أوصى إلي قبل أن يتوجه إلى العراق وعهد إلي في ذلك قبل أن يستشهد بساعة، وهذا سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله عندي، فلا تتعرض لهذا، فإني أخاف عليك نقص العمر وتشتت الحال، إن الله عز وجل جعل الوصية والإمامة في عقب الحسين عليه السلام فإذا أردت أن تعلم ذلك فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتى نتحاكم إليه ونسأله عن ذلك، قال أبو جعفر عليه السلام: وكان الكلام بينهما بمكة، فانطلقا حتى أتيا الحجر الأسود، فقال علي بن الحسين لمحمد بن الحنفية: ابدأ أنت فابتهل إلى الله عز وجل وسله أن ينطق لك الحجر ثم سل، فابتهل محمد في الدعاء وسأل الله ثم دعا الحجر فلم يجبه، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: يا عم لو كنت وصياً وإماماً لأجابك، قال له محمد: فادع الله أنت يا ابن أخي وسله، فدعا الله علي ابن الحسين عليهما السلام بما أراد ثم قال: أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء وميثاق الأوصياء وميثاق الناس أجمعين لما أخبرتنا من الوصي والإمام بعد الحسين بن علي عليهما السلام؟ قال: فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه، ثم أنطقه عز وجل بلسان عربي مبين، فقال: اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين ابن علي (عليهما السلام) إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فانصرف محمد بن علي وهو يتولى علي بن الحسين عليهما السلام.

(١) يقول الدكتور إبراهيم بيضون في كتابه «اتجاهات المعارضة في الكوفة» ص١٥٢: «فقد كان ثمّة صراع خفي حينذاك بين علي بن الحسين.. الذي انتقلت إليه الزعامة من أبيه، دون أن تواتيه الظروف لممارستها بصورة فعلية... وبين عمه محمد بن الحنفية الذي لم يُخفِ طموحه القيادي..».

وتظاهُر محمد بن الحنفية، سَلم (زين العابدين) ﷺ، ومن معرّة «مسلم بن عُقبة المري» يوم الحرّة، ومن جور «ابن الزبير»... وما قيل أنه ادّعى الإمامة صراحة ونازع متشدّداً، حتى حاكمه الامام إلى الحجر الأسعد، فنقول: لم يكن ذلك التنازع المدعى في المقام حقيقياً، بل هو صوري، حيث أن محمد بن الحنفية لا يستطيع اقناع الكيسانية، بأن الإمام غيره، وهو ابن أخيه، لاعتقادهم أن أفضل ولد علي بعد الحسن والحسين هو محمد بن الحنفية... فهم غير قابلين منه الاعتراف المجرد بأمامة ابن أخيه زين العابدين ﷺ دون البرهان القاطع، فتوصل لاقناعهم من باب أظهر المعجزة، فنازع صورةً أمامهم، حتى اتفقا على تحكيم الحجر الأسود، فشهد لعلي ابن الحسين ﷺ بالإمامة، فاهتدى بسبب ذلك كثير من علماء الكيسانية، ودانوا بإمامة زين العابدين ﷺ... فمحمد لا يشك في عقله، ولا يرتاب في صفاء ذهنه، فكيف يقدم على ما يُفتضح به، وهو يطلب الرئاسة العامة ويدعي الإمامة عند الكيسانية!..»(١).

والخلاصة أنه لا يوجد لدينا أي نص يدل على ادعاء محمد بن الحنفية الإمامة لنفسه، بل على العكس كان يدين بالطاعة لابن أخيه «زين العابدين ﷺ». ولكنه مع ذلك «لم يكن شخصية مغمورة في الحركة الشيعية، ولكن على عكس ذلك، كان يُنظر إليه كواحد من قياداتها البارزة، بل كان الأكثر بروزاً في تلك الحقبة الهامة التي رهصت بالتحول والتغيير في المعادلات القائمة..»(٢).

ومع هذا فقد حصل على تفويض من الأمام زين العابدين ﷺ لإدارة الأمور والإشراف على دولة المختار، عندما قال له: «.. وقد وليتك هذا الأمر، فاصنع ما شئت»(٣). إذاً لا غبار على انقياده لزين العابدين ﷺ.

---

(١) بطل العلقمي ج٣ ص٤٨٧.

(٢) إتجاهات المعارضة في الكوفة ص١٥٢.

(٣) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٦٥.

وقد ذكرنا الأحداث التي مر بها محمد بن الحنفية أيام حكومة ابن الزبير ، حتى قُتل المختار الذي كان نعْمَ السند لبني هاشم ، فبوجوده ما كان ابن الزبير ليجرؤ على الإعتداء عليهم . ولما قُتل المختار أخذ ابن الزبير يظهر الشماتة بهم ، لأنهم أمسوا بلا سند ولا ظهير . وأرسل إلى ابن الحنفية : « إني غير تاركك أبداً حتى تبايعني ، أو أعيدك في الحبس ، وقد قتل الله الكذّاب الذي كنت تدّعي نصرته . . . »[1] .

وكان رسوله عروة بن الزبير ، فقال ابن الحنفية : بؤساً لأخيك . . ما ألجّه فيما أسخط الله ، وأغفله عن ذات الله .

وبلغ خبرُه عبد الملك بن مروان ، فكتب إليه يعلمه أنه إنْ قدم عليه أحسن إليه ، وأنه ينزل إلى الشام إنْ أراد حتى يستقيم أمر الناس ، فخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام .

فلما وصل «مَدْيَن» بلغه غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد ، فندم على إتيانه ، وخافه ، فنزل «أيلة» . وتحدث الناس بفضل محمد ، وكثرة عبادته وزهده وحسن هديه . فلما بلغ ذلك عبدَ الملك ندم على أذنه له في قدومه بلده ، فكتب إليه : «أنه لا يكون في سلطاني من لم يبايعني» . فرحل إلى مكة ، ونزل شعب أبي طالب ، فأرسل إليه ابنُ الزبير يأمره بالرحيل عنه ، وألحّ عليه في ذلك .

ثم سار ابن الحنفية إلى الطائف ، والتحق به عبد الله بن عباس ، وتوفي هناك . ويقي ابن الحنفية حتى حصر الحجاجُ ابنَ الزبير فلما قُتل ابن الزبير ، وخضعت البلاد لعبد الملك بن مروان بايع ابن الحنفية لعبد الملك ، وطلب منه أن لا يجعل للحجاج عليه سبيلاً ، فأزال حكم الحجاج عنه[2] .

---

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٦ .

(٢) الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٥٢ (باختصار) ، وقد أورد ابن الأعثم في «الفتوح» ج٥٦ ص٢٣٧ تفصيلاً مهماً .

واختلفوا في أي مكان تُوفيَّ، على ثلاثة أقوال، أحدها : بأيلة ، والثاني : بالمدينة ، وصلى عليه أبان بن عثمان بأذن ابنه أبي هاشم ، ودفن بالبقيع ، والثالث : بالطائف ، وذلك سنه إحدى وثمانين في أيام عبد الملك بن مروان ، وعمره خمس وستون سنة[١]. وقد سئل أبو هاشم : أين دُفن أبوك ؟ فقال : بالبقيع[٢].

(١) تذكرة الخواص ص٢٦٨ وانظر أيضاً وفيات الأعيان ج٤ ص١٧٢ .

(٢) الطبقات الكبرى ج٥ ص١١٦ .

الكيسانية ومحمد بن الحنفية

قد مرّ معنا أن محمد بن الحنفية لم يدَّعِ يوماً الإمامة لنفسه، ولم يكسب أنصاراً لنفسه بعيداً عن النهج الأمامي.. القائل بأمامة علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

فهذا عالم الأهواز (أبو بُحير) عندما يرى ابن الحنفية يُسلِّم على شاب ويخاطبه بالسيادة، يتعجب من ذلك، فيقول له محمد: نعم هو والله إمامي، يقول أبو بحير: فقلت: ومن هذا؟ قال: علي بن الحسين عليه السلام، قال أبو بحير: فانصرفت من عنده وقد دِنْتُ بامامة علي بن الحسين عليه السلام[1].

وكذلك أبو خالد الكابلي، الذي أتا يوماً محمد بن الحنفية، فقال له: جعلت فداك، أن لي حرمة ومودة، فاسألك بحرمة الله ورسول الله وأمير المؤمنين إلاّ أخبرتني: أنت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه؟ قال: يا أبا خالد، لقد حلّفتني بالعظيم.. الإمام عليٌّ ابن أخي.. عليَّ وعليك وعلى كل مسلم[2].

والذي يظهر من هاتين الروايتين، أن الوضع السياسي كان يقتضي التكتم على أمامة الإمام زين العابدين عليه السلام، خوفاً على دمه من شرار الخلق، فلذلك عندما تصدى محمد بن الحنفية للزعامة الشيعية في تلك الظروف الحرجة، تصوّره البعض إماماً مفترض الطاعة.. ليس فوقه إمام، فكان محمد بن الحنفية، عندما يرتفع

---

(١) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٦٦. الرواية هي: عن أبي بحير (عالم الأهواز) قال: حججت فلقيت أمامي، وكنت يوماً عنده، فمرّ به غلام شاب، فسلَّم عليه، فقام فتلقّاه، وقبّل ما بين عينيه، وخاطبه بالسيادة، ومضى الغلام وعاد محمد إلى مكانه، فقلت له: عند الله احتسب عناي! فقال: وكيف ذاك؟ قلت: لأنّا نعتقد إنك الإمام المفترض الطاعة.. تقوم تتلقى هذا الغلام، وتقول له: يا سيدي؟ فقال: نعم هو والله أمامي، فقلت: ومن هذا؟ قال: علي ابن أخي الحسين... ويسرد ابن الحنفية قصة الاحتكام إلى الحجر الأسود، الخ.

(٢) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٦٧.

المحذور، يشير إلى زين العابدين عليه السلام على أنه إمام كل المسلمين بلا استثناء، ويستشهد لذلك بالاحتكام إلى الحجر الأسود، فيثبت للسائل إمامة علي بن الحسين عليه السلام بالدليل والبرهان القاطع، بل الإمام الصادق عليه السلام قال: ما مات محمد بن الحنفية حتى أقرَّ لعلي بن الحسين عليه السلام [١].

نعم، قد حاول البعض استغلال هذه الظروف المربكة، لتمرير مصالحه، وكسب القوة الفاعلة في العالَم الشيعي، التي برزت إلى العلن كتنظيم قوي في عهد المختار الثقفي والتي كسبت إلى جانبها قوى غير شيعية اتفقت معها في الهدف.

والذي يظهر، أن هذا البعض تمكن بالفعل من ضم أصوات كثير من بقايا هذا التنظيم الشيعي إلى جانبه، بعد انهاء دولة المختار الثقفي، فكانت الحركة الكيسانية، التي أقامت الدولة العباسية على انقاض الدولة الأموية، باعتبار أن أبا مسلم الخراساني - الذي قاد الثورة لصالح بني هاشم «العباسيين» واسقط حكم الأمويين - كان على مذهب الكيسانية[٢].

والكيسانية بهذه الصورة التي وصلت إلينا تدور حولها وحول وجودها الشكوك، فإن بعض الباحثين أشرفوا على القول باختلاقها[٣].

فالباحث «رشيد الخيون»، بعد أن يذكر رأيه بـ «الكيسانية»، وإن هذا المذهب مما أبدعه خيال الرواة، يقول:

«ما أراه وما ستكشفه عقائد هذه الفرقة: إن واضعيها لا يعنون في وضعها الإساءة إلى شخص أو فرقة، بقدر ما عبروا بطريقتهم عن إعجابهم بشخص أو مكان، مثل جبل «رضوى»...»[٤].

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة ص٣٦.

(٢) راجع «الملل والنحل» ج١ ص١٥٤.

(٣) جريدة «الحياة» عدد «١٣٣٦٠» ٦/ ١٠/ ١٩٩٩ تحت عنوان «ما أبدعه خيال الرواة في الملل والنحل» ص٢٣ للباحث رشيد الخيون.

(٤) جريدة «الحياة» عدد «١٣٣٦١» ٧/ ١٠/ ١٩٩٩ تحت عنوان «ما أبدعه خيال الرواة في الملل والنحل»

والأحرى بنا أن لا ندخل في تفاصيل ما نقله الرواة عن هذا المذهب الخيالي ، فهو بحاجة إلى بحث مستقل ، وليس هنا موضعه .

والخلاصة سواء كان مذهب الكيسانية حقيقة قائمة ، أو هو محض خيال ، فإنه لا يرتبط بالمختار وبمحمد بن الحنفية لا من قريب ولا من بعيد .

ويكفي في هذا الصدد رد السيد الخوئي على من قال أن «المختار هو الذي دعا الناس إلى محمد بن علي بن أبي طالب بن الحنفية ، وسُمّوا الكيسانية . . . » فقال (رضوان الله عليه) : « وهذا القول باطل جزماً ، فأن محمد بن الحنفية لم يدّع الإمامة لنفسه حتى يدعوا المختار الناس إليه ، وقد قُتل المختار ومحمد ابن الحنفية حي ، وإنما حدثت الكيسانية بعد فات محمد بن الحنفية »[1] .

=

ص١٩ للباحث رشيد الخيون .

(١) معجم رجال الحديث ج١٨ ص١٠١ .

عبد الله بن الزبير

هو «أبو خُبيب» عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأمه أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة «ذات النطاقين» ، وجدته هي صفية بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله ﷺ ، وخديجة بنت خويلد عمة أبيه الزبير ، وخالته عائشة أم المؤمنين ، وهو أول مولود وُلد في الإسلام بعد الهجرة للمهاجرين[١] .

يقول عامر بن عبد الله بن الزبير : إن أباه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم ، فلما فرغ قال : يا عبد الله ، اذهب بهذا الدم فاهْرِيقه حيث لا يراك أحد ، فلما برز عن رسول الله ﷺ عمد إلى الدم فشربه ، فلما رجع قال : يا عبد الله ، ما صنعت ؟ قال جعلته في أخفى مكان علمتُ أنه يُخافى عن الناس ، قال : لعلك شربته ؟ قال : نعم ! قال : ولِمَ شربت الدم ؟ ! ويل للناس منك وويل لك من الناس[٢] ، وفي رواية أخرى قال ﷺ : ماذا تلقى أمتي منك ![٣]

وكان منذ صباه يحب الأمرة ، فعندما أمر أبو بكر بقتل لصّ ، فأمر بقتله أُغيلمة من أبناء المهاجرين ، قال عبد الله بن الزبير لهم : أمروني عليكم ، فأمّروه عليهم ، فانطلقوا باللصّ إلى البقيع فقتلوه[٤] . وكان مع أبيه يوم اليرموك ، فلما انهزم المشركون ، حمل ، فجعل يجيز (أي يجهز) على جرحاهم[٥] .

---

(١) أسد الغابة ج٣ ص١٦١ ، وفيات الأعيان ج٣ ص٧١ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ، تراجم حرف العين (من عبد الله بن جابر إلى عبد الله بن زيد) ص٤٠١ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ، تراجم حرف العين (من عبد الله بن جابر إلى عبد الله بن زيد) ص٤٠٢ .

(٤) تاريخ ابن عساكر ، تراجم حرف العين (من عبد الله بن جابر إلى عبد الله بن زيد) ص٤٠٢ ، وقد نقل الحدث بتفصيل ، فراجع .

(٥) تاريخ ابن عساكر ، تراجم حرف العين (من عبد الله بن جابر إلى عبد الله بن زيد) ص٤٢٢ .

وكان ابن الزبير غزا افريقية مع عبد الله بن سرح زمان عثمان بن عفان، يقول هو واصفاً المواجهة: «هجم علينا (جُرْجير) في معسكرنا في عشرين ومائة ألف، فأحاطو بنا من كل مكان، وسُقِطَ في أيدي المسلمين ونحن في عشرين ألفاً من المسلمين. . . ورأيت غِرَّةً من جرجير. بصرتُ به خلف عسكره على بِرْذَون أشهب، معه جاريتان تظلاّن عليه بريش الطواويس. . . .»، فبادر ابن الزبير باذن ابن سرح مع ثلاثين فارساً، وبلمحة خاطفة قتل جُرجير، وأنتهت المعركة لصالح المسلمين[1].

وقد نقل ابن عساكر وابن الأثير وغيرهما، عن عبادة ابن الزبير وصيامه ما لم ينسبوه حتى لرسول الله ﷺ، حتى لِيُخيّل للقارئ أنها أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع[2].

كان يحاول إكمال لحيته، فما كملت، فقد قال عن نفسه: «عالجت لحيتي لتتَّصل لي، إلى أن بلغت ستين سنة، فلما أكملتها يئست منها»[3].

---

(١) تاريخ ابن عساكر، تراجم حرف العين (من عبد الله بن جابر إلى عبد الله بن زيد) ص٤٢٠ «بتصرف وتلخيص».

(٢) قد ذكر ابن عساكر وابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة ابن الزبير الكثير: من أنه كان يواصل الصيام سبعاً، يصوم يوم الجمعة، ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكة، وكان إذا أفطر يدعوا بقعب من سمن ثم يأمر بلبن فيُحلب عليه، ثم يدعو بشيء من صَبْر (عصارة شجرة طعمه مُر) فيذرّه عليه، ثم يشربه!! انظر ص٤١٤ ـ ٤١٥ وهذا النوع من الصوم باطل وحرام شرعاً.
ويذكر أيضاً «ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه عبد الله بن الزبير، ولقد جاء سيل طبّق البيت، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة، وفي رواية أخرى: فطاف بالبيت سُبُوعاً (أي سبع مرات) سباحة!! انظر ص٤١٧.
ويقول ابن الأثير: قسم عبد الله بن الزبير الدهر على ثلاث ليال، فليلة هو قائم حتى الصباح، وليلة هو راكع حتى الصباح، وليلة هو ساجد حتى الصباح، انظر «أسد الغابة» ج٣ ص١٦٢ وغير هذه الأساطير مما نقلوها، مما تظهر زهده وقداسته فهو يصلي في الحجر والمنجنيق يصيب طرفا ثوبه فما يلتفت إليه والعصافير تقع على ظهره، تصعد وتنزل، وهو في السجود. . لا تراه إلا جذْم حائط! انظر المصدرين.

(٣) الكامل في اللغة والأدب ج١ ص٣٠٩، أنساب الأشراف ج٦ ص٣٥٩، وانظر أيضاً «الموطأ» ص٧٩٠ و«أسد الغابة» ج٣ ص١٦٤: ابن الزبير كان كوسجاً، لا لحية له.

وقد وصف عبدَ الله بن الزبير علي ﷺ بقوله: «.. ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا..»[١].

وكان له الدور البارز في إخراج خالته عائشة لحرب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ. وعندما نبحتها كلاب الحوأب، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنّي لهيه.. قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وعنده نساؤه: ليت شعري، أيّتكنَ تنبحها كلاب الحوأب، فأرادت الرجوع، فأتاها عبد الله بن الزبير... فقال: كذب من قال أن هذا الحوأب، ولم يزل بها حتى مضت[٢].

وفي الفتوح: فلما أصبحوا، إذا بعبد الله بن الزبير، قد أتى بخمسين رجلاً يشهدون عندها أن هذا الماء ليس بماء الحوأب، وأنهم قد جازوا ماء الحوأب بليل، فكانت هذه الشهادة أول شهادة زور شهُد بها[٣].

وعندما ندم الزبير على اقدامه على حرب أمير المؤمنين علي ﷺ يوم الجمل، وقرر الانسحاب، بعد أن ذكر السبب، قال له ولده عبد الله: لا والله، ولكنك فررت من سيوف بني عبد المطلب، فأنها طوال حداد.. تحملها فتية أنجاد، فقال له الزبير: مالك، أخزاك الله من ولد، ما أشأمك![٤]

ويسبب عبد الله بن الزبير تشائم الناس من آل الزبير، حتى قالت عاتكة بنت يزيد زوجة عبد الملك بن مروان عن آل الزبير: «... إنهم أشأم بيت في قريش»[٥].

ظهرت في ابن الزبير بوادر حب الإمارة منذ حداثته، فقد نقل عنه قوله للغلمان من عمره ـ عند انجاز بعض الأعمال ـ: «امّروني عليكم»، وقد مررنا على مبادرته

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٧ ص٤٨.

(٢) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص١٨٠ عن الطبري.

(٣) الفتوح ج٢ ص٢٨٨.

(٤) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص٢٢٧، نقلاً عن ابن الأعثم وابن أبي الحديد.

(٥) مقتل الخوارزمي ج٢ ص٢٥٣، الفتوح ج٦ ص٢٦٠.

قتل ملك افريقية، ومواقفه القيادية في التهيئة والاعداد لمعركة الجمل[١] وغيرها.

وقد فطن لهذا التطلع للأمرة في نفس ابن الزبير معاوية بن أبي سفيان، ولذلك حذر ولده يزيد منه، فقال: «.. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنَتْهُ فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك، فقدرت عليه، فقطّعه إرباً إرباً»[٢].

وقد قال لابن الزبير يوماً: «.. لا والله ما أراك منتهياً حتى تروم من بني عبد مناف مارام أبوك..»[٣].

وعندما قدم الإمام الحسين عليه السلام مع أهل بيته وأصحابه إلى مكة، كان يشير عليه ابن الزبير بالخروج إلى العراق، للتخلّص منه، ويقول له: «ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك! فوالله لو أن لي مثلهم ما توجهت إلاّ إليهم»[٤]، وعندما عزم الإمام الحسين عليه السلام على الخروج إلى العراق، مرّ عبد الله بن عباس بعبد الله بن الزبير، فقال: قرَّتْ عينُك يا ابن الزبير! ثم قال:

يا لكِ من قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ ... خلا لَكِ الجَوُّ فَبِيْضي واصْفِرِي

ونَقِّري ما شِئْتِ أنْ تُنَقِّري

هذا حسينٌ يخرج إلى العراق، وعليك بالحجاز»[٥].

ولما سار الحسين عليه السلام إلى العراق، شمَّر ابنُ الزبير للأمر الذي أراده، ولبس المعافري (ثياب يمنية)، وشبّرَ بطنَه، وقال: إنما بطني شبْر، وما عسى أن يسع الشبرُ!

---

(١) راجع دوره في معركة الجمل كتاب «أحاديث أم المؤمنين عائشة ص١٨٠ و ص٢٢٧.

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٢٣.

(٣) العقد الفريد ج٤ ص١٨.

(٤) حياة الإمام الحسين ج٢ ص٣١١، تاريخ الإسلام (للذهبي) حوادث (٤١هـ ـ ٦٠هـ) ص١٧٠، أنساب الأشراف ج٥ ص٣١٥.

(٥) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٨٤.

وجعل يظهر عيب بني أميّة، ويدعو إلى خلافهم[١] .

وبقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في كربلاء، خلت الحجاز لابن الزبير، فكان سيدها بلا منازع. واستغل قتل الحسين كورقة رابحة لصالحه ضد الأمويين، «وكان عبد الله بن الزبير، قبل موت يزيد يدعو الناس إلى طلب ثأر الحسين عليه السلام، وأصحابه، ويغريهم بيزيد، ويوثبهم عليه، فلما مات يزيد أعرض عن ذلك القول، وبان أنه يطلب الملك لنفسه، لا للثأر»[٢] .

تهاوي الدولة الزبيرية

وقد ذكرنا كيفية سيطرته على الحكم بعد موت يزيد، وكيف أن البلاد الإسلامية خضعت له عدا الأردن، ووضْع الشام مضطرب[٣] .

وفي إبان حكومته أُخذت عليه بعض المآخذ، التي كانت سبباً في تقوّض دولته الفتية.. التي لم تعمّر أكثر من عقد من الزمن، منها :

١ ـ عدم وفاءه بالوعود والعهود، كما حدث مع المختار[٤] .

٢ ـ البخل الشديد[٥] .

---

(١) الأغاني ج١ ص٢١ .

(٢) عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٧٥ ، وقد ذكرنا كيف أن قاتلي الحسين عليه السلام كانوا سادة في ظل سلطان ابن الزبير.

(٣) راجع ص ١٢٩ .

(٤) وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٥٢ : «جاء رجل إلى ابن عمر، فقال: بايعتُ ابن الزبير على كتاب الله وسنة نبيّه، فأبى ذلك، فقال: صدَق، ولو أعطاك ذلك لم يَفِ لك به.

(٥) يقول محمد بن المنتشر : «حضرت مكة أيام ابن الزبير، فما رأيت أحداً قط أبخل منه..» أنساب الأشراف ج٥ ص٣٣٣ وأتاه أعرابي يستفرضه، فقال: اقرضوا له، فقال: أعطني، قال: قاتل أولاً، فقال الأعرابي: دمي نقد ودراهمك نسيئة!

وقال لعامله على وادي القرى: «أكلتَ تمري وعصيتَ أمري..»

وقال فيه الشاعر:

رأيتُ أبا بكر (وربُّك غالبِ ... على أمْرِه) يَبغي الخلافة بالتمرِ

=

٣ ـ عداؤه الشديد لبني هاشم، وشتمه علي بن أبي طالب ﷺ على المنبر، وعدم ذكر اسم النبي ﷺ في الخطبة(١).

٤ ـ عدم انصافه الموالي(٢).

٥ ـ إحلاله القتال في الحرم. فكان يُدعى: «المُحِل»(٣).

٦ ـ غيّر بناء الكعبة، فجعل لها بابين، بعد أن كان لها باباً واحدة(٤).

ولما طال الحصار على ابن الزبير حبس الطعام، وقال: «إن أخرجته فَنيَ، ولكنكم تنظرون إليه، فتقوى قلوبكم، وتطيب أنفسكم، ومتى أكلتموه نفد، ولا يأتيكم ميرة، فتلقون بأيديكم..» أنساب الأشراف ج٦ ص٣٤٩.

يقول الدكتور عبد الأمير دكسن: «استمر الحصار الذي ضربه الحجاج على ابن الزبير لأكثر من ستة أشهر، عانى ابن الزبير وأتباعه كثيراً، إذ منعت المواد الغذائية والتجهيزات، فارتفعت نتيجة لذلك الأسعار في مكة، ومما زاد في الوضع سوءاً هو بخل ابن الزبير وتقتيره... مما أدى بكثير من أتباعه إلى التخلي عنه والانضمام إلى الحجاج، خاصة بعد أن أمّن الحجاج جميع من ينضم إليه من اتباع ابن الزبير. وقد قيل بأن عشرة آلاف من أتباع عبد الله بن الزبير، بضمنهم اثنان من أولاده تركوه، وانضموا إلى الحجاج». الخلافة الأموية ص٢١٤، وانظر أيضاً تاريخ ابن عساكر (عبد الله بن الزبير)ص٤٨٠.

(١) راجع ص١٣٠.

(٢) يقول الدكتور علي الخربوطلي: «وأقبل الموالي على البيعة لخليفة الحجاز «عبد الله بن الزبير» إلى حين، فقد كان الثائر الوحيد على الدولة الأموية. لكنه خيّب آمالهم، إذ أطلق العنان للأشراف العرب في الكوفة، واعتمد في حكمه للبصرة على العنصر العربي». عشر ثورات في الإسلام ص١٣٠.

(٣) الكامل في اللغة والأدب ج١ ص١٩٥. وكان سعد مولى عتبة بن أبي سفيان تحصّن بالطائف في خمسين رجلاً، فاستنزلهم ابن الزبير، وضرب أعناقهم في الحرم، فقال ابن عمر: يا سبحان الله، ما أحمق هذا الرجل، أما إنه لم يقتُل أحدٌ أحداً بالحرم إلاّ قُتل به. وقال ابن عباس: لو لقيت قاتل أبي بالحرم ما قتلته. عن «أنساب الأشراف» ج٥ ص٣٣٥. وانظر أيضاً الفتوح ج٥ ص٢٩٠.

(٤) قد ذكر أمر هدم الكعبة اليعقوبي في تاريخه ج٢ ص٢٦٠، أنساب الأشراف ج٥ ص٣٧٠، البداية والنهاية ج٨ ص٢٧٠ وغيرهم، وخلاصة الأمر: أن ابن الزبير سمع عن خالته عائشة أنها قالت، قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن بدا لقولمك أن يهدموا الكعبة، ثم يبنوها، فلا يرفعوها عن الأرض، وليصيروا لها بابين»، فعندما تصدعت بسبب ضرب المنجنيق، هدمها والصقها بالأرض، ثم بناها وجعل لها بابين شرقاً وغرباً، وصيّر على كل باب مصراعين، وكان على بابها الأول مصراع واحد،

٧ ـ قتله لأخيه «عمرو بن الزبير»، بعد أن أوجعه ضرباً بالسياط، لعداوة كانت بينه وبينه[١].

٨ ـ عدم كفائته السياسية، وجفاءه في التعامل مع الناس، فهو يخاطب وجوه أهل العراق عندما أتوه مع مصعب (بعد قتل المختار): «. . . وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلاً من أهل الشام. . صرف الدينار بالدرهم»، فلما انصرفوا فسدت قلوبهم عليه[٢]. وعندما اعترضوا عليه في الإستعانة بالخوارج، قال: «لو أعانني الشياطين على أهل الشام لقاتلتهم بهم»[٣]، وعندما تكلم الحُصَين معه في أمر الخلافة سراً جعل ابن الزبير يرفع صوته بإبائه[٤]، إلى غيرها من الأسباب، التي

وكان ارتفاعها في السماء ثماني عشرة ذراعاً، فجعلها ابن الزبير تسعاً وعشرين ذراعاً. ولما غلبه الحجاج بن يوسف عام ٧٣هـ، هدمها وأعادها إلى حالها الأول، وبقيت كما هي إلى زماننا هذا.

(١) إن عمرو بن الزبير كان على شرطة عمرو بن سعيد (والي المدينة)، فوجه به لمحاربة أخيه عبدَ الله بن الزبير، فوقع أسيراً، فلما رآه عبدُ الله، قال: ويحك، ما صنعت؟ أما حقي فقد تركته للأخوة، ولابد من الأخذ بمظالم الناس، فحبسه شهراً يوقفه كل يوم، فيأتي الرجل فيقول: لكزني، فيلكزه، ويقول الآخر: لطمني، فيلطمه، ويقول الآخر: نتف لحيتي، فيقول: انتف لحيته، حتى قدم سُهيل بن عبد الرحمن بن عوف، فقال: جلدني مائة ولم أجنِ ذنباً، فأمر به فجُرِّد، وقال: اضربه مائة، فضربه مائة سوط، فنغل ظهره حتى مات، فأمر به عبد الله، فصُلِب، فكان ذلك أول ما نقمه الناس عليه. انظر أنساب الأشراف ج٥ ص٣٣١ ـ ٣٣٣، تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٤، الفتوح ج٥ ص٢٨٥.

(٢) العقد الفريد ج٤ ص٤٠٦.

وقال لأعراب أتوه: «إن سلاحكم لَرَثّ، وإن حديثكم لغثٌ، وإنكم لَعيال في الجَدْب، وأعداء في الخصْب» أنساب الأشراف ج٦ ص٣٤٩

وكان يشتم ثقيفاً، فيقول: «قصار الخدود. . لئام الجدود. . سود الجلود. . بقية ثمود» المصدر ص٣٥٢.

(٣) أنساب الأشراف ج٥ ص٣٦٠، وفي «الكامل في اللغة والأدب» ج٢ ص٢٠٧ قال ابن الزبير في الرد على المعترضين: «ولو شايعني التُرك والدَيْلَم على قتال أهل الشام لشايعتُها». مع العلم أن الترك والديلم كانوا من المشركين والكفار!

(٤) عندها قال الحُصين بن نمير: لله أبوك، ما عرف من نسبك إلى الدهاء. . أنا أكلمك بمثل هذا سراً وتجيبني عليه علانية! «أنساب الأشراف» ج٥ ص٣٦٤.

لم تصمد أمام دهاء عبد الملك ابن مروان ، وبذْله المال للعدو والصديق ، حتى كسب المعركة أخيراً وقُتل عبدُ الله بن الزبير ، وصُلب ، فكان كما قال علي أمير المؤمنين عليه السلام : « . . مصلوب قريش »[١] .

وبعد كل هذه المآخذ على الدولة الزبيرية التي قامت لا لأجل انصاف المظلوم أو تطبيق تعاليم الإسلام الحنيف ، بل لأجل الوصول إلى الحكم ، ولو كان على رقاب الضعفاء ودماء الأبرياء ، بعد كل هذا يبرز من يمجدّ ابنَ الزبير ، فيقول (بعد قول ابن عباس : قرت عينك يا ابن الزبير) : « . . مهما كان رأي ابن عباس ، نحن لا نتقص من مواقفه ، بعد أن قاوم يزيد »[٢] ، وهل كل من يقام يزيد نعتبر موقفه حسناً ، من دون أن نعرف أسباب هذه المقاومة أو دواعيها ! ! وهل نفهم من كلام القائل هذا ، أن (القربة لله) في العمل ليست شرطاً لتقبُّله ! واللهُ القائلُ في كتابه : ﴿ إنما يَتَقَبَّل اللهُ منَ المُتَّقِينَ ﴾[٣] .

وعندما سيطر عبد الملك بن مروان على العراق ، بعد أن قتل مصعب بن الزبير ، توجه بكل ثقله نحو الحجاز . . نحو عبد الله بن الزبير .

وأرسل الحجاجَ بن يوسف على رأس حملة نحو الحجاز ، وحصر عبد الله بن الزبير هناك ، بين تلال مكة . ونصب الحجاجُ المنجنيق ، يرمي بها أحثّ الرمي ، وألح عليهم بالقتال من كل وجه ، وحبس عنهم الميرة ، وحصرهم أشد الحصار ، حتى جهد أصحابُ ابن الزبير واصابتهم مجاعة شديدة . وكانت مسالحه تطوف ، وهم مع ذلك مبلوغين من الجوع ما يقدر الرجل يقاتل ، ولا يحمل السلاح كما يريد ، من الضعف . وكانوا يستعينون بزمزم ، فيشربون منها ، فيعصمهم[٤] .

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٧ ص٤٨ .

(٢) في ظلال الطف ص١٥١ محاضرات الشيخ «محمد مهدي الآصفي» .

(٣) المائدة : ٢٧ .

(٤) تاريخ ابن عساكر (عبد الله بن الزبير) ص٢٨٠ «بتصرف» .

وقُتل ابن الزبير يوم الثلاثاء ١٠/ جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، بعد حصار دام أكثر من ستة أشهر[١] .

وقيل في ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ / ١٨ أيلول سنة ٦٩٢م قتل عبد الله بن الزبير ، بعد أن أظهر شجاعة نادرة ، وبعد أن تخلى عنه الكثير من اتباعه[٢] .

(١) تاريخ ابن عساكر (عبد الله بن الزبير) ص٤٩٦ .

(٢) الخلافة الأموية ص٢١٤ (بتصرف) ، وفي أنساب الأشراف ج٦ ص٣٤٩ : «قال صُحير بن أبي الجهم : دخلت على ابن مطيع وهو عاتب على ابن الزبير ، وعليَّ سيفي ، فقال : ضعْ سيفك ، وأرِحْ نفسك ، فما عند ابن الزبير خيرٌ لدين أو دنيا ، قال : فأتيت الحجاج ، فأعطاني الأمان ، فلاحظ !

عامر الشَّعْبي

أبو عمرو، عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، الشَّعبي، وهو من حمْيَر اليمن، وعداده في همْدان، وهو كوفي تابعي، جليل القدر، وافر العلم[١]. حتى نُسب إلى الزهري أنه قال: العلماء أربعة: ابن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة[٢].

وكانت ولادته سنة جلولاء، وهي سنة ١٩ هجرية[٣].

وكان ظريفاً.. مصاحباً للحكام، وتولى القضاء في الكوفة زمن عمر بن عبد العزيز[٤]، وذهب سفيراً إلى ملك الروم من قبل عبد الملك بن مروان[٥]، وكذلك إلى رتْبيل (ملك الترك) من قبل الحجاج[٦].

ومع ذلك خرج مع القُراء على الحجاج، وشهد دير الجماجم، وكان فيمن أفلت، فاختفى زماناً، ولكن الحجاج عفا عنه[٧].

وكان من المشاركين في ثورة المختار، ولكنه بعد انتصار الثورة انتهى به الأمر إلى الإعتزال[٨]، وقد يكون من أهم أسباب اعتزاله تقريب المختار للموالي، ومنحه لهم

---

(١) وفياة الأعيان ج٣ ص١٢.

(٢) وفياة الأعيان ج٣ ص١٣، وبقية الحديث:.. والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام.

(٣) وفياة الأعيان ج٣ ص١٥ وقد ذكر اختلاف في سنوات الميلاد.

(٤) الطبقات الكبرى ج٦ ص٢٥٢ «بتصرف».

(٥) وفياة الأعيان ج٣ ص١٣ «بتصرف».

وفي كتاب «مع المختار الثقفي» ص١٧٥ نقلاً عن «النجوم الزاهرة» ج١ ص٢٠٨: «بعثه عبد الملك بن مروان إلى مصر، بسبب البيعة للوليد بن عبد الملك».

(٦) الطبقات الكبرى ج٦ ص٢٥٤.

(٧) الطبقات الكبرى ج٦ ص٢٤٩ «بتصرف».

(٨) إتجاهات المعارضة في الكوفة ص١٥٤.

حقوقهم المهدورة. فقد نقل عنه تحقير الموالي، فعن أبي حنيفة أنه قال: رأيت الشعبي يلبس الخزّ، ويجالس الشعراء، فسألته عن مسألة، فقال: ما يقول فيها بنو أستها، يعني الموالي[١]، وتحقيره لهم صريح.

وكان من العلماء الماجنين الذين يستهويهم الطرب، فكان يجعل الغلمان في بيته يتغنون، كابن سُريج[٢]، وعندما سمع غناء ابن عائشة، جعل يتعجّب من غنائه، ويقول: ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاء ﴾[٣].

وكان متهماً في الدين، ولم يتورّع عن الإفتراء، حيث اتهم الإمام علي ﷺ بعدم حفظ القرآن، فقال: «لقد دخل عليٌ حفرته، وما حفظ القرآن»[٤].

ولذلك كان عند الشيعة معروفاً ببغض علي ﷺ، حتى قال مدافعاً عن نفسه: «الشيعة يتهموني ببغض علي ﷺ...»[٥]

ونقلت عنه كلمات تدل على حمقه، واستهزاءه بالشيعة، والتهكّم بمذهبهم، فهو يقول: «لو كان الشيعة من الطير كانوا رَخَماً، ولو كانوا من الدوابّ كانوا حميراً» ويقول أيضاً ناصحاً: «أحبَّ صالح المؤمنين، وصالح بني هاشم، ولا تكن شيعياً...»[٦]، وأمثال هذه الترّهات والسخافات. وقد نقل البعض من أحداث نهضة المختار، وبعض هذه الأحداث كان هو الراوي الوحيد لها، وقد دسّ

---

(١) الطبقات الكبرى ج٦ ص٢٥١.

(٢) مع المختار الثقفي ص١٧٦.

(٣) الأغاني ج٢ ص٦٤٦.

(٤) مع المختار الثقفي ص١٧٦، نقلاً عن «القرطين» ج١ ص١٥٨، وهذا مع العلم أن علياً ﷺ. هو جامع القرآن الأول، وهو مفسّر القرآن الأول!

(٥) بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٤، الرواية هي «الشيعة يتهموني ببغض علي ﷺ، ولقد رأيت في النوم، بعد مقتل الحسين ﷺ كأن رجالاً نزلوا من السماء، عليهم ثياب خضر، معهم حِراب يتبعون قتلة الحسين ﷺ، فما لبث أن خرج المختار فقتلهم».

(٦) الطبقات الكبرى ج٦ ص٢٤٨.

بينها ما تمليه عليه نفسه من الأكاذيب ، التي يحاول بها النيل من سمعة المختار ، وشرعية نهضته المباركة .

ولكن ولجهل الكثير من الكُتّاب والمحققين بحقيقة هذا الرجل المتقلّب ، أخذوا رواياته عن المختار على أنها من المسلّمات التاريخية ، وبسبب هذه الرؤية الخاطئة حكموا على المختار بالفسق ، واتهموه في دينه وعقيدته . وكان اللازم عليهم اتهام الراوي ، وعدم اعتماد رواياته الذامة للمختار إلا بعد تمحيصها وغربلتها ، وهي لا تصمد لذلك .

فبالإضافة إلى ماذكرناه من ارتكابه الفسق ، وارتباطه الوثيق بالعرش الأموي ، وتوليه للسفارة والقضاء والدعوة لهم ، وتجريح الشيعة له ، وتجريحه لهم ، يقول عنه ابن عبد البر : «كان بين (المختار) وبين الشعبي ما يوجب إلا يُقبل قول بعضهم في بعض»[١] ، وكذلك يقول العلامة ابن الأثير : « . . كان بينهما ما يوجب أن لا يسمع كلام أحدهما في الآخر»[٢] . وكانت وفاة الشعبي في حدود سنة ١٠٥هـ ، فجأة[٣] .

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (القسم الرابع) ص١٤٦٥ .

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج٤ ص٣٣٦.

(٣) وفياة الأعيان ج٣ ص١٥ وقد نقل خمس سنوات لوفاته هي (١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧).

الفصل العشرون

عصر ما بعد المختار

عصر ما بعد المختار

كانت نهضة المختار نهضة واقعية، استمدت شرعيتها من أهل البيت ﷺ، وكان عنصر الجماهير هو وقودها، ومنها مددها، وشكّل أقطاب شيعة الكوفة (في وقته) هيكلها.

وباجتماع هذه الأسس تشكلت دولة الهدى في ذلك العصر ولكنها وئدت قبل أن تركز أقدامها على الأرض.

وعادت السيطرة من جديد للدولة العربية العنصرية، على هذه الرقعة الشاسعة من العالم الإسلامي. ولكن دولة المختار لم يُقبر منها سوى الجسد، وبقيت إشعاعات روحها تمدّ الضعفاء والمسحوقين بالجرأة اللازمة، للمطالبة بالحق ورفض الباطل، و عدم الخضوع له.

وهذا ما لم تكن السلطات الجديدة قد حسبت حسابه، وهذا بالضبط ما واجهته سلطة مصعب بن الزبير. وآل بها الأمر إلى مواجهة السقوط بعد سنوات ضئيلة. وسقطت، وسقطت الحكومات التي تلتها.

الكوفة ومصعب بن الزبير

مصعب بن الزبير، كانت ولادته في عام ٣٢ هـ[١]، وأمه الرباب بنت أنيف من كلب[٢]. وتولى لأخيه «عبد الله بن الزبير» البصرة أول عام ٦٧ هـ، ولقب نفسه «الجزّار»[٣] والتجأ إليه الكثير من أعيان الكوفة وأهلها هرباً من عدل المختار، حتى ناهزوا العشرة آلاف رجل. وجيّش منهم ومن أهل البصرة وفارس الجيوش، وتوجه نحو الكوفة، وقاتل المختار، وبعد سجال دام أكثر من أربعة أشهر قتله، وبعث برأسه نحو الحجاز.. إلى عبد الله بن الزبير[٤].

وبعد أن سيطر على الكوفة قتل جميع الأسرى، «السبعة آلاف» ولم يستمع لاستغاثتهم، وكذلك تجرأ وقتل زوجة المختار، لعدم قبولها البراءة منه، فكانت أول امرأة قتلت صبراً في الإسلام، وتتبع الشيعة بالقتل[٥]. ولذلك استحق اللقب الذي لقّب به نفسه «الجزار» عن جدارة.

يقول هاشم معروف الحسني: «.. وطويت بمصرعه «المختار» صفحة ناصعة من صفحات الانتفاضات الشيعية، لتحل محلها صفحة سوداء عاتية، بقيادة ابن الزبير، شقيق العائذ بالبيت الحرام.. لا تختلف في ظلامها الدامس عن تلك

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص٢٠٦ ذكر أن مصعباً قتل عام ٧٢هـ وهو ابن أربعين سنة. فيكون ميلاده في حوالي عام ٣٢هـ.

(٢) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٨٢.

(٣) راجع تاريخ الطبري ج٦ ص٩٣: «لما قدم مصعب البصرة خطبهم، فقال: يا أهل البصرة، بلغني أنكم تلقّبون أمراءكم، وقد سمّيت نفسي «الجزّار».

(٤) راجع ص ٤٤٥.

(٥) انظر المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٣٠٩، وراجع ص ٤٥٥ من البحث.

الصفحات التي كانت تخيّم عليهم (على أهل الكوفة) في عهد زياد وابنه، وغيرهما من الجلاّدين والفراعنة»[١].

فالذين استنجدوا بمصعب من أهل الكوفة لم يكن استنجادهم به حباً له، بقدر ما كان بغضاً لعدالة المختار.

يقول فلهوزن: «ولم تكن أهواء أهل الكوفة إلى جانب مصعب، ولم يستنجد به أشراف الكوفة ليساعدهم على المختار إلا لأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك، وكثيرون كانوا يكرهونه، لأنه جعل دماء أتباع المختار تجري أنهاراً. . »[٢].

ولم يكن أهل الكوفة يكرهونه فقط، فقد دبّت البغضاء في قلوب أهل البصرة عليه أيضاً، فإن أشراف أهل العراق كتبوا إلى عبد الملك يدعونه إلى أنفسهم، ويُخبرونه أنهم مبايعوه، فلم يبق بالبصرة شريف إلا كاتَبَه، غير المهلّب[٣].

وكان عبد الملك قبل ذلك قد كتب إلى شيعته في البصرة، واعداً إياهم بالعطايا السخية، إذا ما أيدوه ضد مصعب بن الزبير. وعندما وجدت وعوده هذه تجاوباً مشجعاً، أرسل «خالد بن عبد الله بن أسيد» للسيطرة على البصرة، وانتزعها من مصعب[٤]. ولكن المهمة تلاقي الفشل، فيحصل خالد على الأمان، ويخرج من البصرة، لكن الذين وقفوا إلى جانب عبد الملك يلاقون أشد الاهانات وأقسى التعنيف من مصعب[٥].

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ ص٤٧٣.

(٢) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٣٢٥ نقلاً عن كتاب «تاريخ الدولة العربية» ص١٩١.

(٣) أنساب الأشراف ج٧ ص٨٤.

(٤) الخلافة الأموية ص٢٠٩، ومختصر القضية: أن خالداً هذا: دخل البصرة بجموع من أنصاره، وجمع هناك الجموع لاستخلاص البصرة من يد مصعب، لكن قوات الدولة تحكم سيطرتها على الموقف، وتفشل هذه الحركة. راجع التفصيل في تاريخ الطبري ج٦ ص١٥٢.

(٥) في تاريخ الطبري ج٦ ص١٥٤: أن مصعب بن الزبير أرسل إليهم، فأتى بهم (وبعد أن شتمهم واحداً =

هذه المواقف العنيفة، والاهانات المتوالية، والدماء التي جرت على يدي مصعب، أضعفت موقفه وصيّرته وحيداً، يواجه القتل، بلا ناصر ولا معين.

=

واحداً)... ثم ضربهم مائة مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وهدم دورهم، وصهرهم في الشمس ثلاثاً، وحملهم على طلاق نسائهم، وجمّر أولادهم في البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم ألاّ ينكحوا الحرائر... وقتل بعضهم.

حكم السيف

دانت لمصعب بن الزبير العراق وسائر بلاد الشرق، وانقضت الخمس سنوات من حكم مصعب سراعاً، وكان خلالها قد أقبل عبد الملك عدّة مرات لقتال مصعب، ولكن عندما يقدم إليه مصعب يرجع عبد الملك إلى الشام[١].

لكن بعد هذا الوقت الطويل، اشتدّ ضعفاً موقف مصعب وآل الزبير في العراق، وانفض الناس عنهم، لما أعملوه من قسوة وسفك دماء، وآل الأمر إلى خروج عبيد الله بن الحُر الجعفي على آل الزبير، الذي أربك خروجه الأمن الداخلي، ووقفت قوى الأمن عاجزة عن ايقافه عند حدّه. وكان زعماء القبائل الأشراف، قد وصلوا إلى منتصف الطريق أو تجاوزوه في العودة إلى الولاء الأموي (خاصة بعد تولي الخليفة القوي عبد الملك)، حيث وجدوا فيه الضمانة الأكثر ديمومة لمصالحهم القبلية والاقتصادية[٢].

جمع عبد الملك بن مروان إخوته، وعظماء أهل بيته، فقال لهم: إن مصعب بن الزبير قد قتل المختار، ودانت له أرض العراق، وسائر البلدان، ولست آمنة أن يغزوكم في عُقْر بلادكم، ومامن قوم غُزُوا في عُقر دارهم إلا ذَلّوا، فما ترون؟[٣]

واتفقت كلمتهم على غزو مصعب وكان الوقت مناسباً لهم، فقد كاتب عبدُ الملك وجوه أهل الكوفة والبصرة، ورغّبهم في الأموال والأعمال.

وكتب إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، فجعل له ولاية العراقين، فأخذ كتابه،

---

(١) راجع أنساب الأشراف ج٧ ص٨٨.

(٢) إتجاهات المعارضة في الكوفة ص٨٣.

(٣) الأخبار الطوال ص٣١٠.

فدفعه إلى مصعب ، وقال له : اصلح الله الأمير ، إن عبد الملك لم يكتب إلي بهذا الكتاب ، إلا وقد كتب إلى هؤلاء الوجوه بمثله ، وقد أفسدهم عليك. . .[١] .

سقوط مصعب

سار عبد الملك بجنده يريد العراق ، ويلغ ذلك مصعب بن الزبير ، فعزم على محاربته ، وسأل أهلَ البصرة النهوض معه ـ وكان يومئذ في البصرة ـ فقالوا : أصلح الله الأمير ، كيف نسير معك وهذه الحَرورية (أي الخوارج) مُطلّة علينا ، وعلى ديارنا وأموالنا ![٢] ، فخذله أهل البصرة . فتوجه من فوره نحو الكوفة ، واستنهض الناس ، فخرج من الكوفة حتى عسكَرَ عشرة فراسخ منها ، لكي يتلاحق به الناس ، فإذا قد خذله عامة أصحابه ، فاغتم لذلك غماً شديداً[٣] .

وجعل مصعب بن الزبير ينظر إلى أصحابه ويستقلّهم ، ثم دعا بفرسه ، فركبه وركب الناس معه ثم التفت إلى عروة بن المغير ، فقال : ويحك يا عروة ، حدثني عن الحسين بن علي ، كيف صنع في حرب عبيد الله بن زياد ؟ فجعل يحدثه عن الحسين عليه السلام وكيف قُتل ، قال مصعب : فلنا أسوة بأبي عبد الله الحسين . . فضرب بسوطه على قربوص الفرس ، وهو يقول :

أن الألى بالطف من آل هاشم ... تأسَّوْا فسَنُّوا للكرام التأسِّيا

وسار إليه عبد الملك بن مروان حتى وافاه بدير الجاثليق[٤] . ويباتوا ليلتهم هناك ، ولما أصبحوا وإذا بعض أصحاب مصعب قد التحق بعبد الملك بن مروان[٥] .

---

(١) أنساب الأشراف ج٧ ص٨٩ .

(٢) أنساب الأشراف ج٧ ص٨٣ ، وقال المهلب لمصعب : «اعلم أن أهل البصرة وأهل الكوفة قد كاتبوا عبد الملك ، وكاتبهم ، وأنه إنما اجترأ على المسير إلى العراق بكتبهم» .

(٣) الفتوح ج٦ ص٢٦٣ .

(٤) الفتوح ج٦ ص٢٦٤ .

(٥) الأخبار الطوال ص٣١٢ «بتصرف» .

وعندما اصطفّ الناس (للقتال)، مال عتّاب بن ورقاء فذهب ، وكان على خيل أهل الكوفة[١] ، وكان انهزامه على مواطأة منه لأهل الشام[٢] ، وجعل إبراهيم بن الأشتر (وهو قائد جيش مصعب) يقول لرجل رجل : تقدّم، فيأبون عليه[٣] ، واعتزلت ربيعة، وكانوا في ميمنه مصعب، وقالوا له: لا نكون معك ولا عليك[٤] .

واشتبكت الحرب بينهم، فجعل إبراهيم بن الأشتر يقاتل بين يدي مصعب بن الزبير قتالاً لم يسمع الناس بمثله . . . واحدقت الخيل به من كل جانب، فطعنوه حتى صرعوه عن فرسه، ثم اجتمعت عليه السيوف، فوقعت به نيّف على ثلاثين ضربة ، ثم بَرَد، ثم احتُزّ رأسه ـ رضي الله عنه ـ فأتي به عبد الملك [٥] ، وأحرق جثّته موالي حُصين بن نُمير[٦] .

فلما قتل إبراهيم بن الأشتر ، تضعضع ركن مصعب بن الزبير، فالتفت إلى قَطَن بن عبد الله الحارثي، فقال له : أبا عثمان، قدّم خيلك ـ يرحمك الله ـ فقال: ما أرى ذلك صواباً! فقال: ولِمَ ذلك؟ فقال: إني أخاف أن تُسفك دماء مذحج في غير شيء، لأن القوم كثير.

فالتفت مصعب إلى محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني ، فقال له : أبا عبد الرحمن ، لو قدّمت رايتك قليلاً نحو أهل الشام، قال : ما رأيت أحداً فعل ذلك، فافعله أنا ! فعندها قال معصب بن الزبير: وإبراهيماه! ولا إبراهيم لي اليوم[٧] .

---

(١) أنساب الأشراف ج٧ ص٩٤ .

(٢) أنساب الأشراف ج٧ ص٩١ .

(٣) أنساب الأشراف ج٧ ص٩٤ .

(٤) الأخبار الطوال ج ص٣١٣ .

(٥) الفتوح ج٦ ص٢٦٥ .

(٦) أنساب الأشراف ج٧ ص٩١ .

(٧) الفتوح ج٦ س٢٦٦ ، وانظر أيضاً تاريخ الطبري ج٦ ص١٥٨ ، أنساب الأشراف ج٧ ص٩٤ . وهؤلاء

فلما رأى مصعب ذلك، استمات، فترجّل، وترجّل معه حماة أصحابه، فقاتلوا حتى قتل عامتهم، وانكشف الباقون عن مصعب. فحمل عليه عبد الله بن ظبيان، فضربه من وراءه بالسيف، ولا يشعر به مصعب، فخرّ صريعاً، فنزل وأجهز عليه، واحتزّ رأسه.

ولما قُتل مصعب، استأمن من بقي من أصحابه إلى عبد الملك، فآمنهم[1]. ووفى لهم.

وكان قتل مصعب يوم الخميس للنصف من جمادى الأولى سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م. فارتحل عبد الملك بالناس، حتى دخل الكوفة، فدعاهم إلى البيعة، فبايعوه، ثم جهّز الجيوش إلى تُهامة، لمحاربة عبد الله بن الزبير، وانصرف عبد الملك إلى الشام وكانت جيوش الشام المقاتلة في الحجاز بأمرة الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعد حصار وقتال طويل انتهت دولة آل الزبير بمقتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ في ١٧/ جمادى الأولى[2].

= هم الذين قالوا لمصعب عندما أراد اطلاق سراح الأسرى من جند المختار: اخترنا أو اخترهم، فقتل الأسرى نزولاً عند إرادة هؤلاء الأعيان، فكان جزاءه أن خذلوه في ساعة الشدة!!

(١) الأخبار الطوال ص٣١٣، وبقية المصادر مثل تاريخ الطبري ج٦ ص١٥٩، وأنساب الأشراف ج٧ ص٩٥، والفتوح ج٦ ص٢٦٧ تنقل حادثة قتل مصعب بأسلوب مختلف، فراجع.

(٢) راجع ص٥٣٨، وكذلك الأخبار الطوال ص٣١٤.

قصر الإمارة ونهايته

بعد انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير، سار حتى دخل الكوفة، فدخل إلى قصر الإمارة، ونادى في الناس وأعطاهم الأمان، ثم دعاهم إلى بيعته، فصاروا إليه طائعين غير مكرهين[١].

وفي قصر الإمارة جلس عبد الملك بن مروان، وبين يديه رأس مصعب بن الزبير.

يقول أحدهم: دخلت على عبد الملك بن مروان، وبين يديه راس مصعب بن الزبير[٢]، فرأى عبد الملك مني اضطراباً، فسألني، فقلت: يا أمير المؤمنين، دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بن يدي ابن زياد في هذا الموضع، ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار فيه، ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب ابن الزبير، وهذا رأس مصعب بين يديك، فوقاك الله يا أمير المؤمنين[٣]، فقال: لا أراك [الله] الخامسة[٤]، فوثب عبد الملك بن مروان، وأمر بهدم الطاق الذي على المجلس[٥].

---

(١) الفتوح ج٦ ص٢٧٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٥، وفي الفتوح ج٦ ص٢٧٠ الراوي «الشعبي»، وفي مروج الذهب ج٣ ص١١٧ «أبو مسلم النخعي»، وفي تاريخ الإسلام ج٣ ص٢١٠ عبد الملك بن عمير.

(٣) مروج الذهب ج٣ ص١١٧.

(٤) ينابيع المودّة ج٢ ص٣٩٠.

(٥) مروج الذهب ج٣ ص١١٧، وفي تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٦٥: فخرج من ذلك البيت وأمر بهدمه، وفي الفتوح ج٦ ص٢٧٠: ودعا بدابته، فركب، وخرج من القصر... ولم يذكر الهدم الجزئي أو الكلّي.

المختار ودولته في الميزان

لقد تعرض بعض المؤلفين للمختار ودولته، وامتداداتها على الأرض الإسلامية، وكان الحديث عموماً إيجابياً حتى أولئك الذين ينتقصون المختار، أو يأخذون جانب الحياد. . يتحدّثون عن جوانب إيجابية، استمرت اشعاعاتها لعقود متواصلة بعد استشهاده (رضوان الله عليه).

وهنا نحاول رصد آراء بعض المحققين، عن طبيعة ثورة المختار، وأثرها في الأجيال التي تلت تلك النهضة المباركة.

يرى الدكتور عبد الأمير دكسن أن ثور المختار: «قد ساهمت إلى درجة كبيرة في تطور الشيعة، كفرقة دينية وسياسية، وكذلك كان لها تأثيرها العام في التاريخ الاجتماعي والسياسي للفترة الأموية خاصة، والتاريخ الإسلامي عامة»[١].

ويقول باقر شريف القرشي: «ثورة المختار هي من أنبل الثورات، وأكثرها أصالة في الإسلام، فقد استهدفت الأخذ بثأر العترة الطاهرة. . . كما استهدفت نشر المساواة والعدالة الاجتماعية بين الناس»[٢]. ويقول العلامة الأميني: «. . إن نهضته (المختار) الكريمة، لم تكن إلا لإقامة العدل، باستئصال شأفة الملحدين، واجتياح جذوم الظلم الأموي»[٣].

ويقول المحقق هاشم معروف الحسني: «لقد تنفس الشيعة خلال تلك الفترة القصيرة التي ظهر فيها المختار بن أبي عبيد الثقفي، وذاقوا طعم الراحة، وأحسّوا

---

(١) الدولة الأموية ص٥٥.

(٢) حياة الإمام الحسين ج٣ ص٤٥٧.

(٣) الغدير ج٢ ص٣٤٣.

بوجودهم ، وبخاصة بعد أن أصابوا ثأرهم . . . ويرز (المختار) كبطل من أبطال التاريخ الذين حاربوا الظلم والظالمين ، من أجل الحق والعدل وكرامة الإنسان»[١] .

ويرى الدكتور علي الخربوطلي ، أن المختار : «اتبع سياسة علي بن أبي طالب . . . وشعر العراقيون بفترة رخاء اقتصادي لم يشهدوا مثلها من قبل»[٢] ، وأضاف أيضاً : «كان المختار عادلاً ، فوضع أسس حكومة تعدل بين الناس ، وتساوي بين الجميع . . . ولم يحدثنا المؤرخون اطلاقاً عن حادثة واحدة غدر فيها المختار بعدو له ، أو أنه أسرف في سفك دماء خصومه»[٣] .

ويقول إبراهيم محمد خليفة واصفاً ثورة المختار : «إن المختار لم يثر من أجل مكسب مادي ، وإنما ليأخذ بثأر الحسين ﷺ وينتقم من المجرمين ، فقد كانت ثورته المباركة من أنبل الثورات وأكثرها أصالة في الإسلام . . »[٤] .

وقال آخر : « المختار الذي سبق عصره ، بفكره السياسي ، وبخططه الناجحة ، وبذكائه العظيم ، استطاع أن يقدم لجماهير الثورة منجزات تستحق الإعجاب والتقدير . . »[٥] .

ويرى الدكتور نبيه عاقل في سقوط دولة المختار : «تهاوي حركة من أكبر الحركات التي قامت لنُصرة آل علي ، وبني هاشم عموماً»[٦] .

وكان لنهضة المختار أثرها في أرجاء البلاد الإسلامية ، واستمر هذا الأثر إلى بعد استشهاده (رضوان الله عليه) ، فكانت الثورات تتوالى ضد الحكم الظالم لبني

---

(١) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ ص٤٧٣ .

(٢) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٣٥٥ .

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص٤٢ .

(٤) رموز خالدة في الحق والحرية ص٢٢٨ .

(٥) المختار ضمير وسط الظلام ص٨٧ .

(٦) تاريخ خلافة بني أمية ص١٥٠ .

أمية ، «إذ بث بمناصرته لهم (الموالي والمسحوقين) في نفوسهم آمالاً عريضة ، ما لبثوا أن حرصوا على تحقيقها بعد مقتله ، فجاهدوا طويلاً حتى أسقطوا الدولة الأموية ، وأقاموا الدولة العباسية»[1].

ويكلمة أخيرة : «لو كان المختار قد حقق هدفه الأصلي ، لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية»[2] . على حد تعبير المستشرق الألماني (فلهوزن) .

---

(١) عشر ثورات في الإسلام ص١٣٢ ، وراجع أيضاً «المختار الثقفي مرآة العصر الأموي» ص٣٨ حول الصعوبات الثقيلة التي واجهت الأمويين ما بعد عصر المختار ، والثورات المتلاحقة ضد الظلم الأموي ، وكانت كلها نتاج حقيقي لثورة المختار .

(٢) عشر ثورات في الإسلام ص١٣٤ .

إنهيار دولة المختار

(الأسباب والعوامل)

كان المقدّر لدولة المختار الثقفي أن تعيش أكثر مما عاشت، لكن كان لبعض الأسباب والعوامل الدور الفعّال في إنهائها حيث انتهت.

ومن هذه العوامل ـ وقد أتينا على ذكر بعض منها في طيات البحث ـ:

١ ـ إن ثورة المختار لم تكن حركة سياسية اسلامية شاملة، تستهدف قلب النظام الأموي[١].

٢ ـ منذ بدأ الثورة أعلن المختار أنه تابع في قراراته لأهل بيت النبي ﷺ، لكن في المقابل لم يعلن الإمام زين العابدين عليه السلام أو محمد بن الحنفية ارتباطه بالمختار ـ لأسباب ذكرناها ـ وهذا الغموض قد يكون من عوامل الإخفاق[٢].

٣ ـ إعتزال إبراهيم بن الأشتر، وعدم استجابته لنداءات الاستغاثة المتكررة من المختار الأشهر الأخيرة لأسباب مجهولة غامضة، مما أطمع مصعب ـ واللاجئين عنده من أهل الكوفة ـ به، فكانت حالة الانقسام والتباعد هذه مما سهّل القضاء على دولة المختار الفتيّة[٣].

---

(١) تاريخ العرب والإسلام (زكار) ص١٥٢.

(٢) يقول العلامة السيد تقي المدرسي في كتابه «التاريخ الإسلامي» ص٩٦: «ولكن هنا يجب أن نعرف بطولة المختار، وتفانيه في سبيل الحق: في قبول عدم التأييد الظاهري للإمام زين العابدين عليه السلام، وقبوله القيام بالثورة دون أن يفشي السرّ الذي بينه وبين الإمام عليه السلام».

(٣) راجع ص ٤٣٣.

٤ ـ خيانة أحد قواده في معركة المذار، بإشارته على ابن شميط أن ينزل الموالي عن الجياد، فحلّت بذلك الطامة الكبرى، وابادة جيش المختار[١].

٥ ـ وضع جميع فئات الشعب أمام القانون بدون تمييز، وتقسيم إيرادات بيت المال على الجميع (الأشراف والموالي) بدون إستثناء، مما أثار حنق الأشراف العنصريين عليه، فتضافروا على سحق دولته[٢].

فرغم توفر جميع مقومات النجاح والبقاء لدولة المختار، إلا أنها انهارت وتحطمت بفعل هذه الأسباب. وأُسدل الستار على أكبر الحركات السياسية التي شهدتها بلاد العراق في العصر الأموي، والتي أثرت في تاريخ الدولة الأموية عامة، وتاريخ بلاد العراق خاصة[٣].

---

(١) راجع ص ٤٢٨.

(٢) راجع ص ٣٠٣.

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي ص ٣١٠.

الفصل الحادي والعشرون

مكـانـة المـختـار

المختار ونهضته في الشعر العربي

تناول الشعراء نهضة المختار في شعرهم، بين قادح له ومادح. وقد آثرنا عدم التعرّض للشعر القادح فيه، لما تبين لنا براءة ذمته من الأكاذيب والأباطيل التي افتريت عليه.

وقد حمل إلينا الأدب العربي الكثير من الشعر في مدح المختار ونهضته المباركة، ابتداءً من زمن النهضة إلى زماننا هذا. ونورد هنا بعض عيون تلك القصائد.

فبعد أن استتبّت السلطة في يد المختار، دخل عليه عبدُ الله بن همّام، وأنشده قصيدته التي نظمها عن حصار المختار وأصحابه للقصر، فقال:

ألا انتَسَأتْ بالودِّ عنكَ وأدبَرَت ... مُعالنَةً بالهجر أمُّ سريع
وحمَّلها واش سعى غير مُؤتَل ... فأَبْتَ بهَمٍّ في الفؤاد جميع
فخفِّضْ عليك الشأنَ لا يُرْدِكَ الهوَى ... فليس انتقالُ خَلَّة ببديع
وفي ليلة المختار ما يُذهل الفتى ... ويلهيه عن رؤد الشباب شَمُوع
دعا بالثارات الحسين فأقبلت ... كتائبُ من هَمْدان بعد هَزيع
ومن مذحج جاء الرئيسُ ابنُ مالك ... يقود جُموعاً عُبِّيت بجموع
ومن أسد وافى يزيدُ لنصره ... بكل فتى حامى الذِّمار منيع
وجاء نُعَيْمٌ خير شيبان كلها ... بأمر لدى الهيجا أحَدَّ جميع
وما ابن شميط إذ يحرض قومه ... هناك بمخذول ولا بمُضيع
ولا قيسُ نهْد لا ولا ابنُ هوازن ... وكلٌّ أخو إخباتَة وخُشُوع
وسار أبو النعمان (لله سعيُه) ... إلى ابن إياس مُصحراً لوقوع
بخيل عليها ـ يومَ هيجا ـ دروعُها ... وأخرى حُسُوراً غيرَ ذات دُروع

فكــرَّ الخيــولَ كــرَّة ثقفيّــةً ... وشدَّ بأولاها على ابن مُطيعِ

فولّى بضرب يشدخ الهام وقعُهُ ... وطعن غداة السكتين وجيعِ

فحوصر في دار الإمارة بائياً ... بذلٍّ وإرغامٍ لـه وخضوعِ

فمنَّ وزير ابن الوصيِّ عليهمُ ... وكان لهم في الناس خير شفيعِ

وآبَ الهُدى حقاً إلى مستقرهِ ... بخير إيابٍ آبَهُ ورجوعِ

إلى الهاشميِّ المهتديِّ المهتدى بـه ... فنحن لـه من سامعٍ ومطيعِ(١)

وقال عبيد الله بن الحُرِّ الجعفي في المختار وأصحابه قصيدة تشيد بانتصارهم لأهل البيت عليهم السلام :

ولما دعا المختارُ للثأر أقبلتْ ... كتائبُ من أشياع آلِ محمدِ

وقد لبسوا فوقَ الدروعِ قلوبَهمْ ... وخاضوا بحارَ الموتِ في كلِّ مشهدِ

هُمُ نصروا سبطَ النبيِّ ورهطَهُ ... ودانوا بأخذِ الثأرِ من كلِّ مُلحدِ

ففازوا بجناتِ النعيمِ وطيبها ... وذلكَ خيرٌ من لُجينٍ وعَسْجدِ

ولو أنني يومَ الهياجِ لدى الوغى ... لأعملتُ حدَّ المشرفيِّ المهنَّدِ

ووا أسفا إذ لم أكنْ من حماتِهِ ... فأقتلَ فيهمْ كلَّ باغٍ ومُعتدِ(٢)

وقد أطنب الشيخ الميرزا محمد علي الأوردبادي في المديح للمختار ونهضته المباركة ؛ فقال :

يُهنيكَ يا بطلَ الهدى والثارِ ... ما قد حويتَ بجدّكَ الأوتارِ

لكَ عند آل محمد كم من يدٍ ... مشكورةٍ جلّت عن الإكبارِ

عرفتكَ مُقبلةُ الحروبِ محنّكاً ... فيه بجنانٌ مهذبٌ متوارِ

أضرمتَ للحربِ العوانِ لظىً بها ... أضحت بنو صخرٍ وقودَ النارِ

---

(١) تاريخ الطبري ج٦ ص٣٥.

(٢) أدب الطف ج١ ص٩٩.

وأذقتَ نغلَ سمية بأسَ الهُدى وأميةً كأس الردى والعار
فرؤوا هواناً عند ضفَّة خازر بمهنَّد عند الكريهة وار
فرَّقتَ جَمْعَهُمُ العرمرمَ عَنْوَةً يومَ الهياج بفيلَق جرّار
وفوارس من حزب آل المصطفى أُسْدُ الوغى خواضةُ الأخطار
وبواسل لم تُغْرهم وَثَباتُهُم إلا بكل مُدَجج ثوار
لم يعرفوا إلا الإمامَ وثارَهُ فتشادقوا فيها بيا للثَّار
فتفرقَّت فرقاً علوجُ أمية من كل زنَّاء إلى خمَّار
وأخذت ثأراً قبله لم تكتحل عَلَوِيَّةٌ مُذ أُرزئَتْ بالثار
وعمرْتَ دوراً هُدِّمت منذُ العدى بالطفِّ قد أوْدَت برب الدار
عظُمَ الجراح فلم يُصب أعماقَه إلاك يا حُيِّيتَ من مسْبار
في نجدة ثقفية يسطو بها في الروع من نَخَع هزبْر ضاري
ألنَّدبُ إبراهيم من رضخت له الصيِّدُ الأُباةُ بملتقى الآصار
من زانه شرفُ الهدى في سُؤْدد وعلا يفوح بها أريجُ نجار
حشوُ الدروع أخو حجى من دونه هضب الرواسي الشمّ في المقدار
إن يحكه فالليثُ في حملاته والغيثُ في تَسْكابه المدْرار
أو يحوه فقلوبُ آل محمد ألمصطفينَ السادة الأبرار
ما إن يَخُضْ عند اللقا في غمرة إلا وأرسبَ مَنْ سَطا بغمار
أو يمّم الجلّى بعزم ثاقب إلا ورد شواظها بأوار
ألمرتدي حُلَلَ المديح مَطارفاً والمنطي ذللاً لكل فَخار
وعليه كلُّ الفضل قصْرٌ مثلما كل الثنا قصْرُ على المختار
عن مجده أرج الكبا وحديثه زهت الروابي عنه بالأزهار
ومآثر مثل النجوم عدادها قد شفعت بمحاسن الآثار
وكفاه آل محمد ومديحهم عما ينضّد فيه من أشعار

أسفي على أن لم أكن من حزبه ... وكمثلهم عند الكفاح شعاري

فهناك أما موتةٌ أرجو بها ... أجر الشهادة في ثناء جاري

أو أنني أحظى بنَيْلِ المبتغى ... من آل حرب مُدركاً أوتاري

وأخوض في الأوساط منهم ضارباً ... تَبَعَ الجـ [illegible] المِقْضب البتّارِ

ولأُثكلنَّ أرامـلاً في فتيةٍ ... نشئوا على الإلحاد في استهتارِ

ومشيخة قد أورثوا كلَّ الخَنا ... والعار أجربة من الكفار

لكن على ما فيَّ من مَضَضِ الجَوى ... إذ لم أكن أحمي هناك ذِماري

لم تعدني تلك المواقفُ كلُّها ... إذ إنَّ ما فعلوا بها مختاري

فلقد رضيت بما أراقوا من دمٍ ... فيها لكلِّ مذمَّم كفّارِ

ولأشفينَّ النفس منهم في غدٍ ... عند اشتباك الجحفلِ الموّارِ

يوم ابنُ طه عاقد لبنوده ... وجنوده تلتاح في إعصار

تشوي الوجوه لظىً به نزاعة ... لشَوى الكُماة بأنْصُل وشِفار

فهنالك الظَّفَرُ المريحُ جوى الحشا ... من رازح في كَرْبِهِ بإسار

ويتمُّ فيه القصد من عُصَبِ الوَلا ... لبني الهدى كالسَّيد المختار

يا أيها النَّدبُ المرجَّج عزمه ... وأمينُ آلِ المصطفى الأطهار

يانجعة الخطب الملم وآفة الـ ... ـكَربِ المُهِمِّ وندحة الأوزار

لا غرو إن جهلت عُلاك عصابةُ ... فالقوم في شُغل عن الإبصار

فلقد بزغت ذكاً وهل يُزرى بها ... إن تَعْشُ عنها نظرةُ الأبصار؟!

لك حيث مُرتبع الفخار مباءةُ ... ولَمن قلاك مزلَّة الأغرارِ

ومُبَوَّءٌ لك في جوار محمد ... ومَلاذ عترته حماة الجار

فلئن رمَوْك بمحفظ من إفكِهِم ... فالطود لا يُلوى بعصْفِ الذّاري

أو يجحدوك مناقباً مأثورةً ... مشكورة في الورد والإصدار

فلك الحقيقة والوقيعة لم تزل ... عن قُدس مجدِك في شفير هارِ

فتَهَنَّ مُحتبياً بسُؤددك الذي ... تزْوَرُّ عنه جَلْبَةَ المهذار
خذها إليك قصيدةً منضودةً ... من جوهرٍ أو من سَبيك نضار
لم يحكِها نجمُ السَّماء لأنها ... بزغت بشارقة من الأقمار
كلا ولا ضاهى محاسنَ نظمِها ... ما عن حُطيئة جاء أو بشَّار
هي غادةٌ زفَّت إليك ولم يُشِنْ ... إقبالَها بدعارة ونفار
هبَّت عليك نسائمٌ قدسيَّةٌ ... حيَّت ثراك برحمةٍ ويسار
وسقى لإبراهيمَ مُضطجعِ الهُدى ... ودقُ الغَمامِ المُرزِم المِكْثار
ما نافحُ الروضِ النسيمِ مشفَّعاً ... سجع البلابل فيه شَدْو هزار
يتلو كَما يُتلى بكلِّ صحيفةٍ ... مرّ العشيِّ وكَرَّةِ الإبكار(١)

وقد أجاد السيد مهدي السويج عندما قال:

إلى الثائر المختارِ نعماؤها تترى ... بجنب حسينٍ في الجنانِ وبالزهرا
إليك أبا إسحاق نهدي مدائحاً ... فإنك أهلُ المدح طابتْ بك الذكرى
أخذتَ بثار السبط يوم تقيَّدَت ... عن الأخْذِ أهلُ الثار من مُضَر الحمرا
فإن عليَّ بن الحسين تفاقمتْ ... عليه رزايا الطفِّ فاستلزم الصَّبرا
لقد أثرت تلك القيودُ به وقد ... تعاقبت الأحداثُ والمِحَنُ الكُبرى
فقمت أبا اسحاق تدعوا منادياً ... إلا يا لثارَ السبطِ إنّا به أحرى
فإنّا لآل الطُهر أحمد شيعةٌ ... وإنَّهُمُ الساداتُ فلنَكْفِهِمْ أمرا
لعمري لئن قلنا عن النصر (ليتنا) ... لماذا بثار السبط لا نكسِبُ الأجرا
هلموا بنا لله نفدي نفوسَنا ... هلموا نواسي السبطَ والعترةَ الغرّا
أجابك إبراهيمُ في جمْعِ مِذْحِجِ ... وهمْدانَ والحَمراءَ في كَبدٍ حَرى
وأردى عبيدَ الله نغلَ سميَّةٍ ... وأجرى دماءَ الكفرِ من خازرٍ نهرا

---

(١) الغدير ج٢ ص٣٤٥ .

وأرديتَ شمراً وابنَ سعدٍ ونغلِهِ ... وأفنيت مَنْ بالطف كان له وكرا
فما عَبرةٌ جفَّتْ لآلِ محمدٍ ... ولا رؤيت نارٌ، لما قَصَمَ الظَّهرا
وما أدهنَتْ في طيبةٍ هاشميةٌ ... ولا امتشطتْ من قبلِ أن تأخذَ الثأرا
دعا لك بالرضوان زينُ عبادها ... وصادقُ أهل البيت أثنى كما أطرا
فولَتْ حكايات رُمْتَك بشَيْنِها ... فمِنْ كل شَيْنٍ أنتَ رغمَ العِدى تَبرأ
جُزيتَ أبا اسحاقَ خيراً وجَنَّةً ... عن الآل فيما قد أصبْتَ لهم نصرا
لنجلِ عقيلٍ مسلم أنت ناصرٌ ... بسِرٍّ وجَهْرٍ ثُمّ جاورْتَهُ قَبرا
لِيُهنِيكَ يا مختارُ ما أنتَ سائِرٌ ... إليه وما خلَّفت من أسْعدِ الذكرى[1]

---

(١) أولاد الإمام علي عليه السلام ص١٢٠ .

المختار في عيون أهل البيت عليهم السلام

قد تظافرت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام، تثني على المختار وتشيد بمواقفه العظيمة، ولم يزل مشكوراً عندهم، ابتداءً من أمير المؤمنين عليه السلام، والإمام علي بن الحسين. زين العابدين عليه السلام، والإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، والإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

فهذا الاصبغ بن نباتة يقول: «رأيت المختار على فخذ أمير المؤمنين، وهو يمسح رأسه، ويقول: يا كيِّس.. يا كيِّس»[1].

والإمام زين العابدين عليه السلام لما أُتي برأس عبيد الله بن زياد ورأى رأس عمر بن سعد، خرّ ساجداً، وقال: «الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي، وجزى الله المختار خيراً»[2].

أما عن الإمام الباقر عليه السلام، فإنه قال: «لا تسبّوا المختار، فإنه قتل قتلتنا، وطلب بثأرنا، وزوّج أراملنا وقسم فينا المال على العسرة»[3].

ويقول عبد الله بن شريك: «دخلنا على أبي جعفر (الباقر) عليه السلام يوم النحر، وهو متكيء، وقد أرسل إلى الحلاق، فقعدت بين يديه، إذ دخل عليه شيخ من أهل الكوفة، فتناول يده ليقبّلها، فمنعه، ثم قال: من أنت؟ قال: أنا أبو محمد الحكم

---

(١) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٥، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١، عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٤٩ ص٦٦٩ بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٤.

(٢) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٥، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١، عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٤٩، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٧.

(٣) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٤، جامع الرواة ج٢ ص٢٢٠، عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) ص٦٧٠، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٣.

ابن المختار بن أبي عبيد الثقفي ـ وكان متباعداً من أبي جعفر ﷺ ـ فمد يده إليه حتى كاد يقعده في حجره ـ بعد منعه يده ـ ثم قال: أصلحك الله، إن الناس قد أكثروا في أبي وقالوا، والقول والله قولك، قال: وأي شيء يقولون؟ قال: يقولون كذّاب، ولا تأمرني بشيء إلا قبلته. فقال: سبحان الله، أخبرني أبي والله أن مهر أمي كان مما بعث به المختار.. أوَلَم يبن دورنا، وقتل قاتلينا، وطلب بدمائنا؟ رحمه الله. وأخبرني (والله) أبي أنه كان ليتمّ عند فاطمة بنت علي، يمهد لها الفراش ويثني لها الوسائد، ومنها أصحاب الحديث.. رحم الله أباك.. رحم الله أباك، ما ترك لنا حقاً عند أحدٍ إلا طلبه.. قتل قتلتنا، وطلب بدمائنا»[1].

وقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ قوله: «ما امتشطت فينا هاشمية ولا اختضبت، حتى بعث إلينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين ﷺ»[2]، وفي رواية أخرى: «ما اكتحلت هاشمية ولا اختضبت ولا رُئي في دار هاشمي دخان خمس حجج حتى قتل عبيد الله بن زياد»[3].

وكان كذلك موقف محمد بن الحنفية وابن عباس[4]، وكذلك بقية بني هاشم، فعندما وردت رؤوس الذين قتلوا الحسين ﷺ على محمد بن الحنفية وعلي بن الحسين ﷺ، وبعد ترحمهما عليه، جاء دور بني هاشم، فتكلموا: «... ولم يبق من بني هاشم أحدٌ إلا قام بخطبة في الثناء على المختار، والدعاء له، وجميل القول فيه»[5].

---

(١) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٥، جامع الرواة ج٢ ص٢٢٠، عوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٦٥٠، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٣.

(٢) معجم رجال الحديث ج١٨ ص٩٤، جامع الرواة ج٢ ص٢٢١، عوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٦٥٢، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٤٤.

(٣) عوالم العلوم (الإمام الحسين ﷺ) ص٧٠٧، بحار الأنوار ج٤٥ ص٣٨٦ وفي نفس المصدر عن فاطمة بنت علي، أنها قالت: ما تحنأت امرأة منّا، ولا أجالت في عينها مروداً، ولا امتشطت، حتى بعث المختار رأس عبيد الله بن زياد.

(٤) راجع ص ٣٨٧.

(٥) الطبقات الكبرى ج٥ ص١٠٠.

المختار في عيون المحققين والمؤلفين

قد أثنى على المختار جُلّ المؤلفين، وأكثر المحققين من علماءنا الأبرار، ولا يضير ذلك توقف القليل منهم، وعدم إبداء آرائهم حول حقيقة هذا الرجل المخلص، لتشوّش الرؤية عندهم.

فقد أثنى عليه العلامة الأميني، فقال عنه: «رجل الهدى.. الناهض المجاهد، والبطل المغوار»، وقال أيضاً: «إن المختار في الطليعة من رجالات الدين والهدى والاخلاص»[1].

يقول العلامة عبد الرزاق المقرّم: «تجلّى للعلماء الأعلام صدق المختار في النية، واخلاصه في الموالاة والدعوة لأهل البيت ﷺ، فحكموا ببرائته من تلك السيئات التي قذفه بها أعداء آل محمد ﷺ. وممن جاهر بذلك: ابن داود في رجاله، وابن طاووس في التحرير الطاووسي، والعلامة الحلي في الخلاصة، والإسترابادي في حاشيته على منهاج المقال والفاضل الحائري في منتهى المقال، والسيد مصطفى في نقد الرجال، والمحقق الاردبيلي في حديقة الشيعة، والسيد يوسف بن محمد بن محمد ابن زين الدين في الجامع للأقوال، والحاج إبراهيم الخوئي في ملخص المقال، والسيد حسن البروجردي في منظومته الرجالية زبدة المقال، والحاج ملا علي ياري التبريزي في شرح هذه المنظومة (بهجة الآمال) والحاج ميرزا حبيب الله الخوئي في شرحه على النهج ج٢ ص٧٤، فإنهم اتفقوا على: نزاهته من كل دنية، وهتفوا بصوت واحد.. إنه من السابقين الأخيار[2].

---

(١) الغدير ج٢ ص٣٤٣.

(٢) تنزيه المختار ص١٧، وقد نقل العلامة الأميني في الغدير ج٢ ص٣٤٣ بعض أسماء هؤلاء العلماء المدافعين عن المختار، فقال: «وقد أكبره ونزّهه العلماء الأعلام، منهم: سيدنا جمال الدين بن طاووس =

وأثنى عليه المراجع الكبار، فالمرجع الديني الإمام السيد أبـو القاسـم الخوئي قـال عنه: «ويكفي في حسن حال المختار إدخاله السـرور في قلـوب أهـل البيـت سـلام الله عليهم بقتله قتلة الحسين ، وهذه خدمة عظيمة لأهـل البيـت ، يسـتحق بهـا الجزاء من قبلهم»[1].

وكذلك أثنى عليه ونزهه المرجع الديني الإمام السيد محمـد الشيرازي، بقولـه: «إن ثلاثـة مـن الأئمـة دعـوا للمختـار (رحمـه الله)، وقـد حكـم. . . علـى شـرق العالم الإسلامي، فهل كان حكمه باطلاً؟ وهل الأئمـة يدعـون لحـاكم بـاطل؟! بـل وكان الإمام أمير المؤمنين يسميّه بـ«الكيس»، وهـل الـذي يحكـم بـاطلاً كيّـس بنظر الإمام ؟!»[2].

وكذلك كان رأي المرجع الديني الإمـام السـيد علـي السيسـتاني، فقـد قـال: «إن خروج المختار وطلبه بثأر الحسـين ، وقتلـه لقتلـة الحسـين لاشـك في أنـه كـان مرضياً عند الله وعند رسوله والأئمة الطاهرين »[3].

=

في رجاله، وآية الله العلاّمة في الخلاصة، وابن داود في رجاله، والفقيه ابن نما فيما أفرد فيه من رسالته المسمات بـ (ذوب النضار)، والمحقق الاردبيلي في حديقة الشيعة، وصاحب المعالم في التحرير الطاووسي، والقاضي نور الله المرعشي في المجالس، وقد دافع عنه الشيخ أبو علي في منتهى المقال، وغيرهم.

وقد بلغ من اكبار السلف له، أن شيخنا الشهيد الأول ذكر في مزاره زيارة تخصّ به ويزار بها، وفيها شهادة صريحة بصلاحه، ونصحه في الولاية، وإخلاصه في طاعة الله، ومحبة الإمام زين العابدين، ورضا رسول الله وأمير المؤمنين ـ صلوات الله عليهما وآلهما عنه، وأنه بذل نفسه في رضا الأئمة، ونصرة العترة الطاهرة، والأخذ بثأرهم».

(١) معجم رجال الحديث ج١٨ ص١٠٠.

(٢) السبيل إلى إنهاض المسلمين ص٣٩.

(٣) نشرة «الحوار» عدد (٢) رجب شعبان ١٤٢٠هـ ص٦.

وكذلك هو رأي العلامة السيد محمد تقي المدرسي، الذي قال: «إن المختار كان رجلاً رسالياً.. ثورياً مخلصاً، يدعو إلى الرضا من آل محمد، وهو الإمام زين العابدين عليه السلام»[١].

ويصف المحقق محمد علي الحسني المختار بقوله: «وما الثائر المختار إلا واحد من أولئك الأبطال الشيعة الموالين.. الذين ثاروا لزعيمهم وقائدهم وأمامهم... حمل سيفه على عاتقه، يجاهد ويدافع عن الإسلام، حتى اللحظات الأخيرة من حياته... عمل في ميادين السياسة بمهارة، لم يحترف سياسة المراوغة والنفاق واللف والدوران.. والخلاصة، إن ولائه وحبه لعلي وآل علي كان من أعماق قلبه.. مطيعاً مدافعاً عنهم.. ناصراً لدعوتهم»[٢].

ويقول الكاتب إبراهيم محمد خليفة: «كان المختار من ألمع الشخصيات السياسية التي عرفها التاريخ الإسلامي... وكان رجلاً ورعاً تقياً»، ويقول أيضاً: «لقد بعث المختار الفرحة والسرور إلى قلوب آل الرسول ﷺ... فتحيات من الله ورضوانه على المختار الثقفي يوم وُلد ويوم استُشهد ويوم يبعث حياً»[٣].

وقد أثنى عليه كثيراً الدكتور علي الخربوطلي، ولا يسعنا أن ننقل إلا بعض ثنائه، يقول: «كان المختار في أفكاره ووسائله سابقاً لعصره، فإلى جانب الفصاحة ودهائه، كان على جانب كبير من الدراية بعلم النفس، والإلمام بوسائل الدعاية والإعلام، فقد كان يخاطب عواطف الناس كما كان يخاطب عقولهم..»، ويقول أيضاً: «كان المختار قائداً حربياً عظيماً، أبدى تفوقه في جميع الميادين التي اشترك فيها، وكان مستعداً لبذل دمائه في سبيل فكرة يعتقدها»، ويقول في جانب آخر: «لا نعتبر (ابراهام لنكولن) محرر العبيد في أمريكا إلا صورة مكررة من المختار،

(١) التاريخ الإسلامي ص٩٥.

(٢) في ظلال التشيع ص٣٧١.

(٣) رموز خالدة في الحق والحرية ص٢٢٧ ـ ٢٢٩.

الذي عمل دائماً على تحرير الموالي والرقيق في الدولة العربية والإسلامية»[١].

ويقول المحقق باقر شريف القرشي عن المختار: «كان علماً من أعلام الشيعة، وسيفاً من سيوف آل رسول الله ﷺ، وكان يتحرّق كأشد ما يكون التحرّق ألماً وجزعاً على العترة الطاهرة، التي أبادتها سيوف الباطل، وقد سعى جاهداً للإستيلاء على الحكم، لا لرغبة فيه، وإنما ليأخذ ثأر آل البيت، وينتقم من قتلتهم»، ويقول أيضاً: «وبعد دراستنا لشؤونه، رأيناه من أفذاذ التاريخ، ومن أعلام الأمة الإسلامية، بما يملك من طاقات هائلة من الفضل والتقوى، وأصالة الفكر وعمق الرأي، وحسن التدبير، قلّ أن يتصف بمثلها عظماء الرجال وعباقرة الدهر... فتحيات من الله ورضوانه على المختار، يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم يبعث حيّاً»[٢].

---

(١) عشر ثورات في الإسلام ص١٢٦ ـ ١٢٧، وراجع أيضاً كتابه «المختار مرآة العصر الأموي».

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ج٣ ص٤٥٤ ـ ٤٥٧.

مرقــد المختــار

كان قبر المختار معروفاً، يزوره الناس والموالون، وقد ذكر الرحّالة الشهير «ابن بطوطة»، الذي زار الكوفة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، أنه رأى قبة كانت على قبر المختار بن أبي عبيد[1] .

ولكن ومع مرور الزمن، وبعد أن استولى الخراب على الكوفة، يظهر أن قبر المختار اندرس، ومحيت آثاره بقصد أو بلا قصد، ولذلك بقي مجهولاً فترة من الزمن ليست بالقصيرة. يقول عبد الرزاق المقرّم: «بقي المرقد المطهّر للمختار حقباً من الزمن مندرس الآثار، قد عبثت به أيدي رجال مازالوا ولن يزال أعقابهم يهتفون بالقدح في نفسه الزكية، ويضعون الحديث إثر الحديث في الحط من كرامته، وتلويث ذاته الطاهرة. وبالرغم من كل دعاية باطلة، قيّض الله سبحانه وتعالى بعض أوليائه الصالحين للبحث والتفتيش عن ذلك المرقد المقدّس، وهداه بنوره ولطفه إلى موضع الجسد الزكي»[2] .

فقد ذكروا : «إن العلامة الأكبر ـ شيخ العراقيين ـ الشيخ عبد الحسين الطهراني (قدس سره) لما يمّم الأعتاب المقدسة بالعراق، ونهض بعمارتها، فحص عن مرقد المختار في مناحي مسجد الكوفة ليجدد عمارته، وكانت علامة قبره في صحن مسلم بن عقيل (سلام الله عليه) الملاصق بالجامع، وفوق الدكّة الكبيرة أمام حرم هاني بن عروة (رضوان الله عليه) فحفروها، فظهر فيها علامات حمّام، وبان أنه ليس بقبر، فمحى الأثر.

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص٢٣٢ .

(٢) تنزيه المختار ص١٣ .

ثم لم يزل الشيخ يفحص عنه، فانهي إليه عن العلامة الكبير السيد رضا بن آية الله (السيد محمد مهدي) بحر العلوم الطباطبائي ـ رحمه الله ـ أن أباه كان إذا اجتاز على الزاوية الشرقية، بجنب الحائط القِبْلي من مسجد الكوفة (حيث يعرف قبره الآن) يقول: لنقرأ سورة الفاتحة للمختار، فيقرأها. فأمر الشيخ بحفر الموضع، فظهر صخرة منقوش عليها (هذا قبر المختار بن أبي عبيد الثقفي)، فعلم المكان قبراً له. وهو خارج عن باحة المسجد تحت جداره القِبْلي، وإن كان مدخله منه، وكانت سنة عمارته في حدود سنة ١٢٨٥هـ. .»[١].

وقد نقش على جبهة الباب التي ينتهى منها إلى قبره «قد أمر السيد مهدي بحر العلوم، والشيخ جعفر كاشف الغطاء بأن يشيد هذا ضريحاً للمختار، وعيّنا هذا الموضع قبراً له»[٢].

يقول علي الخطيب: «وقبره في زاوية مسجد الكوفة، في الحجرة التي تقع في الجهة اليسرى لمستقبل القبلة في المسجد الكبير، وكان قبره يزار في تلك الحجرة، حتى سنة ١٣٥٤ هجرية. جُدد بناء قبره وسُدّ الباب الذي من المسجد، وفُتح له باب من داخل رواق مسلم بن عقيل، وقد وجدوا صخرة على دكّة قبره رُقم عليها بالخط الكوفي، تشعر بأنه قبر المختار بن أبي عبيد، وقد اعتنت مديرية الأوقاف العراقية ببنائه، وتشييد مرقده أحسن اعتناء، وأولته اهتماماً»[٣].

وكان الناظر من المشبك الموجود على قبره يرى بيتين من الشعر قيلت في حق المختار، كتبت على لوح خشبي موضوع على صندوق القبر، والبيتان هما:

---

(١) تاريخ الكوفة ص٨٥

(٢) تنزيه المختار ص١٤.

(٣) تاريخ من دفن في العراق من الصحابة ص٤٤٠.

يا آخذاً ثأرَ آل المصطفى كَرَمَاً ومُدْركاً لبني المختار أوْتارا
إخْتارَكَ اللهُ للكرّار شيعتَهُ فكنتَ من شيعة المختار كَرّارا

ولكن بعد أحداث الإنتفاضة الشعبانية في عام ١٩٩١ لم تُر هناك ![١]

---

(١) نقلاً عن شاهد عيان .

1 : دار عمرو بن حريث
2 : دار الوليد بن عقبة
3 : دار المختار
4 : دار خالد بن عرفطة
5 : دار أبي موسى
6 : مسجد بني مخزوم
7 : مسجد الأشعث
8 : جبانة كندة
9 : مسجد بني البدّاء
10 : مسجد السّكون
11 : مسجد بني أوْد
12 : مسجد النخع
12 م : جبانة مراد
13 : مسجد جُعفي
14 : مسجد سِماك
15 : جبانة أثير
16 : مسجد بني كاهل
17 : جبانة عرزم
18 : مسجد بني جذيمة
19 : صحراء البَرْذخت
20 : مسجد بني مقاصف
21 : صحراء بني قَرار
22 : مسجد دارم
23 : مسجد بني شَيْطان
24 : مسجد بني تيم
25 : مسجد شبث
26 : صحراء شبث
27 : مسجد بني دهمان
28 : جبانة مخنف
29 : صحراء عبد القيس
30 : مسجد عبد القيس
31 : مصلى خالد
32 : جبانة بشر
33 : مسجد جرير
34 : جبانة السّبيع
35 : مسجد أبي داود
36 : مسجد ثقيف
37 : حمام قطن بن عبد الله
38 : حمام عمرو بن حُريث
39 : مسجد أحمس
40 : الجبانة
41 : بستان زائدة
42 : مسجد شبيب
43 : الايوان
44 : دار الرزق
45 : دار الجزارين
46 : حمام المهبذان
47 : صحراء بني عامر
48 : مسجد بني غني
49 : جبانة سلول
50 : مسجد بني عدي
51 : مسجد الحمراء
52 : جبانة الصائديين
53 : مسجد بني عَنَز

قطيعة عشيرة
سكة
دار (مسكن الأشراف)
مسجد

المصادر

القرآن الكريم

الكتاب	المؤلف	المكان	السنة
الأئمة الاثنا عشر	عادل الأديب	بيروت	١٩٨٥
أحاديث أم المؤمنين عائشة	مرتضى العسكري	بيروت	١٩٨٥
الأخبار الطوال	الدينوري	قم	١٤٠٩هـ
أدب الطف	جواد شبّر	بيروت	١٩٨٨
أسد الغابة	ابن الأثير	بيروت	.
أسرار الشهادة	الفاضل الدربندي	طهران	.
أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثأر	السيد محسن الأمين	بيروت	١٩٩٣
الأعلام	الزركلي		
أعلام النساء	عمر رضا كحالة	بيروت	.
أعيان الشيعة	السيد محسن الأمين	بيروت	١٩٨٣
الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني	دمشق	١٩٦٩
الأنساب	السمعاني	بيروت	١٩٨٨
أنساب الأشراف	البلاذري	بيروت	١٩٩٦
الأوائل	ابن قتيبة	دمشق	١٩٨٧
أولاد الإمام علي عليه السلام	السيد مهدي السويج	بيروت	١٩٩٠
أيام العرب في الإسلام	إبراهيم ـ البجاوي	بيروت	١٩٧٣
الإرشاد	الشيخ المفيد	بيروت	١٩٩٥
إتجاهات المعارضة في الكوفة	د. إبراهيم بيضون	بيروت	١٩٨٦
إختيار معرفة الرجال	الكشي	قم	.

الإستيعاب في معرفة الأصحاب	ابن عبد البر	مصر	-
أمالي الصدوق	ابن بابويه القمي	بيروت	١٩٨٠
الإنتفاضات الشيعية عبر التاريخ	هاشم معروف الحسني	قم	١٤٠٤هـ
بحار الأنوار	العلامة المجلسي	بيروت	١٩٨٣
البداية والنهاية	الحافظ ابن كثير	القاهرة	-
بطل العلقمي	العلامة عبد الواحد المظفر	قم	١٤١٣
التأسيس لتاريخ الشيعة	جعفر المهاجر	بيروت	١٩٩٢
تاريخ أبي الفداء	أبو الفداء		
تاريخ ابن خلدون	ابن خلدون	بيروت	١٩٨١
تاريخ الإسلام	الذهبي	بيروت	١٩٨٩
تاريخ الإسلام	د. حسن إبراهيم حسن	القاهرة	١٩٦٤
التاريخ الإسلامي	العلامة المدرسي	طهران	١٩٨٣
تاريخ الخلفاء	السيوطي	بيروت	١٩٨٨
تاريخ الخلفاء	ابن قتيبة	بيروت	١٩٨١
تاريخ الشعوب الإسلامية	بروكلمان	بيروت	-
تاريخ الطبري	ابن جرير الطبري	القاهرة	١٩٨٧
تاريخ العرب والإسلام	د. سهيل زكار	بيروت	١٩٨٢
تاريخ العرب والإسلام	د. عادل زيتون	دمشق	١٩٨٧
تاريخ الكوفة	السيد حسن البراقي	بيروت	١٩٨٧
تاريخ اليعقوبي	اليعقوبي	بيروت	-
تاريخ خلافة بني أمية	د. فاخر عاقل	بيروت	١٩٨٣
تاريخ خليفة بن خياط	خليفة بن خياط	بيروت	١٩٩٣
تاريخ كربلاء	عبد الجواد الكليدار	عمّان	-
تاريخ مدينة دمشق	إبن عساكر	دمشق	١٩٨٦

تاريخ مرقد الحسين والعباس	د. سلمان آل طعمة	بيروت	١٩٩٦
تاريخ من دفن في العراق من الصحابة	علي الخطيب	بيروت	١٩٧٤
التحرير الطاووسي	إبن طاووس	بيروت	١٩٨٨
تذكرة الخواص	إبن الجوزي	بيروت	١٩٨١
تنزيه الأنبياء	الشريف المرتضى	بيروت	١٩٨٩
تنزيه المختار	عبد الرزاق المقرم	قم	١٤١١
تنقيح المقال	العلامة المامقاني	إيران	-
تهذيب الأحكام	الشيخ الطوسي	بيروت	١٩٨١
التوحيد	الشيخ الصدوق	قم	١٤٠٥
ثورة الحسين.. ضروفها الاجتماعية	محمد مهدي شمس الدين	بيروت	١٩٨١
جامع الرواة	محمد علي الأردبيلي	بيروت	١٩٨٣
جلاء العيون	عبد الله شبر	قم	-
جمهرة أنساب العرب	ابن حزم الأندلسي	بيروت	١٩٨٣
الحاج في الحرمين	الشيخ علي حيدر	الكويت	١٩٩٨
(الحوار) نشرة	تصدر عن حوزة أهل البيت النموذجية	دمشق	١٩٩٩
(الحياة) جريدة		بيروت	١٩٩٩
حياة الإمام الحسين	باقر شريف القرشي	بيروت	١٩٨٤
الخلافة الأموية	د. عبد الأمير دكسن	بيروت	١٩٧٣
الخوارج والشيعة	فلهوزن	بيروت	-
دائرة المعارف الحسينية	محمد صادق الكرباسي	لندن	١٩٩٨
دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدي	بيروت	.
دول الإسلام	الذهبي	بيروت	١٩٨٥
الدولة الأموية والمعارضة	د. إبراهيم بيضون	بيروت	١٩٨٥
الذريعة إلى تصانيف الشيعة	آقا بزرك الطهراني	بيروت	١٩٨٦

رجال ابن داود	ابن داود الحلي	النجف	١٩٧٢
رجال السيد بحر العلوم	بحر العلوم	طهران	١٤٠٥
رحلة ابن بطوطة	ابن بطوطة	بيروت	١٩٨٧
رموز خالدة في الحق والحرية	إبراهيم محمد خليفة	بيروت	١٩٨٨
زيد الشهيد	عبد الرزاق المقرم	قم	١٤١١
السبيل إلى إنهاض المسلمين	الإمام الشيرازي	بيروت	١٩٩٤
السرائر	ابن ادريس الحلي	طهران	١٣٩٠
سيد الشهداء الإمام أبو عبد الله الحسين	سيد مصطفى آل اعتماد	طهران	١٣٩٤
سيرة أعلام النبلاء	الذهبي	بيروت	١٩٩٧
شذرات الذهب	إبن العماد الحنبلي	بيروت	-
شرح شافية أبي فراس	من مصورات مكتبة الحكيم العامة	النجف	-
شرح علل الترمذي	أحمد بن رجب الحنبلي	بيروت	١٩٧٨
شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد المعتزلي	بيروت	١٩٦٥
الشيعة في الميزان	محمد جواد مغنية	بيروت	١٩٨٦
الضعفاء الكبير	إبن حماد العقيلي	بيروت	١٩٨٤
الطبقات الكبرى	إبن سعد	بيروت	١٩٨٥
طبيعة الدعوة العباسية	د. فاروق عمر	بيروت	١٩٧٠
عبد الله بن الزبير. العائذ ببيت الله الحرام	ماجد لحّام	دمشق	١٩٩٥
عبقرية عمر	عباس محمود العقاد	صيدا	-
العراق بين الماضي والحاضر والمستقبل	مؤسسة الدراسات الإسلامية	بيروت	-
عشر ثورات في الإسلام	د. علي الخربوطلي	بيروت	١٩٨٦
عصر المأمون	أحمد فريد الرفاعي	القاهرة	١٩٢٨
العقد الفريد	ابن عبد ربه الأندلسي	بيروت	١٩٨٦
عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام)	البحراني الأصفهاني	قم	١٤٠٧

عوامل النصر والهزيمة	شوقي أبو خليل	دمشق	١٩٨٧
عيون الأخبار	إبن قتيبة الدينوري	بيروت	-
الغارات	إبن هلال الثقفي	قم	١٤١٠
الغدير	العلامة الأميني	طهران	١٤٠٨
غصن الرسول	فؤاد علي رضا	بيروت	١٩٨١
الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية	عبد الله سلام	-	-
الفتوح	ابن الأعثم الكوفي	بيروت	-
الفقه	الإمام الشيرازي	بيروت	١٩٨٨
في رحاب أئمة أهل البيت	السيد محسن الأمين	بيروت	-
في رحاب محمد وأهل بيته	عبد الوهاب الكاشي	بيروت	١٩٨٢
في ظلال التشيع	محمد علي الحسني	الكويت	١٩٨٣
في ظلال الطف	الشيخ محمد مهدي الآصفي	بيروت	١٤١٦هـ
الكامل في التاريخ	إبن الأثير	بيروت	١٩٨٢
الكامل في اللغة والأدب	المبرد	بيروت	-
كمال الدين وتمام النعمة	الشيخ الصدوق	قم	١٤٠٥
الكوفة ـ نشأة المدينة العربية الإسلامية	هشام جعيط	بيروت	١٩٩٣
لسان العرب	إبن منظور	قم	١٤٠٥
لسان الميزان	إبن الحجر	بيروت	١٩٨٦
لماذا تأخر المسلمون	الإمام الشيرازي	بيروت	١٩٩٩
لموطأ	الإمام مالك	بيروت	١٩٨٨
مبادئ أصول الفقه	عبد الهادي الفضلي	قم	١٣٧٠
مجمع الرجال	القهبائي	قم	-
المحن	التميمي	بيروت	١٩٨٨
المختار الثقفي مرآة العصر الأموي	د. علي الخربوطلي	القاهرة	١٩٦٣

المختار ضمير وسط الظلام	-	-	-
المدخل إلى دراسة الأديان	العميد عبد الرزاق أسود	بيروت	١٩٨١
مروج الذهب	المسعودي	بيروت	-
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار	الصنعاني	صنعاء	١٩٨٥
مستدرك الوسائل	الميرزا النوري	بيروت	١٩٩١
مسند الإمام أحمد بن حنبل	الإمام أحمد بن حنبل	بيروت	-
مشاهد العترة الطاهرة	عبد الرزاق كمونة	بيروت	١٩٨٨
مصباح الشريعة	الإمام الصادق	بيروت	١٩٨٣
مع الحسين في نهضته	أسد حيدر	بيروت	١٣٩٤هـ
مع المختار الثقفي	سليم عبد الله	بيروت	١٩٩٦
المعارف	ابن قتيبة الدينوري	بيروت	١٩٧٠
معجم البلدان	ياقوت الحموي	بيروت	١٩٨٥
معجم رجال الحديث	الإمام الخوئي	بيروت	١٩٨٣
المفيد في ذكرى السبط الشهيد	العاملي	بيروت	١٩٨٤
مقاتل الطالبيين	أبو الفرج الأصفهاني	قم	١٤٠٥هـ
مقتل الحسين	الخوارزمي	قم	-
مقتل الحسين	إبن مخنف	قم	١٣٦٤
مقتل الحسين	عبد الرزاق المقرم	بيروت	١٩٧٩
الملل والنحل	الشهرستاني	بيروت	١٩٨٦
مناقب آل أبي طالب	ابن شهر آشوب	قم	-
المنتخب في جمع المراثي والخطب	الطريحي	بيروت	-
المنجد في اللغة	لويس معلوف	بيروت	-
الموسوعة السياسية	الكيالي	بيروت	١٩٨٥
موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام	معهد باقر العلوم	قم	١٩٩٥

نظريات الخليفتين	نجاح الطائي	بيروت	١٩٩٨
نهج البلاغة	الشريف الرضي	بيروت	١٩٨٠
(الواحة) مجلة	عدد (١٣) ربيع الأول ١٤١٩هـ.١٩٩٨	بيروت	-
وفيات الأعيان	إبن خلكان	قم	١٤٠٦
ينابيع المودة	القندوزي الحنفي	قم	١٤١٣

الفهـــرس